بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٥١) سورة الذاريات مكية وآياتها ستون

هذه السُّورة مكِّيَّة بإجماع من المفسرين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾
وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ
أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ
يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي
كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ
مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

أَقسم الله تعالى بهذه المخلوقات تنبيهاً عليها ، وتشريفاً لها ، ودلالة على الاعتبار فيها ، حتى يصير الناظر فيها إلى توحيد الله تعالى .

و «الذَّاريات» : الرِّياح ، بإجماع من المتأَولين ، يقال : ذرت الرِّيح وأَذرت بمعنى (١) ، وفي الرِّياح مُعتبرٌ من شدَّتها حيناً ولينها حيناً ، وكونها مرَّة رحمة ومرَّة عذاباً ، إلى غير ذلك ، و [ذَرْواً] نصب على المصدر .

و «الحاملات وِقْراً» قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : هي السحاب المُوقَرة بالماءِ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وغيره : هي السُّفن المُوقَرة بالناس ومتاعهم ، وقال جماعة من العلماءِ : هي أَيضاً – مع هذا – جميعُ الحيوان الحامل ، وفي جميع ذلك مُعْتبر ، و [وقْراً] مفعول صريح .

و «الجاريات يسراً» قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وغيره : هي السُّفن في البحر ، وقال آخرون : هي السَّحاب بالريح ، وقال آخرون : هي الجواري من الكواكب ، واللفظ يقتضي جميع هذا ، و [يُسْراً] نعت لمصدر محذوف ، وصفات المصادر المحذوفة تعود أَحوالًا ، و [يُسْراً] معناه : بسهولة وقلة تكلُّف .

و «ٱلْمُقَسِّمَات أَمْراً» : الملائكة ، و «الأَمْر» هنا اسم الجنس ، فكأَنه تعالى قال : والجماعات التي تقسِّم أَمر الملكوت من الأَرزاق

---

(١) ولكن قال الزجاج : يقال : ذَرَتْ فهي ذارية ، وأَذْرت فهي مُذْرية .

والآجال والخلق في الأَرحام وأَمر الرياح وغير ذلك ؛ لأَن كل هذا إنما هو بملائكة تخدمه ، فالآية تتضمن جميع الملائكة لأَنهم كلهم في أُمور مختلفة ، وأَنَّث «الْمُقَسِّمَات» من حيث أَراد الجماعات ، وقـال أَبو الطفيل عامـر بن واثلة (١) : كان عليٌّ رضي الله عنه على المنبر ، فقـال : لا تسأَلوني عن آية من كتـاب الله تعالى أَو سُنَّة ماضية إلَّا قلتُ ، فقام إليه ابن الكواءِ فسأَله عن هذه فقـال : الذَّاريات : الرِّياح ، والحاملات : السَّحاب ، والجاريات : السُّفن ، والمقسِّمات : الملائكة ، ثم قال له : سـلْ سؤال تعلُّم ولا تسأَل سـؤال تعنُّت (٢) .

---

(١) هو عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو بن جحش الليثي ، أبو الطفيل ، وربما سمّي عمراً ، ولد عام أُحد ، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عن أبي بكر فمَن بعده ، وعمِّر إلى أن مات سنة عشر ومائة على الصحيح ، وهو آخر من مات من الصحابة ، قال ذلك مُسْلم وغيره . (تقريب التهذيب) ، أما ابن الكواءِ فاسمه عبد الله .

(٢) ورُوي أن رجلا قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إني مررتُ برجل يسأل عن تفسير مشكل القرآن ــ وهذا الرجل اسمه صَبيغٌ على وزن أمير ــ فقال عمر : اللَّهم أمْكِنِّي منه ، فدخَلَ هذا الرجل يوماً على عمر وهو يلبس ثياباً وعمامة ، وكان عمر يقرأُ القرآن ، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال : يا أمير المؤمنين ، ما « الذّاريَاتِ ذَرْواً » ؟ فقام عمر فحسر عن ساعديه وجعل يجلده ، ثم قال : ألبسوه ثيابه ، واحملوه على قَتَب ، وابلغوا به حيَّه ، ثم لْيَقُمْ خطيب فليقل : إن « صَبيغاً » طلب العلم فأخطأه ، فلم يزل وضيعاً في قومه بعد أن كان سيِّداً فيهم .

وهذا القَسَم واقع على قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ ، و [تُوعَدُونَ] يحتمل أَن يكون من الإِيعاد ، ويحتمل أَن يكون من الوعد ، وأَيهما كان فالوصف له بالصدق صحيح ، و [صَادِقٌ] هنا موضوع بدل «صدْق» وضع الاسم موضع المصدر .

و «الدِّينُ» : الجزاءُ ، وقال مجاهد : الحسابُ ، والظاهر في الآية أَنها للكفَّار وأَنها وعيدٌ محضٌ بيوم القيامة .

ثم أَقسم الله تعالى بمخلوق آخر فقال : ﴿وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ ، فظاهر لفظة «السماءِ» أَنها لجميع السموات ، وقال عبد الله بن عمرو ابن العاص : هي السماءُ السابعة ، و [ٱلْحُبُكِ] - بضم الحاءِ والباءِ - الطرائق التي هي على نظام في الأَجرام ، فحُبُك الرِّمال والماءِ : الطرائق التي تصنع فيها الريح الهابَّةُ عليها ، ومنه قول زهير :

مُكَلَّلٌ بعَميمِ النَّبْت تَنْسجُـــهُ ريحٌ خَريقٌ لضاحي مَائه حُبُكُ (١)

---

(١) هذا البيت من قصيدة زهير التي قالها بعد أن أغار الحارث بن ورقاء الأسدي على بني عبد الله بن غطفان واستاق إبل زهير وراعيه يساراً ، فقال زهير القصيدة يطالبه بردِّ إبله وراعيه . ورواية الديوان والمحتسب : (مُكَلَّل بأُصول النَّبت) ، ويروى : (بأُصول النجم) كما في القرطبي والكشاف ، ورواية اللسان كرواية ابن عطية هنا . والبيت في وصف ماءٍ ظاهر على وجه الأرض قد اصطفت على حافته طيورٌ صغيرة بيضاء ، وزيَّنَه النباتُ الذي امتد على جوانبه كالأكاليل ، وتَنْسِجه: تضم بعضه إلى بعض ، فالريح تنسج الماءَ في هذا الوادي بمعنى أنها =

وحُبُك الدِّرع : الطرائق المتصلة في موضع اتصال الحلق بعضها ببعض ، وفي بعض أَجنحة الطير حُبُك على نحو هذا ، ويقال لتكسير الشَّعر : حُبُك ، وفي الحديث : (إن من ورائكم الكذّاب المُضِلُّ ، وإنَّ رأْسه من ورائه حُبُكاً حُبُكاً)(١) ، يعني جُعُودة شعره ، فهو تكسُّره ، ويظهر في المنسوجات من الأَكسية وغيرها طرائق في موضع تداخل الخيوط هُنَّ حُبُك ، ويقال : نسج الثوب فأَجاد حبكه ، فهذه من الحُبُك في اللغة ، وقال منذر بن سعيد : إن السماءَ في تأَلُّف جرمها هي هكذا لها حُبُك ، وذلك لجودة خلقتها وإتقان صنعتها ، ولذلك عبَّر ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ بأَن قال : حُبُكها : حُسْن خِلْقتها ، وقال ابن جبير : الحُبُك الزينة ، وقال الحسن : حُبُكها كواكبها ، وقال ابن زيد : الحُبُك الشدَّة ،

= تضرب وجهه فتجعل فيه طرائق بعد أن تضم بعضه إلى بعض ، والحريق: الشديدة ، وهي صفة للريح ، والضاحي : البارز للشمس ، والحُبُك : الطرائق ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، والمعنى أن هذا الماءَ الظاهر على وجه الأرض قد زيَّنته أكاليل النبات ومرت عليه الريح الشديدة فجمعت بعضه إلى بعض حتى أصبح طرائق من تكسُّره .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤–٢٠ ، ٥–٣٧٢) عن هشام بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن رأس الدَّجَّال من ورائه حُبُك حُبُك ، فمن قال : أنت ربِّي افتُتِن ، ومن قال : كذبتَ ، ربِّي الله عليه توكلت ، فلا يضره ، أو قال : فلا فتنة عليه) .

حُبكت : شُدَّت ، وقرأ : ﴿سَبْعاً شِدَاداً﴾ (١) ، وقال ابن جنِّي : الحُبُك طرائق الغَيْم ونحو هذا ، وواحد «الحُبُك» حَباك ، ويقال للضَّفيرة التي تُشَدُّ بها حظار القصب ونحوه – وهي مستطيلة تصنع في ترحيب الغراسات المصطفة – : حِبَاكُ ، وقد يكون واحد الحُبُك حبيكة ، وقال الرَّاجز :

كَأَنَّمَا جَلَّلَهَا الحَــــوَّاكُ طِنْفَسَةً في وَشْيِهَا حِبَاكُ (٢)

وقرأ جمهور الناس : [ٱلْحُبُك] بضم الحاءِ والباءِ ، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن ، وأَبو مالك الغفاري بضم الحاءِ وسكون الباءِ تخفيفاً ، وهي لغة بني تميم ، كرُسْل في رُسُل ، وهي قراءَة أَبي حيوة ، وأَبي السَّمال ، وقرأَ الحسن أَيضاً ، وأَبو مالك الغفاري : [ٱلْحِبِك] بكسر الحاءِ والباءِ على أَنها لغة كإِطِل وإِبِل ، وقرأَ الحسن أَيضاً : [ٱلْحِبْكُ]

---

(١) من الآية (١٢) من سورة (النبأ) .

(٢) يصف الرَّاجز ظهْر أتان من حـُمـُر الوحش بأن فيه خطوطاً وطرائق ، وجلَّلها : ألْبسها وكساها ، والحوَّاك : الذي يحوك الثياب أي ينسجها ، والطِّنْفَسَةُ : البساط أو النُّمرقة فوق الرحل ، والوشي : الزخرف والنقش ، والحِباك : الطريقة التي تحدثها الرياح في الرمال أو المياه ، وهي موضع الاستشهاد هنا ، يقول : كأن ظهر هذه الأتان بما فيه من نقوش وخطوط قد كساه الحائك الذي ينسج الثياب طنفسة موشاة فيها خطوط مستقيمة ذات ألوان متعددة . والبيتان في تفسير الطبري ومعهما بيت ثالث ، وكذلك استشهد بهما القرطبي .

بكسر الحاءِ وسكون الباءِ ، كما قالوا على جهة التخفيف : «إِبْلٌ» و «إِطْلٌ» بسكون الباءِ والطاءِ ، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما : [ٱلْحَبَك] بفتح الحاءِ والباءِ ، وقرأَ الحسن أَيضاً فيما رُوي عنه : [ٱلْحِبُك] بكسر الحاءِ وضم الباءِ ، وهي قراءَة شاذة غير متوجهة ، وكأَنه أَراد كسرهما ثم تَوَهَّمَ [ٱلْحُبُك] قراءَة الضم بعد أَن كسر الحاءَ فضم الباءَ ، وهذا على تداخل اللغات ، وليس في كلام العرب هذا البناءُ (١) ، وقرأَ عكرمة : [ٱلْحُبَك] بضم الحاءِ وفتح الباءِ جمع حُبْكة ، وهذه كلها لغات ، والمعنى ما ذكرناه ، والفرسُ المحبوك : الشديد الخِلْقة الذي له حُبَك في مَوَاضع من منابت شعره ، وذلك دليل على حسن بنيته (٢) .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ لَفِـي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ يحتمل أَن يكون خطاباً لجميع الناس ، مؤمن وكافر ، أَي : اختلفتم بأَن قال منكم فريق : آمنا بمحمد وكتابه ، وقال فريق آخر : كفرنا ، وهذا قول قتادة ، ويحتمل أَن يكون خطاباً للكفرة فقط ، أَي : أَنتم في جنس من الأَقوال مختلف في نفسه ، قوم منكم يقولون : ساحر ، وقوم

---

(١) يعني بناءَ (فِعُل) بكسر الفاءِ وضم العين ، وقال بعض العلماءِ : إن هذا ليس من تداخل اللغات ، وإنما هو تركيب من قراءتين ، فإن صحَّ الأخذ به فإنه لا يبدو بعيداً .

(٢) أي : هيئة البناء الذي قام عليه شكله ، وفي بعض النسخ : «على حُسْن مُنْبته» .

يقولون : كاهن ، وقوم يقولون : شاعر ، وقوم يقولون : مجنون ، إلى غير ذلك ، وهذا قول ابن زيد ، والضمير في [عَنْهُ] قال الحسن ، وقتادة : هو عائد على محمد صلى الله عليه وسلم ، أَو كتابه ، أَو شرعه ، و [يُؤْفَكُ] معناه : يُصرف ، فالمعنى : يُصرف من الكفار عن كتاب الله تعالى من صُرف ممن غلبت شقاوته ، وكان قتادة يقول : المأْفوك منَّا اليوم عن كتاب الله تعالى كثير ، ويحتمل أَن يعود الضمير على القول الذي يصرف بسببه من أَراد الإِسلام بأَن يقال : هو سحر ، هو كهانة ، وهذا قول حكاه الزهراوي ، ويحتمل أَن يعود الضمير في [عَنْهُ] على القول ، أَي : يصرف عنه بتوفيق الله تعالى إلى الإِسلام من غلبت سعادته ، وهذا على أَن يكون قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ للكفار فقط ، وهذا وجه حسن لا يُخل به إِلَّا أَن عرف الاستعمال في «أفك» إنما هو في الصرف من خير إلى شر ، وتأَمل ذلك تجدها أَبداً في المصروفين المذمومين ، وحكى أَبو عمرو عن قتادة أَنه قرأَ : ﴿مَنْ أَفَكَ﴾ بفتح الهمزة والفاء .

وقوله تعالى : ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّاصُونَ﴾ دعاءٌ عليهم ، كما تقول : قاتله الله ، أَو قتله الله ، وعَقْرَى حَلْقَى(١) ، وقال بعض المفسرين :

---

(١) يقال للمرأة : «عَقْرَى حَلْقَى» ، بمعنى : عَقَرَها الله وحَلَقَها ، أي : حلق شعرها أو أصابها بوجع في حلقها ، وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن صفية بنت =

معناه : لُعن الخراصون ، وهذا تفسير لا تعطيه اللفظة ، و «الخَرَّاصُ» : المُخَمِّن القائل بظنه وتقديره ، فَتَحْتَه الكاهن والمرتاب ونحوه ممَّن لا يقين له ، والإشارة إلى مُكَذِّبي محمد صلى الله عليه وسلم على كل جهة من طرقهم(١) . و «الغَمْرَةُ» ما يُغَشِّي الإنسان ويغطيه كغمرة الماء ، والمعنى : في غمرة من الجهالة ، و [سَاهُونَ] معناه : عن أنهم في غمرة وعن غير ذلك من وجوه النظر ، وقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ معناه : يقولون : متى يوم الدين ؟ على معنى التكذيب ، وجائز أَن يقترن بذلك من بعضهم هزوٌ وأَلَّا يقترن ، وقرأ السَّلَمي ، والأَعمش : [إِيَانَ] بكسر الهمزة وفتح الياءِ مخففة .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ ، قال الزجاج : نصب [يَوْمَ] على الظرف من مُقَدَّر تقديره : هو كائن يومَ هم على النار ،

= حُيَيٍّ رضي الله عنها حائض . فقال : (عَقْرَى حَلْقَى ، ما أُراها إلا حابستنا) ، قال أبو عبيد : هو : «عَقْراً حَلْقاً» بالتنوين ، والمحدِّثون يقولون : «عَقْرَى حَلْقَى» ، وأصل هذا ومعناه : عَقَرَها الله وحَلَقها ، أي أصابها بوجع في حلقها ، كما تقول : رأَسْتُه ، وبَطَنْتُه. (راجع اللسان ، ومجمع الأمثال والمستقصى في أمثال العرب) .

(١) قيل للكذّاب : خرّاصٌ لأن الخَرْص في الأصل هو حَزْرُ ما على النخل من الرطب تَمْراً ، أي تقدير ما عليها من البلح ، وهو قائم على الظن والتخمين ، والخَرّاصون جمع خارص ، ويقال : خَرَص واخْتَرَص ، وخَلَق واخْتَلَق ، وبَشَكَ وابْتَشَك ، وسَرَج واسْتَرَج ، ومانَ ، بمعنى : كَذَبَ .

أو نحو هذا ، وقال الخليل وسيبويه : نصبه على البناءِ لمَّا أُضيف إلى غير متمكن ، قال بعض النحاة : وهو في موضع رفع على البدل من ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ ، و [يُفْتَنُونَ] معناه : يحرقون ويعذبون في النار ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والجميع ، ومنه قيل لِلْحَرَّةِ : فَتينٌ ، كأَن الشمس أَحرقت حجارتها ، ومنه قول كعب بن مالك :

مَعَاطِنُ تَهْوِي إِلَيْهَا الْحُقُـو قُ يَحْسَبُهَا مَنْ رَآهَا الْفَتِينَا (١)

وفَتَنْتُ الذَّهبَ : أَحرقتُه ، ولما كان لا يُحْرَقُ إِلَّا لمعنى الاختبار قيل لكل اختبار : فِتْنَةٌ ، واستعملوا افْتُتِنَ بمعنى اخْتُبِرَ ، و [عَلَى] هنا موصلة إلى معنى «في» ، وفي قوله تعالى : ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ إضمار ،

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها كعب بن مالك في غزوة أُحد يفتخر ، وقبل هذا البيت يقول :

وَأَبْقَتْ لَنَا جَلَمَاتُ الْجُـــرُ بِ مِمَّنْ نُوَازِي لَدُنْ أَنْ بُرِينَا

وجَلَمَاتُ : من الجَلْم وهو القطع ، ونُوازي : نُسَاوي ، وبُرينا أصله بُرِئْنا بمعنى خُلقنا ، أما المعاطن فهي مبارك الإبل على الماء ، والحِقُّ هو من أولاد الإبل الذي بلغ أن يُركب ويُحمل عليه ويَضْرب الناقة ، وإن كان صاحب اللسان لم ينص على أن (الحقوق) تكون جمعاً له ، والفَتِينُ من الأرض : الحَرَّةُ التي قد أَلْبَسَتْها كلَّها حجارةٌ سودٌ كأنها مُحرقة ، ويقال للأمَة السوداء : مفتونة ؛ لأنها كالحَرَّة في السواد كأنها مُحترقة ، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا ، فالشاعر يشبه الجمال الرابضة في معاطنها بالحجارة السوداء التي حرقتها الشمس بلهيبها . ومثل هذا البيت قول الكميت :

ظَعَائِنُ مِنْ بَنِي الحُلاَّفِ تَأْوي إلى خُرُسٍ نَوَاطِقَ كالفَتِينَــــا

أي يقال لهم : ذوقوا حرقكم وعذابكم ، قاله قتادة وغيره ، والذوق استعارة ، و [هَذَا] إشارة إلى حرقهم ، واستعجالهم هو قولهم : ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ وغير ذلك من الآيات التي تقتضي استعجالهم على جهة التكذيب منهم .

ولما ذكر تعالى حال الكفرة وما يلقون من عذاب الله عزَّ وجلَّ عقب ذلك بذكر المتقين وما يلقون من النعيم ليبين الفرق ويتبع الناسُ طريق الهدى ، و «الجنات» و «العيون» معروف(١) ، والمتَّقي في الآية مطلق في اتِّقاءِ الكفر والمعاصي ، وقوله تعالى : [آخِذِينَ] نصب على الحال ، وقرأ ابن أَبي عبلة : [آخِذُونَ] بواو ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : آخذين في دنياهم ما آتاهم ربهم من أَوامره ونواهيه وفرائضه وشرعه ، فالحال على هذا محكية ، وهي متقدمة في الزمان على كونهم في جنات وعيون ، وقال جماعة من المفسرين : معنى قوله تعالى : ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي مخلصين لنعم الله تعالى التي أَعطاهم من جنَّته ورضوانه ، وهذه حال متصلة في المعنى لكونهم في الجنات ، وهذا التأْويل أَرجح عندي لاستقامة الكلام به ، وقوله تعالى : ﴿قَبْلَ ذَلِكَ﴾ يريد : في الدنيا ، [مُحْسِنِينَ] بالطاعة والعمل الصالح .

---

(١) هكذا في الأصول ، وكأنه يريد : أمْرهما معروف .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾
وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾
وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ
ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ
مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

معنى قوله تعالى : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ أَن نومهم كان قليــلًا لاشتغالهم بالصلاة والعبادة ، فالمــراد : من كل ليلة ، و « الهجــوع » : النوم ، وقال الأَحنف بن قيس : « لستُ من أَهل هذه الآية » ، وهذا إنصـــاف منه ، وقيل لبعض التابعين : مدح الله تعالى قوماً كانوا قليــلًا من الليل ما يهجعــون ، ونحن قليل من الليل ما نقــوم ، فقال : رحم الله تعالى امرأً رقد إذا نعس ، وأَطاع ربه إذا استيقــظ . وفسَّر أَنَسُ بن مالك هذه الآية بأَنهم كانوا يتنفَّلون بين المغــرب والعشاءِ ، وقــال الرَّبيع بن خُثَيْم : المعنى : كانوا يصيبــون من الليل حظًّا ،

وقال مُطَرِّف بن عبد الله : قلَّ ليلة أتت عليهم هجعــوها كلها ، وقال ابن أَبي نُجَيْح ومجــاهد : فالمراد عند هؤلاء بقوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلَّيْلِ﴾ أَي من اللَّيــالي ، وظاهر الآية عندي أنهم كانوا يقومون الأَكثر من ليلهم ، أَي من كلِّ ليلة ، وقد قــال الحسن في تفسير هذه الآية : كابدوا قيــام الليــل ، لا ينــامون منه إلَّا قليـــلًا .

وأَمَّا إعرابُ الآية فقال الضحاك في كتــاب الطبري ما يقتضي أَن المعنى : كانوا قليلًا في عددهم ، وتم خبر [كَانَ] ، ثم ابتــدأَ ﴿مِنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُــونَ﴾ ، ف [مَا] نافية ، و [قَلِيــلًا] وقف حسن . وقال بعض النحاة : [مَا] زائدة ، و [قَلِيلًا] مفعول مقدم لـ [يَهْجَعُونَ] ، وقال جمهور النحــويين : [مَا] مصدرية ، و [قَلِيلًا] خبر [كَانَ] ، والمعنى : كانوا قليــلًا من الليل هجوعهم ، و « الهجوع » مرتفع ب [قَلِيــلًا] على أنه فاعل ، وعلى هذا الإعــراب يجيءُ قول الحسن وغيره – وهو الظاهر عندي – أَن المراد : كان هجــوعهم من الليل قليلًا ، وفسَّر ابن عمر والضحــاك [يَسْتَغْفِرُونَ] ب « يُصَلُّونَ » ، وقال الحسن : معناه : يدعــون في طلب المغفرة ، والأَسحار مظنَّة الاستغفــار ، ويُروى أَن أَبوابَ

الجنَّة تفتح فجر كل يوم ، وفي قصة يعقوب عليه السلام في قوله : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ (١) أنه أَخَّر الاستغفار لهم إلى السَّحر ، قال أبو زيد في كتاب الطبري : السَّحَرُ السدسُ الأَخير من اللَّيل .

قوله تعالى : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ ، الصحيح أنها محكمة ، وأن هذا الحق هو على وجه الندب لا على وجه الفرض ، و [مَعْلُومٌ] (٢) يراد به : متعارف ، وكذلك قيام الليل الذي مدح به ليس من الفرائض ، وأكثر ما تقع الفضيلة بفعل المندوبات . وقال منذر بن سعيد : هي الزكاة المفروضة ، وهذا ضعيف لأَن السُّورة مكيَّة وفرض الزكاة بالمدينة ، وقال قوم من المتأَولين : كان هذا ثم نسخ بالزكاة ، وهذا غير قوي ، وما شَرَّع الله تعالى وجلَّ بمكة قبل الهجرة شيئاً من أَخذ الأَموال .

واختلف الناس في [ٱلْمَحْرُومِ] اختلافاً هو عندي تخليط من المتأَخرين ؛ إذ المعنى واحد ، وإنما عبَّر علماءُ السلف في ذلك

---

(١) من الآية (٩٨) من سورة (يوسف) .

(٢) لم ترد كلمة [مَعْلوم] في هذه الآية ، ولكنه يشير إلى ما ورد في الآيتين (٢٤ ، ٢٥) من سورة (المعارج) ، فقد قال الله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ .

العبارات على جهة المثلات فجعلها المتأخرون أقوالًا ، وحصرها مكي في ثمانية ، و «المحروم» هو الذي تبعد عنه ممكنات الرزق بعد قربها منه فيناله حرمان وفاقة ، وهو مع ذلك لا يسأَل ، فهذا هو الذي له حق في أموال الأغنياء كما للسائل حق ، قال الشعبي : أعياني أن أعلم ما «المحروم» ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المحروم : المحاربُ الذي ليس له في الإسلام سهم مال ، فهو ذو الحرفة المحدود ، وقال أبو قُلابة : جاءَ سيل باليمامة فذهب بمال رجل ، فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا المحروم ، وقال ابن زيد : هو الذي أُصيبت ثمرته ، وقال غيره : هو الذي ماتت ماشيته ، وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : هو الكلب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد يكون الكلب محروماً في بعض الأوقات والحالات ، ألا ترى إلى الذي كان يأْكل الثرى من العطش ... الحديث(١) ؛ إلى غير هذا

---

(١) يشير إلى الحديث المعروف الذي أخرجه البخاري في الشرب والمظالم والأدب ، ومسلم في السلام ، وأبو داود في الجهاد ، ومالك في صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحمد في مسنده (٢–٣٧٥) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بينما رجل يمشي وهو بطريق إذ اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثّرى من العطش . فقال : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل =

من الأَقوال التي إنما ذكرت مثالًا ، كأَنه يقول : الذي أُصيبت ثمرته من المحرومين ، والمعنى الجامع لهذه الأَقوال أَنه الذي لا مال له لحرمان أَصابه ، وإِلَّا فالذي تصاب ثمرته وله مالٌ غيرها كثير ليس في هذه الآية بإجماع .

وبعد هذا مقدَّر من الكلام تقديره : فكونوا مثلهم أَيها الناس وعلى طريقهم فإن النظر المؤدي إلى ذلك متجه ، ففي الأَرض آيات لمن اعتبر وأَيقن ، وهذه إِشارة إلى لطائف الحكمة وعجائب الخلقة التي في الأَرضين والجبال والمعادن والعيون وغير ذلك ، وقرأَ قتادة : [آيَةٌ] على الإفراد .

وقوله تعالى : ﴿وَفِـي أَنْفُسِكُمْ﴾ إحالة على النظر في شخص الإنسان ، فإنه أَكثر المخلوقات التي لدينا عبرة لما جعل الله تبارك وتعالى فيه – مع كونه من تراب – من لطائف الحواس ، ومن أَمر النفس وحياتها ونطقها ، واتصال هذا الجزء منها بالعقل ، ومن هيئة الأَعضاء واستعدادها لتنفع أَو تحمل أَو تعين ، قال ابن زيد : إنما القلب

= الذي بلغني ، فنزل البئر فملأ خفه ماءً ثم أمسكه بفيه حتى رقي به فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له) ، قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا في البهائم لأجراً ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (في كل ذات كبد رطبة أجر) .

مضغة في جوف ابن آدم جعل الله فيه العقل ، أَفَيدري أَحدٌ ما ذاك العقل ؟ وما صفته ؟ وكيف هو ؟ وقال الرُّمّاني : النفس خاصة الشيءِ الذي لو بطل كل ما سواها مما ليست مضمنة به لم تبطل ، وهذا تعمُّق لا أَحمده . وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ توقيف وتوبيخ .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ ، قال الضحاك ، ومجاهد ، وابن جبير : أَراد تعالى المطر والثلج ، وقال واصل الأَحدب ، ومجاهد : أَراد القضاءَ والقدر ، أَي : الرزق عند الله تعالى يأْتي به كيف شاءَ ، لا ربَّ غيره ، وقرأَ ابن محيصن : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَاءِ رَازِقُكُمْ ﴾ . و [تُوعَدُونَ] يحتمل أَن يكون من الوعد ، ويحتمل أَن يكون من الوعيد ، والكلُّ في السماءِ ، قال الضحاك : المراد : من الجنة والنار ، وقال مجاهد : من الخير والشر ، وقال ابن سيرين : المراد الساعة ، ثم أَقسم تعالى بنفسه على صحة هذا القول والخبر ، وشبَّهه في اليقين به بالنطق من الإنسان ، وهو عنده في غاية الوضوح ولا يمكن أَن يقع فيه من اللَّبْس ما يقع في الرُّؤْية والسمع ، بل النُّطق أَشد تخلُّصاً من هذه . واختلف القراءُ في قوله تعالى : ﴿ مِثْلَ مَا ﴾ ـ فقرأَ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ : [مِثْلُ] بالرَّفع ، ورويت عن الحسن ، وابن أَبي إسحق ، والأَعمش ـ بخلاف عنهم ـ ،

وقرأ نافع ، وأَبو عمرو ، وابن كثير ، وابن عامر ، وأَبو جعفـر ، وأَهل المدينة ، وجلُّ النـاس : [مثْلَ] بالنصب ، فوَجْه الأُولى الرفع على النعت لـ [حَقٌّ] ، وجاز نعت النكرة بهذا الذي قد أُضيف إلى المعرفة من حيث كان [مِثل] شائعاً عامًّا لوجـوه كثيرة ، فهو لا تُعرِّفه الإِضافة إلى معرفة ؛ لأَنك إذا قلت : «رأَيْتُ مثلَ زيد» فلم تُعرِّف شيئاً لأَن وجوه المماثلة كثيرة ، فلما بقي الشياع جرى عليه حكم النكرة فَنُعتت به النكرة ، و [مَا] زائدة تعطي تـأْكيداً ، وإضافة [مِثْلُ] هي إلى قوله تعالى : [أَنَّكُمْ] . ووجه قراءَة النصب أَحد ثلاثة أَوجه : إمَّا أَن يكون [مثْلَ] قد بُني لَمَّا أُضيف إلى غير متمكن وهو في موضع رفع على الصفة لـ [حَقٌّ] ، ولحقه البناءُ لأَن المضـاف إليه قـد يُكْسبُ المضـافَ بعض صفـاته كالتـأْنيث في قولـه :

. . . . .شَرقَتْ صَدْرُ القَنَاة. . .(١)

---

(١) هذه الجملة جزءٌ من بيت قاله الأعشى ميمون بن قيس ، ويسمَّى صنَّاجة العرب ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، والبيت من الطويل ، وهو بتمامه :

وَتَشْرَقُ بالْقَوْلِ الَّذي قَدْ أَذَعْتُـــهُ كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الـــدَّمِ

ومعنى أَذَعْتُه : أَفْشَيْتُه وأَعْلَنْتُه ، والقناة : الرمح ، وشَرِقَ بريقه إذا غَصَّ وهو من باب عَلِمَ يَعْلَمُ ، وقد استشهد به المؤلف على أن المضاف إليه قد يُكسب المضاف بعض =

وكالتعريف في «غلام زيد» إلى غير ذلك ، ويجرى [مِثْلَ] حينئذ مجرى ﴿عَذَابِ يَوْمَئِذٍ﴾(١) على قراءة من فتح الميم ، ومنه قول الشــاعر :

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا ....(٢)

= صفاته كالتأنيث ، فالقناة مؤنث ، وصَدْر مذكَّر ، ولكن لما أُضيف إلى القناة اكتسب منها التأنيث ولهذا أنث الفعل «شَرِقَ» فلحقت به تاءُ التأنيث فقيل : «شرقت» ، والقياس أن يقال : «شَرِقَ صَدْرُ» . ومثل هذا كثير في اللغة .

(١) من قوله تعالى في الآية (١١) من سورة (المعارج) : ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ في قراءة نصب الميم ، ومعنى هذا أنها مبنية على الفتح لأنها مضافة إلى مبني ، قال الخليل في كتاب سيبويه تعليلا لنصب الذي في موضع الرفع : «هذا كنصب بعضهم «يَوْمَئِذٍ» في كل موضع ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَٱلَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ﴾ .

(٢) هذا صدر بيت للنابغة الذبياني ، والبيت بتمامه :

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا وقُلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ ؟

وهو في الديوان ، وابن الشجري ، والإنصاف ، وشرح شواهد المغني ، وابن يعيش ، والمنصف ، وخزانة الأدب ، والهمع ، وشرح شواهد العيني . والوازع : الزاجر الناهي ، وقد أسند الوَزْع إلى الشيب تجوزاً ، يقول : إنه بكى على الديار في وقت مشيبه ومعاتبته لنفسه على هذا الضرب ، أي : عاتبت نفسي على الصبا لمكان شيبتي . والشاهد في «حينَ» لأنه بُنِيَ على الفتح لإضافته إلى فعل بناؤه لازم وهو زمان مبهم ، فهو ظرف ، والمعنى : في وقتٍ عاتبتُ ، كقوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ﴾ أي : في وقت غفلة . قال النحويون : ويجوز كَسره للإعراب ، ولكن المختار والأرجح بناؤه إذا تلاه فعلٌ مبني للتناسب بينهما ، قال سيبويه: =

ومنه قول الآخر :

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ هَتَفَتْ . . . . (١)

ف «غَيْرَ» فاعلة ولكنه فتحها .

والوجه الثاني – وهو قول المازني – أن [مِثْلَ] بُني لكونه مع [مَا] شيئاً واحداً ، ويجيءُ – على هذا – في مضمار : «وَيْحَمَا ، وأَيْنَمَا ، وابْنَمَا» ،

= «كأنه جعل (حينَ) و (عاتبت) شيئاً واحداً» ، ومثله قول الشاعر :

لأجْتَذِبَنَّ مِنْهُنَّ قَلْبِي تَحَلُّمـاً عَلَى حِينَ يَسْتَصْبِينَ كُلَّ حَلِيمِ

إلاّ أن بناءَ الفعل في البيت الأول لازم ، وفي البيت الثاني عارض .

(١) هذا صدر بيت ، وهو بتمامه :

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ هَتَفَتْ حَمَامَةٌ في غُصُونٍ ذَاتِ أَوْقَـــالِ

وهذا البيت مختلف في نسبته – فقيل : هو لأبي قيس بن الأسلت «صيفي بن عامر» ، وقيل : لقيس بن رفاعة ، وقيل : للشَّمَّاخ «معقل بن ضرار» ، وليس في ديوانه ، وهو في خزانة الأدب ، واللسان – وكتاب سيبويه ، ومغني اللبيب ، وانظر أيضاً ابن يعيش ، والتصريح ، وابن الشجري ، والهمع . والضمير في «منها» يعود على الوجناء وهي الناقة في بيت قبله ، وفي البيت قَلْب ، إذ أصل الكلام : «لم يمنعها من الشُّرْبِ» فقال بعد القلب : «لم يمنع الشرب منها» ، ويروى «نطقت» بدلا من «هتفت» ، ويروى : «في سَحُوق» بدلاً من «غصون» ، والسَّحوق : ما طال من شجر الدوم ، والأوقال : جمع وَقْل ، والوَقْل ثمار شجر الدوم كما قال في اللسان ، والشاهد في البيت هنا أن «غَيْرَ» فاعل ولكنها رويت بفتح الراء ، ومعنى هذا أنها مبنية على الفتح لأنها مضافة إلى مبني غير متمكن ، ومعنى البيت أن هذه الناقة أرادت الشرب ولكن منعها منه أنها سمعت صوت حمامة في الغصون فنفرت وخافت ، يصفها بأنها حديدة النفس ، شديدة الحذر ، دائمة الفزع .

ومنه قول حُمَيْد بن ثور :

أَلَا هَيَّمَا مِمَّا لَقِيتُ وَهَيَّمَا وَوَيْحٌ لِمَنْ لَمْ يَدْرِ ماهُنَّ وَيْحَمَا(١)

فلولا البناءُ وجب أن يكون منوناً ، وكذلك قول الشاعر :

. . . . فَأَكْرِمْ بِنَا خالًا وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا (٢)

---

(١) هذا البيت في اللسان ، و « هَيَّ » كلمة معناها التأسف والأسى ، وقيل : التعجب ، و « ما » في موضع رفع زائدة ، قال ابن بَرِّي : ومنه قول حُمَيْد الأرقط : ألا هَيَّما ... البيت ، وقال الكسائي : « ومن العرب من يتعجب بِهَيَّ وفَيَّ وشَيَّ ، ومنهم من يزيد « ما » فيقول : يا هَيَّما ويا فَيَّما ويا شَيَّما ، أي : ما أحسن هذا » ، وقيل : بل هو تلهُّف ، و « وَيْحَ » كلمة تقال رحمة ، وكذلك « وَيْحَما » ، قال الليث : « وَيْحَ كلمة رحمة لمن تنزل به بليَّة ، وربما جعلت مع « ما » كلمة واحدة فقيل : وَيْحَمَا » ، ومعنى هذا أن [مِثْلَ] في الآية ركبت مع [مَا] في كلمة واحدة كما جعلت « ويح » مع « ما » في البيت .

(٢) هذا عجز بيت قاله حسَّان بن ثابت من قصيدة له في الفخر مطلعها :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبْعَ الجَدِيدَ التَّكَلُّمَا بِمَدْفعِ أَشْداخٍ فَبُرْقَةَ أَظْلَمَا

والبيت بتمامه :

وَلَدْنَا بَنِي العَنْقَاءِ وابْنَيْ مُحَرِّق فَأَكْرِمْ بِنَا خالاً وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا

وقد ورد الشطر الثاني في الأصول : « فَأَكْرِمْ بِهَا أُمّاً وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمَا » ، والتصويب عن الديوان واللسان . والعنقاءُ : ثعلبة بن عمرو مُزَيْقياء بن عامر بن ماءِ السماءِ ، ومُحَرِّق هو الحارث بن عمرو مزيقياء ، وكان أول من عاقب بالنار ، وقال الكلبي : سمِّي عمرو بن هند مُحَرِّقاً لأن سويد بن ربيعة التميمي قتل أخاً له ثم هرب ، فقتل ابن هند سبعة من ولد سويد ، وأقسم ليقتلن مائة من بني تميم ، فبلغ ثمانية وتسعين أحرقهم بالنار ، وصادف أن =

والوجه الثالث أَن ينصب [مِثْلَ] على الحال من قوله تعالى: [لَحَقٌّ]، وهي حال من نكرة، وفيه خلاف، ولكن جوَّز ذلك الجرميُّ، وأَما غيره فيراه حالًا من الذِّكر(١) المرفوع في قوله تعالى: [لَحَقٌّ]؛ لأَن التقدير: لَحَقٌّ هو، وفي هذا نظر، و «النطق» في هذه الآية: الكلام بالحروف والأَصوات في ترتيب المعاني، ورُوي أَن بعض العرب الفصحاءِ سمع هذه الآية فقال: من أَحوج الكريمَ إِلى أَن يحلف؟ والحكاية وقعت في كتاب الثعلبي و «سبل الخيرات» متممة عن الأَصمعي، وروي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قاتل الله قوماً أَقسم لهم ربهم بنفسه فلم يصدقوه)(٢)، وروى أَبو سعيد الخدري أَن النبي عليه

= أقبل رجل من البراجم حين رأى الدخان ساطعاً وهو يحسب الطعام يُعمل ـ والبراجم جماعة من بني تميم تحالفوا وقالوا: نكون كبراجم اليد، أي مفاصلها ـ فلما دنا الرجل من النار قيل له: مِمَّن أنت؟ قال: من البراجم، فقال ابن هند: «إنَّ الشَّقي وافد البراجم» وألقاه في النار، فذهب قوله مثلا، وتحلل من يمينه بالحمراء بنت ضمرة النهشلية تتمة المائة. أما «ابْنَمَا» فهي «ابن» زيدت عليها الميم كما زيدت في (شدْقم وزُرْقم وشَجْعم) لنوع من الحيات، ويجوز عند إعراب «ابْنَم» أن تعرب الميم وحدها لأنها صارت آخر الاسم، وتبقى النون مفتوحة على كل حال، ومنهم من يُعربه من مكانَيْن، أي يجعل علامة الإعراب على النون والميم، وابن عطية يستشهد بالبيت لأن «ابن» بُنِيَت مع «ما» فصارتا معاً كلمة واحدة، وجاءت «ابن» مفتوحة على الرأي الأول الذي ذكرناه في الإعراب.

(١) يعني: من ضمير الذِّكر، والذِّكر هو القرآن، إذ تقدير الكلام: إن الذِّكر لَحَقٌّ.

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية. (الدر المنثور).

الصلاة والسلام قال : (لو فَرَّ أحدكم من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت)(١) ، وأَحاديث الرزق والأَشعار فيه كثيرة .

قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ تقرير لتجتمع نفس المخاطب ، وهذا كما تبدأُ المرءَ إِذا أَردتَ أَن تحدثه بعجيب فَتُقَرِّره : هل سمع ذلك أَم لا ؟ فكأَنك تقتضي منه أَن يقول : لا ، ويستطعمك الحديث (٢). و [ضَيْفِ] اسم جنس يقع للجميع وللواحد ، وروي أَن أَضياف إِبراهيم عليه السلام هؤلاءِ هم جبريل وميكائيل وإِسرافيل وأَتباع لهم من الملائكة عليهم السلام ، وجعلهم تعالى مكرمين إِمَّا لأَنهم عنده كذلك ، وهذا قول الحسن ، وإِمَّا من حيث أَكرمهم إِبراهيم عليه السلام وخدمهم هو وسارة وذبح لهم العجل ، وقيل : من حيث رفع مجالسهم . و [سَلَاماً] منصوب على المصدر ، كأَنهم قالوا : نُسَلِّم سلاماً ، أَو سلمت سلاماً(٣) ، ويتجه أَن يعمل فيه [قَالُوا] على أَن

---

(١) قال القرطبي بعد أن ذكر هذا الحديث : « أسنده الثعلبي » .

(٢) اسْتَطْعَم فلاناً الحديث : طلب منه أن يحدثه فيذيقه طعم حديثه . (المعجم الوسيط) ، وفي قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ تفخيم لحديث ضيف إبراهيم ، وتنبيه على أنه لم يكن معروفاً للنبي صلى الله عليه وسلم وإنما عرفه بالوحي .

(٣) فهو المصدر السادُّ مسَدَّ الفعل المستغني به .

يجعل [سلَاماً] بمنزلة «قولًا» ، ويكون المعنى حينئذ أنهم قالوا تحية وقولًا معناه سلاماً ، وهذا قول مجاهد ، و [سَلَامٌ] مرتفع على خبر ابتداءٍ ، أي أمري سلام ، أَوْ واجب لكم سلام ، أَو على الابتداءِ والخبر محذوف كأَنه قال : سلام عليكم ، وإبراهيم عليه السلام قد حيَّا بأَحسن ؛ لأَن قولهم دعاءٌ وقوله واجب قد تحصَّل لهم . وقرأَ ابن وثاب ، والنَّخَعي ، وحمزة ، والكسائي ، وطلحة ، وابن جبير : ﴿قَالَ سِلْمٌ﴾ بكسر السين وسكون اللام ، والمعنى : نحن سلام ، أَو أَنتم سلام ، وقوله تعالى : ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ معناه : لا نميزهم ولا عهد لنا بهم ، وهذا أَيضاً على تقدير : أَنتم قوم منكرون ، وقال أَبو العالية : أَنكر سلامهم في تلك الأَرض وذلك الزمن .

و «راغ» معناه : مضى أَثناءَ حديثه مخفياً زواله وانصرف مستعجلًا كأَنه لم يُرد أَن يفارقهم فمضى إِلى ناحية من داره مستعجلًا ورجع لحينه ، وهذا تشبيه بالروغان المعروف ؛ لأَن الرائغ يوهم أَنه لم يزل ، و «العِجْلُ» هو الذي حَنَذَه لهم(١) ، وحسبك أَنه عليه السلام أَوقف للضيافة أَوقافاً تُمضيها الأُمم على اختلاف أَديانها وأَجناسها .

---

(١) كما قال الله تعالى في سورة هود : ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ ، والحنيذ : المشوي ، أو الذي يقطر دهنه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ
وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ
عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾
* قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ
﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

المعنى : فَقَرَّبَه إليهم فأمسكوا عنه فقال : ألا تأْكلون ؟ فيروى في الحديث أَنهم قالوا له : إِنَّا لا نأْكل إلَّا ما أَدَّينا ثَمَنه ، فقال لهم إبراهيم عليه السلام : وأَنا لا أُبيحه لكم إلَّا بثمن ، قالوا : وما هو ؟ قال : أَن تسمُّوا الله تعالى عند الابتداءِ ، وتحمدوه عند الفراغ من الأَكل ، فقال بعضهم لبعض : بحق اتخذه الله تعالى خليلا ، فلما استمروا على ترك الأَكل أَوْجَس منهم خيفة ، و « الوَجْسُ » : تَحسُّسُ النفس وخواطرها في الحذر ، وذلك أَن أَكْل الضيف أَمَنة

ودليل على انبساط نفسه ، والطعام حُرْمة وذمامٌ ، والامتناع عن ذلك وحشة ، فخشي إبراهيم عليه السلام أن امتناعهم من أكل طعامه إنما هو لشرٍّ يريدونه ، فقالوا له : لا تخف ، وعرَّفوه أنهم ملائكة ، وبشَّروه وبشَّروا سارة معه بغلام عليم ، أي عالم في حال تكليفه وتحصيله ، أي سيكون عليماً ، و «عليم» بناءُ مبالغة . وجمهور الناس على أن الغلام هنا هو إسحق بن سارة عليه السلام الذي ذكرت البشارة به في غير موضع ، وقال مجاهد : هذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام ، والأول أرجح ، وهذا وَهْمٌ ، ويروى أنه عرف كونهم ملائكة استدلالاً من بشارتهم إياه بالغيب .

وقوله تعالى : ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ﴾ يحتمل أن يكون : قَرُبَتْ إليهم من ناحية من نواحي المنزل ، ويحتمل أن يكون هذا الإقبال كما تقول : أقبل فلان يشتمني أو يفعل كذا إذا جدَّ في ذلك وتلبَّس به ، و «الصَّرَّةُ» : الصَّيْحة ، كذا فسَّره ابن عباس ، ومجاهد ، وسفيان ، والضحاك ، والمضطر الذي يصيح ، وقال قتادة : معناه : في رنَّة ، وقال الطبري : قال بعضهم : قالت : أَوَّه[١] ، بصياح وتعجُّب ، وقال النحاس : وقيل : ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ : في جماعة نسوة يتبادرن نظراً إلى الملائكة . وقوله تعالى : ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ معناه : ضربت وجهها ،

(١) مقصورة الألف ، كما قال الطبريُّ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لطمت ، وهذا مما يفعله الذي يَرِدُ عليه أَمر يستهوله ، وقال سفيان ، والسدي ، ومجاهد : ضربت بكفَّيْها وجهها ، وهذا مستعمل في الناس حتى الآن ، وقولها : ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ إما أَن يكون تقديره : إني عجوز عقيم فكيف أَلِدُ؟ وإمَّا أَن يكون التقدير : عجوزٌ عقيمٌ يكون منها ولادة ؟ وقدّره الطبري : أَتَلد عجوز عقيم ، ويروى أَنها كانت لم تلد قط ، و «العقيم» من النساءِ التي لا تلد ، ومن الرياح التي لا تلقح شجراً فهي لا بركة فيها . وقولهم : ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أَي كقولنا الذي أَخبرناك به قال ربك أَن يكون ، و «الحكيم» ذو الحكمة ، و «العليم» معناه : بالمصالح وغير ذلك من المعلومات .

ثم قال إبراهيم عليه السلام للملائكة : ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ ، والخَطْبُ: الأَمر المُبْهم ، وقيل : إنما يُعبَّر به عن الشدائد والمكاره غالباً حتى قالوا : «خطوب الزَّمان» وغير ذلك ، وكأَنه يقول : ما هذه الطَّامة التي جئتم لها ؟ فأَخبروه حينئذ أَنهم أُرسلوا إلى سدوم قرية لوط عليه السلام بإِهلاك أَهلها الكفرة العاصين المجرمين ، و «المجرم» : فاعل الجرائم وهي صفات المعاصي من كفر ونحوه ، واحدتها جريمة . وقولهم ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ أَي : لنهلكهم بهذه الحجارة ،

ومتى اتصلت «أَرسل» بـ «عَلَى» فهي في معنى المبالغة في المباشرة والعذاب ، ومتى اتصلت بـ «إلى» فهي أَخف ، وانظر ذلك تجده مطرداً ، وقوله تعالى : ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ بيان تخرج به عن معتاد حجارة البَرَد التي هي من ماءٍ ، ويُروى أنه طين طُبخ في نار جهنم حتى صار حجارة كالآجُرِّ ، و [مُسَوَّمَةً] نعت لـ [حِجَارَةً] ، وقيل : معناه : متروكة وسومها من الإهلاك والإصابة ، وقيل : معناه : معلَّمة بعلامتها من السماءِ ، والسُّومى(١) : العلامة ، أي أَنها ليست من حجارة الدنيا ، وقال الزهراوي والرُّمَّاني : قيل : معناه على كل حجر اسم المضروب به ، قال الرُّمَّاني : وقيل : كان عليها أَمثال الخواتيم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : تسويمها أَن كان في الحجارة السود نقط بيض ، وفي البيض سودٌ ، ويحتمل أَن يكون المعنى أَنها بجملتها معلومة عند ربك لهذا المعنى معلمة له ، لا أَن كل واحد منها له علامة خاصة به ، و «المُسْرِف» : الذي يتعدى الطور ، فإِذا جاءَ مطلقاً فهو لأَبعد غايات الكفر فما دونه .

---

(١) جاء في اللسان : «والسُّومَةُ والسِّيمة والسِّيماءُ والسِّيْمياءُ : العلامة» . ثم جاء : «والأصل في سِيمَا وسِمَى ، فحولت الواو من موضع الفاءِ فوضعت في موضع العين ، كما قالوا : ما أطيبه وأيطبه ، فصار سِوْمَى ، وجعلت الواو ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها» .

ثم أخبر الله تعالى أنه أخرج بأمره من كان في قرية قوم لوط من المؤمنين منجياً لهم ، وأعاد الضمير على القرية ولم يصرح لها قبل ذلك بذكر لشهرة أمرها ، ولأن القوم المجرمين معلوم أنهم في قرية ولابد ، قال المفسرون : ولا فرق بين تقدم ذكر المؤمنين وتأخره ، وإنما هما وصفان ، ذكرهم[1] أولًا بأحدهما ثم آخراً بالثاني ، قال الرُّمَّاني : الآية دالة على أن الإيمان هو الإسلام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويظهر أن في المعنى زيادة تحسِّن التقديم للإيمان ، وذلك أنه ذكره مع الإخراج من القرية كأنه تعالى يقول : لقد أمرنا بإخراج كل مؤمن ، ولا يشترط فيه أن يكون عاملا بالطاعات بل التصديق بالله تعالى فقط ، ثم لما ذكر حال الموجودين ذكرهم بالصفة التي كانوا عليها وهي الكاملة التصديق والأعمال . والبيت من المسلمين هو بيت لوط عليه السلام وكان هو وابنتاه ، وقيل : وبنته ، وفي كتاب الثعلبي : وقيل : لوطٌ وأهلُ بيته ثلاثة عشر ، وهلكت امرأته فيمن هلك . وهذه القصة بجملتها ذكرت على جهة المثال لقريش ، أي أنهم إذا كفروا أصابهم مثل ما أصاب هؤلاء المذكورين .

---

(١) الضمير في « ذكَرَهُم » يعود على الموصوفين بالإيمان وبالإسلام .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) ﴾

المعنى : وتركنا في القرية المذكورة ـ وهي سدوم ـ أثراً من العذاب باقياً مؤرخاً لا يفنى ذكره ، فهو آيةٌ ـ أي علامة ـ على قدرة الله تبارك وتعالى وانتقامه من الكفرة ، ويحتمل أن يكون المعنى : وتركنا في أمرها ، كما قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ (١) ، وقال ابن جريج : ترك فيها حجراً منضوداً كبيراً جدًّا ، و « الَّذين يخافون العذاب » هم العارفون بالله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَى ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على قوله تعالى : [فِيهَا] ، أي : وتركنا في موسى وقصته أثراً أيضاً هو آية ،

(١) الآية (٧) من سورة (يوسف) .

ويحتمل أَن يكون عطفاً على قوله تعالى قبل : ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ ، وفرعون هو صاحب مصر ، و « السُّلْطَان » في هذه الآية : الحجة ، و« تَوَلَّى » معناه أَعرض وأَدبر عن أَمر الله تعالى ، و « رُكْنُهُ » : سلطَانُه وجندُه وشدَّة أَمره ، وهو الأَمر الذي يركن فرعون إليه ويستند في شدائده ، وقال ابن زيد : [بِرُكْنِهِ] : بجُمُوعه ، وقال قتادة : بقومه ، وقَوْلُ فرعون في موسى عليه السلام : « سَاحِرٌ أَو مَجْنُونٌ » هو تقسيم ظنَّ أَن موسى عليه السلام لابُدَّ أَن يكون أَحد هذين ، وقال أَبو عبيدة : [أَوْ] هنا بمعنى « الواو » ، واستشهد ببيت جرير :

أَثَعْلَبَةَ الْفَوَارِسَ أَوْ رِيَاحَـــا   عَدَلْتَ بِهِمْ طُهَيَّةَ والْخشَابَا ؟ (١)

والخشَاب : بيوتٌ في بني تميم ، وقولُ أَبي عبيدة ضعيف لا داعية إليه في هذا الموضع ، و [نَبَذْنَاهُمْ] معناه : طرحناهم ، و « اليَمُّ » : البحر ، وفي مصحف ابن مسعود : « فنبذناه » ، و « المُليمُ » : الذي

(١) قال جرير هذا البيت من قصيدة يهجو بها الراعي النميري ، والبيت في اللسان أيضاً ، وطُهَيّة على وزن سُمَيّة : حيٌّ من تميم نُسبوا إلى أُمِّهم ، والخِشاب : بنو رازم بن مالك ، وربيعة وكعب بن مالك ، وحنظلة ، وهم بطون من تميم أيضاً . قال أبو عبيدة : [أَوْ] ها هنا في موضع الواو التي للمُوَالاة – أي للعطف – لأنه قد قالهما جميعاً له . ولكن ابن عطية لا يوافق أبا عبيدة على رأيه هذا لأن فرعون قالهما فعلا لموسى عليه السلام ولكنه أراد بهما الإبهام على السامع . قال ذلك أبو حيان الأندلسي في البحر .

أَتَى من المعاصي ونحوها ما يُلامُ عليه ، وقال أُمَيَّةُ بنُ أَبي الصَّلْت :

. . . . وَمَنْ يَخْذُلْ أَخَاهُ فَقَدْ أَلاَمَـــا(١)

وقوله تعالى : ﴿وَفِي عَادٍ﴾ عطف على قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَفِي مُوسَى﴾ .

و عَادٌ هي قبيلة هود النبي صلى الله عليه وسلم ، و «العقيم» معناه : التي لا بركة فيها ، لا تلقح شجراً ولا تسوق مطراً ، وقال سعيد بن المسيب : كانت ريح الجنوب ، وروي عن علي رضي الله عنه : كانت نكباء(٢) ، وهذا عندي لا يصح عن عليٍّ رضي الله عنه لأَنه يرادُّ قول النبي صلى الله عليه وسلم : (نُصرتُ بالصَّبا، وأُهلكت عادٌ بالدبور) (٣) ، و [تَذَرُ] معناه : تَدَع ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ شَيْءٍ

---

(١) هذا عجز بيت ، وهو بتمامه :

تَعُدُّ مَعَاذِراً لا عُذْرَ فِيهَـــا وَمَنْ يَخْذُلْ أَخَاهُ فَقَدْ أَلامَا

ولم أجده في ديوان أُميَّة ، ولكن وجدته في لسان العرب منسوباً إلى أُمِّ عُمَيْر بن سَلْمَى الحنفي تخاطب ولدها عُمَيْراً لأنه كان قد أَسلم أخاه لرجل كلابيٍّ له عليه دَمٌ فقتله ، فعاتبته أُمُّه في ذلك وقالت هذا البيت ، قال ابن برِّي : وعُذْره الذي اعتذر به أن الكلابيَّ التجأ إلى قبر سَلْمَى والد عُمَيْر ، فقال لها عُمَيْر :

قَتَلْنَا أَخَانَا لِلْوَفَاءِ بِجَارِنَـــا وَكَانَ أَبُونَا قَدْ تُجِيرُ مَقَابِرُه

(٢) الريح النَّكْباءُ : ريح انحرفت ووقعت بين ريحين كالصَّبا والشمال ، والجمع «نُكْبٌ» .

(٣) أخرجه البخاري في الاستسقاء والمغازي وبدء الخلق والأنبياء ، ومسلم في الاستسقاء ، وأحمد في مسنده (١-٢٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٥٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما . ومعنى قول المؤلف قبل هذا الحديث : «لأنه يرادُّ قول النبي صلى الله عليه وسلم» أنه يعارضه ويختلف عنه .

أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ يعني مِمَّا أذن الله تعالى لها في إهلاكه ، و «الرميم» : الفاني المتقطع يبساً أَو قِدَماً من الأَشجار والورق أَو الحبال أَو العظام ، ومنه قوله تعالى : ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ ٱلْعِظَامَ وَهِـيَ رَمِيمٌ﴾ (١) ، أَي في قوام الرماد ، ورُوي حديث : (إنَّ تلك الريح كانت تهب على الناس فيهم العاديُّ وغيره ، فتنزع العاديَّ من بين الناس وتذهب به) (٢).

وقوله تعـالى : ﴿وَفِي ثَمُـودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ﴾ يحتمل أَن يراد : قيل لهم في أَول بعث صالح عليه السلام : آمِنوا وأَطيعوا فتُمتَّعوا متاعاً حسناً إلى آجالكم ، وهو «الحينُ» على هذا ، وهو قول الحسن حكاه عنه الرُّمَّاني ، ويجيءُ قوله تعالى : [فَعَتَوْا] مُرَتَّباً لفظاً في الآية ومعنى في الوجود متأَخراً عن القول لهم : [تَمَتَّعُوا] ، ويحتمل أَن يريد: إذْ قيل لهم بعد عقر الناقة : ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾(٣) ، وهي «الحينُ» على هذا التأْويل ، وهو قول الفراءِ ،

---

(١) من الآية (٧٨) من سورة (يسن) .

(٢) أخرج ابن عساكر عن وهب قال : لما أرسل الله الريح على عادٍ اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ، ما يصيبهم من الريح إلاّ ما تلين عليه الجلود وتلذه الأنفس ، وإنها لتمرُّ بالعاديِّ فتحمله بين السماءِ والأرض وتدمغه بالحجارة — ذكر ذلك الإمام السيوطي في (الدر المنثور) ، والعاديّ : نسبة إلى عادٍ .

(٣) من الآية (٦٥) من سورة (هود) .

ويجيءُ قوله تعالى : [فَعَتَوْا] غير مُرَتَّب المعنى في وجوده ، لأَن عتوهم كان قبل أَن يقال لهم : [تَمتَّعُوا] ، وكأَن المعنى : فكان من أَمرهم قبل هذه المقالة أَن عَتَوْا ، وهو السبب في أَن قيل لهم ذلك وعُذِّبوا . وقرأَ جمهور القراءِ : [ٱلصَّاعِقَةُ] ، وقرأَ الكسائي – وهي قراءَة عُمَر وعثمان رضي الله عنهما – : [ٱلصَّعْقَةُ] ، وهي – على القراءَتين – الصيحةُ العظيمة ، ومنه يقال للوقعة الشديدة من الرعد : صاعقة ، وهي التي تكون معها النار التي يُروى في الحديث أَنها من المخْراق الذي بيد مَلَك يسوق السحاب(١) . وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ يحتمل أَن يريد : فجأَةً وهم يُبصرون بعيونهم حالهم ، وهذا قول الطبري ، ويحتمل أَن يريد : وهم ينتظرون ذلك في تلك الأَيام الثلاثة التي أُعلموا به فيها ورأَوا علاماته في تَلَوُّنهم ، وهذا قول مجاهد حسب ما تقدَّم تفسيره ، وانتظارهم للعذاب هو أَشد من العذاب .

(١) حديث الملَك الذي يسوق السحاب أخرجه الترمذي في تفسير سورة الرعد ، وأخرجه أحمد في مسنده (٦–٢٧٤) ، وهو حديث طويل رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفيه أن اليهود أقبلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه عن خمسة أشياءَ ، وقالوا : إن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي ، وكان آخر سؤال هو : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال : (ملَك من ملائكة الله عزّ وجلّ موكّل بالسحاب ، بيده أو في يده مِخْراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمر الله) ، قالوا : فما هذا الصوت الذي يُسمع ؟ قال : (صوته) ، قالوا : صدقت ، الخ الحديث . والمِخْراق : السيف .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾
وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا
آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا
قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾

قال بعض المفسرين : ﴿مِنْ قِيَامٍ﴾ معناه : ما استطاعوا أن يقوموا من مصارعهم ، وقال قتادة وغيره : معناه : من قيامٍ بالأمر ودفعه ، كما تقول : فلانٌ له بكذا وكذا قيام ، أي : استصلاح وانتهاض ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ بالنصب ، وهو عطف إمّا على الضمير في قوله تعالى : [فَأَخَذَتْهُمُ] ؛ إذ هو بمنزلة «أهلكناهم» ، وإما على الضمير في قوله تعالى : [فَنَبَذْنَاهُمْ] ، وقرأ أبو عمرو ـ فيما روى عنه عبد الوارث ـ : ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ﴾ بالرفع ، وذلك على الابتداء والخبر ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : ﴿وَقَوْمِ نُوحٍ﴾ بالخفض عطفاً على ما تقدم من قوله تعالى : ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ ، وقد روي النصب عن أبي عمرو .

وقوله تعالى : [وَٱلسَّمَاءَ] نصب بإضمار فعل تقديره : وبنينا السماءَ بنيناها ، و «الأَيْد» : القُوَّة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، ووقعت في المصحف بياءَيْن ، وذلك على تخفيف الهمز ، وفي هذا نظر . وقوله تعالى : [لَمُوسِعُونَ] يحتمل أن يريد : إنا نوسع الأَشياءَ قوة وقدرة ، كما قال تعالى : ﴿وَعَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾(١) ، أي الذي يوسع أهلَه إنفاقاً ، ويحتمل أن يريد : لموسعون في بناءِ السماءِ ، أي جعلناها واسعة ، وهذا تأْويل ابن زيد ، وقال الحسن : أَوْسع الرزقَ بمطر السماءِ ، و «الماهدُ» : المهيِّئُ الموَطِّئُ للموضع الذي يتمهد ويفترش .

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي مُصْطَحبين مُتَلَازِمَيْن ، وقال مجاهد : معناه أن هذه إشارة إلى المتضادات والمتقابلات من الأَشياءِ كالليل والنهار ، والشِّقوة والسعادة ، والهدى والضلال ، والسماءِ والأَرض ، والسواد والبياض ، والصحة والمرض ، والكفر والإيمان ، ونحو هذا ، ورجَّحه الطبري بأَنه أدل على القدرة التي توجد الضِّدين بخلاف ما يفعل بطبعه فعْلًا واحداً كالتسخين والتبريد ، وقال ابن زيد وغيره : هي إشارة إلى الأُنثى والذكر من كل حيوان ،

---

(١) من الآية (٢٣٦) من سورة (البقرة) .

والترجّي الذي في قوله تعالى : [لَعَلَّكُمْ] هو بحسب خلق البشر وعرفهم ، وقرأَ الجمهور : [تَذَّكَّرُونَ] بتشديد الذال والإِدغام ، وقرأَ أُبي بن كعب : [تَتَذَكَّرُونَ] بتاءَين وخفَّة الذال .

وقوله تعالى : ﴿فَفِرُّوا إِلَى ٱللهِ﴾ أَمْرٌ بالدخول في الإِيمان وطاعة الله تعالى ، وجعل الأَمر بذلك بلفظ الفِرار لينبِّه على أَن وراءَ الناس عقاباً وعذاباً وأَمراً حقُّه أَن يُفَرَّ منه ، فجمعت لفظة «فِرُّوا» بين التحذير والاستدعاءِ ، وينظر إِلى هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا ملجأَ ولا منجى منك إِلَّا إِلَيْك...) الحديث (١) . قال الحسين ابن الفضل : من فرَّ إِلى غير الله تعالى لم يمتنع من الله عزَّ وجلَّ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللهِ إِلَـٰهاً آخَرَ﴾ نهيٌ عن عبادة الأَصنام والشياطين وكل مدعوٍّ من دون الله تعالى ، وفائدة تكرار قوله تعالى : ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ الإِبلاغ وهزُّ النفس وتحكيم التحذير ، وإِعادةُ الأَلفــاظ بعينها في هذه المعــاني بليغة بقرينة شدة الصوت .

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء والدعوات والتوحيد ، ومسلم في الذّكر ، وأبو داود في الأدب ، والترمذي وابن ماجه في الدعاء ، والدارمي في الاستئذان ، وأحمد في مسنده (٤ـ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢) ، وهو عن البراء بن عازب ، ولفظه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلا من الأنصار أن يقول إذا أخذ مضجعه : (اللّهم أسلمت نفسي إليك ، ووجّهت وجهي إليك ، وفوّضت أمري إلياك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا مَنْجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنبيك الذي أرسلت) ، فإن مات مات على الفطرة .

وقوله تعالى : [كَذَلِكَ] تقديره : سيرة الأُمم كذلك ، أَو الأَمر في القديم كذلك ، وقوله تعالى : ﴿إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ معناه : إِلَّا قال بَعْضٌ هذا وبعضٌ هذا وبعضٌ الجميع ، أَلا ترى أَن قوم لوط عليه السلام لم يقولوا قط : هو ساحر ، وإنما قالوا : به جِنَّة ، فلما اختلفت الفِرَق جعل الخبر عن ذلك بإِدخال [أَوْ] بين الصيغتين ، وليس المعنى أَن كل أُمَّة قالت عن نبيِّها : إِنه ساحر أَو مجنون ، فليست هذه كالمتقدمة في فرعون ، بل هذه كأَنه تعالى قال : إِلَّا قالوا : هو ساحر ، أَو قالوا : هو مجنون .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ توقيف وتعجيب من توارد نفوس الكفرة في تكذيب الأَنبياءِ صلوات الله تعالى وسلامه عليهم عَلَى تفرُّق

أَزمانهم ، أَي : إِنهم لم يتواصوا لكنهم فعلوا فعلًا كأَنه فعل من تَوَاصى ، والعلَّة في ذلك أَن جميعهم طاغ ، والطاغي : المستعلي في الأَرض المفسد العاتي على الله .

قوله تعالى : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أَي عن الحرص المفرط عليهم وذهاب اليقين حسرات ، ويحتمل أَن يراد : فتولَّ عن التعب المفرط في دعائهم وضمهم إلى الإِسلام ، فلست بمصيطر عليهم ولست بملوم إِذْ بلَّغت ، فنحِّ نفسك عن الحزن عليهم وذكِّر فقط فإِن الذكرى نافعة للمؤمنين ولمن قُضي له أَن يكون منهم في ثاني حال ، وعلى هذا التأْويل فلا نَسْخَ في الآية إِلَّا في معنى الموادعة التي فيها ؛ فإِن آية السيف نسخت جميع الموادعات ، وروى قتادة – وذكره الطبري – عن علي رضي الله تعالى عنه أَنه لمَّا نزلت : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ حزن المسلمون وظنوا أَنه أَمْر بالتولِّي عن الجميع وأَن الوحي قد انقطع ، حتى نزلت ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَى تَنْفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فَسُرُّوا بذلك .

قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، اختلف الناسُ في معناه مع إِجماع أَهل السُّنَّة على أَن الله تعالى لم يُرد أَن تقع العبادة من الجميع ؛ لأَنه تعالى لو أَراد ذلك لم يصح أَن يقع الأَمر

بخلاف إرادته – فقال علي بن أَبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهم : المعنى : ما خلقت الجن والإِنس إِلَّا لآمرهم بعبادتي وليقرُّوا لي بالعبودية ، فعبر عن ذلك بقوله تعالى : [لِيَعْبُدُونِ]؛ إِذ العبادة هي مضمن الأَمر ، وقال زيد بن أَسلم ، وسفيان : المعنى خاص ، والمراد وما خلقت الطائعين من الجن والإِنس إِلَّا لعبادتي ، ويؤيد هذا التأْويل أَن ابن عباس رضي الله عنهما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قرأَ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنْسَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، وقال ابن عباس أَيضاً : معنى [لِيَعْبُدُونِ] : ليتذلَّلُوا لي ولقدرتي وإِن لم يكن ذلك على قوانين الشرع ، وعلى هذا التأْويل فجميع الجن والإِنس عابد متذلِّل ، والكفار كذلك ، أَلا تراهم عند القحوط والأَمراض وغير ذلك ؟ وتحتمل الآية أَن يكون المعنى : وما خلقت الجن والإِنس إِلَّا مُعَدِّين ليعبدوني ، وكأَن الآية تعديد نعمة ، أَي : خلقت لهم حواسَّ وعقولًا وأَجساماً منقادة لحق العبادة ، وهذا كما تقول : البقر مخلوق للحرث ، والخيل للحرب ، وقد يكون منها ما لا يحرث وما لا يُحارب به أَصلًا ، فالمعنى أَن الإِعداد في خلق هؤلاءِ إِنما هو للعبادة ، لكن بعضهم تكسَّب صرف نفسه عن ذلك ، ويؤيد هذا المنزع قول النبي صلى الله عليه وسلم : (اعملوا

فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له)(١) ، وقوله : (كُلُّ مولود يولد على الفطرة)(٢) ... الحديث .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ رِزْقٍ﴾ أي أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم ، وقوله تعالى : ﴿أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ إمَّا أن يكون المعنى : أن يطعموا خلقي ، فأُضيف إلى الضمير على جهة التَّجوُّز ، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما ، وإما أن يكون الإطعام هنا بمعنى النفع على العموم ، كما تقول : أعطيت فلاناً كذا وكذا طُعمةً ، وأنت قد أعطيته عرضاً أو بلداً يجبيه ، ونحو هذا ، فكأنه تعالى قال : «ولا أُريد أن ينفعونِ» ، فذكر جزءًا من المنافع وجعله دالًّا على الجميع . وقرأ الجميع : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ ، وروى أبو إسحق السبيعي ، عن عبد الله بن زيد ، قال أبو عمرو الداني : عن ابن مسعود قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿إِنِّي أَنَا ٱلرَّزَّاقُ﴾ ، وقرأ جمهور القراء : [ٱلْمَتِينُ]

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما ، ورمز له الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه صحيح .

(٢) أخرجه أبو يَعْلى في مسنده ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في السنن ، عن الأسود ابن سريع ، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) : (كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه ، فأبواه يُهَوِّدانه أوْ يُنَصِّرانه أوْ يُمَجِّسانه) ، وقد رمز له السيوطي بأنه حديث صحيح .

بالرفع ، إمَّا على أنه خبر بعد خبر ، أَوْ صفة لِ [ٱلرَّزَّاقُ] ، وقرأَ يحيي بن وثَّاب ، والأَعمش : [ٱلْمَتِينِ] بالخفض على النعت لـ [ٱلْقُوَّةِ] ، وجاز ذلك من حيث تأْنيث [ٱلْقُوَّةِ] غير حقيقي ، فكأَنه قال : ذو الأَيْد والحبْل(١) ، ونحوُه قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ ﴾(٢) ، وجوَّز أَبو الفتح أَن يكون خفض [ٱلْمَتِينِ] على الجوار ، و « الْمَتِينُ » : الشـــديد.

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ، يريد تعالى أَهل مكة ، وهذه آية وعيد صراح ، وقرأَ الأَعمش : « فَإِنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » ، و« الذَّنُوبُ » : الحظُّ والنصيب ، وأَصله من الدَّلْو ، وذلك أَن الذَّنوب هو مِلْءُ الدلو من الماءِ ، وقيل : الذَّنوب : الدَّلْوُ العظيمة ، ومنه قول الشاعر :

إِنَّا إِذَا نَازَلَنَـــا غَريبُ
لَهُ ذَنُوبٌ وَلَنَا ذَنُـــوبُ
فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَـــا الْقَلِيبُ(٣)

---

(١) هذا رأي أبي الفتح ابن جني : يقول : ذكَّره على معنى الحبل ، يريد : قُوَى الحَبْل ؛ لقوله سبحانه : ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ .

(٢) من الآية (٢٧٥) من سورة (البقرة) ، وقد سقطت تاء التأنيث في قوله سبحانه : (جَاءَهُ) لأن تأنيث « الموعظة » غير حقيقي .

(٣) استشهد الفراءُ في (معاني القرآن) بالبيتين الثاني والثالث ، قال : « والذَّنوب في=

وهو السَّجْل(١) ، ومنه قول عَلْقَمَة بن عبيدة :

وَفي كُلِّ يَوْمٍ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ(٢)

= كلام العرب : الدّلْو العظيمة ، ولكن العرب تذهب بها إلى الحظِّ والنصيب ، وبذلك أتى التفسير : فإن للّذين ظلموا حظّاً من العذاب ، كما نزل بالذين من قبلهم ، وقال الشاعر :

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُمْ ذَنُوبُ فإنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ

والذّنوب يُذَكَّر ويُؤَنَّث » . وقد أخذ عنه المفسرون هذا الاستشهاد ، ونقلوا البيتين كما رواهما « لَنَا ولكم » ، لكن ابن عطية زاد هنا البيت الأول ، وجاءت الرواية فيه : « له ولنا » كما ترى ، والبيتان أيضاً في اللسان والتاج ، والرواية فيهما : « لها ذنوبٌ ولكم ذنوب » ، وقد نقل صاحب الكلام الفراء الذي نقلناه هنا . والقَلِيب : البئر ، تذكَّر وتؤنث ، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر ، والجمع قُلُبٌ .

(١) السَّجْل : الدّلو العظيمة ، مملوءة ، أو فيها ماءٌ قلّ أوْ كَثُر (مذكَّر) .

(٢) هذا البيت لعلقمة الفحل ، وهو من قصيدة له يمدح فيها الحارث ملك الغساسنة في الشام على أثر الوقعة المعروفة باسم « يوم حليمة » ، ومطلع القصيدة :

طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الْحِسَانِ طَرُوبُ بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

وكان الحارث قد انتصر في « يوم حليمة » وأَسَرَ شَأْساً شقيق الشاعر ، وقد طلب الشاعر من الملك بعد أن مدحه أن يعفو عن أخيه تقديراً لبطولته وإخلاصه لقومه وإن كان قد حارب الملِك ، واستجاب الملِك لطلب الشاعر وأطلق سراح شأس وجميع الأسرى ، وكان لكلمة الشاعر الأثر الكبير في ذلك .

ومعنى : « قد خَبَطْتَ بنعمة » : أعطيت من غير معرفة بمن تعطيه ، وهذا غاية المدح ، والذّنوب : الدّلْوُ فيها ماءٌ ، أو لا ماءَ فيها ، أو التي يكون الماءُ فيها قريباً من مَلْئها ... على اختلاف كلام اللغويين ، ولكن المراد بها الحظُّ والنصيب ، يقول الشاعر : إنك أَيُّها الملِك تعطي النعمة من لا تعرفه ، وتجود على كل الناس ، وهذا يعطي أخي حقّاً في أن يكون له نصيب من جودك ومعروفك ، وقد سارت أبيات علقمة في الحارث مثلا في مديح الملوك .

فروي أَن الملك لما سمع هذا البيت قال : نعم وأَذْنُبُ ، ومنه قول حسَّانٍ :

لَا تَبْعَدَنَّ رَبيعَةَ بْنَ مُكَـدَّمٍ وَسَقَى الْغَوَادِي قَبْرَهُ بذَنُـوب (١)

و « أَصْحابُهم » يراد به من تقدَّم من الأُمم المُعَذَّبة ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ تحقيق للأَمر ، بمعنى : هو نازل بهم لا محالة في وقته المعلوم فلا يَستعجلوه ، وقرأ ابن وثَّاب : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ بالتاءِ من فوق ، وبه قرأَت فرقة ، والباقون بالياءِ .

ثم أَوجب تعالى لهم الويل من يومهم الذي يأْتي فيه عذابهم ، و « الوَيْلُ » : الشقاءُ والهَمُّ ، ورُوي أَن في جهنم وادياً يُسمى ويْلًا ، والطبري يذهب أَبداً إِلى أَن التوعد إِنما هو به ، وذلك في هذا الموضع

(١) هذا البيت واحد من أربعة أبيات نُسبت لحسان بن ثابت ، وقيل : لضرار بن الخطاب الفهري ، وقيل : لمكرز بن خوص بن الأخيف العامري ، وقال ابن سلام : الصحيح أنها لعمر بن شقيق بن سلامان ، وربيعةُ بن مكدم من بني كنانة ، وكانت بينهم وبين بني سليم وقعة قتل فيها ربيعةُ أربعة من بني سليم ، وطعنه بعضهم طعنة قاتلة ، فذهب إلى أُمه يطلب منها أن تسقيه فرفضت وطلبت إليه أن يقف على ثنيَّة الوادي حتى لا يهاجمهم القوم ، ولكن ثعلباً مرَّ بفرسه التي كان عليها وقد مات ، فنفرت الفرس وسقط ربيعة فدفن على الثَّنيَّة ، وقال الشاعر هذه الأبيات . والغوادي : جمع غادية وهي السحابة تنشأ فتمطر غدوة ، يدعو له بالسقيا والري لما أظهره من الشجاعة والتضحية .

قلق ؛ لأَن هذا الويل إنما هو من يومهم الذي هو في الدنيا ، و [مِنْ] لابتداءِ الغاية ، وقال جمهور المفسرين : هذا التوعُّد هو بيوم القيامة ، وقال آخرون ـ ذكره الثعلبي ـ : هو بيوم بدر ، وفي [يُوعَدُونَ] ضمير عائد على الكلام ، التقدير : يوعدون به ، أَو يوعدونه .

تم تفسير سورة الذّاريات والحمد لله ربّ العالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أَشرف الخلق

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

(٥٢) سُورَةُ الطُّورِ مَكِّيَّة وآيَاتُهَا تِسْعٌ وأَرْبَعُونَ

هي مكِّيَّة بإجماع من المفسرين والرُّواة (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ
ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ
لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ
سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ
يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

---

(١) روى الأئمة عن جُبَيْر بن مطعم قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بالطور في المغرب . متفق عليه .

هذه مخلوقات أَقسم الله تعالى بها تنبيهاً منه وتشريفاً ، وليكون ذلك سبب النظر فيها والاعتبار بها ، وذلك يؤول إلى التوحيد والمعرفة بحقوق الله تعالى .

و «الطُّور» ، قال بعض أَهل اللُّغة : كل جبل طور ، فكأَنه تبارك وتعالى أَقسم بالجبال ؛ إذ هو اسم جنس ، وقال آخرون : الطُّور : كل جبل أَجرد لا يُنبت شجراً ، وقال مجاهد في كتاب الطبري : الطُّور : الجبل بالسريانية ، وهذا ضعيف ؛ لأَن من حكاه في العربية يقضي على هذا ، ولا خلاف أَن في الشَّام جبلًا يُسمَّى بالطُّور ، وهو طور سيناءَ ، فقال نوف البكالي : إنه الذي أَقسم الله تعالى به لفضله على الجبال ؛ إذ قد رُوي أَن الله تعالى أَوحى إلى الجبال أَني مهبط على أَحدكم أَمري – يريد رسالة موسى عليه السلام – ، فتطاولت كلها إلَّا الطُّور فإنه استكان لأَمر الله تعالى وقال : حسبي الله ، فأَهبط الله تعالى الأَمر عليه ، ويقال : إنه بمدين ، وقال مقاتل بن حيان : هما طوران .

و «الكتاب المَسْطور» معناه بإجماع : المكتوب أَسطاراً ، واختلف الناس في هذا الكتاب المقسم به – فقال بعض المفسرين : هو الكتاب المنتسخ من اللوح المحفوظ للملائكة لتعرف منه جميع ما يفعله وتصرفه في العالم ، وقال آخرون : بل أَقسم الله تعالى بالقرآن ، فإنه قد كان

علم أنه يتخذ في رَقٍّ منشور ، وقال آخرون : أَقسم الله تعالى بالكتب القديمة المنزلة ، التوراة والإِنجيل والزبور ، وقال الفراءُ – فيما حكى الرُّمَّاني – : أَقسم بالصحف التي تُعطى وتؤخذ يوم القيامة بالأَيمان والشمائل ، وقال قوم : أَقسم بالكتاب الذي فيه أَعمال الخَلْق ، وهو الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إِلَّا أَحصاها ، وكتب بعض الناس [مَصْطُورٍ] بالصَّاد ، والقصد بذلك تشابه النطق بالحروف ، والجمهور على السِّين . و «الرَّقُّ» : الورق المعدة للكَتْب ، وهي مُرَقَّقَة فلذلك سُمِّيت رقًّا ، وقد غلب الاستعمال على هذا الذي هو من جلود الحيوان ، و «المنشور» خلاف المطويِّ ، وقد يحتمل أَن يكون نَشْرُه بمعنى بَشْره وترقيقه وصنعته ، وقرأَ أَبو السَّمال : ﴿في رِقٍّ﴾ بكسر الراءِ .

واختلف الناس في ﴿ٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ – فقال الحسن بن أَبي الحسن البصري : هي الكعبة ، وقال علي بن أَبي طالب ، وابن عباس ، وعكرمة رضي الله عنهم : هو بيت في السماءِ يقال له : الضراح ، وهو بحيال الكعبة ، ويقال : الضريح ، ذكر ذلك الطبري ، وهو الذي ذُكر في حديث الإِسراءِ ، قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم : (هذا البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون أَلف مَلَك لا يعودون

إليه ، آخر ما عليهم) (١)، وبهذا عمارته ، ويروى أنه في السماءِ السابعة ، وقيل : السادسة ، وقيل : إنه مقابل الكعبة ، لو خَرَّ لسقط عليها ، وقال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : في كل سماءٍ بيت معمور ، وفي كل أَرض كذلك ، وهي كلها على خط مع الكعبة ، وقاله علي ابن أَبي طالب رضي الله عنه .

و «ٱلسَّقْفُ ٱلْمَرْفُوعُ» : السماء، و «السَّقْفُ» طول في انحناءٍ، ومنه أَسقف النصارى ، ومنه السَّقْف ؛ لأَن الجدار وسَقْفه فيهما طول في انحناءٍ .

واختلف الناس في [ٱلْمَسْجُور] ـ فقال مجاهد ، وشمْر بن عطية (٢) : معناه : الْمُوقَد ناراً ، وروي (إن البحر هو جهنم) (٣) وقال عليٌّ بن

(١) أخرجه ابن جرير ، ومسلم ، عن أنس ، عن مالك بن صعصعة ، رجل من قومه قال : قال نبي الله صلى الله عليه وسلم : (رفع إليَّ البيت المعمور ، فقلت : يا جبريل ما هذا ؟ قال : البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا منه لم يعودوا ، آخر ما عليهم) ، وقال ابن كثير في تفسيره : «ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : (ثم رُفع إليَّ البيت المعمور ، وإذ هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً ، لا يعودون إليه ، آخر ما عليهم) ، يعني يتعبدون فيه ويطوفون كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة» .

(٢) شِمْر بن عطية ـ بكسر الشِّين المعجمة وسكون الميم ـ الأسدي ، الكاهلي ، الكوفي ، قال عنه الحافظ العسقلاني في تقريب التهذيب : «صدوق من السادسة» . وقد كتب في الأصول : سِمر ـ بالسين الخالية من النقط .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، عن صفوان بن يعلى ، عن أبيه ، أن النبي صلى الله =

أَبي طالب رضي الله عنه ليهودي : أَين جهنم ؟ فقال : هي البحر ، فقال عليٌّ رضي الله عنه : ما أَظنه إِلَّا صادقـاً ، وقرأَ : ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ ، [ومنه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إِن البحر هو جهنم) ،] (١) قال الثعلبي : وروي أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يركبن البحر إِلَّا حاج أَو معتمر أَو مجاهد ، فإِن تحت البحر ناراً ، وتحت النار بحراً)(٢) ، وفي حديث آخر قال : (البحر نار في نار) . وقال قتادة : المسجور : المملوءُ ماءً ، وهذا معروف من اللغة ، ورجَّحه الطبري لوجود ماءِ البحر كذلك ، ولهذا يعود القول الأَول ؛ لأَن قولهم : «سَجَرْتُ التَّنُّور» معناه : ملأْتها بماءٍ يحترق ويتَّقد ، والبحر المسجور : المملوءُ ماءً ، وهكذا هو معرض للعبرة ، ومنه قول النَّمرُ بن تَوْلَب :

= عليه وسلم قال: (البحر هو جهنم) ، قالوا ليَعْلَى ، فقال : أَلا ترون أن الله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ ، قال : لا والذي نفس يعلى بيده لا أدخلها أبداً حتى أُعرض على الله عزَّ وجلَّ ، ولا يصيبني منها قطرة حتى أَلْقَى الله عزَّ وجلَّ . (المسند ٤–٢٢٣) .

(١) ما بين العلامتين [....] سقط من أكثر النسخ ، وأثبتته النسخة التونسية ، ولعله تكرار للحديث السابق تخريجه في الهامش قبل هذا .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد .

إِذَا شَاءَ طَالَعَ مَسْجُورَةً ... تَرَى حَوْلَهَا النَّبْعَ والسَّمَاسِمَا
سَقَتْهَا رَوَاعِدُ مِنْ صَيِّفٍ ... وَإِنْ مِنْ خَرِيفٍ فَلَنْ يَعْدَمَا (١)

يصف ثوراً وعينا مملوءَة ماءً . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المسجور هو الذي ذهب ماؤُه ، فالمسجور : الفارغ ، ويُروى أَن البحار يذهب ماؤُها يوم القيامة ، وهذا معروف في اللُّغة ، فهو من الأَضداد (٢) ، وقيل : يوقد البحر ناراً يوم القيامة ، فذلك السَّجْرُ ، وقال ابن عباس أَيضاً : الْمَسْجُور : المحبوسُ ، ومنه ساجور الكلب ، وهي القلادة من عود أَو حديد التي تمسكه ، وكذلك لولا أَن البحر يُمْسَك لفاض على الأَرض ، وقال علي بن أَبي طالب ، وعبد الله بن عمر رضي الله

(١) قال هذين البيتين النَّمِرُ بن تَوْلب العُكْلِيُّ ، وقد استشهد بهما أبو عبيدة في (مجاز القرآن) ، وهو في البيتين يصف ثوراً وعيناً مملوءَة بالماء كما قال المؤلف ، ومَسْجُورَة : مملوءة ، يريد أنه يشاهد عيناً مملوءة بالماء ، والنَّبْع : نوع من الشجر خشبه متين ولهذا تتخذ منه القِسِيُّ ، والسَّماسم : الآبنوس أو شجر يشبهه ، وكلٌّ من النَّبع والسَّماسم ينبت في أعالي الجبال ، والضمير في « سقتها » يعود على العين ، والرواعد : جمع راعدة ، وهي السحابة الممطرة ، وغالباً ما يكون معها صوت الرعد ، والصَّيِّف : المطر الذي يأتي في الصيف ، والخريف : الفصل المعروف الذي يأتي بعد الصيف وقبل الشتاء ، وقول الشاعر : « وإن مِنْ خريف » يعني به أنه إذا لم تمتلئْ العين من مطر الصيف فإنها تمتلئْ من مطر الخريف ... والمعنى أن هذا الثور يشاهد الماء في هذه العين المملوءة به إما من مطر الصيف وإما من مطر الخريف ، فإنها دائماً يملؤها الماءُ ، والشاهد أن مسجورة بمعنى مملوءة .

(٢) يأتي المسجور بمعنى الفارغ في اللغة ، وقد روى عطية وذو الرُّمَّة الشاعر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : خرجت أَمَةٌ لتستقي ، فقالت : إن الحوض مسجور ، أي : فارغٌ ، قال ابن أبي داود : « ليس لذي الرُّمَّة حديث إلاّ هذا » ، وفي اللسان — سجر — « وبئرٌ سَجِرَةٌ : ممتلئةٌ ، والمسجورُ : الفارغ من كل ما تقدم ، ضِدٌّ ، عن أبي عليٍّ ، أبو زيد : المسجور يكون المملوءَ ويكون الذي ليس فيه شيءٌ » .

عنهم : البحر المُقْسم به هو في السماءِ تحت العرش ، والجمهور على أنه بحر الدنيا ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾(١) ، وقال منذر بن سعيد : المعنى هو القسم بجهنم ، وسمَّاها بحراً لِسَعَتها وتموجها ، كما قال صلى الله عليه وسلم في الفـــرس : (وإن وجدناه لبحراً) (٢) .

والقَسَم واقع على قوله تعالى : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِـعٌ﴾ ، ويريد عذاب الآخرة للكفار ، قاله قتادة ، والعامل في [يَوْمَ] هو [وَاقِـعٌ] ، ويجوز أَن يكون العامل فيه [دَافِـعٍ] ، والأَول أَبين ، قال مكيٌّ : لا يعمل فيه [دَافِـعٍ] ، وقوله تعالى : [تَمُورُ] معناه : تذهب وتجيءُ بالرياح متقطِّعة متفتِّتة ، والغبارُ الموَّارُ : الذي يجتمع ويذهب ويجيءُ بالرياح ثم هو كلُّه إلى ذهاب ، ومنه قول الأَعرابي : «وَغَادَرَت التُّرَابَ مَوْرا» يصف سنة قحطٍ ، وأَنشد ابن المثنى :

. . . . مَوْرُ السَّحابَة لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ(٣)

---

(١) الآية (٦) من سورة (التكوير) .

(٢) أخرجــه البخاري في الجهاد والأدب ، ومسلم في الفضـــائل ، وأبو داود في الأدب ، والترمذي وابن ماجه في الجهاد ، وأحمد في أكثر من موضع من مسنده ، عن أنس قال : كان رسول الله صلى لله عليه وسلم أحسن الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس ، قال : ولقد فزع أهل المدينة ليلةً فانطلق قِبَل الصــوت ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول للناس : لم تُراعوا ، لم تُراعوا ، وقال للفرس : وجدناه بحراً ، وإنه لبحر ، قال أنس : وكان الفرسُ قَبْل ذلك يبطئُ ، قال : ما سُبِق بعد ذلك .

(٣) هذا عجز بيت من قصيدة الأعشى المعروفة (وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ) ، والبيت بتمامه على رواية ابن المثنى : =

أَراد مُضِيَّها . وقال الضحاك : [تَمُورُ] : تموج ، وقال مجاهد : تدور ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : تشقق ، وهذه كلها تفاسير بالمعنى ؛ لأَن السماءَ العالية يعتريها هذا كله .

وسَيْرُ الجبال هو في أَول الأَمر ثم تَتَفَتَّت أَثناءَ السير حتى تصير أَخيراً كالعهن المنفوش(١). والفاءُ في قوله تعالى : [فَوَيْلٌ] عاطفة جملة على جملة ، وهي تتضمن ربط المعنى وتأْكيدَه وإثباتَ الويل للمكذِّبين ، و «الوَيْلُ» : السوءُ والمشقة والهمُّ الأَطول ، ويروى أَن في جهنم وادياً يُسمَّى وَيْلًا . و «الخَوْضُ» : التخبُّط في الأَباطيل ، يُشَبَّه بحوض الماءِ ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾(٢)، و [يَوْمَ] الثاني بدل من [يَوْمَئِذٍ] ، و [يُدَعُّونَ] قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : معناه : يدفعون

= كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا ... مَوْرُ السَّحَابَةِ لا رَيْثٌ وَلا عَجَلُ

أما الرواية المشهورة ، وهي التي في الديوان – ففيها (مَرُّ السَّحَابة) ، وعليها فلا شاهد في البيت ، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن) ، وفي اللسان أن المَوْرَ هو التَّرَهْيُؤُ ، ومعناه : التحرك والمجيءُ والذهابُ كما تتكفَّأ النخلة العيدانة ، يصفها بأنها عند عودتها من بيت جارتها تمشي في حركة مترددة وتتمايل في خيلاء ، وهي لا تبطئُ في مشيتها ولا تسرع بل تمضي في يُسر وسهولة .

(١) العِهْن : الصوف المصبوغ ألواناً ، والقطعة منه عِهْنَة، والجمع عهون .

(٢) من الآية (٦٨) من سورة (الأنعام) .

في أعناقهم بشدّة وإهانة وتَعْتَعَة ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾(١) ، وفي الكلام محذوف مختصر ، تقديره : يقال لهم : ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ﴾ ، وإخبارهم بهذا على جهة التوبيخ والتقريع ، وقرأ أبو رجاءٍ العُطَاردي(٢) : ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ﴾ من الدعاء ، بسكون الدال وفتح العين .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

(١) الآية (٢) من سورة (الماعون) .

(٢) هو عِمْران بن مِلْحان ـ بكسر الميم وسكون اللام بعدها مهملة ـ ، ويقال : ابن تَيْم ، أبو رجاءٍ العُطَاردي ، مشهور بكنيته ، وقيل غير ذلك في اسم أبيه ، مخضرم ، ثقة ، معمر ، مات سنة خمس ومائة ، وله من العمر مائة وعشرون سنة ، (تقريب التهذيب) ، هذا وقد قرأ نفس القراءة ابن السميفع .

لمَّا قيل لهم : ﴿هَذِهِ ٱلنَّارُ﴾ وُقِفُوا بعد ذلك على الجهتين اللتين يمكن منهما دخول الشك في أَنها النار ، وهما : إمَّا أَن يكون ثَمَّ سحْرٌ يُلَبِّس ذات المرئي ، وإمَّا أَن يكون في بصر الناظر اختلال ، وأَمرهم بِصَلْيها على جهة التقريع ، ثم قيل لهم على جهة قطع رجائهم : ﴿ٱصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ ، أَي : عذابكم حَتْم فسواءٌ جزعكم وصبركم ، لابد من جزاءِ أَعمالكم .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ الآيات ... يحتمل أَن يكون من خطاب أَهل النار فيكون إخبارهم بذلك زيادة في غَمِّهم وسوءِ حالهم ، ويحتمل ـ وهو الأَظهر ـ أَن يكون إخباراً لمحمد صلى الله عليه وسلم ومعاصريه ، لما فرغ من ذكر عذاب الكفَّار عقَّب ذلك بنعيم المتَّقين ليبين الفرق ويقع التحريض على الإيمان . و «المُتَّقُونَ» هنا هم مُتَّقُو الشِّرك لأَنهم لابُدَّ من مصيرهم إلى الجنَّات ، وكلما زادت الدرجة في التَّقوى قوي الحصول في حكم الآية حتى أَن المتَّقين على الإطلاق هم في هذه الآية قطعاً على الله تعالى بحكم خبره الصَّادق . وقرأَ جمهور الناس : [فَاكِهِينَ] ، ومعناه : فرحين مسرورين ، وقال أَبو عبيدة : هو من باب «لابِنٍ وتامِرٍ» ، أَي لهم فاكهة ، والمعنى الأَول أَبرع (١) ، وقرأَ خالد فيما حكى أَبو حاتم : [فَكِهِينَ] ، والفَكِهُ

(١) في بعض النسخ : «والمعنى الأول أبدع» .

والفَاكِهُ: المسرور المتنعِّم . وقوله تعالى : ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي : من إنعامه ورضاه عنهم ، وقوله تعالى : ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ ، هذا متمكن في مُتَّقي المعاصي الذي لا يدخل النار ، ويكون في مُتَّقي الشِّرك الذي ينفذ عليه الوعيد بمعنى : ووقاهم ربهم عذاب الخلود في الجحيم ، ويحتمل أن يكون [ٱلْجَحِيم] من طبقات جهنَّم ليست بمأوى العصاة من المؤمنين ، بل هي مخصصة للكفرة ، فهم وإن عُذِّبوا في نار فليسوا في عذاب الجحيم . وقرأ الجمهور : [وَوَقَاهُمْ] بتخفيف القاف ، وقرأ أبو حيوة بتشديدها على المبالغة ، وذلك كله مُشْتَقٌّ من الوقاية وهي الحائل بين الشيءِ وبين ما يضره . والمعنى : يقال لهم : ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئاً﴾ ، و [هَنِيئاً] نصب على المصدر ، وقوله تعالى : ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ معناه أَن رُتَب الجنة ونعيمها هي بحسب الأَعمال ، وأَمّا نَفْس دخولها فهو برحمة الله تعالى وتغمُّده ، والأَكل والشرب والتَّهنِّي ليس من الدخول في شيءٍ ، وأَعمال العباد الصَّالحة لا توجب على الله تعالى التنعيم إيجاباً ، لكنه سبحانه قد جعلها أَمَارَةً على من سبق في علمه تنعيمه ، وعلَّق الثواب والعقاب بالتكسُّب الذي في الأَعمال .

وقوله تعالى: [مُتَّكِئِينَ] نصب على الحال ، على حدِّ قوله تعالى : [فَاكِهِينَ] ، والعامل في هاتين الحالتين الفعل المقدر في قوله تعالى : ﴿في جَنَّاتٍ﴾ ، ويجوز غير هذا ، وفي هذا نظر ، وقرأَ أَبو السَّمال :

﴿عَلَى سُرَرٍ﴾ بفتح الرَّاءِ الأُولى و [زَوَّجْنَاهُمْ] معناه: جعلنا لكل فرد منهم زوجاً، و «الحُور» جمع حوراءَ، وهي البيضاءُ القوية بياضَ بَيَاضِ العَيْن وسوادَ سوادِها، و «الْعِينُ» جمع عيناءَ، وهي الكسيرة العينين مع جمالهما، وفي قراءَة ابن مسعود، وإبراهيم النَّخَعي: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِعِيسٍ عينٍ﴾، قال أَبو الفتح: العَيْسَاءُ: البيضاءُ، وقرأَ عكرمة: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ حُوراً عِيناً﴾، وحكى أَبو عمرو عن عكرمة أَنه قرأَ: ﴿بعيس عينٍ﴾ على إضافة [عِيسٍ] إلى [عِينٍ](١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾

---

(١) قال أبو الفتح ابن جني: العيساءُ: البيضاءُ، والأعْيَس: الأبيض، ومثله: جملٌ أعيَسُ وناقة عيساءُ، قال في وصف امرأةٍ:

* كأنَّها البَكْرَةُ العَيْسَاءُ *

وفي اللسان أن العيساءَ هي البيضاءُ التي يخالط بياضها شيءٌ من شُقْرة.

قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وطلحة ، والحسن ، وقتادة ، وأهل مكة : ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ، وقرأ نافع ، وأبو جعفر ، وابن مسعود - بخلاف عنه - وأبو عمرو - بخلاف عنه - وشيبة ، والجحدري ، وعيسى : ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ، وروى خارجة عنه مثل قراءة حمزة ، وقرأ ابن عامر ، وابن عباس ، وعكرمة ، وابن جُبير ، والضحاك : ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّاتُهُمْ بإيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ، وقرأ أبو عمرو ، والأعرج ، وأبو رجاء ، والشعبي ، وابن جُبَيْر ، والضحاك : ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ بإيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ، فلكون «الذُّرِّيَّة» جمعاً في نفسه حسُن الإفراد في هذه القراءات ، ولكون المعنى يقتضي انتشاراً وكثرة حسُن جمع الذُّرِّيَّة في قراءة من قرأ : [ذُرِّيَّاتِهِمْ] .

واختلف الناسُ في معنى الآية - فقال ابن عباس ، وابن جُبَيْر ، والجمهور : أخبر الله تعالى أن المؤمنين الذين تتَّبعهم ذريتُهم في الإيمان فيكونون مؤمنين كآبائهم - وإن لم يكونوا في التقوى والأعمال كالآباء - فإنه يُلْحِق الأبناء بمراتب أُولئك الآباء كرامةً للآباء ، وقد ورد في هذا المعنى حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) ، فجعلوا

(١) وهو حديث أخرجه سعيد بن منصور ، وهناد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (إن الله =

الحديث تفسير الآية ، وكذلك وردت أحاديث تقتضي أن الله تعالى يرحم الآباءَ رعياً للأبناءِ الصالحين(١) ، وذهب بعض الناس إلى إخراج هذا المعنى من هذه الآية ، وذلك لا يترتب إلّا بأن نجعل اسْمَ « الذُّرِّيَّة » بمثابة نوعهم على نحو ما في قوله تعالى : ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾(٢) ، وفي هذا نظر . وقال ابن عباس أيضاً ، والضحاك : معنى هذه الآية أن الله تعالى يلحق الأبناءَ الصغار بأحكام الآباءِ المؤمنين في الموارثة والدفن في قبور الإسلام ، وفي أحكام الآخرة في الجنة ، وحكى أبو حاتم عن الحسن أنه قال : الآية في الكبَار من الذُّرِّيَّة وليس فيها من الصغار شيءٌ ، وقال منذر بن سعيد : هي

= ليرفع ذرية المؤمن معه في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لِتَقَرَّ بهم عينه) ، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ﴾ الآية ، وأخرج البزار ، وابن مردويه رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، كذلك رواه مرفوعاً النحاس في « الناسخ والمنسوخ » له عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم ، قال أبو جعفر : « فصار الحديث مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذا يجب أن يكون ؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه إخبارٌ عن الله عزَّ وجلَّ بما يفعله ، وبمعنى أنه أنزلها جلَّ ثناؤه » .

(١) منها ما أخرجه الطبراني ، وابن مردويه ، عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وذريته وولده ، فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك ، فيقول : يا رب قد عملتُ لي ولهم ، فيؤمر بإلحاقهم به) ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ الآية .

(٢) من الآية (٤١) من سورة (يس) .

في الصغار لا في الكبار ، وحكى الطبري قولًا معناه أن الضمير في قوله تعالى : [بِهِمْ] عائدعلى الذُّرِّيَّة ، والضمير الذي بعده في [ذُرِّيَّاتِهِمْ] عائد على [ٱلَّذِينَ] ، أي : اتَّبعهم الكبار وأَلْحقنا نحن بالكبار الصغار ، وهذا قولٌ مستكره .

وقوله تعالى : [بإِيمَانٍ] هو في موضع الحال ، فمن رأى أن الآية في الأَبناءِ الصغار فالحال من الضمير في قوله تعالى : [ٱتَّبَعَتْهُمْ] ، فهو من المفعولين ، ومَنْ رأى أن الآية في الأَبناءِ الكبار فيحتمل أن يكون الحال من المفعولين ، ويحتمل أن يكون من المتَّبِعين الفاعلين ، وأَرجح الأَقوال في هذه الآية القول الأَول ؛ لأَن الآيات كلها في صفة إِحسان الله تعالى إِلى أَهل الجنة ، فذكر من جملة إِحسانه أَنه يرعى المُحْسِن في المسيءِ ، ولفظة [أَلْحَقْنَا] تقتضي أَن للمُلْحَق بعض التقصير في الأَعمال .

وقرأَ الجمهور من القراءِ : [أَلَتْنَاهُمْ] بفتح اللام من «أَلَتَ» ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو يحي ، وشبل : [أَلِتْنَاهُمْ] من «أَلِتَ» بكسر اللام ، وقرأَ الأَعرج : ﴿وَمَا آلَتْنَاهُمْ﴾ على وزن أَفْعَلْنَاهُمْ ، وقرأَ ابن كعب ، وابن مسعود : «لِتْنَاهُمْ» من «لات» ، وهي قراءَة ابن مصرف ، ورواها القواسُ عن ابن كثير ، وتحتمل قراءَة من قرأَ :

[أَلَتْنَاهُمْ] بفتح اللام أَن تكون من «أَلات» فإنه يقال : أَلاتَ يُليتُ إلَاتَةً ، ولَاتَ يَليتُ لَيْتاً ، وآلَتَ يُؤلِتُ إيلَاتاً ، وأَلَتَ يأْلَتُ ، وأَلِتَ يَأْلِتُ إلْتاً ، ووَلَتَ يَلتُ وَلْتاً ، كلها بمعنى بعض(١) .

ومعنى هذه الآية أَن الله تعالى يلحق المقصِّر بالمحسن ولا يُنقص المحسن من أَجره شيئاً ، وهذا تأْويل ابن عباس ، وابن جُبَير والجمهور ، ويحتمل قوله تعالى : ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَن يريد : من عملهم الحسن والقبيح ، ويكون الضمير في [عَمَلِهِمْ] عائداً على الأَبناءِ ، وهذا تأْويل ابن زيد ، ويُحَسِّن هذا الاحتمال قوله تعالى : ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ ، والرَّهين : المُرْتَهَنُ ، وفي هذه الأَلفاظ وعيد ، وحكى أَبو حاتم عن الأَعمش أَنه قرأَ : ﴿وَمَا لَتْنَاهُمْ﴾ بغير أَلف وبفتح اللَّام ، قال أَبو حاتم : لا تجوز هذه القراءَة على وجه من الوجوه .

و «أَمْدَدْتُ الشَّيْءَ» إذا سيرتَ إليه شيئاً آخر يكثِّره أَو يكثر لديه ، وقوله تعالى : ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ إشارة إلى ما روي من أَن المُنَعَّم إذا اشتهى لحماً نزل ذلك الحيوان بين يديه على الهيئة التي اشتهاه فيها ،

---

(١) نقل هذا كله أبو الفتح ابن جني عن قطرب ، وذكر معاني أخرى للفظة «ألَتَ» ، واستشهد على كلامه بالشِّعر العربي ، راجع المحتسب (٢-٢٩٠) . والمراد من كلامه أن جميع هذه الصِّيَغ بمعنى واحد .

وليس يكون في الجنة لحم يَخْتَرُ(١) ، ولا يتكلف فيه الذبح والسلخ والطبخ ، وبالجملة لا كلفة في الجنة .

و [يَتَنَازَعُونَ] معناه : يتعاطون ، ومنه قول الأَخطل :

نَازَعْتُهُ طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وَقَدْ صَاحَ الدَّجاجُ وَحانَتْ وَقْعَةُ السَّاري(٢)

و «الكَأْسُ» : الإناءُ وفيه الشراب ، ولا يقال في فارغ «كأْسٌ» ، قاله الزجاج ، وقرأ الجمهور من السبعة وغيرهم : ﴿لَا لَغْوٌ﴾ بالرفع ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ كذلك ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والحسن :

---

(١) أي : يَفْسد ويُنْتن ، يقال : خَتِرَ اللحم والتمر والجوز خُتوراً ، ويَخْتَرُ خَتراً بمعنى : فسد وأنتن ، وفي الحديث الشريف : (لولا بنو إسرائيل ما أنتن اللحم ولا خَتِرَ الطعام) . اللسان .

(٢) الضمير في (نازعته) يعود على شارب كان يشرب معه ، وهو في بيت قبل هذا البيت يقول فيه :

وَشَاربٍ مُرْبحٍ بالكَأسِ نادَمَني لا بِالْحَصُورِ وَلا فيها بِسَوَّارِ

ومعنى مُرْبح أنه يذبح للضيوف الرَّبَحَ وهو الفُصْلان الصغار ، واحدها رابح ، والحصور : الضَّيِّق البخيل ، والسَّوَّار : المعربد الوثاب ، وتنازعنا الشراب : تناولناه بعضنا من بعض ، فهو يعطيني وأنا أعطيه ، والرَّاح : الخمر ، والشمول : الخمر أيضاً ، سميت بذلك لأنها تشمل بريحها الناس ، وقيل : الشمول هي الخمر الباردة ، والدجاج يراد به هنا الديوك ، يعني أن وقت السحر قد حان ، وإذا قيل : هذا دجاج فهم يريدون الديوك ، وإذا قيل : هذه دجاج فهم يريدون الأنثى ، والسَّاري : السائر بالليل ، ووَقْعَة السَّاري من قولهم : وقعت الإبل إذا برَكت ، ويروى : (وَقْفَة) بالفاء .

﴿لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمَ﴾ بالنصب على التبرية ، وعلى الوجهين ، فقوله تعالى : [فيهَا] هو موضع الْخَبَر ، وأَغْنَى خبر الأَول عن ذكر خبر الثاني ، و «اللَّغْوُ» : السقط من القول ، و «التَّأْثيم» يلحق خمر الدنيا في نفس شُرْبها وفي الأَفعال التي تكون من شُرَّابها ، وذلك كله مرتفع في الآخرة .

و «اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ» أَجمل اللُّؤْلُؤ لأَن الصَّوْن والكِنَّ يُحَسِّنه ، وقال ابن جبير : أَراد أَنه الذي في الصَّدف لم تَنَلْهُ الأَيدي ، وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : إذا كان الغلمان كالؤلؤ المكنون فكيف المخدومون ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : (هم كالقمر ليلة البدر) (١) ، ثم وصف تعالى عنهم أَنهم في جملة تَنَعُّمهم يتساءَلون ، أَي عن أَحوالهم وما نال كل واحد منهم ، وأَنهم يتذكرون حال الدنيا وخشيتهم فيها عذاب الآخرة ، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : تساؤُلهم إذا بُعثوا في النفخة الثانية ، و «الإِشفاقُ» أَشد الخشية

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن قتادة ، قال : بلغني أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا الخدم مثل اللؤلؤ ، فكيف بالمخدوم ؟ قال : (والذي نفسي بيده إن فضل ما بينهما كفضل القمر ليلة البدر على النجوم) ، هكذا ذكره السيوطي في الدر المنثور ، وفي لفظ لابن جرير (إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب) .

ورقَّة القلب ، وقد قرأ أبو حيوة : [وَوَقَّانَا] بتشديد القاف ، وقرأ الجمهور بتخفيفها ، وأمال عيسى الثقفي [وَقَانَا] بتخفيف القاف ، و «السَّمُوم» : الحارُّ ، قال الرُّمَّاني : هو الذي يبلغ مسامَّ الإنسان ، وهو النار في هذه الآية ، وقد يقال في حرِّ الشمس وفي الريح : سَمُوم ، وقال الحسن : السَّمُوم اسم من أسماءِ جهنم . و [نَدْعُوهُ] يحتمل أن يريد : نعبده ، ويحسن هذا على قراءَة من قرأَ : [أَنَّهُ] بفتح الأَلف ، وهي قراءَة نافع - بخلاف - والكسائي ، وأَبي جعفر ، والحسن ، وأَبي نوفل ، أَي : من أَجل أَنه ، وقرأَ باقي السبعة ، والأَعرج ، وجماعة : [إِنَّهُ] على القطع والاستئناف ، ويحسن مع هذه القراءَة أَن يكون [نَدْعُوهُ] بمعنى نعبده ، أَو بمعنى الدعاءِ نفسه ، ومن رأَى [نَدْعُوهُ] بمعنى الدعاءِ نفسه فيحتمل أَن يجعل قوله تعالى : [أَنَّهُ] بالفتح هو نفس الدعاءِ الذي كان في الدنيا ، و [ٱلْبَرُّ] هو الذي يَبَرُّ ويُحْسن(١) ، ومنه قول ذي الرُّمَّة :

جَاءَتْ منَ الْبِيضِ زُعْراً لَا لِبَاسَ لَهَا ... إِلَّا الدِّهَـــاسُ وأُمٌّ بَرَّةٌ وأَبُ (٢)

---

(١) في اللسان : «البَرُّ من صفات الله تعالى ، وهو العطوف على عباده بِبِرِّه ولُطْفه» وفيه : بَرَّ يَبَرُّ ويَبِر بالفتح والكسر .

(٢) البيت في اللسان ، وقد ساقه شاهداً على أن «الدُّهْسَة» لونٌ يعلوه أدنى سواد ، ويكون في الرمال والمعز ، والزَّعَرُ : قِلَّةٌ ورِقَّةٌ وتفرُّقٌ في الشَّعر ، و«زُعْرٌ» هنا : جمع أَزْعَر=

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

هذا أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعاء إلى الله تعالى ومتابعة نشر الرسالة ، ثم قال تعالى مؤنساً له عليه الصلاة والسلام : فما أنت بإنعام الله تعالى عليك ولطفه بك كاهن ولا مجنون(١) ، وكانت العرب

= وزَعِر ، وفي حديث ابن مسعود أن امرأة قالت له : إنّي امرأة زعراءُ ، أي قليلة الشعر ، والبَرَّةُ : الرحيمة الكثيرة الحنان ، يصف الشاعر جماعة من المعز بأنها أقبلت بلونها الأبيض وشعرها القليل المتفرق ، وقد غطّى لونَها شيءٌ من السواد الخفيف ، ولكنها كانت تتمتع برعاية الأب والأم وما يحوطانها من الاهتمام والبر .

(١) قيل : إن قوله تعالى : ﴿ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ معناه القَسَم ، أي : وبنعمة الله ما أنت بكاهن ولا مجنون ، وقيل : ليس قسماً ، وإنما هو كما تقول : ما أنت بحمد الله بجاهل ، أي : قد برّأك الله تعالى من ذلك .

قد عهدت ملابسة الجنِّ الإِنْسَ بهذين الوجهين ، فنسبتَ محمداً صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، فنفى الله تعالى عنه ذلك .

قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ الآية . رُوي أَن قريشاً اجتمعت في دار النَّدوة فكثرت آراؤُهم في محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى قال قائل منهم : تربَّصوا به ريب المنون فإنه شاعر سيهلك كما هلك زهير والنَّابغة والأَعشى وغيرهم ، فافترقوا على هذه المقالة ، فنزلت الآية في ذلك .

و «التَّرَبُّص» : الانتظار ، ومنه قول الشاعر :

تَرَبَّصْ بِهَا رَيْبَ الْمَنُونِ لَعَلَّهَـــا تُطَلَّقُ يَوْماً أَوْ يَمُوتُ حَلِيلُهَـــا (١)

وأَنشد الطَّبريُّ :

. . . . لَعَلَّهَا سَيَهْلِك عَنْهَا زَوْجُهَا أَوْ سَيَجْنَحُ (٢)

---

(١) البيت في اللسان ، والطبري ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، وفتح القدير ، وقد ذكروه جميعاً شاهداً على أن التَّربُّص هو الانتظار ، وزاد بعضهم أن الفعل (تَرَبَّص) يتعدى بإسقاط حرف الجر ، وأن الأصل : تربَّص إلى ريب المنون ، وأنَّ (ريب المنون) هو الموت أو حوادث الدهر ، والحليل هو الزوج ، ومعنى البيت : انتظر الأيام وحوادثها فلعلَّ ذلك يحقق أملك بأن يموت زوجها أو يطلقها .

(٢) هذه هي الرواية التي انفرد بها الطبري لهذا البيت ، ومع ذلك وقع تحريف في الكلمة الأخيرة ، فوردت في أُصول الطبري – كما ذكر مُحَقِّقُهُ – «أو شحيح» ، وبهذا اختل المعنى والوزن ، وحاول الإصلاح فاختار بدلا منها كلمة «تُسَرَّح» ، والتَّسريح هو الطلاق =

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا ﴾ وعيدٌ في صيغة أَمر ، و « الْمَنُونُ » من أَسماءِ الموت ، وبه فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما ، ومن أَسماءِ الدَّهر ، وبه فسَّر مجاهد ، وقال الأَصمعي : الْمَنُون واحد لا جمع له ، وقال الأَخفش : هو جمع لا واحد له .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

و « الرَّيْب » هنا : الحوادث والمصائب لأَنها تريب من نزلت به ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في أَمر بنته فاطمة رضي الله تعالى عنها حين ذُكر أَن عليًّا رضي الله عنه يتزوج بنت أَبي جهل : (إنما فاطمة بضعة مني يُريبُني ما أَرابَها) (١) ، يقال : أَرابَ وَرَابَ ،

= ويناسب المعنى ، وفي الأصول المخطوطة هنا وردت الكلمة « أو سَيَجْنَح » أي يميل ويبعد عنها ، وهو يعنى الفراق والطلاق . ومن الغريب أن القرطبي نسب البيت إلى ابن عباس رضي الله عنهما ، لكن المحقق أكرمه الله غيَّر ذلك إلى : « قال الشاعر » .

(١) حديث فاطمة رضي الله عنها المشار إليه هنا أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ، والترمذي في المناقب ، وابن ماجه في النكاح ، وهو عن المِسْوَر بن مخرمة ، من طرق مختلفة ، وفيه – واللفظ لمسلم – أن المِسْوَر سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وهو يقول : (إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن يُنكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب ، فـلا آذَنُ لهم ، ثم لا آذَنُ لهم ، ثم لا آذَنُ لهم ، إلاَّ أن يُحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، فإنما ابنتي بَضْعَةٌ مني ، يريبني ما رابها ، ويؤذيني ما آذاها) ، وفي رواية : (وإنِّي لستُ أُحَرِّم حلالاً ولا أُحِلُّ حراماً ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدوِّ الله مكاناً واحداً أبداً) ، وفي رواية ثالثة : (وإنَّها والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً) ، قال الراوي : فترك عليٌّ الخِطْبَة .

ومنه قول الشاعر :

. . . . فَقَدْ رَابَنِي مِنْهَا الْغَدَاةَ سُفُورُهَا (١)

وقول الآخر :

وَقَدْ رابَنِي قَوْلُهَا يَا هَنَـــاهُ . . . . (٢)

---

(١) هذا عجز بيت قاله توبة بن الحُمَيِّر في ليلى بنت عبد الله بن الرَّحالة التي أحبها وقال فيها الشعر ولما خطبها إلى أبيها رفض أن يزوجه إيَّاها ، والبيت بتمامه :

وَكُنْتُ إذا ما جِئْتُ لَيْلَى تبَرْقَعَتْ فَقَدْ رَابَنِي مِنْهَا الْغَدَاةَ سُفُورهَا

وكان من خبر توبة أنه كان يزور ليلى بعد أن تزوجت في بني الأدْلع ، وجاء يوماً لزيارتها فإذا هي سافرة لتحذِّره ، ولم ير منها البشاشة التي تعوَّدها ، فعلم أن ذلك لأمر ما ، فرجع إلى راحلته فركبها ومضى ، وتابعه بنو الأدلع ولكنه فاتهم ، وقال في ذلك قصيدة منها هذا البيت ، والشاهد أن « راب » في البيت بمعنى : فعل ما يُريب ، فهي مثل أراب ، قال ابن الأثير : هما بمعنى شَكَّكَنِي .

(٢) هذا صدر بيت قاله امرؤ القيس من قصيدة له يصف فيها فرسه وخروجه إلى الصيد ، والبيت بتمامه :

وَقَدْ رَابَنِي قَوْلُهَا يا هَنَـــاهُ وَيْحَكَ أَلْحَقْتَ شَرّاً بِشَــرّ

والبيت في اللسان ، وقد ذكره شاهداً على أن « هَنَاه » اسم من أسماء النداء ، ومعناه : « يا فُلانُ » ، قال : « وقولهم : يا هَنُ أقْبِل ، يا رجلُ أقْبِل ، ويا هنانُ أقبلا ، ويا هنونَ أقْبلوا ، ولك أن تُدخل فيه الهاء لبيان الحركة فتقول : يا هَنَهْ ، كما تقول : لِمَهْ وسُلْطَانِيَهْ ، ولك أن تُشبع الحركة فتتولد ألف فتقول : يا هناةُ أقبل ، وهذه اللفظة تختص بالنداء خاصةً ، والهاءُ في آخره تصير تاءً في الوصل ، ولك أن تقول : « يا هناهُ أقبل » بهاءٍ مضمومة ...وأنشد أبو زيد لامرئ القيس : (وَقَدْ رابَنِي ... البيت) . يعني : كنَّا مُتَّهَمَيْن فحقَّقْتَ الأمر » ، والشاهد هنا كالشاهد في البيت السابق . ولكن قيل : إن «أرابني في كذا» معناها : شَكَّكَنِي وأوهمني الريبة فيه ، فإذا استيقنت قلتَ : «رابني» بغير ألف . راجع اللسان .

وأمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بتوعُّدهم بقوله تعالى : ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ .

وقوله تعالى : [بِهَذَا] يحتمل أن يشير إلى هذه المقالة «هو شاعر» ، ويحتمل أن يشير إلى ما هم عليه من الكفر وعبادة الأَصنام ، و «الأَحلام» : العقول ، و [أَمْ] المتكررة في هذه الآية قدَّرها بعض النُّحاة بأَلف الاستفهام ، وقدَّرها مجاهد بـ «بَلْ» ، والنظر المحرَّر في ذلك أَن منها ما يتقدَّر بـ «بل والهمزة» على حدِّ قول سيبويه في قولهم : «إِنَّهَا لَإِبِلٌ أَمْ شَاءٌ» ، ومنها ما هي معادلة ، وذلك قوله تعالى : ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ ، وقرأَ مجاهد : ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ ، وهو معنى قراءَة الناس إِلَّا أَن العبارة بـ [أَمْ] خرجت مخرج التوقيف والتوبيخ ، وحكى الثعلبي عن الخليل أَنه قال : «ما في سورة الطُّور من استفهام كلُّه استفهام وليس بعطف» ، و [تَقَوَّلَهُ] معناه : «قال عن الغير : إِنه قاله» ، فهي عبارة عن كذب مخصوص .

ثم عجَّزهم تعالى بقوله : ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ ، والمماثلة المطلوبة منهم هي في النظم والرصف والإِيجاز ، واختلف الناس ، هل كانت العرب قادرة على الإِتيان بمثل القرآن قبل مجيءِ محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال شُذَّاذٌ يُسَمَّوْن أَهل الصرفة : كانت قادرة

وصُرفت ، وقال الجمهور : لم تكن قطُّ قادرة ، ولا في قدرة البشر أن يأْتي بمثله ؛ لأَن البشر لا يفارقه النسيان والسهو والجهل ، والله تعالى محيط علمُه بكل شيءٍ ، فإذا ترتبت اللَّفظة في القرآن عَلِم بالإحاطة التي تصلح أن تَليهَا ويَحْسُن معها المعنى ، وذلك متعذر في البشر . والهاءُ في [مِثْلِهِ] عائدة على القرآن ، وقرأَ الجحدري : ﴿بِحَدِيثِ مِثْلِهِ﴾ بإضافة «الحديث» إلى [مِثْلِهِ] ، فإنها (١) ـ على هذا ـ عائدة على محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ ، قال الطبري : معناه : أَمْ خُلِقُوا خَلْق الجماد من غير حَيٍّ (٢) فهم لا يُؤْمرون ولا يُنْهون كما هي الجمادات عليه ؟ وقال آخرون : معناه : أَم خُلقوا من غير علَّة ولا لغايةِ عقاب ولا ثواب فهم لذلك لا يسمعون ولا يتشرَّعون ؟ وهذا كما تقول : فعلتُ كذا وكذا من غير علَّة ، أي لغير علَّة ، ثم وقفهم تعالى على جهة التوبيخ على أَنفسهم ، أَهم الذين خَلَقوا الأَشياءَ فهم لذلك يتكبَّرون ؟ ثم خصَّص تعالى من الأَشياءِ السموات والأَرض لعظمها وشرفها في المخلوقات ، ثم حكم تعالى عليهم بأَنهم لا يوقنون ولا ينظرون نظراً يؤدِّيهم إلى اليقين .

---

(١) أي الهاءُ في [مِثْلِهِ] .

(٢) عبارة الطبري أوضح ، وهي : «أَخُلِق هؤلاءِ المشركون من غير شيءٍ ، أي من غير آباءٍ ولا أُمَّهاتٍ ؟» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ
يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ
ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ
غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟
سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ بمنزلة قوله تعالى : «أَم عندهم الاستغناءُ عن الله تعالى في جميع الأُمور» ؟ لأَن المال والصحة والقوة وغير ذلك من الأَشياءِ كلها مِنْ خزائن الله تبارك وتعالى . قال الزهراوي : وقيل : يريد بالخزائن العلم ، وهذا قول حسنٌ إذا تُؤمِّل وبُسط ، قال الرُّمَّاني : خزائنه تعالى : مقدوراته . و «المُصَيْطِرُ» : المُسَلَّط القاهر ، وبذلك فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما ، وأَصله بالسِّين ، ولكن كتبه بعض الناسِ وقرأَه بالصَّاد مراعاة للطَّاءِ ليتناسب النُّطق ، وحكى أَبو عبيدة : «تسيطرتَ عليَّ» إذا اتخذتني خوَلًا .

و «السُّلَّم» : السبب الذي يصعد به كان ما كان من خشب أَو بناءٍ أَو حبال أَو غيره ، ومنه قول ابن مقبل :

لَا تُحْرِزُ الْمَرْءَ أَحْجَاءُ الْبِـلَادِ وَلَا تُبْنَى لَهُ فِي السَّمٰوَاتِ السَّـلَالِيمُ (١)

وحكى الرُّمَّاني قال : لا يقال «سُلَّم» إِلَّا لِمَا بُني من الأَدراج وإِنما السُّلَّم المُشَبَّك ، وبيت الشِّعر يردُّ عليه ، والمعنى : أَلَهُم سُلَّم إِلى السماءِ يستمعون فيه ؟ أَي عليه ومنه ، وهذه حروف يسدُّ بعضها مسدَّ بعض (٢) ، والمعنى : يستمعون الخَبـر (٣) بصحة ما يَدَّعون ، فلْيَأْتوا بالحجـة المبيِّنة في ذلك .

وقوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَاتُ﴾ الآية ... معناه : أَم هم أَهل الفضيلة علينا فيلزم لذلك انتحاؤُهم وتكبُّرهم ؟ ثم قال تعالى : أَم تسأَلهم يا محمد على الإِيمان بالله تعالى وشرعه أُجرة يُثقلهم غُرْمُها

---

(١) البيت لتميم بن أُبَيّ بن مُقْبل العَجْلاني ، وهو في اللسان ، وتُحْرِزُ : تصون وتحفظ ، والأَحْجَاءُ : النواحي ، مثل الأَرْجاءِ ، والواحد فيهما حَجاً ورجاً مقصور ، ويُروى : أَعْناءُ البلاد ، والأَعْناءُ أَيضاً النواحي والجوانب ، والواحد عِنْو ، والسلاليم جمع سُلَّم ، وهو الدرجة والمِرْقاة ، يذكَّر ويؤنث ، وقد سميِّ السُّلَّم سُلَّماً لأَنه يُسْلم الإِنسان إِلى حيث يريد ، وقد احتاج الشاعر إِلى زيادة الياء في «السلاليم» حتى يسلم الوزن .

(٢) ومثل هذا كثير ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ ، أَي : على جذوع النخل ، وهذا تقدير الأَخفش ، وأَما أَبو عبيدة فقدَّره : «يستمعون به» .

(٣) يعني أَن (يَسْتَمِعُونَ) لها مفعول محذوف تقديره : الْخَبَرَ ، وقد جاءَت هذه الجملة في بعض الأُصول : «يستمعون الجن» .

فهم لذلك يكرهون الدخول فيما يوجب غرامتهم؟ ثم قال تعالى : أَم عندهم علم الغيب فهم يُبَيِّنُون ذلك للناس سُنناً وشرعاً يكتبونه ، وذلك عبادة الأَوثان وتسييب السوائب وغير ذلك من شرهم؟ وقيل : المعنى : فهم يعلمون متى يموت محمد الذي يتربَّصون به ؟ و [يَكْتُبُونَ] بمعنى يحكمون ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني تعالى : أَم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون؟ ثم قال تعالى : أَمْ يُريدون كيداً بك وبالشَّرع ؟ ثم جزم الخبر بأَنهم هم المكيدون ، أَي هم المغلوبون ، فسمَّى تعالى غلبتهم كيداً إِذْ كانت عقوبة الكيد .

ثم قال تعالى : أَم لهم إِله غير الله يعصمهم ويمنعهم ويدفع في صدر إِهلاكهم ، ثم نزَّه تبارك وتعالى نفسه عما يُشركون به من الأَصنام والأَوثان ، وهذه الأَشياءُ التي وقفهم تعالى عليها حصرت جميع المعاني التي توجب الانتحاءَ والتكبُّر والبُعد من الائتمار ، فوقَفهم تعالى عليها ، أَي ليست لهم ، ولا يبقى شيءٌ يوجب ذلك إِلَّا أَنهم قوم طاغون ، وهذه صفة فيها تكسُّبهم وإِيثارهم ، فتعلق بذلك عقابهم . ثم وصفهم تعالى بأَنهم على الغاية من العُتُوِّ والتمسُّك بالأَقوال الباطلة في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً﴾ الآية ، وذلك أَن قريشاً كان في جملة ما اقترحت «أَن تُسْقِطَ السماءَ علينا كِسَفاً» ، وهي القطَعُ ، واحدها

كِسْفَة ، وتُجمع أيضاً على «كِسْف» كتَمْرَة وتَمْر ، وقال الرُّمَّاني : هي التي تكون بقدر ما يكسف ضوءَ الشمس ، فأَخبر الله تعالى عنهم في هذه الآية أَنهم لو رأَوْا كسْفاً ساقطاً حسب اقتراحهم لبلغ بهم العُتُوُّ والجهل والبعد عن الحق أَن يُغالطوا أَنفسهم وغيرهم ويقولوا : «سَحَابٌ مَرْكُومٌ» ، أَي كثير قد تراكم بعضه فوق بعض ، ولهذه الآية نظائر في آيات أُخر (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

قوله تعالى : [فَذَرْهُمْ] وما جرى مجراه من الموادعة منسوخ بآية السيف ، وقرأَ أَبو جعفر ، وأَبو عمرو - بخلاف عنه - : [يَلْقَوْا] ،

---

(١) من ذلك قوله تعالى في الآية (٩٢) من سورة (الإسراء) : ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ ، وقوله تعالى في الآية (١٨٧) من سورة (الشعراء) : ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ .

والجمهور على [يُلَاقُوا] . واختلف الناس في اليوم الذي تُوُعِّدُوا به – فقال بعض المتأَولين : هو موتهم واحداً واحداً ، وهذا على تجوُّز ، و «الصَّعْقُ» : التعذيب في الجملة وإن كان الاستعمال قد كثر فيه فيما يصيب الإِنسان من الصيحة المفرطة ونحوه، ويحتمل أَن يكون اليوم الذي تُوُعِّدُوا به يوم بَدْر لأَنهم عُذِّبوا فيه ، وقال الجمهور : التوعُّد بيوم القيامة لأَن فيه صعقة تعمُّ جميع الخلائق ، ولكن لا محالة أَن بين صعقة المؤمن وصعقة الكافر فرقاً ، وقرأَ جمهور القراء : [يَصْعَقُونَ] من : صَعِقَ الرَّجلُ بكسر العين ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن : [يَصْعِقُونَ] بفتح الياءِ وكسر العين ، وقرأَ عاصم ، وابن عامر ، وأَهل مكة – في قول شبـل – : [يُصْعَقُونَ] بضم الياءِ وفتح العين، وذلك من : أَصعق الرجـل غيره ، وحكى الأَخفش : «صُعِقَ الرجلُ» بضم الصاد وكسر العين ، قال أَبو علي : فجائز أَن يكون منه ، فهو مثل «يُصْرَفُونَ» ، قال أَبو حـاتم : وفتح أَهل مكة اليـاءَ في قول إِسماعيل .

و [يُغْنِي] معناه : يكون منه غَناءٌ ودفاعٌ ، ثم أَخبر تعالى بأَنهم لهم دون هذا اليوم – أَي قبله – عذاب ، واختلف الناس في تعيينه – فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : هو بدر والفتح ونحوه ،

وقال مجاهد : هو الجوع الذي أَصاب قريشاً ، وقال البراءُ بن عازب ، وابن عباس أَيضاً : هو عذاب القبر ، ونزع ابن عباس رضي الله عنهما في وجود عذاب القبر بهذه الآية ، وقال ابن زيد : هو مصائب الدنيا في الأَجسام وفي الأَحبة وفي الأَموال ، هي للمؤمنين رحمة وللكافرين عذاب ، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه : «دُونَ ذَلِكَ قَرِيباً ولكن لا يَعْلَمُونَ» .

ثم أَمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر لحكم الله تبارك وتعالى والمضيِّ على نذارته وَوَعْده بقوله تعالى : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ، ومعناه : بإدراكنا وأَعْيُن حفظنا لك وحيطتنا ، كما تقول : فلان يرعاه الملك بعين ، وهذه الآية ينبغي أَن يُقَدِّرها كلُّ مؤمن في نفسه فإنها تفسح مضايق الدنيا ، وقرأَ أَبو السَّمال : [بِأَعْيُنَّا] بنون واحدة مشـــدَّدة .

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ - فقال أَبو الأَحوص عوف بن مالك (١) : هو التَّسبيح المعروف ، أَي يقول

(١) هو عوف بن مالك بن نَضْلَة - بفتح النون وسكون الضاد المعجمة - الجُشَمي - بضم الجيم وفتح الشين المعجمة - أبو الأحوص الكوفي ، مشهور بكنيته «أبو الأحوص» ، ثقة ، من الثالثة ، قُتل في ولاية الحجاج على العراق . (تقريب التهذيب) .

في كل قيام : سبحان الله وبحمده ، وقال عطاءٌ : المعنى : حين تقوم من كل مجلس ، وقال ابن زيد : التسبيح هنا هو صلاة النوافل ، وقال الضحاك ، وابن زيد : هذه إشارة إلى الصلوات المفروضة ، فقوله تعالى : ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ : الظُّهر والعصر ، أَي : حين تقوم من نوم القائلة ، وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱللَّيْلِ﴾ : المغرب والعشاءُ ، وقوله تعالى : ﴿وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾ : الصُّبح ، ومَنْ قال هي النوافل جعل «إِدْبَارَ ٱلنُّجوم» ركعتي الفجر ، وعلى هذا القول جماعة كثيرة منهم : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أَبي طالب ، وأَبو هريرة ، والحسن ، رضي الله عنهم ، وقد روي مرفوعاً ، ومن جعله التسبيح المعروف جعل قوله تعالى : ﴿حينَ تَقُومُ﴾ مثالًا ، أَي : حين تقوم وحين تقعد وفي كل تصرُّفك ، وحكى منذر عن الضحاك أَن المعنى : حين تقوم في الصلاة بعد تكبيرة الإحرام فقل : (سبحانك اللَّهم وبحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالى جدُّك...) الحديث(١) .

---

(١) هذا الحديث أخرجه الترمذي في الصلاة ، والنسائي في الافتتاح ، وابن ماجه في الإقامة ، والدارمي في الصلاة ، وأحمد في مسنده (٣ــ٥٠ ، ٦٩) ، عن أبي سعيد الخدري ، ولفظه كما في مسند أحمد : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل واستفتح صلاته وكبَّر قال : (سبحانك اللَّهم وبحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالى جَدُّك ، ولا إلَه غيرك) ، ثم يقول : (لا إلَه إلاّ الله) ثلاثاً ، ثم يقول : (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، =

وقرأ سالم بن أبي الجعد (١) ، ويعقوب : ﴿وَأَدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾ بفتح الهمزة بمعنى : وأعقاب ، ومنه قول الشاعر :

فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الغَدَاةَ كَنَاظِرٍ مَعَ الصُّبْحِ فِي أَعْقَابِ نَجْمٍ مُغَرِّبِ(٢)

وقرأ جمهور الناس : ﴿وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾ بكسر الهمزة .

كمل تفسير سورة الطُّور والحمد لله رب العالمين

= من همزه ونفحه) ، ثم يقول : (الله أكبر) ثلاثاً ، ثم يقول : (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفحه ونفثه) .

(١) هو سالم بن أبي الجعد رافع ، الغطفاني الأشجعي مولاهم ، الكوفي ، ثقة ، وكان يرسل كثيراً ، من الثالثة ، مات سنة سبع أو ثمان وتسعين ، وقيل : مائة أو بعد ذلك ، ولم يثبت أنه جاوز المائة . (تقريب التهذيب) .

(٢) هذا البيت لقيس بن المُلَوَّح ، وهو في الديوان ، والأغاني ، واللسان ، وذكر صاحب اللسان أن المبَرِّد نسب هذا البيت إلى أبي حَيَّة النُّمَيْري ، والمُغَرِّب : الذي يأخذ في ناحية المَغْرِب ، والشاهد في البيت أن « أعقاب » بمعنى : بَعْده ، أو خَلْفه ، وأعقاب النجوم بمعنى (أدبار النجوم) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٥٣) سورة النجم مكية
وآياتها اثنتان وستون

هي مكِّيَّة بإجماع من المتأولين (١)، وهي أول سورة أعلن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجهر بقراءتها في الحرم والمشركون يستمعون ، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبي لهب فإنه رفع حفنة من تراب إلى جبهته وقال : يكفيني هذا (٢) ،

---

(١) لكن حكي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : إلا آية منها ، وهي قوله تعالى في الآية ٣٢ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ الآية . قال القرطبي : والصحيح أنها مكية لما روى ابن مسعود أنه قال : هي أول سورة أعلنهارسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة .

(٢) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس ، وروى أيضاً مثله عن عبد الله ، وفيه أن الرجل الذي أخذ كفـًّا من تراب هو أُمية بن خلف ، وقد أخرج هذا الحديث أيضاً الإمام =

وسبب هذه السُّورة أَن المشركين قالوا : إنَّ محمداً يتقوَّل القرآن ويختلق أَقواله ، فنزلت السُّورة في ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ ﴾

أَقسم الله تعالى بهذا المخلوق تشريفاً له وتنبيهاً منه ليكون معتبراً فيه ، حتى تؤول العبرة فيه إلى معرفة الله تبارك وتعالى ، وقال الزهراوي : المعنى : وربّ النَّجم ، وفي هذا قلق مع لفظ الآية ، واختلف المتأَولون في تعيين النَّجم المُقسم به ـ فقال ابن عباس ، ومجاهد ، والفراءُ ، وبيَّنه منذر بن سعيد : هو الجملة من القرآن إذا تنزَّلت ، وذلك أَنه رُوي أَن القرآن نزل على النبي صلى الله عليه وسلم نجوماً ، أَي أَقداراً مقدرة في أَوقات ما ، ويجيءُ [هَوَى] ـ على هذا التأْويل ـ بمعنى

= مسلم، وابن أَبي شيبة ، وأَبو داود ، والنسائي ، وابن مردويه ، ذكر ذلك الإمام السيوطي في الدرّ المنثور .

نزل ، وفي هذا الهُوِيِّ بُعْدٌ وتحاملٌ على اللُّغة ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾(١)، والخلاف في هذا كالخلاف في ذلك ، وقال الحسن ، ومعمر بن المثنى ، وغيرهما : النجم هنا اسم جنس ، أراد : والنجوم إذا هوت ، واختلف قائلوا هذه المقالة في معنى [هَوَى] - فقال جمهور المفسرين : هَوَى للغروب ، وهذا هو السابق إلى الفهم من كلام العرب ، وقال الحسن بن أبي الحسن ، وأبو حمزة اليماني : هَوَى عند الانكدار في القيامة ، فهي بمعنى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنْتَثَرَتْ﴾(٢)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - في كتاب الثعلبي - : هوى في الانقضاض في أَثر العفْرِيَة(٣)، وهي رجوم الشياطين(٤)، وهذا القول تُسعده اللغة ،

---

(١) الآية (٧٥) من سورة (الواقعة) ، وقد نقل الفراءُ عن عبد الله أنه قال عن قراءة الكسائي : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ : هو مُحْكم القرآن .

(٢) الآية (٢) من سورة (الانفطار) .

(٣) في اللسان «قال الخليل : شيطانٌ عِفْرِيةٌ وعِفْرِيتٌ ، وهم العَفَارِيةُ والعَفَاريت ، والعِفْرِيَةُ : الداهية» .

(٤) وهي التي أشار إليها قوله تعالى في سورة الصافات : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ، وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ الآيات إلى قوله سبحانه : ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ .

والتأْويلات في [هَوَى] محتملة كلُّها قويةٌ ، ومن الشاهد في النَّجم الذي هو اسم الجنس قول الرَّاعي :

فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ في مُسْتَحيرَةٍ سَرِيعٍ بِأَيْدِي الْآكِلِينَ جُمُودُهَا(١)

يصف إهالةً صافية ، والمُسْتَحيرة : القِدْرُ التي يُطبخ فيها ، قاله الزجاج ، وقال الرُّمَّاني : هي شحمة صافية حين ذابت . وقال مجاهد ، وسفيان : النَّجم في قَسَم الآية : الثُّرَيَّا ، وسقوطها مع الفجر هو هُوِيُّها ، والعرب لا تقول النَّجم مطلقاً إلَّا للثُّرَيَّا ، ومنه قول العرب : «طَلَع النَّجْمُ عشاءً ، فابْتَغَى الرَّاعي كسَاءً ، طَلَعَ النَّجْمُ غُدَيَّهْ ، فابْتَغَى

(١) الراعي هو حُصَين بن معاوية النُّمَيْري ، لُقِّب بالرَّاعي لأنه كان يصف راعي الإبل في شعره ، والبيت في اللسان ، وفي حماسة أبي تمام ، وفي مجاز القرآن لأبي عبيدة ، والمستحيرة : الجَفْنَة أو القِدْر التي يُطْبخ فيها ، سمِّيت مستحيرة لأن الدَّسم يتحير فيها ، والشاعر يتحدث في البيت عن امرأة أضافها ، وقال : إنها كانت تَعُدُّ النجم في هذه القِدْر ، وأراد بالنجم كما قال صاحب اللسان : الثُّرَيَّا ؛ لأن فيها ستة أنْجُم ظاهرة يتخللها نجوم صغار خفية ، وابن عطية يقول : إن النجم هنا اسم جنس يراد به جميع النجوم ، ومعنى (تَعُدُّ النَّجْم) أنها ترى النجوم في هذه المستحيرة وتستطيع أن تَعُدَّها — من العَدَد — لأنها صافية والنجوم ظاهرة فيها ، قال أبو العلاء : وقد يجوز هذا الوجه ، وقد يحتمل أن يكون (تَعُدُّ) بمعنى : تحسب وتظن ، بمعنى أن المرأة تظن أن النجم في القدر لما تراه من بياض الشحم ، وهذا الشحم الصافي الذي ذاب في القدر يجمد بسرعة عندما يأخذه الآكلون بأيديهم ويَبْعُد عن النار .

الرَّاعي شُكَيَّهْ»(١)، و [هَوَى] – على هذا القول – يحتمل الغروب ويحتمل الانكدار(٢)، و «هَوَى» في اللُّغة معناه: خرق الهواءَ ومقصده السُّفْل، أو مَصيره وإن لم يقصده، ومنه قول الشاعر:

هَوَى ابْني مِنْ شَفَا جَبَلٍ فَزَلَّتْ رِجْلُهُ وَيَدُهْ(٣)

وقول الشاعر:

وَإِنَّ كَلَامَ الْمَرْءِ في غَيْرِ كُنْهِهِ لَكَالنَّبْلِ تَهْوِي لَيْسَ فيها نِصَالُهَا(٤)

---

(١) ذكر هذا السجع صاحب اللسان في (نجم)، قال: «وفي التنزيل العزيز ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، أقسم الله تعالى بالنجم، وجاء في التفسير أنه الثُّرَيَّا، وكذلك سمتها العربُ، ومنه قول ساجعهم: طلع النَّجم عشاءً... الخ والشُّكَيَّةُ هي الشَّكْوَى، يقال: شكوتُ فلاناً أشْكُوهُ شَكْوَى وشِكَايَةً وشَكِيَّةً وشكاةً.

(٢) أي: التَّناثر في جهات متفرقة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾، والمعنى: انْتَثَرَتْ.

(٣) هَوَى: سقط إلى أسفل وهو لم يقصد ذلك، وهذا هو موضع الشاهد، والشَّفَا: حرف الشيء وحدُّه، قال الله تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾، وزلَّ: زَلِقَ، ولم أقف على قائله.

(٤) البيت في اللسان غير منسوب، قال: «كُنْهُ كلِّ شيءٍ: قَدْرُهُ ونهايته وغايته... تقول: بلغت كُنْهَ هذا الأمر، أي غايته، وفعلتُ كذا في غير كنهه، وأنشد: (وإنَّ كلامَ المَرْءِ في غَيْرِ كُنْهِهِ... البيت)، ولا يُشتق منه فعل، والنَّبْل: السهام، وهي مؤنثة لا واحد لها من لفظها، لا يقال نبلة، وتَهْوِي: تسرع إلى الرَّمية، والنَّصْلُ: حديدة السَّهْم، يقول الشاعر: إن كلام المرء في غير مكانه ووقته وبدون هدف كالنّبل يرمي بها الإنسان وليس فيها نصلها، فهي لا تصيب هدفاً ولا تحقق غاية ولا قيمة لها ولا نتيجة.

وقول زهير :

. . . . هُوِيَّ الدَّلْوِ أَسْلَمَهَا الرِّشَــاءُ (١)

ومنه قولهم للجراد : الهاوي(٢)، ومنه : هُوِيُّ العقاب .

والقَسَم واقع على قوله تعالى : ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ ، و «الضَّلَالُ» أبداً يكون بغير قصد من الإنسان إليه ، و «الغَيُّ» شيءٌ كأَنك تتكسَّبه وتريده ، فنفى الله تعالى عن قلبه هذين الحالين ، وغَوَى الرجل يَغْوي إذا سلك سبيل الفساد والعِوَج ، نفى الله تعالى عن نبيِّه صلى الله عليه وسلم أن يكون ضلَّ في هذه السبيل التي أسلكه

(١) هذا عجز بيت قاله زهير بن أبي سُلْمى ، والبيت بتمامه :

فَشَجَّ بِهَا الأمَاعِزَ فَهْي تَهْوِي هُوِيَّ الدَّلْو أَسْلَمَهَا الرِّشَــاءُ

والبيت في الديوان ، وفي اللسان ، والشاعر يصف فيه حماراً وحشيّاً يقود قطيعاً من الأتن في أرض وعرة ، فالفاعل بالفعل « شَجَّ » هو الحمار ، والضمير في « بها » يعود على الأتُن ، وشَجَّ الأرض معناها : ركب الأرض وعلاها ، والأماعز : حُزون الأرض الكثيرة الحَصَى ، وتَهْوي : تُسرع في انطلاقها وسط هذه الحُزون ، والرشاءُ : الحبل الذي ترفع به الدلو من البئر ، ومعنى « أسلمها » تركها وانقطع فهي تسقط بسرعة ، يشبه زهير هذه الأتن وهي تجري بسرعة كبيرة وسط هذه الأرض الجرداء وخلف هذا الحمار الذي يقودها ، يشبهها في سرعتها وانقضاضها بالدَّلو التي انقطع حبلها وهي ملأى بالماء فاندفعت تَهوي إلى أسفل .

(٢) إذا أجدب الناس قال العرب : « أتَى الهاوي والعاوي ، فالهاوي : الجراد ، والعاوي : الذئب » (من اللسان) .

الله تعالى إيّاها ، وأثبت الله تعالى في سورة الضُّحى أنه قد كان قبل النُّبُوَّة ضالًّا بالإضافة إلى حاله من الرُّشد بعدها (١) .

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَى﴾ يريد تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أنه ليس بمتكلم عن هواه ، أي بهواه وشهوته ، وقال بعض العلماءِ : المعنى : وما ينطق القرآن المنزل عن هوًى وشهوة ، ونسب تعالى النطق إليه من حيث يُفهم منه ، كما قال تعالى : ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ (٢) ، وأسند الفعل إلى القرآن ولم يتقدم له ذكر لدلالة المعنى عليه . وقوله تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ يُراد به القرآن بإجماع ، والوحيُ : إلقاءُ المعنى في خفاءٍ ، وهذه العبارة تعم المَلَك والإلهام والإشارة وكل ما يُحفظ من معاني الوحي . والضمير في قوله تعالى : [عَلَّمَهُ] يحتمل أن يكون للقرآن ، والأظهر أنه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأمَّا المُعَلِّم فقال قتادة ، والربيع ، وابن عباس : هو جبريل عليه السلام ، أي : علَّم محمداً صلى الله عليه وسلم القرآن ، وقال الحسن : المُعَلِّم الشَّديد القُوى هو الله تعالى ، و «ٱلْقُوَى» جمع قُوَّة ، وهذا في جبريل عليه السلام متمكن ، ويؤيده

(١) وذلك في قوله تعالى في سورة الضُّحَى : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾ .
(٢) من الآية (٢٩) من سورة (الجاثية) .

قوله تعالى : ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (١) ، و ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ معناه : ذو قُوَّة ، قاله قتادة ، وابن زيد ، والربيع ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تحلُّ الصَّدقة لِغَنِـــيٍّ ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ) (٢) ، وأَصْل المِرَّة من مرائر الحبل (٣) وهي فتله وإحكام عمله ، ومنه قول امرئ القيس :

. . . . بكُلِّ مُمَرِّ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ (٤)

---

(١) الآية (٢٠) من سورة (التكوير) .

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، وأحمد ، عن عبد الله بن عمرو . والسَّوِيُّ : الصحيح السليم الأعضاء .

(٣) في اللسان : «المرائر : الحبال المفتولة على أكثر من طاق ، واحدها مرير ومريرة» وفيه «كلُّ قُوَّة من قوى الحبل مِرَّة ، وجمعها مِرَرٌ» .

(٤) هذا عجز بيت لامرئ القيس ، روي بهذه الألفاظ ، وورد هكذا في الأصول ، ولكن الرواية الثابتة في الديوان ، وفي شرح القصائد السبع لأبي بكر الأنباري ، وفي موسوعة الشعر العربي تختلف عن ذلك ، وليس فيها شاهد هنا ، والبيت بتمامه كما في الديوان :

فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

ويروى : (كأن نجومه بأمْرَاسِ كتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ) ، وقد قال ابن الأنباري : إن الأصمعي لم يرو هذا البيت ضمن معلقة امرئ القيس ، ورواه يعقوب وغيره ، قال يعقوب : معناه : كأن نجومه شُدَّتْ بِيَذْبُل ، وهو الجبل ، والمغار : الحَبْل الشديد الفتل ، وكذلك (مُمَرُّ الفتل) معناه : مُحْكَم الفتل ، وقوله : (مِنْ لَيْلٍ) معناه التفسير للتعجب ، ولم يستشهد بهذا البيت أحد من المفسرين المعروفين كالطبري والقرطبي والزمخشري لأن الرواية الصحيحة ليست فيها كلمة (مِرَّة أو مُمَرّ) .

وقال قوم ممن قال إنَّ «ذا المرَّة» جبريل : معنى ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ : ذو هيئة حسنة ، وقال آخرون : بل معناه : ذو جسم طويل حسن ، وهذا كله ضعيف (١) .

و [ٱسْتَوَى] مُسْند إلى الله تعالى في قول الحسن الذي قال : إنه المُتَّصف بقوله تعالى : ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَى﴾ ، وكذلك يجيءُ قوله تعالى : ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ ٱلْأَعْلَى﴾ صفةً لله تعالى على معنى : وعظمتُه وقدرتُه وسُلطانُه نتلقى نحن أَنه بالأُفق الأَعلى ، ويجيءُ المعنى نحو قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَى﴾ (٢) ، ومن قال : إن المتَّصف بقوله تعالى : ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَى﴾ هو جبريل عليه السلام قال : إن [ٱسْتَوَى] مستند إلى جبريل عليه السلام ، واختلفوا بعد ذلك – فقال الربيع ، والزجاج : المعنى : فاستوى جبريل عليه السلام في الجوِّ وهو إذ ذاك بالأُفق الأَعلى فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراءَ قد سدَّ الأُفق ، له ستمائة جناح ، وحينئذ دنا من محمد صلى الله عليه وسلم حتى كان قاب قوسين ، وكذلك هو المرئي – في هذا القول – في «النَّزْلَة

---

(١) استشهد المفسرون على ذلك بأبيات من الشعر ، ولكن ابن عطية لم يقبلها ويرى أنها أقوال ضعيفة .

(٢) الآية (٥) من سورة (طه) .

الْأُخرى» في صفته العظيمة له ستمائة جناح عند السِّدرة ، وقال الطبري والفراءُ : المعنى : فاستوى جبريل عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم وقد تقدَّم ذكره في الضمير في [عَلَّمَهُ] ، وفي هذا التأْويل العطفُ على المُضْمر المرفوع دون أَن يؤكد ، وذلك عند النحاة مستقبح ، وأَنشد الفراءُ حُجَّةً على قوله :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّبْعَ يَصْلُبُ عُـــودُهُ ولا يَسْتَوي وَالْخِرْوَعُ الْمُتَقَصِّفُ (١)

---

(١) هذا البيت من شواهد الفراء في (معاني القرآن) ، والرواية فيه (يُخْلَقُ) بدلا من (يَصْلُبُ) ، والنَّبْع : شجر صلب متين ينبت في أعالي الجبال ، ومن خشبه تُتَّخذ القِسيُّ والسِّهام ، والخِرْوَعُ : شجر ليِّن يتقصف بسهولة ، ومن بذوره الملساء الكبيرة الحجم يُستخرج زيت الخِروع ، وهو بكسر الخاء ، أما الخَرْوع بفتح الخاء فهو المرأة الفاجرة أو الناعمة التي تتثنَّى ليناً ، وفرق كبير بين النَّبع والخِروع فلا يستوى الخروع بالنبع في الصلابة والمتانة ، وهذا هو معنى البيت ، أما الشاهد فيه فقد وضَّحه الفراء بقوله : « استوى هو وجبريل بالأفق الأعلى لمَّا أُسري به ، وهو مطلع الشمس الأعلى ، فأضمر الاسم في (ٱسْتَوَىٰ) ، ورد عليه (هُوَ) ، وأكثر كلام العرب أن يقولوا : استوى هو وأبوه ، ولا يكادون يقولون : استوى وأبوه ، وهو جائز لأن في الفعل مُضْمَراً ، أَنشدني بعضهم : أَلَمْ تَرَ أن النَّبْعَ ... البيت » ، ومعنى ذلك أنه تمَّ عطف (هُوَ) الضمير البارز على الضمير المستتر في (ٱسْتَوَىٰ) ، وفي البيت هنا عطف (الخِروع) على الضمير المستتر في (يستوى) ، ومثله في ذلك قوله تعالى : ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا﴾ فقد عطف (الآباء) على الضمير في (كُنَّا) ، وحسَّن ذلك الفصلُ بينهما بقوله : (تُرَاباً) .

هذا هو الرأي الذي قاله الطبري واستشهد بكلام الفراءِ ، وقد علَّق عليه الإمام ابن كثير =

وقد ينعكس هذا الترتيب فيكون [ٱسْتَوَىٰ] لمحمد صلى الله عليه وسلم ، و [هُوَ] لجبريل عليه السلام ، وأمَّا [ٱلْأَعْلَىٰ] فهو عندي لِقِمَّةِ الرأس وما جرى معه ، وقال الحسن وقتادة : هو أُفُق مَشْرق الشمس ، وهذا التخصيص لا دليل عليه .

واختلف الناس ، إلى من استند قوله تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ — فقال الجمهور : استند إلى جبريل عليه السلام ، أَي : دنا إلى محمد صلى الله عليه وسلم عند حراءٍ ، فقال ابن عباس ، وأَنس رضي الله عنهم في حديث الإسراء ما يقتضي أَنه مُسْتند إلى الله تعالى ، ثم اختلف المتأَولون — فقال مجاهد : كان الدُّنُوُّ إلى جبريل عليه السلام ، وقال بعضهم : كان إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، و ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ — على هذا القول — معه حذف مضاف ، أَي دنا سُلطانه ووحيُه وقَدْرُه ، والانتقــال وهذه الأَوصــاف منتفيةٌ في حق الله تبارك وتعــالى .

والصحيح عندي أَن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل عليه السلام ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ، فإن

= في تفسيره فقال : « وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك ؛ فإن هذه الرؤيا لجبريل لم تكن ليلة الإسراء بل قبلها ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض ، فهبط عليه جبريل عليه السلام وتدلى إليه ، فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، ثم رآه بعد ذلك نزلةً أُخرى عند سدرة المنتهى ، يعني ليلة الإسراء » .

ذلك يقتضي بنزلة متقدمة ، وما رُوي قط أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربَّه عزَّ وجلَّ قبل ليلة الإسراء ، أما إنَّ رؤْية القلب لا تُمنع بحال .

و [دَنَا] أعم من [تَدَلَّى] ، فبيَّن تعالى بقوله : [فَتَدَلَّى] هيئة الدُّنُوِّ كيف كانت . و [قَابَ] معناه : قَدْرَ ، وقال قتادة وغيره : معناه : من طرف العود إلى طرفه الآخر ، وقال الحسن ومجاهد : من الوَتر إلى العود في وسط القوس عند المقبض . وقرأ محمد بن السَّمَيْفَع اليماني : «وكان قيسَ قَوْسَيْنِ» ، والمعنى قريب من قاب ، ومن هذه اللفظة قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لَقَابُ قَوْسِ أحدكم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها) (١)، وفي حديث آخر (لَقَابُ قوسِ أَحدكم في الجنة) . وقوله تعالى : ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ معناه : على مقتضى نظر البشر ، أي : لو رآه أحدكم لقال في ذلك : قوسان أَو أدنى ، وقال أَبو رزين : ليست بهذه القوس ولكن قدر الذراعين أَو أدنى ،

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ، وبدء الخلق ، والرقاق ، والترمذي في فضائل الجهاد ، وأحمد في مسنده (٢-٤٨٢ ، ٣-١٤١) ، ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لَقَابُ قوسٍ في الجنَّة خيرٌ مما تطلع عليه الشمس وتغرب) ، وقال : (لَغَدْوَةٌ أو روحة في سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب) .

وحكى الزهراوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن القوس في هذه الآية ذراع تُقاس به الأَطوال ، وذكره الثعلبي وأَنه من لغة الحجاز .

قوله تعالى : ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : فأَوحى الله تعالى إِلى عبده محمد – صلى الله عليه وسلم – ما أَوحى ، وقال بعض العلماءِ : المعنى : فأَوحى الله تعالى إِلى عبده جبريل – عليه السلام – ما أَوحى ، وفي قوله تعالى : ﴿مَا أَوْحَى﴾ إِبهام على جهة التفخيم والتعظيم ، والذي عُرف من ذلك فرض الصلاة . وقال الحسن : المعنى : فأَوحى جبريل إِلى عبد الله محمد عليهما الصلاة والسلام ما أَوحى ، كالأَول في الإِبهام ، وقال ابن زيد : المعنى : فأَوحى جبريل إِلى عبد الله ما أَوحى الله تعالى إِلى جبريل عليهما الصلاة والسـلام .

قوله تعالى : ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ، قرأَ جمهور القُرَّاءِ بتخفيف الذَّال على معنى : لم يكذب قلب محمد عليه الصلاة والسلام الشيءَ الذي رأَى بل صدَّقه وتحقَّقه نظراً ، و « كَذَبَ » يَتَعَدَّى ، وقال أَهل التأْويل – ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما ، وأَبُو صالح – : رأَى محمد صلى الله عليه وسلم الله تعالى بفؤاده ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (جعل الله تعالى نور بصـري في فؤادي فنظرتُ إِليه

بفؤادي)(١) ، وقال آخرون من المتأولين : ما رآه بعينه لم يكذب ذلك قلبه بل صدَّقه وتحققه ، ويحتمل أن يكون التقدير : «فيما رأى» ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - فيما رُوي عنه - وعِكْرِمة ، وكعب الأَحبار : إن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربَّه عزَّ وجلَّ بعيني رأْسه ، ويبسط الزهراوي هذا الكلام عنهم ، وأَبت عائشة رضي الله عنها ، وقالت : أنا سأَلت رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) هذا جزءٌ ورد في آخر حديث الخصومات من رواية لابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال عَنْها ابن كثير : فيها زيادة غريبة ، وبعد أن نقل الحديث قال : وإسناده ضعيف ، وحديث الخصومات أخرجه الإمام أحمد عن معاذ رضي الله عنه ، وقال عنه الإمام ابن كثير : «وهو حديث المنام المشهور» ، يعني أن الرؤيا التي وردت فيه كانت مناماً ، وكذلك أخرجه الترمذي من حديث جهضم بن عبد الله اليمامي ، وقال الحسن : صحيح ، وأخرجه عبد الرزاق عن ابن عباس أيضاً وفي أوله : (أتاني ربِّي الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم -) ، أما رواية ابن جرير التي فيها هذا الجزء الذي ذكره ابن عطية فهي كما في تفسير الطبري : (رأيتُ ربي في أحسن صورة ، فقال لي : يا محمد ، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت : لا يارب ، فوضع يده بين كتفيَّ ، فوجدت بردها بين ثدْيَيَّ ، فعلمت ما في السموات والأرض ، فقلت : يا ربِّ في الدرجات والكفارات ونقل الأقدام إلى الجُمُعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فقلت : يارب إنك اتخذت إبراهيم خليلاً ، وكلَّمتَ موسى تكليماً ، وفعلتَ وفعلتَ ، فقال : ألم أَشرح لك صدرك ؟ ألم أَضع عنك وزرك ؟ ألم أفعل بك ؟ ألم أفعل ؟ قال : فأفضى إليَّ بأشياءَ لم يؤذن لي أن أُحدثكموها ، قال : فذلك قوله في كتابه يحدثكموه : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ، فجعل نور بصري في فؤادي فنظرت إليه بفؤادي) .

عن هذه الآيات فقال لي : (هو جبريل فيها كلها) (١)، وقال الحسن : المعنى : ما رأى من مقدورات الله تعالى وملكوته ، وسأل أبو ذرٍّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربَّك؟ فقال : (نورٌ أنَّى أراه) (٢) ،

---

(١) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري في تفسير سورة النجم ، ومسلم في الإيمان ، وأحمد في مسنده (٦–٤٩) ، والترمذي في تفسير سورة النجم ، وهو عن مسروق ، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم ، وابن مردويه عن الشعبي ، ولفظه كما جاء في صحيح مسلم : قال : كنت متكئاً عند عائشة ، فقالت : يا أبا عائشة — وهذه كنية الإمام مسروق — ثلاثٌ من تكلم بواحدة فيهن فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : ما هنَّ؟ قالت : من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت متكئاً فجلست فقلت : يا أمَّ المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ، ألم يقل الله عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ ، فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته مُنْهبطاً من السماء سادًّا عِظَمُ خلقه ما بين السماء إلى الأرض ، فقالت : أو لم تسمع أن الله يقول : ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ، أو لم تسمع أن الله يقول : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ . قالت : ومن زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول : ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ . قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول : ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ﴾ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ، والترمذي في التفسير ، وأحمد في مسنده (٥–١٥٧ ، ١٧١ ، ١٧٥) ، عن عبد الله بن شقيق ، ولفظه كما جاء في صحيح مسلم (عن أبي ذر قال: =

وهذا هو قول الجمهور ، وحديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قاطع لكل تأْويل في اللفظ ؛ لأَن قول غيرها إِنما هو منتزعٌ من أَلفاظ القرآن . وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما – فيما روى عنه هشام – : ﴿مَا كَذَّبَ﴾ بتشديد الذَّال ، وهي قراءَة أَبي رجاءٍ ، وأَبي جعفر ، وقتادة ، والجحدري ، وخالد ، ومعناه بيِّن على بعض ما قلناه ، وقال كعب الأَحبار : إِن الله تعالى قسم الكلام والرؤْية بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام : فكلَّم موسى مرَّتين ، ورآه محمد مرَّتين ، وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها : لقد قفَّ شعري لسماع هذا ، وقلت : ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ﴾ الآية (١) . وذهبت هي وابن مسعود ، وقتادة ، وجمهور العلماءِ إِلى أَن المرئي هو جبريل عليه السلام في المرتين : في الأَرض وعند سِدرة المنتهى ليلة الإِسراءِ ، وقد تقدَّم ذلك في سورة الإِسراءِ ، وهو مشهور في كتب الصحاح .

وقرأَ ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر هذه السُّورة كلها بفتح أَواخر الآيات فيها ، وأَمال عاصم – في رواية أَبي بكر – [رَأَى] ، وقرأَ نافع ، وأَبو عمرو ، بيْن الفتح والكسر ، وأَمال حمزة والكسائي

= سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ قال : نورٌ أَنَّى أَراه ؟) ، قال شراح الحديث : المعنى : حِجابه نورٌ فكيف أراه ؟ وقال بعضهم : المعنى : إن النور منعني من الرؤية .

(١) راجـع الهامش (١) من صفحـة (٩٣) فهو نفس الحديث . والآية من ســورة (الأنعام) . ورقمها (١٠٣) .

جميع ما في السُّورة ، وأمال أَبو عمرو ـ فيما روى عنه أَبو عبيد ـ [ٱلْأَعْلَىٰ] و [تَدَلَّىٰ] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى : [أَفَتُمَارُونَهُ] خطاب لقريش ، وهو من الْمِرَاءِ ، والمعنى : أَتجادلونه في شيءٍ رآه وأَبصره ؟ وهذه قراءَة الجمهور وأَهل المدينة ، وقرأَ علي بن أَبي طالب ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وحمزة والكسائي : [أَفَتَمْرُونَهُ] بفتح التاءِ دون أَلف بعد الميم ، والمعنى : أَفتجحدونه (١) ؟ وذلك أَن قريشاً لما أَخبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأَمره في الإِسراءِ

---

(١) قال ابن خالويه : « الحجة لمن أثبت الألف في [أَفَتُمَارُونَهُ] أنه أراد : أَفتجادلونه ، من المماراة والمجادلة بالباطل ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (لا تماروا بالقرآن فإن مراءً فيه كُفْر) ، والحجة لمن حذفها أنه أراد : أفتجحدونه » ، واختار أبو عبيد هذه الأخيرة ، قال : « لم يُماروه وإنما جحدوه » ، ويقال : مرَيْتُه حقَّه أي جحدتُه ، قال الشاعر :

لَئِنْ هَجَرْتَ أَخَا صِدْقٍ ومَكْرُمَةٍ لَقَدْ مَرَيْتَ أَخاً مَا كَانَ يَمْرِيكَا

كذَّبوا واستخفُّوا حتى وصف لهم بيت المقدس وأَمْر عيرهم وغير ذلك مما هو في حديث الإسراءِ مستقصى ، ورواها سعيد عن النَّخَعي : [أَفَتُمْرُونَهُ] بضم التاءِ ، قال أَبو حاتم : وذلك غلط من سعيد . وقوله تعالى : [يَرَى] مستقبلًا والرُّؤْية قد مضت عبارة تعُمُّ ما مضى وتشير إلى ما يمكن أَن يقع بَعْدُ ، وفي هذا نظر .

واختلف الناس في الضمير في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ حسب ما قدَّمناه ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وكعب الأَحبار : هو عائد على الله تعالى ، وقال ابن مسعود ، وعائشة ، ومجاهد ، والربيع : هو عائد على جبريل عليه السلام ، و [نَزْلَةً] معناه : مَرَّة ، ونصبه على المصدر في موضع الحال . و «سِدْرَةُ ٱلْمُنْتَهَى» هي شجرة نَبِق(١) ، قال كعب : هي في السماءِ السابعة ، وروى ذلك مالك بن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم(٢) ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : في السماءِ السادسة ، وقيل لها «سدرة المنتهى» لأَنها إليها ينتهي علم

(١) النَّبِق — بكسر الباء — : ثمر السِّدْر ، والواحدة نَبِقَة ، ويقال : نَبْق بفتح النون وسكون الباء ، وقد ذكر اللغتين ابنُ السكيت في (إصلاح المنطق) ، وهي لغة المِصْريين ، والأولى أفصح ، وهي التي ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) جاء ذلك في حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة ، رواه أحمد في مسنده .

كل عالم ، ولا يعلم ما وراءها صُعُدا إلَّا الله تبارك وتعالى ، وقيل : سُمِّيت بذلك لأَنها إليها ينتهي من مات على سُنَّة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم المؤمنون حقًّا من كل جيل ، وقيل : سُمِّيت بذلك لأَن ما نزل من أَمر الله تعالى فعندها يُتَلَقَّى ، ولا يتجاوزها ملائكة العلو ، وما صعد من الأَرض فعندها يُتَلَقَّى ولا يتجاوزها ملائكة السُّفل ، ورُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَن الأُمة من الأُمم تستظل بظلِّ الفَنَنِ منها (١)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (رُفعت لي سدْرَة المنتهى فإِذا نَبقُهَا مثل قلال هَجَر ، وإِذا ورقها مثل آذان الفِيلَة) (٢).

قوله تعالى : ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ ، قال الجمهور : أَراد تعالى أَن يعظم مكان السِّدْرة ويشرفه بأَن جنة المأْوى عندها ، قال الحسن : وهي الجنة التي وعد بها المؤمن العالم ، وقال قتادة ، وابن عباس - بخلاف - : هي جنة تأْوي إليها أَرواح الشهداءِ والمؤمنين وليست بالجنة التي وعد بها المؤمنون جنة النعيم ، وهذا يحتاج إلى سند ، وما أَراه

---

(١) رواه الترمذي عن أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، وزاد السيوطي في الدر المنثور نسبته إلى ابن جرير ، والحاكم ، وابن مردويه ، قالت : (سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يصف سدرة المنتهى ، قال : يسير الراكب في الفنَن منها مائة سنة ، يستظل بالفنَن منها مائة راكب ، فيها فراش من ذهب ، كأن ثمرها القلال) . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

(٢) أخرجه أحمد ، وابن جرير ، عن أنس رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأنس بن مالك - بخلاف- وابن الزبير ، وأبو الدرداءِ ، وزرُّ بن حُبَيْش ، وقتادة ، ومحمد بن كعب : ﴿عِنْدَهَا جَنَّهُ ٱلْمَأْوَى﴾ بالهاءِ في [جَنَّهُ] ، وهو ضمير محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : سَتَرَه وضمَّه إيواءُ الله تعالى وجميلُ صنعه به ، يقال : «جَنَّه الليل وأَجَنَّه» ، وردَّت عائشة وصحابة معها رضي الله عنهم هذه القراءة وقالوا : أَجن الله من قرأها ، والجمهور قرأ : [جَنَّةُ] كالآية الأُخرى : ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَى نُزُلًا﴾ (١) ، وحكى الثعلبي أن معنى ﴿جَنَّهُ ٱلْمَأْوَى﴾ : ضَمَّه المبيتُ والليل(٢) . وقوله تعالى : ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ ، العامل في [إِذْ] [رَآهُ] ، والمعنى : رآه في هذه الحال ، و ﴿مَا يَغْشَى﴾ معناه : من قدرة الله تعالى وأنواع الصِّفات التي يخترعها لها ، وذلك مُبْهَم على جهة التفخيم والتعظيم ، وقال مجاهد : ذلك تَبَدُّل أَغصانها دُرًّا وياقوتاً ونحوه ، وقال ابن مسعود ، ومسروق ، ومجاهد ، وإبراهيم : ذلك جراد من ذهب كان يغشاها ، وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (رأيتها

---

(١) من الآية (١٩) من سورة (السجدة) .

(٢) قال أبو حاتم بعد أن ذكر هذه القراءة وما فيها من اختلاف : «والذي عليه اللغة أن «جنَّهُ الليلُ» : أدركه الليل ، و «جنَّ عليه الليلُ ، وأَجَنَّهُ» : ألبسه سواده» .

ثم حال دونها فراش من الذهب) (١)، وقال الربيع ، وأبو هريرة : كان يغشاها الملائكة كما يغشى الطير الشجر ، وقيل غير هذا مما هو تكلُّف في الآية لأَن الله تعالى أَبهم ذلك وهم يريدون شرحه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فغشيها أَلوان لا أَدري ما هي) (٢).

قوله تعالى : ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : معناه : ما حال هكذا ولا هكذا(٣)، وقوله تعالى : ﴿وَمَا طَغَى﴾ معناه : ولا تجاوز الحدَّ المرئي بل وقع عليه وقوعاً صحيحاً ، وهذا تحقيق للأَمر ونفْيٌ لوجوه الريب عنه .

قوله تعالى : ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَى﴾. قالت جماعة من أَهل التأْويل : لقد رأَى الكبرى من آيات ربِّه ، والمعنى : من

(١) رواه الحكيم الترمذي ، وأبو يعْلى ، عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) جاء ذلك في حديث رواه أنس عن أبي كعب الأنصاري ، وقد أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه ، وفيه يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (ثم انطلق بي – يعني جبريل – حتى أتى سِدْرة المنتهى ، قال : فغشيها أَلوانٌ ما أدري ما هي) ، قال : (ثم دخلتُ الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ ، وإذا تُرَابُها المسك) ، قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث : « هكذا رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه ، وليس هو في شيءٍ من الكتب الستة ، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس ، عن الزهري ، عن أنس ، عن أبي ذرٍّ هذا السياق سواء ، فالله أعلم » .

(٣) يعني : ما اعْوَجَّ ولا مال هكذا ولا هكذا ، يقال : حال الشيءُ بمعنى : اعْوَجَّ بعد استواءٍ .

آيات ربِّه التي يمكن أن يراها البشر ، ف [ٱلْكُبْرَى] ـ على هذا ـ مفعول بـ [رَأَى] ، وقال آخرون : المعنى : لقد رأى بعضاً من آيات ربِّه الكبرى ، ف [ٱلْكُبْرَى] ـ على هذا ـ وصف لـ [آيَاتِ] ، والجمع مما لا يعقل في المؤنث يوصف أبداً على حدِّ وصف الواحدة ، وقال ابن مسعود ، وابن عباس رضي الله عنهم : رأى رفرفاً أخضر من الجنة قد سدَّ الأُفق ، وقال ابن زيد : رأى جبريل عليه السلام في الصورة التي هو بها في السموات .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى : [أَفَرَأَيْتُمْ] مخاطبة لقريش ، وهي من رؤْية العين لأنه أحال على أجرام مرئية ، ولو كانت «رأى» التي هي استفتاءٌ لم تَتَعَدَّ .

ولما فرغ من ذكر عظمة الله تعالى وقدرته قال ـ على جهة التوقيف ـ : أَرأيتم هذه الأَوثان وحقارتها وبُعدها عن هذه القدرة والصفات العلية ؟

و « اللَّات » صنم كانت العرب تُعظِّمه ، قال أَبو عبيدة وغيره : كان في الكعبة ، وقال قتادة : كان بالطائف ، وقال ابن زيد : كان بِنَخْلَة عند سوق عكاظ ، وقول قتادة أَرجح ، ويؤيده قول الشاعر :

وَفَرَّتْ ثَقيفٌ إِلَى لَاتِهَا بِمُنْقَلَبِ الْخَائِفِ الْخَاسِرِ (١)

والتَّاءُ في « اللَّاتِ » لام فعل كالباءِ من « باب ، وقال قوم : هي تاءُ التأْنيث ، والتصريف يمنع ذلك ، وقرأَ ابن عباس ، ومجاهد ، وأَبو صالح : [اللَّاتّ] بشدِّ التاءِ ، وقالوا: كان هذا الصنم حجراً ، وكان عنده رجل من بَهْز يلُتُّ سويق الحاج على ذلك الحجر ويخدم الأَصنام ، فلما مات عبدوا ذلك الحجر الذي كان عنده إجلالًا لذلك الرجل وسمَّوه باسمه ، ورُويت هذه القراءَة عن ابن كثير ، وابن عامر (٢).

و « العُزَّى » صخرة بيضاءُ كانت العرب أَيضاً تعبدها وتُعَظمها ، قاله سعيد بن جبير ، وقال مجاهد : كانت شُجيرات تعبد ثم لمَّا بليت انتقل أَمرها إلى صخرة ، و « عُزَّى » مؤنثة « عزيز » ككُبْرى

---

(١) ثقيف : قبيلة كانت بالطائف ، وهذا دليل على أن « اللات » كانت بالطائف .

(٢) وهي أيضاً قراءة منصور بن المعتمر أبو عتاب السلمي الكوفي المتوفي سنة ١٣٣ هـ .

وعُظْمَى (١) ، وكانت هذه الأَوثان تُعَظَّم وتُعبد ، الوثن منها له قبيلة تُعَظِّمه ، ويجيءُ كل من عزَّ من العرب فيعظمها بتعظيم حاضرها ، وقال أَبو عبيدة مَعْمر : كانت العُزَّى ومناة في الكعبة ، وقال ابن زيد : كانت العُزَّى في الطائف ، وقال قتادة : كانت بنَخْلة ، وأَمَّا مناة فكانت بالمشلّل من قديد ، وذلك بين مكة والمدينة ، وكانت أَعظم هذه الأَوثان قدراً ، وأَكثرها عابداً ، وكانت الأَوس والخزرج تُهِلّ لهَا ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَى﴾ فأَكَّدها بهاتين الصفتين ، كما تقول : رأَيت فلاناً وفلاناً ، ثم تذكر ثالثاً أَجلَّ منهما فتقول : وفلاناً الآخر الذي من أَمره وشأْنه ، ولفظة «آخَر» و «أُخرى» يوصف بهما الثالث من المعدودات ، وذلك نصٌّ في الآية ، ومنه قول ربيعة بن مكدم :

* وَلَقَدْ شَفَعْتُهُمَا بِآخَرَ ثَالِثٍ * (٢)

---

(١) وقيل : هي واحدة من شجر السَّمُر ، وكانت لغطفان ، وكانوا يعبدونها وأقاموا عليها بيتاً وجعلوا لها سدنة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إليها فهدم البيت وأحرق السَّمُرَة وهو يقول :

يَا عُزَّ كُفْرَانَكِ لا سُبْحَانَكْ إنِّي رَأَيْتُ اللهَ قَدْ أَهَانَكْ

و «عبد العُزَّى» هو أبو لهب ، وقد كنَّاه الله تعالى فقال : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ ، ولم يُسَمِّه لأن اسمه محال .

(٢) هذا شاهد على أن لفظة «آخَر» يوصف بها الثالث ، فالشاعر يقول : لقد أتبعتهما

وهو التأويل الصحيح في قول الشاعر :

جَعَلْتُ لَهَا عُودَيْنِ مِنْ نَشَمٍ وَآخَرَ مِنْ ثُمَامَهْ(١)

وقرأ ابن كثير وحده : [وَمَنَاءَةَ] بالهمز والمدّ ، وهي لغة فيها ، والأُولى أَشهر وهي قراءة الناس ، ومنها قول جرير :

أَزَيْدَ مَنَاةَ تُوعِدُ يابْنَ تَيْمٍ تَأَمَّلْ أَيْنَ تاهَ بِكَ الْوَعِيدُ(٢)

= بثالث ، وقال عنه: آخر ، ولكن في اللسان أن الشَّفيع من الأعداد : ما كان زوجاً ، تقول : كان وَتْراً فشفعته بآخر ، قال الشاعر :

مَا كَانَ أَبْصَرَنِي بِغِرَّاتِ الصِّبا فالآنَ قَدْ شُفِعَتْ لِيَ الأَشْبَاحُ

يعني أنه يحسب الشخص اثنين لضعف بصره ، فقد وصف الثاني بلفظ « آخر » .

(١) النَّشَم : شجر جبليٌّ تُتَّخذ منه القِسِيُّ ، وهو من عُتُق العيدان ، وهو مثل النَّبْع في المتانة والاستعمال ، والثُّمامة : واحدة الثُّمام، وهو نبت ضعيف له خوصٌ أو ما يُشبه الخوص ، وربما حُشِيَ به وسُدَّ به خصاص البيوت ، والشاهد في البيت هو استعمال لفظ « آخر » صفة العدد الثالث ، فقد جعل الشاعر عودين من هذا الشجر المتين القوي المُسَمَّى بالنَّشَم ، ثم جعل ثالثاً من هذا النبات الضعيف ، ووصفه بأنه « آخر » ، ولم أقف على قائل هذا البيت .

(٢) هذا البيت من قصيدة قالها جرير يهجو التَّيم ، ومطلعها :

أَلا زَارَتْ وَأَهْلُ مِنىً هُجُودُ وَلَيْتَ خَيَالَهَا بِمِنىً يَعُودُ

والرواية في الديوان : « تَبَيَّن » بدلا من « تأمل » ، ومناة : صنم كان لهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة ، يعبدونها من دون الله ، والهاءُ فيه للتأنيث ، ويُسكت عليها بالتاء ، وزَيْدُ مناة : ابن تميم بن مُرٍّ ، يُمَدُّ ويُقصر ، قال ابن بَرِّي : قال الوزير : من قال زيد مناه بالهاء فقد أخطأ . (راجع اللسان) .

وقف تعالى الكفارَ على هذه الأَوثان وعلى قولهم فيها ؛ لأَنهم كانوا يقولون : هي بناتُ الله ، فكأَنه قال : أَرأَيتم هذه الأَوثان وقولكم هي بنات الله ؟ أَلَكُمُ الذَّكَر ولَهُ الأُنْثى ؟ أَي : النَّوْعُ المستحسنُ المحبوبُ هو لكم موجودٌ فيكم ، والمذمومُ المستثقلُ عندكم هو له بزعمكم ؟ ثم قال تعالى - على جهة الإِنكار - : ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ ، أَي عوجاءُ ، قاله مجاهد ، وقيل : [ضِيزَى] معناه : جائرة ، قاله ابن عباس وقتادة ، وقال سفيان : معناه : منقوصة ، وقال ابن زيد : معناه : مُخَالِفَة ، والعرب تقول : «ضِزْتُه حقَّه أَضيزُه» بمعنى: منعته منه وظلمتُه فيه ، و «ضِيزَى» من هذا التصريف ، وأَصْلها فُعْلَى بضم الفاءِ «ضُوزَى» لأَنه القياسُ ؛ إِذْ لا يوجد في الصفات فِعْلى بكسر الفاءِ ، كذا قال سيبويه وغيره ، فإِذا كان هذا فهو «ضُوزَى» كسروا أَولها كما كُسِر أَوَّل «عِينٍ وبيضٍ» طلباً للتخفيف؛ إِذ الكسرة والياءُ أَخف من الضمة والواو ، كما قالوا : «بِيُوتٌ وعِصِيٌّ» وهي في الأَصل فُعول بضم الفاءِ ، وتقول العرب : «ضُزْتُه أَضُوزُه» ، فكان يلزم على هذا التصريف أَن تكون «ضُوزَى» فُعْلَى ، وفي جميع هذا نظر . وقرأَ ابن كثير : [ضِئْزَى] بالهمز على أَنه مصدر كذِكْرى ، وقرأَ الجمهور بغير همز .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ ﴾ ، يعني تعالى أن هذه الأَوصاف – من أَنها إِناثٌ ، وأَنها تُعبد من دون الله آلهة ونحو هذا – ما هي إِلَّا أَسماءٌ ، أَي تسمياتٌ اخترعتموها أَنتم وآباؤُكم ، لا حقيقة لها ، ولا أَنزل الله تعالى بها بُرهاناً ولا حُجَّة ، وقرأَ عيسى بن عمر : [سُلُطَانٍ] بضم اللام ، وقرأَ هو وابن مسعود ، وابن عباس ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأَعمش : ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ ﴾ بالتَّاءِ على المخاطبة ، وقرأَ أَبو عمرو ، وعاصم ، ونافع ، والأَعمش أَيضاً ، والجمهور : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ ﴾ بالياءِ على الحكاية عن الغائب .

و « الظَّنُّ » : مَيْلُ النفس إِلى أَحد معتقديْن متخالفيْن دون أَن يكون ميلها بحجَّة ولا بُرهان ، و « هَوَى الأَنْفس » هو إِرادتها الملذة لها ، وإِنما تجد هوى الأَنفس دائماً في ترك الأَفضل لأَنها مجبولة بطبعها على حب الملذ ، وإِنما يردعها ويسوقها إِلى حسن العاقبة العقلُ والشرع .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ ٱلْهُدَى ﴾ اعتراضٌ بين الكلامين فيه توبيخ لهم ؛ لأَن سرد القول إِنما هو : « إِن يتبعون إِلَّا الباطل وما تهوى الأَنفس أَم للإِنسان ما تمنى » ، ثم اعترض بعد قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنْفُسُ ﴾ بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ ٱلْهُدَى ﴾ ، أَي : يفعلون هذه القبائح والهدى حاضر والحالُ هذه ،

فقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ ٱلْهُدَى﴾ جملة في موضع الحال .
و «الهُدَى» المشار إليه هو محمد صلى الله عليه وسلم وشرعُه ، وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس رضي الله عنهم : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بالكاف فيهما ، وقال الضحاك عنهما : إنهما قرآ : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ .

و «الإِنْسانُ» في قوله تعالى : ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ اسم الجنس ، كأَنه تعالى يقول : ليست الأَشياءُ بالتمني والشهوات ، إنما الأَمر كله لله تعالى ، والأَعمال جارية على قانون أَمره ونهيه ، فليس لكم أَيُّها الكفرة مرادكم في قولكم : «هذه آلهتنا وهي تشفع لنا وتُقَرِّبنا زلفى» ونحو هذا . وقال ابن زيد ، والطبري : الإِنسان هنا هو محمد صلى الله عليه وسلم ، بمعنى أَنه لم ينل كرامتنا بتأْميل بل بفضل من الله تعالى ، أَو بمعنى : بل إِنه تمنى كرامتنا فنالها ؛ إِذ الكلُّ لله تعالى يهب من يشاءُ ، وهذا ما تقتضيه الآية وإِن كان اللفظ يعمه .
و «الْآخِرَةُ والْأُولَى» : الدَّاران ، أَي : له كل أَمرهما ملكاً ومقدوراً وتحت سلطانه .

وقوله تعالى : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ الآية ... رَدٌّ على قريش في قولهم : «الأَوثان شفعاؤُنا» ، كأَنه تعالى يقول : هذه حال الملائكة الكرام

فكيف بأوثانكم؟ و [كَمْ] للتكثير ، وهي في موضع رفع بالابتداء ، والخبر ﴿لَا تُغْنِي﴾ ، والغِنَى: جَلْبُ النَّفع ودفع الضرِّ بحسب الأَمر الذي يكون فيه الغِنَى ، وجمع الضمير في [شَفَاعَتُهُمْ] على معنى [كَمْ] ، ومعنى الآية أَنْ يأْذن الله تعالى في أَن يُشفع لشخص ما يرضى عنه كما أَذن في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ الآية (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ هم كفَّار العرب ، وقوله تعالى: ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَائِكَةَ﴾ معناه: ليصفون الملائكة بأوصاف

(١) من الآية (٧) من سورة (غافر) .

الأُنوثة ، وأخبر الله تعالى عنهم أنهم لا علم لهم بذلك ، وإنما هي ظنون منهم لا حُجَّة لهم عليها ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : «مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ» ، وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً﴾ يعني : في المعتقدات والمواضع التي يريد الإنسان أن يُحَرِّر ما يفعل ويعتقد ، فإنها مواضع وحقائق لا تنفع الظُّنون فيها ، وأما في الأَحكام وظواهرها فَيُجْتَزَأُ فيها بالمظنونات . ثم سلَّى تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم وأمره بالإعراض عن هؤلاءِ الكفرة ، وما في الآية من موادعتهم منسوخ بآية السيف . وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا﴾ معناه أنه لا يُصدق بغيرها ، وسعيُه وعملُه إنما هو لدنياه .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ معناه : هنا انتهى تحصيلهم من المعلومات ، وذلك أَن المعلومات منها ما هي معقولات نافعة في الآخرة ، ومنها ما هي أُمور فانية وأَشخاص بائدة كالفلاحة وكثير من الصنائع وطلب الرياسة على الناس بالمخرقة ، وكلها معلومات ولها علم ، ومبلغ علم الكفرة إنما هو في هذه الدُّنياويَّات .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ الآية ... متصلٌ في معنى التَّسلية بقوله تعالى : ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ ، وفي قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ الآية ... وعيدٌ للكفَّار ووعْدٌ للمؤمنين ، وأسند الضَّلالَة والهدى إليهم بكَسْبِهِم وإن كان الجميع خلْقاً له واختراعاً ،

واللَّام في قوله تعالى : [لِيَجْزِيَ] متعلقة بقوله تعالى : [ضَلَّ] ، وبقوله تعالى : [ٱهْتَدَى] ، فكأَنه تعالى قال : ليصير أَمرهم جميعاً إِلى أَن يجزيَ ، وقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ اعتراضٌ بين الكلامَيْن ، وقال بعض النحويين : اللام متعلقة بما في المعنى من التقدير ، لأَن تقديره : ولله ما في السموات وما في الأَرض يضل من يشاءُ ويهدي من يشاءُ لِيَجْزِيَ . والنظر الأَول أَقل تكلُّفاً من هذا الإِضمار ، وقال قوم : اللام متعلقة بقوله تعالى في أَول السورة : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ ، وهذا بعيد . و «الْحُسْنَى» هي الجنة ، ولا حُسْنى دونها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾

قوله تعالى : [ٱلَّذِينَ] نعتٌ لـ [ٱلَّذِينَ] المتقدم قبله ، و [يَجْتَنِبُونَ] معناه : يَدَعُونَ جانباً ، وقرأَ جمهور القراءِ والناس : ﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ ،

وقرأ ابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، وعيسى ، وحمزة ، والكسائي : ﴿كَبِيرَ ٱلْإِثْمِ﴾ على الإفراد الذي يراد به الجمع ، وهذا كقوله تعالى : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾(١) ، وكقوله تعالى : ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ (٢) .

واختلف الناس في الكبائر ، ما هي ؟ فذهب الجمهور إلى أنها السَّبع الموبقات التي وردت في الأحاديث ، وقد مضى القول في ذكرها واختلاف الأحاديث فيها في سورة النساء ، وتحرير القول في الكبائر أنها كل معصية يوجد فيها حدٌّ في الدنيا وتَوَعُّدٌ بنار في الآخرة ، أو لعنة أو نحو هذا خاصًّا بها ، فهي كثيرة العدد ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ حين قيل له : أَسَبْعٌ هي ؟ ـ فقال : هي إلى السبعين أقربُ منها إلى السبع ، وقال زيد بن أسلم : كبير الإثم هنا يرادُ به الكفر ، و «الفواحش» هي المعاصي المذكورة ، وقوله تعالى : ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ هو استثناءٌ يصح أن يكون متصلا ، وإن قدرتَه منقطعاً ساغ ذلك .

واختلف الناس في معنى [ٱللَّمَم] ـ فقال ابن عباس ، وابن زيد : معناه : ما أَلَمُّوا به من الشِّرك والمعاصي في الجاهلية قبل الإسلام ،

(١) الآيتان (١٠٠) ، (١٠١) من سورة (الشعراء) .
(٢) من الآية (٦٩) من سورة (النساء) .

قال الثعلبي ، عن ابن عباس ، وزيد بن ثابت ، وزيد بن أَسلم ، وأَبيه : إن سبب الآية أَن الكفار قالوا للمسلمين : قد كنتم بالأَمس تعملون أَعمالنا ، فنزلت الآية ، فهي مثل قوله تعالى : ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (١) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : معناه : إلَّا ما أَلَمُّوا به من المعاصي ، الفلتة والسقطة دون دوام ، ثم يتوبون منه ، وذكر الطبري عن الحسن بن أَبي الحسن أَنه قال : هي اللَّمَّة من الزِّنى والسرقة وشرب الخمر ثم لا يعود ، وهذا كالذي قبله ، فكأَن هذا التأْويل يقتضي الرِّفق بالنَّاس في إدخالهم في الوعد بالحسنى ؛ إذ الغالب في المؤمنين مواقعة المعاصي ، وعلى هذا أَنشدوا – وقد تمثل به النبي صلى الله عليه وسلم – :

إِنْ تَغفر اللَّهُمَّ تَغفرْ جَمًّـــا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّـــا (٢)

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة (النساء) .

(٢) يُنسب هذا البيت إلى أُميَّة بن أبي الصَّلت ، على أنه قاله عند احتضاره ، والجَمُّ : الكثير ، وأَلَمَّ الرجل : من اللَّمَمِ وهو صغار الذنوب ، أو هو مقاربة المعصية دون مواقعة ، والأول هو المناسب لمعنى البيت ، وهو موضع الشاهد هنا ، وقد نسب هذا البيت مع بيت آخر قبله إلى أبي خراش ، قيل إنه مرَّ يسعى بين الصفا والمروة وهو يقول :

لا هُمَّ هَذَا خامِسٌ إنْ تَمَّا أَتَمَّهُ اللهُ وَقَدْ أَتَمَّـــا
إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّـــا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لا أَلَمَّـــا ؟

وقد ذكر ذلك صاحب اللسان نقلا عن ابن برِّي، وقد أخرج سعيد بن منصور ، والترمذي =

وقال أَبو هريرة ، وابن عباس ، والشعبي ، وغيرهم : اللَّمَم : صغار الذنوب التي بين الحدَّيْن الدنيا والآخرة ، وهي ما لا حدَّ فيه ولا وعيد مختصًا بها مذكوراً لها ، وإنما يقال صغار بالإِضافة إلى غيرها ، وإلَّا فهي بالإضافة إلى الناهي عنها كبائر كلها ، ويعضد هذا قولُ النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى لا محالة ، فزنى العين النظر ، وزنى اللسان النطق ، والفرج يكذِّب ذلك أَو يصدِّقه ، فإن تقدم فرجه فهو زانٍ ، وإلَّا فهو اللَّمَم) (١)، ورُوي أَن هذه الآية نزلت في نَبْهَان التَّمار (٢)، فالناس لا يتخلصون

= وصححه ، والبزّار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ ، قال : هو الرجلُ يُلمُّ بالفاحشة ثم يتوب منها ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن تغفر اللّهم تغفر جمّاً، وأي عبد لك لا ألمّا)؟ ذكر ذلك الإمام السيوطي في الدر المنثور ، وهذا هو الذي أشار إليه ابن عطية بقوله : «وقد تمثَّل به النبي صلى الله عليه وسلم» .

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللَّمم مما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (إن الله كتب على ابن آدم ...) الحديث . (الدر المنثور) .

(٢) وكان لنبهان هذا حانوت يبيع فيه تمراً ، فجاءت امرأة تشتري منه تمراً ، فقال لها : إن داخل الدكان ما هو خير من هذا ، فلما دخلت راودها فأبت وانصرفت، فندم نبهان =

من مواقعة هذه الصغائر ، ولهم - مع ذلك - الحسنى إذا اجتنبوا التي هي في أنفسها كبائر ، وتظاهر العلماءُ في هذا القول وكثُر المائل إليه ، وذكر الطبري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال : اللَّمَم ما دون الشِّرك ، وهذا عندي لا يصح عن عبد الله بن عمرو ، وذكر المهدوي عن ابن عباس ، والشعبي : اللَّمم ما دون الزِّنى ، وقال نفطوية : اللَّمم ما ليس بمعتاد ، وقال الرُّمَّاني : اللَّمم الهَمُّ بالذنب وحديث النفس به دون أن يواقع ، وحكى الثعلبي عن سعيد ابن المسيب أنه ما خطر على القلب ، وذلك هو لمَّة الشَّيطان ، قال الزهراوي : وقيل : اللَّمم نظرة الفجأة ، وقاله الحسن بن الفضل .
ثم أنَّس تعالى بعد هذا بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ .

= وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله : ما من شيءٍ يصنعه الرجل إلاَّ وقد فعلته إلاَّ الجماع ، فقال : (لعلَّ زوجها غازٍ) ؟ وفي رواية عن أبي الْيَسَر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : (أَخلَفْتَ غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا ؟) حتى تمنى- أي نبهان - أنه لم يكن أسلم إلاَّ تلك الساعة ، حتى ظن أنه من أهل النار ، قال : وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله إليه ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ ٱللَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ ، قال أبو الْيَسَر : فأتيته فقرأها عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أصحابه : يا رسول الله ! ألهذا خاصة أمْ للناس عامة ؟ فقال : (بل للناس عامة) ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب ، وفي الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

قوله تعالى : ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ الآية . رُوي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أَنها نزلت بسبب قوم من اليهود كانوا يُعظِّمون أَنفسهم ، ويقولون للطفل إِذا مات عندهم : هذا صدِّيق عند الله تعالى ، ونحو هذا من الأَقاويل المُمَوَّهَة ، فنزلت الآية فيهم(١) ثم هي بالمعنى عامة جميع البشر . وحكى الثعلبي عن الكلبي ومقاتل أَنها نزلت في قوم من المؤمنين فخروا بأَعمالهم . وقوله تعالى : ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ قال مكي بن أَبي طالب في المشكل : معناه : هو عالم بكم ، وقال جمهور أَهل المعاني : بل هو التفضيل بالإِطلاق ، أَي هو أَعلم من الموجودين جملة ، والعامل في [إِذْ] هو [أَعْلَمُ] ، وقال بعض النحاة : العامل فيها فعل مضمر تقديره : اذكروا إِذ ، والمعنى الأَول أَبْين ؛ لأَنَّ تقديره : فإِذا كان علمه قد أَحاط بكم وأَنتم في هذه الأَحـوال ووقع بكم التخفي فأَحـرى أَن يقع بكم وأَنتم تغفلون وتجترحون .

---

(١) أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو نعيم في المعرفة ، وابن مردويه ، والواحدي ، عن ثابت بن الحارث الأنصاري ، قال : كانت اليهود إذا هلك لهم صبيٌّ صغير قالوا : هذا صِدِّيق ، فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : (كذبت يهود ، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أُمها إلاَّ أنه شقيٌّ أو سعيد) ، فأنزل الله عند ذلك ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية . (الدر المنثور) .

والإِنشاءُ من الأَرض يراد به خلق آدم عليه السلام ، ويحتمل أَن يراد به إِنشاءُ الغـذاءِ ، و [أَجِنَّةٌ] جمع جنين ، وقوله تعـالى : ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ظاهره النهي عن أَن يُزَكِّي أَحدٌ نفسه ، ويحتمل أَن يكون نهياً عن أَن يُزَكِّي بعض الناس بعضاً ، وإِذا كان هذا فإِنما ينهى عن تزكية السُّمعة والمدح للدنيا ، أَو القطع بالتزكية ، ومن ذلك الحديث في عثمان بن مظعون عند موته (١) ، وأَمَّا تزكية الإِمام والقدوة أَحداً ليؤتم به أَو ليَتَهَمَّمَ الناسُ بالخير فجائز ، وقد زكَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أَصحابه ، أَبا بكر وغيره رضي الله عنهم ، وكذلك تزكية الشهود في الحقوق جائز للضرورة إِليها ، وأَصل التزكية إِنما هو التقوى ، والله تعالى هو أَعلم بتقوى الناس منكم .

---

(١) حديث عثمان بن مظعون أخرجه البخاري في الجنائز والتعبير ، وأحمد في مسنده (٦-٤٣٦) ، ولفظه كما في البخاري عن خارجة بن زيد بن ثابت أَنَّ أُمَّ العلاءِ - امرأةً من الأنصار - بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ، أخبرته أنه اقتُسم المهاجرون قُرْعةً ، فطار لنا عثمان ابن مظعون ، فأنزلناه في أبياتنا ، فوجع وجعه الذي توفي فيه ، فلما توفِّي وغُسِّل وكُفِّن في أثوابه دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما يُدريك أن الله أكرمه ؟ فقلت : بأبي أنت يا رسول الله ، فمن يُكرمه الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أمَّا هو فقد جاءه اليقين ، والله إنِّي لأرجو له الخير ، والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يُفعل بي ، قالت : فوالله لا أُزَكِّي أحداً بعده أبداً .

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴾ الآية . قال مجاهد ، وابن زيد ، وغيرهما : نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي ، وذلك أنه كان قد سمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ، وجلس إليه ، وَوَعَظَهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَقَرُبَ من الإسلام ، وطمع النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين وقال له : أَتترك ملَّة آبائك ؟ ارجع إلى دينك واثْبت عليه وأَنا أَتحمل لك بكل شيءٍ تخافه في الآخرة ، لكن على أَن تعطيني كذا وكذا من المال ، فوافقه الوليد بن المغيرة على ذلك ، ورجع عمَّا همَّ به من الإسلام ، وضلَّ ضلالًا بعيداً ، وأَعطى ذلك المال لذلك الرجل ثم أَمسك عنه وشَحَّ ، فنزلت الآية فيه . وذكر الثعلبي عن قوم أَنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه في قصة جرت له مع عبد الله ابن سعيد بن أَبي سَرْح(١) ، وذلك كله عندي باطل ، وعثمان عن

(١) ذكر القرطبي أن خبر عثمان بن عفان مع أخيه ابن أبي سرح نقل عن ابن عباس ، والسدي ، والكلبي ، والمُسَيَّب بن شريك ، وفيه أن عثمان رضي الله عنه كان يتصدق وينفق في الخير ، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سَرْح : ما هذا الذي تصنع ؟ يوشك ألاَّ يبقى لك شيءٌ ، فقال عثمان : إن لي ذنوباً وخطايا ، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه ، فقال له عبد الله : أعطني ناقتك برحلها وأنا اتحمَّل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عما كان يصنع من الصدقة ، فأنزل الله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي =

مثله مُنَزَّهٌ . وقال السُّدي : نزلت في العاص بن وائل ، فقوله تعالى : ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ ـ على هذا القول ـ هو في المال ، وقال مقاتل بن حيان في كتاب الثعلبي : المعنى : وأعطى من نفسه قليلًا في قربه من الإيمان ، ثُمَّ أَكْدَى ، أَي انقطع ما أعطى ، وهذا بيِّن من اللَّفظ ، والآخر يحتاج إلى رواية ، و [تَوَلَّى] معناه : أَدبر وأعرض ، والمراد : عن أَمر الله تعالى ، و [أَكْدَى] معناه : انقطع عطاؤُه ، وهو مُشَبَّه بالحافر في الأَرض ، فإنه إذا انتهى إلى كُدْية ـ وهي ما صلب من الأَرض ـ وقف وانقطع حفره ، وكذلك : أَجْبَل الحافر إذا انتهى إلى جبل ، ثم قيل لمن انقطع عمله : أَكْدَى وأَجْبَل .

وقوله تعالى : ﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ معناه : أَعَلِم من الغيب أَنَّ من تحمَّل ذنوب آخر فإن المُتَحَمَّل عنه ينتفع بذلك فهو لهذا الذي عَلِمَه يرى الحقَّ وله فيه بصيرة ، أَم هو جاهل لم يُنَبَّأْ بما في صحف موسى ـ وهي التوراة ـ وفي صحف إبراهيم ـ وهي كتب نزلت عليه من السماءِ ـ من أَنه لا تَزِرُ وازرَةٌ وِزْرَ أُخرى ؟

= تَوَلَّى، وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾ ، فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله، وقد ذكر ذلك الثعلبي ، وذكره الواحدي في (أسباب النزول) ، وسابقة عثمان رضي الله عنه وتاريخه في الإسلام يجعلنا نؤكد رأي ابن عطية في نفي ذلك عنه .

أَي : لا تحمل حاملة حِمْل أُخرى ، وإِنما يؤخذ كل أَحد بذنوب نفسه ، فلما كان جاهلًا بهذا وقع في إِعطاءِ ماله للذي قال له : أَنا أَتَحَمَّل عنه دَرَك الآخرة (١).

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِي وَفَّى﴾ ، وفي ما هو المُوَفَّى ؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : كانوا قبل إِبراهيم عليه السلام يأْخذون الوليَّ بالوليِّ في القتل ونحوه ، فوفَّى إِبراهيم عليه السلام وَبَلَّغ هذا الحكم من أَنه لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً ، والربيع : وَفَّى طاعة الله تعالى في ذبح ابنه عليهما السلام ، وقال الحسن ، وابن جُبَيْر ، وقتادة : وَفَّى تبليغ رسالته والمجاهدة في ذات ربه تعالى ، وقال عكرمة : وفَّى هذه العشر الآيات: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فما بعدها ، وقال ابن عباس ، وقتادة ، وعكرمة : وفَّى ما افْتُرِض عليه من الطَّاعات على وجهها ، وتكمَّلت له شعب الإِيمان والإِسلام ، فأَعطاه الله تعالى براءَته من النَّار ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : وفَّى شرائع الإِسلام ثلاثين سهماً ، وقال أَبو أُمامة ـ ورفعه إِلى النبي صلى الله عليه وسلم ـ : وفَّى أَربع صلوات في كل يوم ، والأَقوى من هذه كلها القول العامُّ لجميع الطَّاعات المستوفية لدين الإِسلام ، فروي أَنها لم تُفرض على

---

(١) أي : تَبِعَةَ الآخرة ، يقال : ما لحقك من دَرَك فعليَّ خلاصه .

أَحد مُكَمَّلة فوفَّاها إِلَّا على إِبراهيم ومحمد صلى الله تعالى عليهما وسلم ، ومن الحجَّة لذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (١) .

وقرأَ ابن جُبَيْر ، وأَبو مالك ، وابن السميفع : [وَفَى] مخفَّفة الفاءِ ، والخلاف فيما وَفَى به كالخلاف فيما وَفَّاه على القراءَة الأُولى التي فَسَّرنا ، ورويت هذه القراءَة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأَها أَبو أُمامة (٢) .

و «الوِزْرُ» : الثقل ، وأَنَّث «الْوَازِرَةَ» إِمَّا لأَنه أَراد النَّفس ، وإِمَّا أَنه أَراد المبالغة كَعَلَّامة ونسَّابة وما جرى مجراهما ، و [أَنْ] في قوله سبحانه : ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ مخفَّفة من الثقيلة ، وتقديرها : أَنه لا تزر ، وحسَّن الحائل بينها وبين الفعل أَن بقي الفعل مرتفعاً ، فهي كقوله تعالى : ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى﴾ (٣) ونحوه ، و [أَنْ] في موضع رفع أَو خفض كلاهما مترتب .

---

(١) من الآية (١٢٤) من سورة (البقرة) .

(٢) قال ابن جنِّي : «وهذا على تسمية المُسَبَّب باسم سببه ، ألا ترى أنَّ معناه ، الذي وعد ذلك فوفى بحاضره وسيفي بغائبه يوم القيامة ، وذلك منهم لصدق الوعد ، أي : إذا قال فقد فعل أو قد وقع ما يقوله ، وهذا كقولهم : وعْد الكريم نقد ، ونقد اللَّئيم وعْد» .

(٣) من الآية (٢٠) من سورة (المزمِّل) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ ﴾ ، وقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَأَنَّ ، وَأَنَّهُ ﴾ معطوف كل ذلك على «أن» المقدرة في قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾ ، وهي كلها بفتح الألف في قراءة الجمهور ، وقرأ أبو السمال قعنب : ﴿ وَإِنَّ إِلَى رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهَى ﴾ بكسر الهمزة فيها وفيما بعدها ، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ منسوخ بقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾(١) ، وهذا لا يصح عندي عن ابن عباس رضي الله عنهما لأنه خبر لا يُنْسخ ، ولأن شروط النسخ ليست هنا

(١) من الآية (٢١) من سورة (الطُّور) .

اللَّهم إلَّا أن يُتَجَوَّز في لفظة النسخ ليفهم سائلا ، وقال عكرمة : هذا الحكم كان في قوم إبراهيم وموسى عليهما السلام ، وأَمَّا هذه الأُمَّة فلها سَعْيُ غيرها ، والدليل حديث سعد بن عبادة ، قال : يا رسول الله : هل لأُمِّي إن تطوعت عنها أَجر ؟ قال : نعم(١) ، وقال الربيع بن أَنس : هذا الإنسان في هذه الآية هو الكافر ، وأَمَّا المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره ، وسأَل عبد الله بن طاهر بن الحسين والي خراسان الحُسَيْن بْنَ الفضل عن هذه الآية مع قوله : ﴿ وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾(٢) ، فقال له : ليس له بالعدل إلَّا ما سَعَى ، وله بفضـل الله ما شاءَ اللهُ ، فقبَّـل عبدُ الله رأَس الحسين ، وقال الجمهور : الآية محكمة . والتحرير عندي في هذه الآية أَنَّ ملاك

---

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده عن هشام ، قال : أخبرني أبي ، قال : أخبرتني عائشة أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن أُمِّي افتُلتت نفسها ، وأظنها لو تكلمت تصدقت ، فهل لها أجر أن أتصدق عنها ؟ قال : نعم ، وأخرجه مسلم في صحيحه من عدة طرق ، كلها تنتهي إلى هشام ، ومعنى « افتُلتت » ، : ماتت فجأة . قال الإمام ابن حزام النووي في شرحه لصحيح مسلم : « وفي هذا الحديث أن الصدقة عن الميت تنفع الميت ويصله ثوابُها ، وهو كذلك بإجماع العلماء ، وكذلك أجمعوا على وصول الدعاء وقضاء الدَّيْن بالنصوص الواردة في الجميع ، ويصح الحج عن الميت إذا كان حج الإسلام ، وكذا إذا وصَّى بحج التطوع على الأصح عندنا ، واختلف العلماءُ في الصوم إذا مات وعليه صوم ، فالراجح جوازه عنه للأحاديث الصحيحة فيه ، وأما الصلاة وسائر الطاعات فلا تصله عندنا ولا عند الجمهور ، وقال أحمد : يصله ثواب الجميع » . وقد وضح القرطبي اسم الرجل كما هنا ، وذكر أن الرجل سأل : فأي الصدقة أفضل ؟ قال : سقي الماء .

(٢) من الآية (٢٦١) من سورة (البقرة) .

المعنى هو في اللام من قوله تعالى : [لِلإِنْسَانِ] ، فإذا حققت الشيءَ الذي حقُّ الإنسان أَن يقول فيه : «لي كذا» لم تجده إلَّا سعيه ، وما تَمَّ بَعْدُ من رحمة بشفاعة أَو رعاية أَب صالح أَو ابن صالح أَو تضعيف حسنات أَو تغمُّد بفضل أَو رحمة دون هذا كله ، فليس هو للإنسان ولا يَسَعُهُ أَن يقول : «لي كذا وكذا» إلَّا على تجوُّز وإلْحاق بما هو له حقيقة ، واحتج بهذه الآية من يرى أَنه لا يعمل أَحدٌ عن أَحد بعد موته ببدن ولا مال ، وفرَّق بعض العلماءِ بين البدن والمال ، وهي عندي كلها فضائل للعامل وحسناتٌ تُذكر للمعمول عنه ، وقد أَمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سعداً رضي الله عنه بالصدقة عن أُمه ، والسَّعْيُ : الكَسْبُ .

وقوله تعالى : [يُرَى] فاعلُه حاضرو القيامة ، أَي يراه الله تعالى ومَنْ شاهد الأَمر ، وفي عرض الأَعمال على الجميع تشريف لِلْمُحْسنين وتوبيخ لِلْمُسيئين ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من سمَّع بأَخيه فيما يكره سمَّع الله به سامع خلقه يوم القيامة) (١).

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق والأحكام ، ومسلم في الزهد ، والترمذي في النكاح ، وابن ماجه في الزهد ، وأحمد في مسنده (٣–٤٠ ، ٥–٤٥) . ولفظه كما في مسلم ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من سمَّع سمَّع الله به ، ومن راءى راءى الله به) ، وروي مثله عن جندب العَلَقِيِّ ولكن بلفظ المضارعة : (من يُسَمِّع ...) .

وفي قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ ٱلْجَزَاءَ ٱلْأَوْفَى﴾ وعيدٌ للكافرين ووعْدٌ للمؤمنين .

و « المُنْتَهَى » : يحتمل أَن يريد به الحشر والمصير بعد الموت ، فهو مُنتهى بالإضافة إلى الدنيا وإن كان بعده مُنْتَهى آخر هو الجنة أَو النار ، ويحتمل أَن يريد بالمنتهى الجنة أَو النار ، فهو منتهى على الإطلاق ، ولكن في الكلام حذفُ مضاف ، أَي : إلى عذاب ربك ورحمته ، وقال أُبَيٌّ بن كعب رضي الله عنه : قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ إِلَى رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهَى﴾ : (لَا فكرة في الرَّبِّ)(١) ، وروى أَنس رضي الله عنه أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا ذُكر الرَّبُّ فانتهوا)(٢) ، وقال أَبو هريرة رضي الله عنه : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً على أَصحابه فقال : (فيم أَنْتُمْ) ؟ قالوا : نتفكَّر في الخالق سبحانه وتعالى ، فقال عليه الصلاة والسلام : (تفكَّرُوا في الخَلْق ولا تَتَفَكَّروا في الخالق فإنه لا تحيط الفكرة) ... الحديث(٣) .

(١) أخرجه الدارقطني في الإفراد ، والبغوي في تفسيره ، عن أُبَيٍّ بن كعب ، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة عن سفيان الثوري .

(٢) ذكره القرطبي بلفظ : (إذا ذكر الله تعالى فانْتَه) ، وذكره الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) ، عن البزّار ، عن أبي سعيد المقبري مرسلاً بلفظ (إذا ذكرتم بالله فانتهوا) .

(٣) أخرجه أبو الشيخ عن يونس بن مسيرة ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يذكرون عظمة الله تعالى ، فقال : ما كنتم تذكرون ؟ قالوا : كنا نتفكر=

وذكر تعالى الضحك والبكاءَ لأَنهما صفتان تجمعـان أَصنافاً كثيرة من الناس ؛ إذ الواحدة دليل السرور والأُخرى دليل الحزن في الدنيا والآخرة ، فنبَّه تعالى على هاتين الخَاصَّتيْن اللَّتين هما للإنسان وحده ، وقال مجاهد : المعنى : أَضحك أَهل الجنة وأَبكى أَهل النار (١) ، وحكى الثعلبي في هذا أَقوالًا استعاريَّة كَمَنْ قال : أَضحك الأَرض بالنبات وأَبكى السماءَ بالمطر ، ونحوه ، و ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ بَيِّنٌ ، وحكى الثعلبي قولًا أَنه أَحيا بالإيمان وأَمات بالكفر . و «الزَّوْجَيْن» في هذه الآية يريد به المُصْطَحِبَيْن من الناس ، من الرجل والمرأَة وما ضارع من الحيوان ، والخُنْثَى مُتَمَيِّزٌ ولابُدَّ لإحدى الجهتين .

و «النُّطْفَةُ» في اللغة : القطعة من الماءِ كانت يسيرة أَو كثيرة ، ويراد بها هنا الذُّكْران (٢) ، وقوله : [تُمْنَى] يحتمل أَن يكون من قولك :

= في عظمة الله تعالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا في الله فلا تفكروا ، ثلاثاً ، ألا فتفكروا في عِظم ما خلق ، ثلاثاً ، وأخرج مثله أيضاً أبو الشيخ عن أبي أُمَيَّة مولى شبرمة واسمه الحكم ، عن بعض أئمة الكوفة ، مع زيادة في آخره ، وأخرج أبو الشيخ أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله مع زيادة واختلاف في الألفاظ . ذكر ذلك الإمام السيوطي في « الدر المنثور » .

(١) أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم يضحكون ، فقال : لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلا ، فنزل عليه جبريل فقال : إن الله هو أضْحك وأبْكى ، فرجع إليهم فقال : ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبريل فقال : ائت هؤلاء فقل لهم : إن الله أضحك وأبكى . « الدر المنثور » .

(٢) أي : يراد بها ماءُ الرجال .

«أَمْنَى الرجل» إذا خرج منه المنيُّ ، ويحتمل أَن يكون من قولك : «مَنَى الله الشيءَ» إذا خلقه ، فكأَنه قال : إذا تُخْلَق وتُقَدَّر ، و «النَّشْأَةُ الأُخْرى» هي إعادة الأَجسام إلى الحشر بعد البلى في التركيب ، وقرأَ الناس : [ٱلنَّشْأَةَ] بسكون الشين وبالهمزة والقصر ، وقرأَ أبو عمرو ، والأَعرج : [ٱلنَّشَاءَةَ] ممدودة ، و «أَقْنَى» معناه : أَكْسَبَ ، تقول : قنيتُ المال أَي كسبته ، ثمَّ تُعَدَّى بعد ذلك بالهمزة ، وتُعَدَّى بالتضعيف ، ومنه قول الشاعر :

كَمْ منْ غَنِيٍّ أَصابَ الدَّهْرُ ثَرْوَتَهُ وَمنْ فَقِير تَقَنَّى بَعْدَ إِقْلَال (١)

وعبَّر المفسرون عن «أَقْنَى» بعبارات مختلفة ، فقال بعضهم : أَقْنَى معناه : اكْتَسَب ما يَقْتَني ، وقال مجاهد : معناه : أَرْضى وأَغْنَى ، وقال حضرمي : معناه : أَغنى نفسه و «أَقْنَى» أَفقر عباده إليه ، وقال الأَخفش : أَغْنى : أَفقر ، وهذه عبارات لا تقتضيها اللفظة ، والوجه فيها بحسب اللغة : أَكْسَبَ ما يُقْتَنَى ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أَقْنَى : أَقنع .

---

(١) هذا البيت شاهدٌ هنا على أن (قَنِيَ) تتعدى بالتضعيف ، و «كَمْ» هنا للتكثير ، وأصاب ثروته : أضاعها ، فكأنه أنزل بها إصابة ماحقة ، والإقلال : الفقر والحاجة ، يقول : كثير من الأغنياء أصابهم الدهر فضاعت ثرواتهم ، وكثير من الفقراء أغناهم الدهر وأكسبهم الثروة ، ولم أقف على قائل البيت .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والقناعة خير قَنْيَة ، والغِنَى عَرَضٌ زائل ، فَلِلَّه دَرُّ ابن عباس رضي الله عنهما .

و «الشِّعْرَى» : نجم في السماءِ ، وقال مجاهد وابن زيد : هو مِرْزَم الجوزاءِ (١)، وهما شعريان : إحداهما الغميصاءُ(٢) والأُخرى العَبُور ، لأَنها عبرت المَجَرَّة ، وكانت خزاعة ممن يعبد هذه الشِّعرى ، ومنهم أَبو كبشة ، ذكره الزهراوي والثعلبي ، واسمه عبد الشِّعرى ، فلذلك خُصَّت بالذكر ، أَي : وهو ربُّ هذا المعبود الذي هو لكم .

و «عَادٌ» : قوم هود ، واختلف في معنى وصفها بالأُولى ـ فقال ابن زيد والجمهور : ذلك لأَنها في وَجْه الدَّهر وقديمه ، فهي أُولَى بالإِضافة إِلى الأُمم المتأَخرة ، وقال الطبري : سميت بالأُولى لأَن عاداً أَخيرة ـ وهي قبيلة ـ كانت بمكة مع العماليق وهم بَنُو لُقَيْم

(١) أي الذي يأتي بعد الجوزاء ويتبعها ، وهو اسمٌ لعدد من النجوم أشهرها مِرْزَمان : هما الشِّعْرَيَان : العَبُورُ والغُمَيْصَاءُ ، وأُمُّ مِرْزَم : الريح ، أو ريح الشمال الباردة ؛ لأنها تأتي بِنَوْءِ المِرْزَم ومعه المطر والبرد . (المعجم الوسيط) . وفي اللسان : «الشِّعْرَى : كوكب نَيِّر يقال له : المِرْزَم ، يطلع بعد الجوزاء وطلوعه في شدة الحر » .

(٢) سمَّاها العرب بالغُمَيْصَاءِ لأنهم قالوا : إنها بكت على إثر العَبُور حتى غَمِصَتْ ، أي صغرت ، وهذا كناية عن قلة ضوئها .

ابن هزَّال ، والقول الأَول أَبْيَن ؛ لأَن هذا الأَخير لم يصح ، وقال المبرد : عاد الأَخيرة هي ثمود ، والدليل قول زهير :

. . . . كَأَحْمَر عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِم (١)

ذكره الزهراوي ، وقيل : الأَخيرة : الجَبَّارُون . وقرأَ ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [عَادًا] منونةً [ٱلْأُولَى] مهموزة ، وقرأَ نافع فيما يُروى عنه : ﴿عَادَ ٱلاولَى﴾ بإزالة التنوين والهمز ، وهذا كقراءة من قرأَ : ﴿أَحَدُ ٱللَّهُ﴾ (٢) ،

---

(١) هذا عجز بيت من المعلقة ، وهو واحد من الأبيات التي يصف فيها الحرب وينفِّر منها ، والبيت بتمامه مع بيت قبله :

فَتَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا وَتَلْقَحْ كِشَافاً ثُمَّ تُنْتِجْ فَتُتْئِمِ
فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ كَأَحْمَرِ عادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ

يقول : إن الحرب تعرُكُكُمْ كما تَعرُك الرَّحَى الحَبَّ مع الثِّفَالِ وهو الخِرقة التي توضع تحت الرحى ليقع عليها الطحين ، والحرب تلقح في السنة مرتين وتلد توأمين ، والشُّؤْم : ضِدُّ اليُمْن ، ورجلٌ مَشْئُومٌ كما يقال رجل ميمون ، والأشأم : أفعل من الشؤم وهو مبالغة ، وأراد بأحمر عاد أحمر ثمود وهو قدار بن سالف الذي عقر الناقة ، يقول: فتَلِدُ لكم أبناءً في أثناء تلك الحروب كل واحد منهم أشأم كعاقر الناقة ، ثم ترضعهم الحرب وتفطمهم ، أي تكون ولادتهم ونشأتهم في أثناء الحرب فيصبحون مشائيم على آبائهم ، والشاهد هو أنه أراد بأحمر عاد أحمر ثمود ، فعادٌ تطلق على ثمود ، وهي عادٌ الأخيرة .

(٢) من قوله تعالى في الآيتين الأولى والثانية من سورة (الصمد) : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ، ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ، فقد قرئت : [أَحَدُ] بدون تنوين .

وكقول الشاعر :

. . . . وَلَا ذاكِرِ اللهَ إِلَّا قَليـــلًا (١)

وقرأ قوم : ﴿عَادٍ الْأُولَى﴾ ، والنطق بها «عادَنِ الْأُولَى» ، اجتمع سكون نون التنوين وسكون لام التعريف فكُسرت النون لالتقاءِ الساكنين ، ولا فرق بينها وبين قراءَة الجمهور إِلَّا ترك الهمز ، وقرأ نافع أيضاً ، وأبو عمرو بالوصل والإدغام : ﴿عَادًا لُّولَى﴾ بإدغام النون في اللام ونقل حركة الهمزة إلى اللام ، وعاب أبو عثمان المازني والمبرِّد هذه القراءَة وقالا : إن هذا النقل لا يخرج اللام عن حدِّ السكون ، وحقُّ ألف الوصل أن تبقى كما تقول العرب إذا نقلت الهمزة من قولهم : «الْأَحْمَر» فإنهم يقولون : «الَحْمَرُ جاءَ» ، فكذلك يقال هنا : «عادًا لْلُولَى» ، قال أبو علي : والقراءَة سائغة ، وأيضاً فمن العرب من يقول :

---

(١) هذا عَجزُ بيت لأبي الأسود الدؤلي ــ ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي ــ والبيت بتمامه :

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْــرَ مُسْتَعْتِبٍ وَلا ذاكِرِ اللهَ إلاَّ قَلِيــلاً

وهو في الكتاب ، وخزانة الأدب ، وابن الشجري ، والأغاني ، والمغني ، واللسان ، ويروى أن أبا الأسود أغوته امرأة بجمالها ، وزعمت أنَّها صناعُ الكفِّ حسنة التدبير ، وعرضت عليه الزواج فتزوجها ، ولكنه وجدها قد أسرفت في ماله ، ومدت يدها إلى خيانته ، فهجاها بأبيات منها هذا البيت ، وغير مُسْتَعْتِبٍ : أي غير راجع بالعتاب عن قبيح فعله ، وهو يعني هذه المرأة ، والشاهد في البيت حذف التنوين من « ذاكر » لالتقاءِ الساكنين ونصب ما بعده وإن كان الوجه الإضافة .

«لَحْمَرُ جاءَ» فيحذف الألف مع النقل ويَعْتَدُّ بحركة اللام ولا يراها في حكم السكون ، وقرأ نافع فيما رُوي عنه : ﴿عَاداً ٱللُّؤْلَى﴾ بهمز «اللُّؤْلَى» ، يهمز الواو ، ووجه ذلك أَنَّه لم يكن بين الواو والضمة حائل يحمل الهمزة فهمزها كما تهمز الواوُ المضمومة ، وكذلك فعل من قرأ : ﴿عَلَى سُؤقِهِ﴾ (١) ، وكما قال الشاعر :

لَحَبَّ المُؤْقِدَانِ إِلَيَّ مُؤْسَى . . . . (٢)

وهي لغة . وقرأ الجمهور : [وَثَمُوداً] بالنصب عطفاً على [عَاداً] ،

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٢٩) من سورة (الفتح) : ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ .

(٢) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدة له يمدح هشام بن عبد الملك ، ويروى : لَحَبَّ الواقدان ، وأحب الموقدين ، وأنشده الزمخشري في كشافه كما هنا ، والبيت بتمامه :

لَحَبَّ الْمُؤْقِدَانِ إِلَيْكَ مُؤْسَى وَجَعْدَةُ إِذْ أَضَاءَهُمَا الْوَقُودُ

وحَبَّ : فِعْل ماض أصله حَبُبَ ، مثل كَرُمَ ، ومعناه : صار محبوباً ، فأدغمت الباءُ الأولى في الثانية إما للقلب ، وإما لنقلها إلى الحاء قبلها ، فلِذَا رُوي «لَحَبَّ - بفتح الحاء وضمها - واللام في «لَحَبَّ» لام جواب قسم محذوف ، والمُؤْقدان هما موسى وجعدة ، فإنهما يوقدان نار القرى للضيوف ، كناية عن الكرم ، والوُقود - بضم الواو - : مصدر بمعنى الإيقاد ، وبالفتح ما يوقد به من حطب ونحوه ، والمعنى : لما أضاء إيقاد النار موسى وجعدة ورأيتهما ذوي ضياءٍ وبهجة صارا محبوبَيْن ، والشاهد هو قلب الواو همزة في «المؤقدان» ، وفي «مُؤْسى» إجراءً لضمة ما قبلها مجرى ضمتها هي ، وهذا هو مذهب سيبويه ، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في أكثر من مناسبة .

وقرأ عاصم ، والحسن ، وعصمة : [وَثَمُودَاْ] بغير صرف ، وهي في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه بغير ألف بعد الدال .

وقوله تعالى : ﴿فَمَا أَبْقَى﴾ ظاهره : فما أبقى عليهم ، وتأول ذلك بعضهم : فما أبقي منهم عينا تطرف ، وقد قال ذلك الحجاج حين سمع قول من يقول : إن ثقيفاً من ثمود ، فأنكر ذلك وقال : إن الله تعالى قال : ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ ، وهؤلاء يقولون : بقي منهم باقيـــة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾ ۩﴾

نصب ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ عطفاً على [ثَمُودَ] ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ لأنهم كانوا أول أمَّة كذبت من أهل الأرض ، و «نوح» أول الرُّسل ، وجعلهم «أظلَم وأطْغى» لأنهم سبقوا إلى التكذيب

دون اقتداءٍ بأحد قبلهم ، وأيضاً فإنهم كانوا في غاية من العُتُوِّ ، وكان عُمْر نوح عليه السلام قد طال في دعائهم ، وكان الرجل يأْتي إليه مع ابنه فيقول : احذرك من هذا الرجل فإنه كذَّاب ، ولقد حذَّرني منه أَبي وأَخبرني أَن جَدِّي حذَّره منه ، فمشت على هذا أَخلاقهم أَلْفاً إِلَّا خمسين عاماً.

و «الْمُؤْتَفِكَةُ» قرية قوم لوط عليه السلام بإجماع من المفسِّرين ، ومعنى «الْمُؤْتَفِكَة» : المتقلبة ؛ لأَنها أَفِكَت فأْتفكت ، ومنه «الإِفْكُ» لأَنه قلْب الحق كذباً ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن : [وَالْمُؤْتَفِكَاتِ] على الجمع ، و [أَهْوَى] معناه : طرحها في هواءٍ عال إِلى أَسفل ، وهذا ما رُوي من أَن جبريل عليه السلام اقتلعها بجناحه حتى بلغ قرب السماءِ فهبط الجميع ، ثم اتْبعوا بحجارة ، وهي التي غشَّاها الله تبارك وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ مخاطبة للإِنسان الكافر ، كأَنه قيل له : هذا هو الذي له هذه الأَفاعيل ، وهو خالقك المنعم عليك بكل النِّعم ، ففي أَيها تشكُّ ؟ و [تَتَمَارَى] معناه : تَتَشَكَّك ، وقرأَ يعقوب : ﴿رَبِّكَ تَّمَارَى﴾ بتاءٍ واحدة مشدَّدة ، وقال أَبو مالك الغفاري (١):

---

(١) اسمه غَزْوان الغِفَاري ، أبو مالك الكوفيُّ ، مشهور بكنيته ، ثقة ، من الثالثة . (تقريب التهذيب) .

إن قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ إلى قوله تعالى : [تَتَمَارَى] هو في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام .

وقوله تعالى : ﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يحتمل أن يشير إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو قول قتادة ، وأبي جعفر ، ومحمد بن كعب القرظي ، ويحتمل أن يشير إلى القرآن ، وهو تأويل قوم ، وقال أبو مالك : الإشارة بهذا النّذير إلى ما سلف من الأخبار عن الأمم ، و [نَذِيرٌ] يحتمل أن يكون بناءَ اسم فاعل ، ويحتمل أن يكون مصدراً ، و «نُذُر» جمع نذير ، وقال : [ٱلْأُولَى] بمعنى أنه في الرتبة والأوصاف والمنزلة من تلك المتقدمة ، والأشبه أن تكون الإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ معناه : قربت القريبة ، و [الْآزِفَةُ] عبارة عن القيامة بإجماع من المفسرين ، و «أَزِفَ» معناه : قَرُبَ جدًّا ، وقال كعب بن زهير :

بَانَ الشَّبَابُ وأَمْسَى الشَّيْبُ قَدْ أَزِفَا ... وَلَا أَرَى لِشَبَابٍ ذاهبٍ خلَفَا (١)

وقوله تعالى : [كَاشِفَةٌ] يحتمل أن يكون صفةً لمؤنثة ، والتقدير :

---

(١) يبكي شبابه ويتوجس خيفة من الشيب ، وبانَ : ذهب وارتحل ، وأزف : دنا واقترب جداً ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، يقول : ذهب الشباب واقترب المشيب فالكبر والعجز ، وليس بعد ذلك إلا الفناء ، فإذا ذهب الشباب فقد ذهب العمر كله في الحقيقة .

حالٌ كاشفة ، أَو منَّةٌ كاشفة ، أَو سعاية ، قال الرُّمَّاني : أَو جماعة ، ويحتمل أَن يكون مصدراً كالعاقبة و ﴿خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾(١) ، ويحتمل أَن يكون بمعنى «كاشف» والهاءُ للمبالغة ، كما قال تعالى : ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾(٢) ، وأَما معنى [كَاشِفَة] فقال الطبري ، والزجاج : هو من كشف السرِّ ، أَي : ليس من دون الله من يكشف وقتها ويعلمه ، وقال الزهراوي عن منذر بن سعيـد : هو من كشف الضُّرِّ ودَفعه ، أَي : ليس من يكشف هولها وخطبها ، وقـرأَ طلحة : «لَيْسَ لَهَا مِمَّا تَدْعُـونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَـةٌ وَهِيَ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ سَـاءَتِ ٱلْغَاشِيَةُ »(٣) .

---

(١) جاءت في قوله تعالى في الآية (١٩) من سورة (غافر) : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورِ﴾ .

(٢) الآية (٨) من سورة (الحاقة) .

(٣) قال أبو الفتح ابن جني : «هذه القراءة تـدل على أن المراد بقراءة الجمـاعة : ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ ٱللهِ كَاشِفَةٌ﴾ ، حذف مضاف بعد مضاف ، ألا ترى أن التقدير : «ليس لها من جزاءِ عبادة معبودٍ دون الله كاشفةٌ» ، فالعبادة ــ على هذا ــ مصدر مضاف إلى المفعول ، كقوله تعالى : ﴿لا يَسْأَمُ ٱلإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ ٱلْخَيْرِ﴾ ، ثم حذف المضاف الأول فصار تقديره : «ليس لها من عبادة معبودٍ دون الله كاشفة» ، ثم حذف المضاف الثاني الذي هو «عبادة» فصار التقدير : «ليس لها من معبودٍ دون الله كاشفة» ، ثم حذف المضاف الثالث فصار إلى ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ ٱللهِ كَاشِفَةٌ﴾ . وقوله : «وَهِيَ عَلَى الظَّالِمِينَ سَاءَتِ الغَاشِيَةُ» جارٍ مجرى قولهم : «زيدٌ بِئْس الرجلُ» ؛ لأن ساءَ بمعنى بِئْس .

و ﴿هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ هو القرآن ، وقوله تعالى : [أَفَمِنْ] ؟ توقيف وتوبيخٌ ، وفي حرف أُبَيٍّ ، وابن مسعود رضي الله عنهما «تَعْجَبُونَ ، تَضْحَكُونَ» بغير واو عطف ، وقرأ الحسن : ﴿تُعْجِبُونَ تُضْحِكُونَ﴾ بضم التاءِ فيهما وكسر الجيم والحاءِ وحذف واو العطف ، وفي قوله تعالى وجلَّ: ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حضٌّ على البكاءِ عند سماع القرآن ، وروى سعد بن أَبي وقَّاص رضي الله عنه أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن هذا القرآن أُنزل يُخَوِّف ، فإذا قرأْتموه فابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا)(١) ، ذكره الثعلبي .

و «السَّامِدُ» : اللاعبُ اللاهي ، وبهذا فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسِّرين ، وقال الشاعر :

قِيلَ قُمْ فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ دَعْ عَنْكَ السُّمودَا (٢)

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الإقامة والزهد . وسعد هو أول من رمى بسهم في سبيل الله ، وهو أحد العشرة المبشَّرين بالجنة .

(٢) البيت في اللسان — سمد — غير منسوب ، وفي «الدُّرّ المنثور» ذكره الإمام السيوطي مع بيت آخر قبله منسوباً إلى هزيلة بنت بكر ، قال : أخرج الطسي في مسائله ، والطبراني ، عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله تعالى : [سَامِدُونَ] ، قال : السُّمود : اللهوُ والباطل ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول هزيلة بنت بكر وهي تبكي قوم عاد :

لَيْتَ عاداً قَبِلُوا الحَقَّ وَلَمْ يُبْدُوا جُحُودَا
قِيلَ قُمْ فانْظُرْ إلَيْهِمْ ثُمَّ دَعْ عَنْكَ السُّمُودَا

=

و «سَمَدَ» بلغة حِمْير : غَنَّى ، وهذا كله معنى قريب بعضه من بعض ، وأَسند الطبري عن أَبي خالد الوالبي (١) ، قال : خرج علينا عليٌّ رضي الله عنه ونحن قيام ننتظره للصلاة فقال : مالي أَراكم سامدين ؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

يشبه أَنه رآهم في أَحاديث ونحوها مما يُظن أَنه غفلة مَّا ، وقال إِبراهيم : كانوا يكرهون أَن ينتظروا خروج الإِمام قياماً ، وفي الحديث : (إِذا أُقيمت الصلاة فلا تقوموا حتَّى تروني)(٢) .

= وقد فُسِّر السمود بمعاني كثيرة ، فقيل: هو اللَّهو واللَّعب ، وقيل : هو الغِناءُ ، وقيل : الاستكبار ، وقيل : القيام في تَحيُّر ، وهذا المعنى يلائم البيت موضع الاستشهاد ، وقيل : السمود : الغفلة والذَّهاب عن الشيء ، وقيل : السُّمودُ يكون سروراً وحزناً ، ومما رُوي في السُّمود قول القائل :

رَمَى الحِدْثَانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ بِأَمْرٍ قَدْ سَمَدْنَ لَهُ سُمُودَا
فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بِيضاً وَرَدَّ وُجُوهَهُنَّ البِيضَ سُودَا

(١) هو أبو خالد الوالبي — بموحَّدة قبلها كسرة — الكوفيُّ ، اسمه هُرْمز ، وقيل : هَرِم ، مقبول ، من الثانية ، وفد على عمر ، وقيل : حديثه مرسل فيكون من الثالثة ، وخبره المروي هنا أخرجه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير . ذكر ذلك السيوطي في « الدر المنثور » .

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة والأذان ، ومسلم في المساجد ، وأبو داود ، والترمذي في الصلاة ، والنسائي في الإمامة والأذان ، والدارمي في الصلاة ، وأحمد في مسنده (٥—٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠) ، ولفظه كما في مسلم ، عن أبي قتادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا أُقيمت الصلاةُ فلا تقوموا حتى تروني) ، وقال ابن حاتم: (إذا =

ثم أمر تعالى بالسجود وعبادة الله تعالى تحذيراً وتخويفاً ، وها هنا سجدة في قول كثير من أهل العلم منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وردت بها أحاديث صحاح ، وليس يراها مالك رحمه الله تعالى(١) ، وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه : إنه قرأ بها عند النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسجد .

تم تفسير سورة النجم والحمد لله رب العالمين

= أقيمت أو نودي) وزاد إسحق في روايته حديث مَعْمَر وشيبان : (حتى تروني قد خرجت) . قال العلماء : والنهي عن القيام قبل أن يروه لئلا يطول عليهم القيام ، ولأنه قد يعرض له عارض فيتأخر بسببه .

(١) لأنه يرى أن السجود المطلوب في الآية هو سجود الفرض في الصلاة ، أما أكثر العلماء فيرون أن المراد هو سجود تلاوة القرآن ، وبه قال أبو حنيفة والشافعي .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

(٥٤) سُورَةُ القَمَرِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَخَمْسُونَ

تفسير سورة القمر (*)

وهي مكيَّة بإجماع إلَّا آية واحدة اختلف فيها، فقال جمهور الناس: هي مكيَّة، وقال قوم: هي مما نزل يوم بدر، وقيل: بالمدينة، وهي قوله تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾(١)، وسيأْتي القول في ذلك.

(*) في أكثر الأصول: «تفسير سورة اقتربت الساعة»، وآثرنا الاسم الذي يتفق مع المصحف الشريف الذي بين أيدينا.

(١) هي الآية (٤٥)، وقد قيل عن قتادة: إن الخلاف وقع في ثلاث آيات (٤٤، ٤٥، ٤٦)، ولكن أكثر العلماء يرون أن هذا ضعيف.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾

[ٱقْتَرَبَتِ] معناه : قربت إلَّا أنه أبلغ ، كما أن اقْتَدر أبلغ من قَدَر ، و [ٱلسَّاعَةُ] القيامة ، وأمرها مجهول التحديد ، لم يعلم إلَّا أنها قَرُبت دون تحديد ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (بُعثت أنا والسَّاعة كهاتين) وأشار بالسَّبَّابة والوسطى (١) ، وقال أنس رضي الله عنه : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كادت الشمس تغيب ، فقال : (ما بقي من الدنيا فيما مضى إلَّا كمثل ما بقي من

(١) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، عن أنس رضي الله عنه ، وأخرجه الأئمة أحمد ، والبخاري ، ومسلم عن سهل بن سعد ، ذكر ذلك الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» ورمز له بأنه حديث صحيح .

هذا اليوم فيما مضى)(١)، وقال عليه الصلاة والسلام : (إنِّي لأَرجو الله أَن يُؤَخِّر أُمتي نصف يوم)(٢) وهذا منه صلى الله عليه وسلم على جهة الرجاءِ والظن ، لم يجزم به خبراً ، فأَناف الله تعالى على أَمله وأَخَّر أُمته أَكثر من رجائه ، وكل ما يُروى في عمر الدنيا من التحديد فضعيف واهن .

وقوله تعالى : ﴿وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ إخبارٌ عما وقع في ذلك ، وذكر الثعلبي في ذلك أَنه قيل : إن المعنى : ينشق القمر يومئذ(٣)، وهذا

---

(١) رواه الحافظ البزّار بسنده عن قتادة عن أنس ، وقال ابن كثير بعد أن ذكر الحديث بسنده : « قلت : هذا حديثٌ مدارُهُ على خلَف بن موسى بن خلَف العمي عن أبيه ، وقد ذكره ابن حبان في الثقاة ، وقال : ربما أخطأ » ، ثم أورد حديثاً آخر رواه الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وقال : إنه يُعضِّد الذي قبله ، ولفظه كما في مسند أحمد : (كُنَّا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم والشمس على قُعَيْقعانَ بعد العصر ، فقال : ما أعماركم في أعمار من مضى إلاّ كما بقي من النهار فيما مضى) .

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم ، وأحمد في مسنده (١–١٧٠) ، ولفظه كما في المسند عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إنِّي لأرجو ألا يعجز أُمَّتي عند ربِّي أن يؤخرهم نصف يوم) ، فقيل لسعد : وكم نصف يوم ؟ قال : خمسمائة سنة .

(٣) يعني : يوم القيامة . وقد قيل : إنّ انشقاق القمر هو زوال الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها ، كما يُسَمَّى الصبح فَلَقاً لانفلاق الظُّلْمة عنه ، وقد يُعَبَّر عن انفلاقه بانشقاقه كما قال النابغة :

فلَمَّا أَدْبَرُوا ولَهُم دَوِيٌّ دَعَانَا عِنْدَ شَقِّ الصبْحِ دَاعِ =

ضعيف والأُمَّة على خلافه ، وذلك أن قريشاً سأَلت رسول الله صلى الله عليه وسلم آية ، فقيل : مجملة – وهذا قول الجمهور – وقيل : بل عيَّنوا شق القمر ، ذكره الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، فأَراهم الله تعالى انشقاق القمر ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وجماعة من المسلمين والكفار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اشهدوا) (١) ، وممن قال من الصحابة : رأَيتهُ عبد الله بن مسعود ، وجبير بن مطعم ، وأَخبر به عبد الله بن عمر ، وأَنس ، وابن عباس ، وحذيفة بن اليمان ، وقال المشركون عند ذلك : سحرنا محمد ،

= ولكن جمهور العلماء على أنَّ الانشقاق قد وقع فعلاً ، وقد ثبت ذلك في البخاري وغيره من حديث ابن مسعود ، وابن عمر ، وأنس ، وجُبَيْر بن مطعم ، وابن عباس رضي الله عنهم ، وقد أنكر أبو حيان كل رأي يخالف صريح العبارة بلفظ قوي صريح .

(١) أخرجه عبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن مردويه – من طريق أبي معمر – عن ابن مسعود ، قال : انشَقّ القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين : فرقة فوق الجبل وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا ، وأخرج مثله ابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل – من طريق علقمة – عن ابن مسعود ؛ قال : كنّا مع النبي صلى الله عليه وسلم بمنى ، فانشق القمر حتى صار فرقتين ، فتوارت فرقة خلف الجبل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اشهدوا ، وأخرج مثله مسلم ، والترمذي ، وابن جرير وابن المنذر ، وابن مردويه ، والحاكم ، والبيهقي ، وأبو نعيم في الدلائل – من طريق مجاهد – عن ابن عمر ، وفي آخره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللّهم اشهد ، وأخرج أبو نعيم في الحلية – من طريق عطاءٍ ، والضحاك – عن ابن عباس ... مثله ، إلا أنه ذكر أسماء الكفار الذين طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم آية .

وقال بعضهم : سَحَر القمر ، وقالت قريش : استخبروا المسافرين القادمين عليكم ، فما ورد أحد إلّا أخبر بانشقاقه ، وقال ابن مسعود : رأيته انشق فذهبت فرقة وراءَ جبل حراءٍ ، وقال ابن زيد : كان يُرى نصفه على قُعَيْقِعَان والآخر على أَبي قبيس ، وقرأَ حذيفة : « ٱقْتربَتِ ٱلسَّاعَةُ وقَد ٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ» ، وذكر الثعلبي عنه أَن قراءَته : «ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ» دون واو .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ ، جاءَ اللفظ مستقبلًا لينتظم ما مضى وما يأْتي ، فهو إِخبارٌ بأَن حالهم هكذا، واختلف الناسُ في معنى [مُسْتَمِر] - فقال الزجاج : قيل: معناه دائمٌ مُتَمَاد، وقال قتادة ، ومجاهد ، والكسائي ، والفراءُ : معناه : ذاهبٌ مارٌّ عن قريب يزول ، وقال الضحاك ، وأَبو العالية : معناه : مشدودٌ ، من مراير الحبــل ، كأَنه سحْرٌ قد استَمَرَّ ، أَي : أُحْكِمَ ، ومنه قول الشاعر :

حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَذْرٍ مَرِيرَتُهُ صَدْقَ العَزِيمَةِ لَا رَتًّا وَلَا ضَرَعاً(١)

---

(١) هذا البيت لِلَقيط بن يَعْمَر الإيادي من قصيدة قالها يدعو قومه إلى قتال كسرى ويحضهم على الحرب والفداء ، ويقول في مطلعها :

يَا دَارَ عَبْلَةَ مِنْ مُحْتَلِّهَا الْجَرَعَــا هَاجَتْ لِيَ الهَمَّ والأَحْزَانَ والوَجَعَــا

والبيت أحد الأبيات التي يتكلم فيها عن اختيار قائد شجاع ، قادر على الحرب ، قد حنكته =

ثم أَخبر تعالى أَنهم كذَّبوا واتبعوا شهواتهم وما يَهْوَوْن من الأُمور ، لَا بِدَلِيلٍ ولا بِتَثَبُّت ، ثم قال تعالى - عَلَى جهة الخبر الجزم - : ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ ، كأَنه تعالى يقول : وكلُّ شيءٍ إلى غاية ، فالحق يستقر ثابتاً ظاهراً ، والباطل يستقر زاهقاً ذاهباً ، وقرأَ أَبو جعفر ابن القعقاع : ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٍّ﴾ بالجرِّ في [مُسْتَقر] ، يعني بذلك أَشراطها ، والجمهور على كسر القاف من [مُسْتَقِرٌّ] ، وقرأَ نافع - بخلاف - وابن نصاح بفتحها ، قال أَبو حاتم : لا وجه لفتحها (١) ،

و «الْأَنْبَاءُ» جمع نبأٍ ، ويدخل في هذا جميع ما جاءَ به القرآن من المواعظ والقصص ومثلات الأُمم الكافرة ، و [مُزْدَجَرٌ] معناه :

= الأيام وأكسبته الخبرة ، فهو لا يستكين إذا عضه مكروه ، ولا يعيش عيش المترفين إن ساعده رخاءُ العيش :

وَقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ للهِ دَرُّكُمُ ... رَحْبَ الذِّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلِعَا
لا مُتْرِفاً إِنْ رخاءُ العَيْش سَاعَدَهُ ... وَلا إذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَا

ومعنى «اسْتَمَرَّتْ» : أُحْكِمَتْ ، والشَّزْرُ : فَتْل الحَبْل مما يلي اليسار ، وهو أَشَدُّ لفتله ، والمريرةُ : إحكام الفَتْل ثم أُريد بها القوة ، يقال : اسْتَمَرَّت مريرةُ الرَّجُل إذا قويت شكيمته ، والصَّدْقُ : الكاملُ في كل شيءٍ ، وصَدْقُ العزيمة : الثابت فيها المصمم عليها ، ويُرْوى «مُرَّ العزيمة» ، كما يُروى «مُسْتَحْكِمَ السِّنِّ» بدلا من «صَدْقَ العزيمة» . والرِّتَّةُ : ردَّةٌ قبيحة في اللسان من العيب ، والذي في «الشعر والشعراء» وفي الديوان : «لاقَحْماً» والقَحْمُ : الشيخ الهرم يعتريه خرق وخوف ، والضَّرَعُ : اللَّيِّن الذليل .

(١) قال أبو حيان في البحر : «وخرِّجت عَلَى حذف مضاف ، أي : ذو استقرارٍ وزمان استقرارٍ» .

موضع زجر وانتهـاءٍ ، وأصله «مُزْتَجَرٌ» قلبت التـاءُ دالًا ليناسب مخرجها مخرج الزاي ، وكذلك تبدل تاءُ «افتعل» من كل فعل أَوله زايٌ كازْدَلَف وازْدان ونحوه .

وقوله تعالى : [حِكْمَةٌ] مرتفع إمَّا على البدل من [مَا] في قوله تعالى : ﴿مَا فِيه﴾ ، وإمَّا على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره : هذه حكمة ، و [بَالِغَةٌ] معناه : يبلغ المقصد بها من وعظ النفوس والبيان لمن له عقل ، وقوله تعالى : ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ يحتمل أَن تكون [مَا] نافية ، أَي : ليس تُغْني مع عُتُوٍّ هذا الناس ، ويحتمل أَن تكون استفهاماً بمعنى التقرير ، أَي : فَمَا غَنَاءُ النُّذر مع هؤلاءِ الكفرة ؟

ثم سلَّى تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ، أَي : لا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وتمَّ القول في قوله تعالى : [عَنْهُمْ] ، ثم ابتدأَ وعيدهم ، والعامل في قوله تعالى : [يَوْمَ] قوله تعالى : [يَخْرُجُونَ] ، و [خُشَّعاً] حالٌ من الضمير في [يَخْرُجُونَ] ، وتصرف الفعل يقتضي تقدم الحال ، قال المهدوي : ويجوز أَن يكون حالًا من الضمير في [عَنْهُمْ] ، وقال الرُّمَّاني : المعنى : فَتَوَلَّ عنهم واذكر يومَ ، وقال الحسن : المعنى : فتولَّ عنهم اليومَ ، وانحذفت الواو من [يَدْعُ] لأَن كَتَبَةَ المصحف اتَّبعوا اللَّفظ لا ما يقتضيه

الهجاءُ ، وأَمَّا حذف الياءِ من [ٱلدَّاعِ] ونحوه فقال سيبويه : حذفوها تخفيفاً ، وقال أَبو عليٍّ ، حذفت مع الأَلف واللَّام ؛ إذ هي تحذف مع معاقبها وهو التنوين ، وقرأَ جمهور القراء : ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ بضم الكاف ، وقرأَ ابن كثير ، وشبل، والحسن : [نُكْرٍ] بسكون الكاف ، وقرأَ مجاهد ، والجحدري ، وأَبو قُلابة : [نُكِرَ] بكسر الكاف وفتح الراءِ على أَنه مبني للمفعول ، والمعنى في ذلك كله أَنه منكور غير معروف ولا يُرَى مثلُه ، قال الخليل : النُّكُر نعتٌ للأَمر الشديد والرجل الداهية ، وقال مالكُ بن عوف النَّضْري :

أَقْدِمْ محاجُ إِنَّهُ يَوْمٌ نُكُــــر مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ يَحْمِي وَيَكُــر (١)

و «نُكُر» فُعُل ، وهو صفة ، وذلك قليل في الصِّفات ، ومنه «مِشْيَةٌ سُجُحٌ» قال الشاعر :

دَعُوا التَّخَاجُؤَ وامْشُوا مِشْيَةً سُجُحاً إِنَّ الرِّجالَ ذوُو عَصْبٍ وتَذْكيرِ (٢)

---

(١) يريد الشاعر أن هذا اليوم يوم منكور غير معروف لأن أحداً لم ير مثاله لما فيه من شدَّة ، يقال : أَنْكَرْتُه فهو مُنْكَر ، ونَكَرْتُه فهو منكور ، وقد جمع الأعشى بين اللغتين حين قال : (وَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرَتْ ...) ، ومعنى : يحمي : يدافع ويحفظ الشيءَ ويَمْنَعُه ، ويكُرُّ : يحمل على العدوِّ ويعيد الحمل عليه مرة بعد أُخرى . يطالبه بالإقدام في هذا اليوم الشديد العصيب الذي لم ير أحد مثله فإن اجتماعهما معاً يقوي عزمهما ، ويساعدهما على حماية قومهما والكر على العدوِّ وهزيمته .

(٢) هذا البيت أحد أبيات سبعة قالها حسَّان بن ثابت في هجاء بني الحارث بن كعب =

ومثـله : « رجـلٌ شُلُـلٌ »(١) و « نَاقَـةٌ أُجُـدٌ »(٢) .

وقرأ جمهور القراء : [خُشَّعاً] ، وهي قراءة الأعرج ، وأبي جعفر ، وشيبة ، والحسن ، وقتادة . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : [خَاشِعاً] ، وهي قراءة ابن عباس ، وابن جبير ، ومجاهد ، والجحدري ، وهي إفراد بمعنى الجمع ، ونظيره قول الشاعر :

وَشَبَاب حَسَن أَوْجُهُهُـــم مِنْ إِيادِ بْنِ نِزَار بْنِ مَعَدْ(٣)

= رهط النجاشي الشاعر ، والتَّخَاجُؤُ: التباطؤ في المشي ، وقد روي هكذا في خزانة الأدب ، وفي الديوان ، ولكن جاء في معجم مقاييس اللغة : « ذروا التَّخَاجِيْ » ، والصحيح هو التَّخاجُؤ ؛ لأن التَّفاعُل في مصدر « تفاعَل » حقُّه أن يكون مضموم العين ، ولا تأتي مكسورة إلاَّ في المعتل اللام ، والمِشْيَةُ السُّجُح – بضم السِّين والجيم – هي المشية السَّهْلة ، وقال الأزهري : هي أن يعتدل الإنسان في مشيه ولا يتمايل فيه تكبُّراً ، وقد ذكر صاحب اللسان هذا البيت شاهداً على ذلك ، وورد في حديث عليٍّ رضي الله عنه يُحَرِّض أصحابه على القتال : « وامشوا إلى الموت مِشْيَةً سُجُحاً » ، وأُلُو عَصْبٍ : أصحابُ شِدَّة خَلْق ، يقال : رجل معصوب الخَلْق ، والرجل الذَّكر : القويُّ الشديد الأبيُّ .

(١) يقال رجـل مِشَلٌ وشَلُولٌ وشُلُلٌ وشُلْشُلٌ ، والمعنى فيها كلها أنه خفيف سريع ، وجمع شُلُل : شُلُلُون .

(٢) ناقةٌ أُجُدٌ : متصلة الفَقَار ، تراها كأنها عظم واحد ، والمراد أنها قوية موثَّقَةُ الخَلْق ، والمادة تعطي معنى القوة والإحكام ، يقال : بناءٌ مُؤَجَّدٌ بمعنى : مُقَوَّى مُحْكَم . وكل هذه الأمثلة على وزن « فُعُل » ، وهذا الوزن قليل في الصفات كما قال ابن عطية .

(٣) هذا البيت للحارث بن دوس الإيادي ، ويروى لأبي دُوَاد الإيادي ، وهو في البحر المحيط ، وابن جرير الطبري ، والقرطبي ، وكلهم أخذه عن الفراء الذي استشهد به في (معاني القرآن) ، قال: « إذا تقدم الفعل قبل اسم مؤنث ، وهو له ، أو قبل جمع مثل الأنصار =

ورَجَّح أَبو حاتم هذه القراءَة ، وذكر أَن رجلًا من المتطوعة قال قبل أَن يستشهد : رأَيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فسأَلته عن [خُشَّعاً] و [خَاشعاً] ، فقال : [خَاشعاً] ، بالأَلف ، وفي مصحف أُبَيٍّ ابن كعب ، وعبد الله رضي الله عنهما [خَاشعاً] ، وخصَّ تعالى الأَبصار بالخشوع لأَنه فيها أَظهر منه في سائر الجوارح ، وكذلك سائر ما في نفس الإِنسان من حياءٍ أَو صلف أَو خوف ونحوه إِنما يظهر في البصر .

و «الْأَجْدَاثُ» جمع جَدَث وهو القبر ، وشبَّههم تعالى بالجراد المنتشر ، وقد شبَّههم في أُخرى بالفراش المبثوث (١) ، وفيهم من كل هذا شبه ، وذهب بعض المفسِّرين إلى أَنهم أَولًا كالفراش حين يموج بعضٌ في بعض ، ثم في رتبة أُخرى كالجراد إِذا توجَّهوا نحو المحشر والدَّاعي ، وفي الحديث أَن مريم بنت عمران عليها السلام دعت للجراد فقالت : «اللَّهم أَعشها بغير رضاع ، وتابع بنيها بغير شياع» .

و «الْمُهْطِعُ» : المُسْرع في مَشْيه نحو الشيءِ مع هزٍّ ورَهَق ومَدٍّ بصر نحو المقصد إِمَّا لخَوْف أَو طمع ونحوه ، ويقول الكافرون :

= والأعمار وما أشبهها جاز تأنيث الفعل وتذكيره وجمعه ، وقد أتى بذلك في هذا الحرف ، فقرأه ابن عباس رضي الله عنهما : [خَاشِعاً] . »

(١) في قوله تعالى في الآية (٤) من سورة (القارعة): ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ .

﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ لما يرَوْنَ من مخايل هوله وعلامات مشقته .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾
فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾
وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ
أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا
آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

سَوْقُ هذه القصة وعيدٌ لقريش وضَرْبُ مَثَل لهم ، وقولُه تعالى : [وَازْدُجِرَ] إِخبارٌ من الله تعالى أَنهم زَجروا نوحاً عليه السلام بالسَّبِّ والنَّجْه (١) والتخويف ، قاله ابن زيد وقرأَ : ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (٢) ، وذهب مجاهد إِلى أَن [وَازْدُجِرَ] من كلام قوم نوح ، كأَنهم قالوا : «مجنون وازدُجِرَ» ، والمعنى : استطير

(١) يقال : نَجَهَ فُلاناً نَجْهاً : ردَّه ردًّا قبيحاً .
(٢) من الآية (١١٦) من سورة (الشُّعراء) .

جُنُوناً واستعر جنوناً ، وهذا قول فيه تعسُّفٌ وتحكُّم ، وقرأ نافع ، وأَبو عمرو ، وعاصم ، والأَعرج ، والحسن : [أَنِّي] بفتح الأَلف ، أي : بأَنِّي ، كأَن دعاءَه كان هذا المعنى ، وقرأ عاصم أَيضاً ، وابن أَبي إِسحق ، وعيسى : [إِنِّي] بكسر الأَلف ، كأَن دعاءه كان هذا اللفظ ، قال سيبويه : المعنى : قال إِنِّي ، وذهب جمهور المفسِّرين إِلى أَن المعنى : قد غلبني الكفَّار بتكذيبهم وتخويفهم فانتصر لي منهم بأَنْ تُهلكهم ، ويحتمل أَن يريد : فانتصر لنفسك إِذ كذبوا رسولك ، ويؤيده قول ابن عباس رضي الله عنهما : إِن المراد بقوله : ﴿لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ الله تعالى ، فوقعت الإِجابة على نحو ما دعا نوح عليه السلام ، وذهبت المتصوفة إِلى أَن المعنى : إِنِّي قد غلبتني نفسي في إِفراطي في الدعاءِ على قومي فانتصر منِّي يا ربّ بمعاقبة إِن شئتَ ، والقولُ الأَول هو الحق إِن شاءَ الله تعالى ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ﴾ الآية ، وذلك هو الانتصار من الكفار .

وقرأ جمهور القراءِ : [فَفَتَحْنَا] بتخفيف التَّاءِ ، وقرأ ابن عامر ، وأَبو جعفر ، والأَعرج : [فَفَتَّحْنَا] بشدِّها على المبالغة ، ورجَّحها أَبو حاتم بقوله تعالى : ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ ٱلْأَبْوَابُ﴾(١) . قال أَبو حاتم :

---

(١) من الآية (٥٠) من سورة (ص) .

يعني بالأَبواب المجرَّة ، وهي شَرَج السماءِ كشَرَج العَيْبَة (١)، وقال قوم من أَهل التأْويل : الأَبواب حقيقة ، فتحت في السماءِ أَبوابٌ جَرَى منها الماءُ ، وقال جمهور المفسِّرين : هو تشبيه ومجاز لأَن المطر كثُر كأَنه من أَبواب ، و «المُنْهمر» : الشديدُ الوقوعِ الغزيرُ ، قال امرؤ القيس :

رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثُمَّ انْتَحَى فيه شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْهَمِرْ (٢)

---

(١) العَيْبَةُ : وعاءٌ من جلْد ونحوه يكون فيه المتاع ، وهو ما يُسَمَّى «الحقيبة» ، وشَرَج العَيْبَة : عُرْوَتُها ، فإذا أدخلت عُراها بعضها في بعض قيل : شَرَّجْتَهَا ، والمراد الفتحات التي تكون في الحقيبة إذا تركت عُرَاها بدون إحكام بإدخال بعضها في بعض فإنَّ هذه الفتحات تكون كالأبواب ، تصوروا للسماء فتحات مثل الفتحات التي تكون في الحقيبة .

(٢) هذا بيت من ثمانية أبيات قالها امرؤ القيس في وصف الغيث ، وقيل عنها في الديوان : «هذا أشعر ما جاء في وصفه» ، ورواية الديوان : «مُنْفَجر» بدلا من «مُنْهَمِر» ، وعلى هذا فلا شاهد فيه ، ويكون الشاهد في البيت السابق كما جاء في الديوان وهو :

سَاعَةً ثُمَّ انْتَحَاهَا وَابِلٌ سَاقِطُ الأكْنَافِ وَاهٍ مُنْهَمِرْ

ومعنى «رَاحَ» : عادَ السحابُ بالمطر آخر النهار ، وتَمْرِيهِ : تَسْتَدِرُّهُ ، وأصلُه من مَرْي الضَّرْعِ ، وهو مَسْحُه باليد حتى يُدِرَّ اللبن ، وكذلك السحاب حين تضربُه ريح الصَّبَا الباردة يتجمَّع ويتكاثف فيسقط مطراً ، فكأن ريح الصَّبَا مَرَتْهُ لينزل منه الماءُ ، ثم جاءت الجنوبُ مُحَمَّلَةً بالأمطار من بحر الهند فأضافت إلى هذا السحاب ومطره شُؤْبُوباً آخر يتفجر وينزل بكثرة وشدَّة . وقد خصَّ ريح الصَّبا لأنهم يمطرون بها ، وذكر ريح الجنوب لأن مطرها يكون غزيراً متدفقاً .

وقرأ الجمهور : [وَفَجَّرْنَا] بشدِّ الجيم ، وقرأ ابن مسعود وأصحابه ، وأبو حَيْوة ، والمفضل عن عاصم بتخفيفها ، وقرأ الجمهور : ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ على اسم الجنس الذي يعُمُّ ماءَ السماءِ وماءَ العيون ، وقرأ علي ابن أبي طالب ، والحسن ، وعاصم ، والجحدري : «فالْتَقَى الماءَان» ، ويروى عن الحسن : «فالتقى الماوان» .

وقوله تعالى : ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ قال فيه الجمهور : المعنى : على رُتبة وحالة قد قدرت في الأَول وقضيت ، وقال جمهور من المتأَولين : المعنى : على مقادير قد قدرت ورتبت وقت التقائه ، ورَوَوْا أَن ماءَ الأَرض على سبعة عشر ذراعاً ، وكان ماءُ السماءِ ينزل عليه بقية أَربعين ذراعاً أَو نحو هذا لأَنه مما اختلفت فيه الروايات ، ولا خبر يقطع العذر في شيءٍ من هذا التحديد ، وقرأَ أبو حَيْوة : [قُدِّر] بشدِّ الدَّال .

و «ذات أَلواح ودُسُر» هي السَّفينة ، قيل : كانت أَلواحها وخشبها من ساج ، و «الدُّسُر» : المسامير ، واحدها دسارٌ ، وهذا هو قول الجمهور ، وهو عندي من الدفع المُتَتَابع ؛ لأَن المسمار يدفع أَبداً حتى يستوي ، وقال الحسن ، وابن عباس أَيضاً : الدُّسر مقادم السَّفينة لأَنها تَدْسُر الماءَ أَيْ تدفعه ، والدَّسْر : الدَّفْع ، وقال مجاهد وغيره :

الدُّسُر : نُطُق (١) السَّفينة ، وقال أَيضاً : الدُّسُر : عوارض السَّفينة ، وقال أَيضاً : أَضلاع السَّفينة ، وقد تقدم القول في شرح قصة السَّفينة مستوعباً . وجمهور الناس على أَنها كانت كهيئة السُّفن اليوم كجؤجؤ الطائر (٢) ، وورد في بعض الكتب أَنها كانت مربَّعة طويلة في السماء واسعة السُّفل ضيقة العُلْو ، وكان أَعلاها مفتوحاً للهواءِ والتنفس ، قالوا : لأَن الغرض منها إنما كان السلامة حتى يزول الماءُ ، ولم يكن طلبَ الجري وقَصْدَ المواضع المعيَّنة ، ومع هذه الهيئة فلها مجرى ومرسى ، والله أَعلم كيف كانت ، والجميع محتمل .

قوله تعالى : [بِأَعْيُنِنَا] ، قال الجمهور : معناه : بحفظنا وكفايتنا وتحت نظر منَّا لأَهلها ، فسمَّى هذه الأَشياءَ أَعْيُناً تشبيهاً ، إذ الحافظ المُتَحَفِّي من البشر إنما يكون ذلك الأَمْر نُصْب عينيه ، وقيل : المراد مَنْ حَفِظها من الملائكة ، سمَّاهم عيوناً ، وقال الرُّمَّاني : وقيل : إن قوله تعالى : [بِأَعْيُنِنَا] يريد به العيون المتفجرة من الأَرض ، وهذا ضعيف ، وقرأَ أَبو السَّمال : [بِأَعْيُنَّا] مُدْغمةً ، وقرأَ جمهور

(١) النُّطُق : جمع نطاق ، وهو حزام يُشَدُّ به وسط الشيء ليصير متيناً متماسكاً .

(٢) جُؤْجُؤُ الطائر : مُجْتمع رُءُوس عظام الصدر ، ويسمى صَدْرُ السفينة جُؤْجُؤاً ، وفي حديث عليٍّ رضي الله عنه : (كأني أنظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة) .

الناس : [كُفِرَ] بضم الكاف وكسر الفاءِ ، واختلفوا في المعنى – فقال ابن عباس ، ومجاهد : يُراد بها الله تعالى ، كأَنه قال : غَضَباً وانْتصاراً لله تعالى ، أَي : انتصر لنفسه فأَنجى المؤمنين وأَغرق الكافرين ، وقال مكي : وقيل : [مَنْ] يُرادُ بها نوحٌ عليه السلام والمؤمنون ؛ لأَنهم كُفِرُوا من حيث كُفِر بهم ، فجازاهم الله تعالى بالنجاة ، وقرأَ يزيد ابن رومان (١) ، وعيسى ، وقتادة : [كَفَرَ] بفتح الكاف والفاءِ .

والضمير في [تَرَكْنَاهَا] قال مكي بن أَبي طالب : هو عائد على هذه الفعلة والقصة ، وقال قتادة ، والنقاش ، وغيرهما : هو عائد على هذه السَّفينة ، قالوا : وإِن الله تعالى أَرساها على الجودي حين تطاولت الجبال وتواضع هو ، وهو جُبَيْل بالجزيرة بموضع يقال له : «بَاقِرْدَى» ، وأَبقى خشبها هنالك حتى رأَت بعضه أَوائل هذه الأُمَّة ، قال قتادة : وكم من سفينة كانت بعدها قد صارت رماداً . و [مُدَّكِرٍ] أَصله «مُذْتَكِر» ، أَبدلوا من التاءِ دالًا لتناسب الذَّال في النطق ، ثم أَدغموا الذَّال في الدَّال ، وهذه قراءَة الناس ، قال أَبو حاتم : رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم بإِسناد صحيح(٢) ، وقرأَ قتادة : [مُذَّكِرٍ] بإِدغام

(١) هو يزيد بن رومان المدني ، مولى آل الزبير ، قال عنه في تقريب التهذيب : « ثقة ، من الخامسة ، مات سنة ثلاثين ، وروايته عن أبي هريرة مرسلة » .

(٢) فقد أخرج أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، =

الثاني في الأول ، قال أبو حاتم : وذلك رديءٌ ، ويلزمه أن يقرأ : ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾(١) ، و ﴿تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ توقيف لقريش ، و «النُّذُرُ» هنا جمع «نَذير» المصدر ، بمعنى : كيف كان عاقبة إنذاري لمن لم يَحْفل به كأنتم أيها القوم ؟

و ﴿يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ﴾ معناه : سهَّلناه وقرَّبناه ، و «الذِّكْر» : الحفظ عن ظهر قلب ، قاله ابن جبير : لم يُستظهر من كتب الله تعالى سوى القرآن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

يُسِّر بما فيه من حُسْن النظم وشرف المعنى ، فله لَوْطَةٌ (٣) بالقلوب وامتزاجٌ بالعقول السليمة .

= وابن جرير ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود قال : قرأت على النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿فَهَلْ مِنْ مُذَّكِرٍ﴾ بالذال فقال : ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ بالدال . (الدر المنثور) .

(١) من الآية (٤٥) من سورة (يوسف) .

(٢) من الآية (٤٩) من سورة (آل عمران) .

(٣) يقال : «لاط بالقلب» بمعنى : لصق به مع محبَّة .

وقوله تعالى : ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ استدعاءٌ وحضٌّ على حفظه وذكره لتكون زواجره وعلومه وهداياته حاضرة في النفس ، قال مطر : معناه : هل من طالب عِلْم فيُعَانُ عليه ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

الآية تعديد نعمة في أن الله تبارك وتعالى يسَّر الهدى ولا بخل من قبله ، فلِلَّه درٌّ من قبل واهتدى ، وتقدم تعليل : [مُدَّكِرٍ] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾

«عادٌ» قبيلة ، وقد تقدَّم قصصها .

قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِـي وَنُذُرِ﴾ ، موضع [كَيْفَ] نصب ، إمَّا على خبر [كَانَ] وإمَّا على الحال ، و [كَانَ] بمعنى : وُجِدَ

وَوَقع في هذا الوجه ، و [نُذُرِ] جمع «نَذِيرٍ» وهو المصدر ، وقرأ ورش وحده: [نُذُرِي] بالياء ، وقرأ الباقون : [نُذُرِ] بغير ياءٍ على خط المصحف.

و «الصَّرْصَرُ» قال ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك : معناه : الباردة ، وهو من الصرِّ ، وقال جماعة من المفسِّرين : معناه : المُصَوِّتة نحو هذين الحرفين ، مأْخوذ من : صرَّت الرِّيح إذا هبت دُفَعاً كأَنها تنطق هذين الحرفين : الصَّاد والرَّاء ، وضوعف الفعل كما قالوا : «كَبْكَب وكَفْكَف» من «كَبَّ وكفَّ» ، وهذا كثير ، ولم يختلف القراءُ في سكون الحاءِ من [نَحْسٍ] وإضافة اليوم إليه إلَّا ما رُوي عن الحسن أنه قرأ : ﴿فِي يَوْمٍ﴾ بالتنوين [نَحسٍ] بكسر الحاءِ ، و [مُسْتَمِرٍّ] معناه : متتابع ، قال قتادة : استمر بهم ذلك النحس حتى بلغهم جهنم ، قال الضحاك في كتاب الثعلبي : المعنى : كان مُرًّا عليهم ، وذكره النقاش عن الحسن ، ورُوي أَن ذلك اليوم الذي كان لهم فيه نحس مستمر كان يوم أَربعاءٍ ، وروي في بعض الأَحاديث في تفسير هذه الآية : يوم نحس مستمر يوم الأَربعاءِ ، فتأَول بعض الناس في ذلك أَنه مستصحبٌ في الزمان كله ، وهذا عندي ضعيف ، وإِن كان أَبو بشر الدولابي ذكر حديثاً رواه أَبو جعفر المنصور عن أَبيه محمد عن أَبيه علي عن أَبيه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : (آخر أَربعاء من الشهر يوم نحس مستمر)(١) ، ويوجد نحو هذا في كلام الفرس والأَعاجم ، وقد وجد ذكر الأَربعاء التي لا تدور في بعض شعر الخراسانيين المولَّدين ، وذكر الثعلبي عن زِرِّ بن حُبَيْش في تفسير هذه الآية لعادٍ أَنه كان في أَربعاء لا تدور ، وذكره النقاش عن جعفر بن محمد وقال : كان القمر منحوساً في رجل ، وهذه نزغة سوءٍ عياذاً بالله تعالى أَن تصح عن جعفر بن محمد .

وقوله تعالى : ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ معناه : تنقلهم من مواضعهم نَزْعاً فتطرحهم ، وروي عن مجاهد أَنها كانت تلقي الرجل على رأسه فيتفتَّت رأْسُه وعنقه وما يلي ذلك بين يديه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فلذلك حَسُن التشبيه بأَعجاز النخل ، وذلك أَن المُنْقَعر هو الذي ينقلع من قعره ، فذلك التَّشَعُّب الذي لِأَعْجَاز النخل كان يشبهها ما تقطَّع وتشعَّب من شخص الإِنسان ، وقال قوم : إِنما شبَّهم بأَعْجاز النخل لأَنهم كانوا يحفرون حُفَراً ليمتنعوا فيها من الريح ، فكأَنه

---

(١) أخرجه وكيع في الغرر ، وابن مردويه في التفسير ، والخطيب ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورمز له السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه ضعيف .

شبَّه الحُفَر بعد النَّزع بحفر أَعجاز النَّخل ، والنَّخل تُذكَّر وتُؤنث فلذلك قال تعالى هنا : [مُنْقَعِرٍ] ، وفي غير هذه السُّورة : [خَاوِيَةٍ] (١) ، والكاف في قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ ﴾ في موضع الحال ، قاله الزجاج ، وما رُوي من خبر الخلجان وغيره ضعيف كله ، وفائدة قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ التخويف وهزُّ الأَنْفُس . قال الرُّمَّاني : لما كان الإِنذارُ أَنواعاً كرَّر التذكير والتَّنبيه ، وفائدة تكرار قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ التأْكيد والتحريض وتنبيه الأَنْفُس ، وهذا موجود في تكرار الكلام ، مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أَلَا هل بلَّغت ؟ أَلَا هل بلَّغت ؟ أَلَا هل بلَّغت ؟) (٢) ، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام : (أَلَا وقول الزُّور ، أَلَا وقول الزُّور ، أَلَا وقول الزُّور) (٣) ، وكان رسول الله صلى الله

---

(١) في قوله تعالى في الآية (٧) من سورة (الحاقة) : ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ .

(٢) تكرر ذلك في حجة الوداع ، حيث قال صلى الله عليه وسلم : (يأيُّها الناس ، أي يوم هذا ؟ قالوا : هذا يوم حرام ، قال : أي بلد هذا ؟ قالوا : بلد حرام ، قال : فأي شهر هذا ؟ قالوا : شهر حرام ، قال : إن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا ، ثم أعادها مراراً ، ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : اللَّهم هل بلَّغت ، مراراً) ، والحديث متفق عليه ، وهذا جزءٌ منه كما رواه أحمد .

(٣) جاء ذلك في حديث عن الكبائر وأكبرها ، وقد أخرجه مسلم في الإيمان ، والترمذي في الشهادات ، وأحمد في المسند (٥–٣٧) ، ولفظه كما في مسلم عن عبد الرحمن بن أبي بكرة =

عليه وسلم إذا سلَّم على قوم سلَّم عليهم ثلاثاً ، فهذا كلُّه نحوٌ واحد وإن تنوع .

و «ثَمُود» قبيلة صالح عليه السلام ، وهم أَهل الحجْر ، وقرأَ الجمهور : ﴿أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً﴾ ، ونصبه بإِضمار فعل يدلُّ عليه [نَتَّبِعُهُ] ، و [وَاحِداً] نعت لـ [بَشَراً] ، وقرأَ أَبو السَّمَّال : ﴿أَبَشَرٌ مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ﴾ ، ورفعه إِمَّا على إِضمار فعل مَبْني للمفعول ، والتقدير : أَيُنَبَّأُ بَشَرٌ ؟ وإِمَّا على الابتداءِ ، والخبرُ في قوله تعالى : [نَتَّبِعُهُ] ، و [وَاحِداً] على هذه القراءَة حالٌ ، إِمَّا من الضمير في [نَتَّبِعُهُ] وإِمَّا على المقدَّر مع [مِنَّا] ، كأَنهم يقولون : أَبَشَرٌ كائن مِنَّا واحد؟ وفي هذا نظر (١)، وحكى أَبو عمرو الداني أَن قراءَة أَبي السَّمَّال : ﴿أَبَشَرٌ مِنَّا وَاحِدٌ﴾ بالرفع فيهما ، وهذه المقالة من ثمود حسدٌ منهم لصالح عليه السلام ، واسْتبعادٌ أَن يكون نوع من البشر

= عن أبيه ، قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا أُنَبِّئُكُم بأكبر الكبائر؟ (ثلاثاً) ، الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور أو قول الزُّور ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متَّكِئاً فجلس ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت .

(١) إن كان حالاً من الضمير في [نَتَّبِعُهُ] كان المعنى : أَنَتَّبعه حالة كونه واحداً منفرداً لا نصير له ؟ وإن كان حالاً من الضمير في [مِنَّا] كان المعنى : أَيُنَبَّأُ بَشَر كائن منَّا ؟ ويكون الناصب لهذه الحال الظرف

يفضل بعضه بعضاً هذا الفضل ، فقالوا : أنكون جميعاً ونتبع واحداً ، ولم يعلموا أن الفضل بيد الله تعالى يُؤْتيه من يشاءُ ، ويُفيض نور الهدى على من رَضيه .

وقولهم : ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ معناه : في أَمْرٍ مُتلف مُهْلك بالإتلاف ، و [سُعُرٍ] معناه : في احتراق أَنْفُسٍ واسْتعارُهَا حنقاً وهمًّا باتباعه ، وقيل في «السُّعُر» : العناءُ ، وقيل : الجنون ، ومنه قيل : ناقة مسعورة إذا كانت تفرط في سيرها ، ثم زادوا بالتوقيف بقولهم : ﴿ أَؤُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ ؟ و «أُلْقيَ» بمعنى «أُنْزِلَ» ، وكأنه يتضمن عجلة في الفعل ، والعرب تستعمل هذا الفعل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾(١) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾(٢) ، و «الذِّكْرُ» هنا : الرِّسالةُ وما يمكن أن جاءَهم به من الحكمة والموعظة .

ثم قالوا : ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ ، أَي : ليس الأَمر كما يزعم ، و «الأَشر» البَطرُ المَرِحُ ، فكأَنهم رَمَوْه بأَنه أَشرَ فأَراد العُلُوَّ عليهم وأَن يقتادهم ويتملَّك طاعتهم ، فقال الله تعالى لصالح عليه السلام :

---

(١) من الآية (٣٩) من سورة (طه) .

(٢) الآية (٥) من سورة (المزَّمل) .

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ ، وهذه بالياءِ من تحت قراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه وجمهور الناس ، وقرأَ ابن عامر ، وحمزة ، وعاصم[1] ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأَعمش : [سَتَعْلَمُونَ] بالتاءِ على معنى : قُل لهم يا صالح ، وقوله تعالى : [غَدًا] تقريب يراد به الزَّمان المسْتَقْبل لا يوماً بعينه ، ونحوه المثل «مع اليوم غدٌ»[2] ، وقرأَ جمهور الناس : [ٱلْأَشِرُ] بكسر الشين كحذِر بكسر الذال ، وقرأَ مجاهد ـ فيما ذكر عنه ـ : [ٱلْأَشُرُ] بضم الشين كحَذُر بضم الذال ، وهما بناءَان من اسم الفاعل ، وقرأَ أَبو حيوة : [ٱلْأَشَرُ] بفتح الشين كأَنه وصف بالمصدر ، وقرأَ أَبو قُلابة : [ٱلْأَشَرُّ] بفتح الشين وشدِّ الراءِ ، وهو الأَفعل ، ولا يستعمل إلَّا بالأَلف واللام ، وهو كان الأَصل لكنه رفض تخفيفاً وكَثْرَةَ استعمال . . . .

---

(١) لعلَّ ذلك في رواية أبي بكر عنه ، أما قراءته في رواية حفص فهي بالياء كما هي في المصحف .

(٢) يضرب هذا المثل في تنقل الدُّوَل على مرّ الأيام وكرها ، والمثل كما ذكره الميداني في « مجمع الأمثال » : (إن مع اليوم غدا يا مُسْعدة) . وقال الزمخشري في « المستقصى » : « يضربه الراجي للظفر بمراده في عاقبة الأمر وهو في بَدْئه غير ظافر ، قال :

لا تَقْلُوَاهَا وادْلُوَاهـا دَلْوَا إنَّ مَعَ اليَوْمِ أَخاهُ غَـــدْوَا

وهو في حديث عن الإبل ، ومعنى « لا تَقْلُوَاهَا » : لا تسوقوها سوقاً شديداً ، بل « ادْلُوَاهَا دَلْواً » أي : سوقوها سوقاً رفيقاً فإن الأيام ممتدة ولا داعي للسرعة ، وهناك بعد اليوم غدٌ يمكن الوصول فيه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾

هذه النَّاقة التي اقترحوها أن تخرج من صخرة صماءَ من الجبل ، وقد تقدَّم قصصها ، فأَخبر الله تعالى صالحاً عليه السلام ــ على وجه التأْنيس ــ أَنه يُخرج لهم النَّاقة ابتداءً واختباراً ، ثم أَمره تعالى بارتقاب الفرج وبالصبر ، و « اصْطَبِرْ » أَصله : اصْتَبر « افْتَعل » ، أُبدلت التاءُ طاءً لتناسب الصاد ، ثم أَمره تعالى أَن يخبر ثمود بأَن الماءَ قسمة بينهم ، وهو ماءُ البئر الذي كان لهم .

واختلف المتأَولون في معنى هذه القسمة ــ فقال جمهور منهم : قسمة بينهم ، يتساوون فيه في اليوم الذي لا ترد الناقة فيه ، وذلك

- فيما روي - أن الناقة كانت ترد البئر غبًّا(١)، وتحتاج جميع مائها يومها ، فنهاهم الله تعالى عن أن يستأْثر أَهل اليوم الذي لا ترد الناقة فيه بيومهم ، وأَمرهم بالتساوي مع الذين ترد الناقة في يومهم . وقال آخرون : معناه : الماءُ بين جميعهم وبين الناقة قسمة . و [مُحْتَضَرٌ] معناه : محضور مشهود مُتَوَاسى فيه(٢) ، وقال مجاهد : المعنى : ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾ ، أَي من الماءِ يوماً ومن لبن الناقة يَوْماً [مُحْتَضَرٌ] لَهُمْ ، فكأَنه أَنبأَهم بنعمة الله تعالى عليهم في ذلك .

و «صَاحِبُهُم» هو قُدار بن سالف ، وبسببه سُمِّي الجزار القُدارَ للشبه في الفعل ، قال الشاعر :

إنَّا لَنَضْربُ بالسُّيُوف رُءُوسَهُمْ ضَرْبَ الْقُدَار نَقيعَةَ القُدَّام (٣)

---

(١) أي تَرِدُ يوماً ولا تَرِدُ يوماً .

(٢) بمعنى : التَّساوي فيه .

(٣) هذا البيت للمُهَلْهِلْ ، والقُدارُ في الأصل : الطَبَّاخ ، وقد يقال للجزَّار ، قال في اللسان : «وفي حديث عُمَيْر مولى آبي اللَّحْمِ : أمرني مولاي أن أَقْدُرَ لحماً ، أي : أطبخ قدراً من لحم» ، والبيت في اللسان ، والرواية فيه : «لنضرب بالصَّوَارِمِ هامَهَا» ، والنَّقيعة : ما يُذبح للضيافة ، أو طعام الرجل ليلة عُرسه ، أو ما ينحر من النهب قبل القسمة ، والقُدَّام : جمع قادم ، وقيل : هو المَلِك . يقول : إنا لنضرب بالسيوف رءُوس أعدائنا كما يضرب الطباخ أو الجزَّار اللحم الذي يقدم في الطعام للضيوف ، والشاهد أن القُدار بمعنى : الجـــزَّار .

وقد تقدَّم شرح أَمر قدار بن سالف .

و «تَعَاطَى» هو مطاوع «عاطى» ، فكأَن هذه الفعلة تدافعها الناسُ وأَعطاها بعضهم بعضاً ، فتعاطاها هو وتناول العقر بيده ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، ويقال للرجل الذي يُدخل نفسه في تحمُّل الأُمور الثقال : متعاط ، على الوجه الذي ذكرناه ، والأَصل «عَطَا يعطو» إذا تناول ، ثم يقال : عاطى غيره ، ثم يقال : تعاطى ، وهذا كما يقال : جَرَى وجارَى وتجارى ، وهذا كثير .

ويُروى أَنه كان مع شَرْب ـ وهم التسعة رهط ـ فاحتاجوا ماءً فلم يجدوه بسبب وِرْد الناقة ، فحمله أَصحابه على عقرها ، ويُروى أَن ملأً القبيل اجتمع على عقرها ، ورويت أَسباب غير هذين ، وقد تقــدَّم ذلك .

و «الصَّيْحَةُ» يروى أَن جبريل عليه السلام صاحها في طرف من منازلهم فتفتَّتوا وهمدوا وكانوا كهشيم المحتظر ، و «الهشيم» ما تهشَّم وتفتَّت من الأَشياءِ ، وقرأَ جمهور الناس : ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ بكسر الظاءِ ، ومعناه الذي يصنع حظيرة من الرعاءِ ونحوهم ، قاله ابن إسحق السبيعي ، والضحاك ، وابن زيد ، وهي مأْخوذة من الحَظْر وهو المَنْع ، والعرب وأَهل البوادي يصنعونها للمواشي والسكنى أَيضاً

من الأَغصان والشجر المورق والقصب ونحوه ، ولهذا كله هشيم يتفتَّت ، إمَّا في أَول الصنعة وإمَّا عند بلى الحظيرة وتساقط أَجزائها ، وحكى الطبري عن ابن عباس ، وقتادة أَن « المحْتَظر » معناه : المحترق ، قال قتادة : كهشيم مُحْرَق . وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن ، وأَبو رجاءٍ : [ٱلْمُحْتَظَرِ] بفتح الظَّاء ، ومعناه الموضع الذي احتُظر، فهو مُفْتَعَل من الحظْر ،أَو الشيءُ الذي احتُظر به ، وقد روي عن سعيد بن جبير أَنه فسَّر ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ بأَن قال : هو التراب الذي يسقط من الحائط البالي ، وهذا متوجه لأَن الحائط حظيرة، والسَّاقط هشيم ، وقال أَيضاً هو وغيره : الْمُحْتَظِر معناه : المحرق بالنار ، أَي كأَنه ما في الموضع المحتظر بالنار ، وما ذكرناه عن ابن عباس وقتادة هو على قراءَة كسر الظاءِ ، وفي هذا التأْويل بعض البُعد ، وقال قوم : المحتظَر - بالفتح - : الهشيم نفسه ، وهو مفتعَل ، وهو كمسجد الجامع وشبهه .

وقد تقدم قصص قوم لوط عليه السلام ، و « الحاصبُ » : السحابُ الرامي بالبَرَد وغيره ، فشبه تلك الحجارة التي رُمي بها قومُ لوط به في الكثرة والتوالي ، وهو مأْخوذ من الحصباءِ ، كأَن السحاب تحصب مقصده ، ومنه قول الفرزدق :

مُسْتَقْبِلِينَ شَمالَ الشَّامِ تَحْصِبُهُمْ بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ(١)

وقال ابن المُسَيَّب : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأَهل المدينة : حصِّبوا المسجد ، و «آل لوط» : ابنتاه فيما رُوي ، و «سَحَرٍ» مصروف لأَنه نكرة لم يُرَد به يوم معين .

وقوله تعالى : [نِعْمَةً] نصب على المصدر ، أي : فعلنا ذلك إنعاماً على القوم الذين نجيناهم ، وهذا هو جزاؤُنا لمن شكر نعمنا وآمن وأَطاع .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

---

(١) قال الفرزدق هذا البيت من قصيدة طويلة يمدح فيها يزيد بن عبد الملك ويهجو يزيد ابن المهلب ، وبعده يقول :

عَلَى عَمَائِمِنَا يُلْقَى وَأَرْحُلِنَا عَلَى زَوَاحِفَ نُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ

وهو في البيتين يصف حالهم في اتجاههم إلى الممدوح في الشام ، والريح الشديدة تحمل الحصباءَ فتلقيها على عمائمهم وهم يحملون أرحلهم على نياق ترحف من شدة الإعياء والتعب .

المعنى : ولقد أَنذر لوط قومه أَخْذنا إِيَّاهم وبَطْشنا بهم ، أَي عذابنا لهم ، و [تَمَارَوْا] معناه : تشككوا وأَهدى بعضهم الشك إلى بعض بتعاطيهم الشُّبَه والضلال ، و « النُّذُر » جمع نذير وهو المصدر ، ويحتمل أَن يراد بالنُّذر هنا وفي قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ جمع نذير الذي هو اسم الفاعل . و « الضَّيْف » يقع للواحد وللجميع ، وقد تقدَّم ذكر أَضيافه وقصصهم مستوعباً .

وقوله تعالى : ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ قال قتادة : هي حقيقة ، جرَّ جبريل عليه السلام شيئاً من جناحه على أَعينهم فاستوت مع وجوههم ، قال أَبو عبيدة : مَطْموسة بجلد كالوجه ، وقال ابن عباس ، والضحاك : هذه استعارة ، وإنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل فلم يروا شيئاً ، فجعل ذلك كالطمس . وقوله تعالى : [بُكْرَةً] قيل : كان ذلك عند طلوع الشمس ، وأَدغم ابن محيصن (١) الدال في الصاد من قوله سبحانه : ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ﴾ ، والجمهور على الإظهار ، و [بُكْرَةً] نكرةٌ ها هنا فلذلك صُرفت .

وقوله تعالى : ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي﴾ يحتمل أَن يكون من قول الله تعالى لهم ، ويحتمل أَن يكون من قول الملائكة ، و [نُذُرِ] جمع

(١) في بعض النسخ : « وأَدغم أبو محمد » .

المصدر ، أي : وعاقبة نُذُري التي كذَّبتم بها ، وقال تعالى : [مُسْتَقِرٌّ] في صفة العذاب لأنه لم يكشفه عنهم كاشف بل اتصل ذلك بموتهم ، وهم مدة موتهم تحت الأرض معذبون بانتظار جهنم ثم يتصل ذلك بعذاب النار فهو أمر متصل مستقر ، وكرر قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي ونُذُرِ ﴾ تأكيداً وتوبيخاً ، وروى ورش عن نافع : [وَنُذُرِي] بياءٍ .

و «آلُ فِرعون» قومُه وأتباعه ، ومنه قول الشاعر :

فَلَا تبْكِ ميْتاً بَعْدَ مَيْتٍ أَجَنَّهُ ... عَلِيٌّ وَعَبَّاسُ وَآلُ أَبي بَكْرِ (١)

يريد المسلمين في مواراة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يريد بـ ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾ قرابته على عُرف الآل ، وخصهم بالذكْر لأنهم عمدة القوم وكبراؤُهم .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ يحتمل أن يريد آل فرعون المذكورين أخذناهم كذلك ، يريدهم بالضمير لأن ذلك الإغراق

---

(١) أجَنَّه : سَتَرهُ أو وضعه في القبر ، قال في اللسان : «وفي الحديث : وَلِيَ دفن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجْنَانَه عليٌّ والعباس ، أي : دَفْنه وسَتْرهُ» ، يقول الشاعر : لا يستحق أي ميت أن تبكي عليه بعد أن مات محمد صلى الله عليه وسلم ، والشاهد أن «آل» بمعنى : قوم وأتباع .

الذي كان في البحر كان بالعزَّة والقدرة ، ويكون قوله : [بِآيَاتِنَا] يريد بها التِّسع ، ثم أكَّد بقوله : [كُلِّهَا] ، ويحتمل أن يكون قوله تبارك وتعالى : ﴿ولَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ كلاماً تامًّا ثم يكون قوله تعالى : ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ يعود الضمير في [كَذَّبُوا] على جميع من ذكر من الأُمم ، ويجيءُ جميع الآيات مستقيماً ، ويجيءُ قوله تعالى : [فَأَخَذْنَاهُمْ] كذلك يعود على جميع الأُمم المذكورة .

وقوله تعالى : ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَائِكُمْ﴾ الآية ... خطابٌ لقريش ، وَقَفَهم على جهة التوبيخ ، أَثَمَّ خصلة من مال أو قوَّة أبدان وبسطة أو عقل أو غير ذلك مما يقتضي أنكم خير من هؤلاءِ المعذبين لمَّا كذَّبوا فتُرْجَى لكم ـ بذلك الفضل ـ النجاة من العذاب حين كذبتم رسولكم ؟ أم لكم في كتب الله تعالى المنَزَّلة براءَة من العذاب ؟ قاله الضحاك ، وابن زيد ، وعكرمة .

ثم قال تعالى لنبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم : أَمْ يَقولونَ نَحْنُ جَميعٌ واثقون بأَنَّا منتصرون بقوتنا على جهة الإعجاب والتعاطي ، سَيُهزمون فلا ينفع جمعهم ، وقرأ أبو حيْوة : ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ بالتَّاءِ من فوق .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾

هذه عِدَةٌ من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن جَمْع قريش سيهزم نُصرة له ، والجمهور على أن الآية مكيَّة ، وروي عن عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال : كنت أقول في نفسي : أي شيءٍ يهزم ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدرع وهو يقول : ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فإنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بدر مستشهداً بالآية .

وقال قوم : إن الآية نزلت يوم بدر ، وذلك ضعيف ، والصواب أَن الوعد أُنجز يوم بدر ، قال أَبو حاتم : قرأَ بعض القراءِ : [سَيَهْزِمُ] بفتح الياءِ وكسر الزَّاي [ٱلْجَمْعَ] نصباً ، قال أَبو عمرو الداني : قرأَ أَبو حيْوة : [سَنَهْزِمُ] بالنون وكسر الزَّاي [ٱلْجَمْعَ] بالنصب [وَتُوَلُّونَ] بالتاءِ من فوق .

ثم تُركت هذه الأَقوالُ وأُضرب عنها تهمُّماً بأَمر السَّاعة التي عذابها أَشدُّ عليهم من كل هزيمة وقتال ، فقال تعالى : ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ ، «أَدْهَى» أَفْعَل من الداهية وهي الرَّزِيَّةُ العظمى تنزل بالمرءِ ، و «أَمَرُّ» من المرارة ، واللفظة ها هنا مستعارة لأَنها ليست فيما يُذاق .

ثم أَخبر تعالى عن المجرمين أَنهم في الدنيا في حيرة وإتلاف وفَقْد هُدى ، وفي الآخرة في احتراقٍ وتَسَعُّر من حيث هم صائرون إليه ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : في خُسران وجنون ، و «السُّعُر» الجنون ، وأَكثر المفسِّرين على أَن المجرمين هنا يراد بهم الكفَّار ، وقال قوم : المراد بالمجرمين القدرية الذين يقولون إن أَفعال العباد ليست بِقَدَر من الله تعالى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهم المُتَوَعَّدون بالسَّحب في جهنم ، والسَّحْبُ هو الجَرُّ ، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه : «إِلَى النَّارِ» . وقوله تعالى : [فَذُوقُوا] استعارة ، والمعنى : يقال لهم : ذوقوا ، على جهة التوبيخ .

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ — فقرأَ الجمهور من الناس : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ بالنصب ، وقالوا : المعنى : إِنَّا خلقنا كلَّ شيءٍ خلقناهُ بِقَدَر ، وليست [خَلَقْنَاهُ] في موضع الصفة لـ [شَيْءٍ] ، بل هو فعل دالٌّ على الفعل المضمر ، وهذا المعنى يقتضي أَن كل شيءٍ مخلوق إِلَّا ما قام دليل العقل على أَنه ليس بمخلوق كالقرآن والصفة وقرأَ أَبو السَّمَّال — ورجَّحه أَبو الفتح — : ﴿إِنَّا كُلُّ﴾ بالرفع على الابتداءِ ، والخبرُ ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ، قال أَبو حاتم : «هذا هو الوجه في العربية ، وقراءَتنا بالنصب مع الجماعة»(١) .

---

(١) يرجِّح أبو الفتح الرفع لأنه من مواضع الابتداء ، فهو عنده كقولك : زيدٌ ضربتُه ، فـ﴿كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ جملة وقعت خبراً عن مبتدأٍ ، ثم دخلت [إنَّ] فنصبت الاسم وبقي الخبر على تركيبه الأصلي . وقد اختار محمد بن يزيد النصب ، قال : التقدير : إنَّا فعلنا كذا ، فالفعل منتظر بعد «إنَّا» ، فلما دلَّ ما قبله عليه حسُن إضماره ، وردَّ أبو الفتح بأنه لا معنى لِتَوَقُّع الفعل ؛ لأن أصل خبر المبتدإ أن يكون اسماً ، ومع ذلك فإن أبا الفتح ابن=

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وقرأَها قوم من أَهل السُّنَّة بالرفع ، والمعنى عندهم على نحو ما هو عند الأَولين من أَن كلَّ شيءٍ فهو مخلوق بقَدَرٍ سابق ، و [خَلَقْنَاهُ] - على هذا - ليست صفةً لـ [شَيْءٍ] ، وهذا هو مذهب أَهل السُّنَّة ، ولهم احتجاجٌ قويٌّ بالآية على هذين القولين(١) .

جني يقول إنَّ الجماعة على قراءة النصب ، ومما يُقَوِّيها أنَّ «إنَّ» تطلب الفعل فهي أولى به، والنصب أدَلُّ على العموم في أن المخلوقات لله تعالى ، ولو حُذفت [خَلَقْنَاهُ] المفسِّرَة وأُظهرت المضمرة لصار الكلام : إنَّا خَلَقْنَا كُلَّ شيءٍ بِقَدَرٍ، ولا يصحُّ أن يكون [خَلَقْنَاهُ] صفةً لـ [شَيْءٍ] لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف ، ولا تكون تفسيراً لما يعمل فيما قبله . والخلاف في أساسه نحوي يرجع إلى الصناعة ، والأفضل أن نختار ما يتفق مع المعنى الصحيح .

(١) يقولون : إن الله تعالى قدَّر الأشياء بمعنى أنه عَلِمَ مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه ، فلا يحدث شيءٌ إلا وهو صادرٌ عن علمه سبحانه وعن قدرته وإرادته،والخَلْقُ ليس لهم إلاَّ نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة ، وحصل لهم ذلك بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه ، قال أبو ذرّ رضي الله عنه : قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا ، فنزلت هذه الآيات إلى قوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ ، فقالوا : يا محمد ، يكتُبُ علينا الذنبَ ويُعَذِّبنا ؟ فقال : أنتم خصماءُ الله يوم القيامة ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القَدَر فنزلت : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ، إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ ، وخرجه الترمذي أيضاً وقال : حديث حسن صحيح ، وروى مسلم عن طاوس قال: أدركتُ ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم =

وقالت القَدَرِيَّةُ - وهم الذين يقولون : لا قَدَر ، والمرءُ وحده فاعلٌ أَفْعَالَهُ - (١) : القراءَةُ : ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ﴾ برفع [كُلُّ] ، و [خَلَقْنَاهُ] في موضع الصفة لـ [كُلُّ] ، أَي : إِنَّ أَمْرَنَا وشأْننا كلُّ شيءٍ خلقناه فهو بقَدَر ، أَي بمقدارٍ وعلى حدٍّ ما في هيئته وزمنه وغير ذلك ، فيزيلون بهذا التأْويل موضع الحُجَّة عليهم بالآية .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إِنِّي أَجد في كتاب الله تعالى قوماً يُسحبون في النَّار على وجوههم لأَنهم كانوا يُكذِّبون بالقَدَر ، يقولون : المرءُ يخلق أَفعاله ، وإِنِّي لا أَراهم ، فلا أَدري أَشَيْءٌ مضى أَم شيءٌ بقي ، وقال أَبو هريرة رضي الله عنه : خاصمت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم في القَدَر فنزلت هذه الآية (٢)، قال

= يقولون: كلُّ شيءٍ بقدر ، وسمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (كُلُّ شيءٍ بقَدَرٍ حتى العَجْزُ والكَيْسُ ، أو الكَيْس والعَجْزُ) .

(١) خرَّج ابن ماجه في سننه عن ابن عباس وجابر رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (صنفان من أُمَّتي ليس لهم في الإسلام نصيب : أهل الإرْجاء والقدر) ، وفي صحيح مسلم أن ابن عمر رضي الله عنهما تبرأ من القدرية ، ولا يُتَبَرَّأُ إلاَّ من كافر . وفي مسند أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لكل أُمَّة مجوس ، ومجوس أُمتي الذين يقولون لا قَدَر ، إنْ مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه مسلم ، والترمذي ، وابن ماجه من حديث وكيع عن سفيان الثوري .

أَبو عبد الرحمن السلمي: فقال رجلٌ : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ أَفي شيءٍ نستأْنفه أَوْ في شيءٍ قد فُرغ منه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اعملوا فكلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلِق لَهُ ، سَنُيَسِّرُه لِليُسْرَى ، سَنُيَسِّرُهُ للعُسْرَى)(١) . وقال أَنس بن مالك : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (القدرية الذين يقولون الخيرُ والشرُّ بأَيدينا ، ليس لهم في شفاعتي نصيب ، ولا أَنا منهم ولا هم منِّي)(٢) .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ أَي : إِلَّا قَولةٌ واحدةٌ وهي «كُنْ» ، وقوله تعالى : ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ تفهيم للناس بأَعجل ما يحسُّون ، وفي أَشياءَ من أَمر الله تعالى أَوحى من لمح البصر ، و «الأَشياعُ» : الفِرَقُ المتشابهة في مذهب أَو دين ونحـوه ، الأَول شيعة لـلآخر والآخـر شيعة للأَول .

ثم أَخبر تعالى أَن كل أَفعال الأُمم المُهْلَكَة مكتوبة محفوظة عليهم إِلى يوم الحساب ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ،

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ، وأخرج مثله الإمام البخاري عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان في جنازة ، فأخذ عوداً فجعل ينكث في الأرض ، فقال : ما منكم من أحد إلا كُتب مقعده من الجنة أو من النار ، قالوا: ألا نتّكل ؟ قال: اعملوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ . ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ الآية ، ورواه مسلم بلفظ أطول من هذا ، وكذلك رواه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وقد أخرج أحمد مثله في مسنده عن أبي بكر رضي الله عنه .

(٢) أخرجه النحاسُ عن أنس رضي الله عنه .

وابن زيد ، و [مُسْتَطَرٌ] مُفْتَعل من السَّطْر ، تقول : سطرتُ وأَسْطرتُ بمعنى ، وروي عن عاصم شدُّ الراءِ من [مُسْتَطَرٌّ] ، قال أَبو عمرو : وهذا لا يكون إِلَّا عند الوقوف ، لغة معروفة .

وقرأَ جمهور الناس : [وَنَهَرٍ] بفتح الهاءِ والنون على أَنها اسم الجنس يراد به الأَنهار ، أَو على أَنه بمعنى سعة في الرِّزق والمنازل ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا يَرَى قَائِمٌ مِنْ خَلْفِهَا مَا وَرَاءَهَا (١)

فقوله : «أَنْهَرْتُ» معناه جعلت فتقها كنهر، وقرأَ زهيرالفُرْقبيُّ (٢)، والأَعمش: [وَنُهُرٍ] بضم النون والهاءِ على أَنه جمع نهارٍ ، إِذْ لا لَيْل

(١) قال قيس بن الخطيم هذا البيت من قصيدة قاله بعد أن أخذ بثأره من قاتلي أبيه وجده ، وقد اختلفت رواية الشطر الثاني من البيت ، ففي الحماسة ، والأغاني ، ولباب الآداب ، والمثل السائر ، واللسان ، والصحاح ، والمخصص ، والتاج ، ومنتهى الطلب ، وخزانة الأدب : (يرى قائِمٌ من دونها) ، وفي حماسة المرزوقي ، والعيني : (يرى قائماً من دونها) ، وفي الموشح ، والعكبري : (يَرَى قائمٌ من خلفها) . ومعنى (مَلَكْتُ) : شدَدْتُ ، ومعنى (أَنْهَرْتُ) : فتحت بها فتحاً كبيراً وأجريتُ الدم ، ومعنى البيت كما قال المرزوقي : « شددتُ بهذه الطعنة كفِّي ووسعت خرقها حتى يرى القائم من دونها الشيءَ الذي وراءها » ، ويرى كثير من النقاد أن هذا البيت فيه مبالغة غير مقبولة ، قال ابن قتيبة في (المعاني الكبير) : « وهذا من إفراط الشعر » .

(٢) اختلفت الأصول في كتابة هذا الاسم ، والتصويب عن (المُحْتَسَب) لابن جني .

في الجنة ، وهذا سائغ في اللَّفظ قَلِقٌ في المعنى (١) ، ويحتمل أَن يكون جمع نَهَر (٢) ، وقرأَ مجاهد ، وحميد ، وأَبو السَّمَّال ، والفياض بن غزوان (٣) : [نهْرٍ] بسكون الهاءِ على الإِفراد .

وقوله تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ يحتمل أَن يريد الصدق الذي هو ضد الكذب ، أي : في المقعد الذي صدقوا في الخبر به ، ويحتمل أَن يكون من قولك : «عُودٌ صَدْقٌ» أي جيِّدٌ ، و «رجُلٌ صَدْقٌ» أي خيِّرٌ وذو خلال حسان ، وقرأَ جمهور الناس : ﴿ فِي مَقْعَد ﴾ على اسم الجنس ، وقرأَ عثمان البتِّي (٤) : ﴿ في مَقَاعد ﴾ على الجمع ، و «المليكُ المقتدرُ» هو الله تبارك وتعالى .

كمل تفسير سورة القمر والحمد لله ربّ العالمين

---

(١) وعلى أنه جمع نَهار يكون مثل «سَحَابٍ وسُحُب» ، ومنه قول الشاعر :

لَوْلا الثَّرِيدانِ هَلَكْنَا بالضُّمُـرْ ... ثَرِيدُ لَيْلٍ وثَرِيدٌ بالنُّهُـرْ

فالنُّهُر هنا جمع نَهارٍ .

(٢) قال ابن جني : وهذا كما جاء عنهم من تكسير فَعَل على فُعُل ، مثل أَسَد وأُسُد ، وَوَثَن وَوُثُن .

(٣) في بعض النسخ : «الفياضُ بن عدوان» ، ونميل إلى ترجيح ما أثبتناه .

(٤) هو أبو مسلم ، وقد اختلفت الأصول في كتابة اسمه ، والتصويب عن القرطبي والبحر المحيط .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٥٥) سورة الرحمن مدنية
وآياتها ثمان وسبعون

وهي مكِّيَّة فيما قال الجمهور من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ، وقال نافع بن أبي نُعَيم (١) ، وعطاءٌ ، وقتادة ، وكُرَيْب (٢) ، وعطاءُ الخراساني (٣) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : هي مدنية نزلت عند إباية سهيل بن عمرو وغيرهُ أن يكتب في الصلح : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، والأول أصح ، وإنما نزلت حين قالت قريش بمكة : « وما الرحمن ؟ أنسْجُدُ لما تأْمرنا ؟ » ، وفي السيرة أن ابن مسعود جهر

---

(١) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم القارئ ، المدني ، مولى بني ليث ، أصله من أصبهان ، وقد ينسب لجده ، صدوق ، ثبت في القراءة ، من كبار السابعة ، مات سنة تسع وستين . (تقريب التهذيب) .

(٢) كُرَيب بن أبي مسلم الهاشمي ، مولاهم ، المدني ، أبو رِشْدين ، مولى ابن عباس ، ثقة ، من الثالثة ، مات سنة ثمان وتسعين . (تقريب التهذيب) .

(٣) هو عطاء بن أبي مسلم أبو عثمان الخُراساني ، واسم أبيه ميسرة ، وقيل عبد الله ، صدوق ، « وقيل » : يَهِمُ كثيراً ويُرسل ويُدلس ، من الخامسة ، مات سنة خمس وثلاثين ، لم يصح أن البخاري أخرج له . (تقريب التهذيب) .

بقراءتها في المسجد حتى قامت إليه أندية قريش فضربوه ، وذلك قبل الهجرة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾

[ٱلرَّحْمَٰنُ] بناءُ مبالغة من الرحمة ، وهو اسم اختص الله تعالى بالاتصاف به ، وحكى ابن فُورك عن قوم أَنهم يجعلون [ٱلرَّحْمَٰن] آية تامة ، كأَن التقدير : الرحمنُ ربُّنَا ، وقاله الرُّمَّاني وأَن التقدير : اللهُ الرحمنُ ، وقال الجمهور : إنما الآية ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ﴾ ، فهو جزءُ آية .

وقوله تعالى : ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ﴾ تعديد نِعْمة ، أَي : هوَ مَنَّ به ، وعلَّمه الناس ، وخصَّ حُفَّاظه وفهمته بالفضل ، قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : (خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه)(١)، ومن الدليل على أَن القرآن غير مخلوق أَن الله تعالى ذكر القرآن في كتابه في أَربعة وخمسين موضعاً ما منها موضع صرَّح فيه بلفظة الخلق ولا أَشار إليه ، وذكر الإِنسان على الثُّلث من ذلك في ثمانية عشر موضعاً كلها نصت على خلقه ، وقد اقترن ذكرهما في هذه السورة على هذا النحو .

و « الإِنْسَانُ » هنا اسم الجنس ، حكاه الزهراوي وغيره ، و « البَيَانُ » : النطق والفهم والإِبانة عن ذلك بقول ، قاله ابن زيد والجمهور ، وذلك هو الذي فُضل به الإِنسان من بين سائر الحيوان ، وقال قتادة : هو بيان الحلال والحرام والشرائع ، وهذا جزءٌ من البيان العام ، وقال قتادة : «الإِنسان» هو آدم عليه السلام ، وقال ابن كيسان : «الإِنسان» محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا التخصيص لا دليل عليه ، وكل المعلومات داخلة في البيان الذي عُلِّمه الإِنسان ، فكأَن الله تعالى قال : من ذلك البيان وفيه معتبر كون الشمس والقمر بحسبان ، فحذف هذا كله ، ورفع [ٱلشَّمْسُ] بالابتداء ، وهذا ابتداءُ تعديد نِعَم.

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ، وأبو داود في الوتر ، والترمذي في ثواب القرآن ، وابن ماجه في المقدمة ، والدارمي في فضائل القرآن ، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وفي رواية أخرجها البخاري عن عثمان بن عفان أيضاً قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إن أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه) .

واختلف الناس في قوله تعالى : [بِحُسْبَانٍ] ـ فقال مكي ، والزهراوي ، عن قتادة : هو مصدر كالحساب في المعنى ، كالغُفْران والطُّغْيان في الوزن ، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى ، والضحاك : هو جمع حِسَابٍ ، كشِهَابٍ وشُهْبان ، والمعنى : إن هذين لهما في طلوعهما وغروبهما وقطعهما البروج وغير ذلك حساباتٌ ، وهذا مذهب ابن عباس ، وأبي مالك ، وقتادة . وقال ابن زيد : لولا الليل والنهار لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً من مقادير الزمان ، وقال مجاهد : الحُسْبان : الفَلَك المستدير ، شبَّهه بحسبان الرَّحى وهو العود المستدير الذي باستدارته تدور المطحنة .

قوله تعالى : ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ ، قال ابن عباس ، والسدي ، وسفيان : «النَّجْم» : النباتُ الذي لا ساق له ، وسُمِّي نجماً لأنه نَجَم أي ظهر وطلع ، وهو مناسب للشجر يشبَّه به ، وقال مجاهد ، وقتادة ، والحسن : النَّجم : اسم الجنس من نجوم السماء ، والنِّسبة التي لها من السماء هي التي للشجرة من الأَرض لأَنهما في ظاهرهما ، وسُمي الشجر من اشتجار غصونه وهو تداخلها ، واختلف الناس في هذا السجود ـ فقال مجاهد والحسن : ذلك في النجم بالغروب ونحوه ، وفي الشجر بالظل واستدارته ، وكذلك في النجم على القول

الآخر ، وقال مجاهد أيضاً ما معناه : إن السجود في هذا كله تجوُّز ، وهو عبارة عن الخضوع والتذلل ونحوه ، ومنه قول الشاعر :

. . . . تَرَى الأُكْمَ فيه سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ(١)

وقال تعالى : [يَسْجُدَانِ] وهما جمعان لأنه راعى اللفظة ، لأنه اسم مفرد اسم للنوع ، وهذا كقول الشاعر :

أَلَمْ يَحْزُنْكِ أَنَّ حِبالَ قَــوْمِي وَقَوْمِكِ قَدْ تَبَايَنَتَا انْقِــطَاعَا(٢)

وقرأ الجمهور : ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ بالنصب عطفاً على الجملة الصَّغيرة وهي [يَسْجُدَانِ] ؛ لأن هذه جملة من فعل وفاعل وهذه كذلك ،

(١) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل بن مهلهل الذي سمَّاه النبي صلى الله عليه وسلم زيد الخير بعد إسلامه ، والبيت بتمامه :

بِجَمْعٍ تَضِلُّ الْبُلْقُ في حَجَرَاتِهِ تَرَى الأُكْمَ فيهِ سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ

والبَلَق : سوادٌ وبياض في الدابة ،والمراد هنا الخيل ، والبُلْقة فيها ارتفاع التحجيل إلى الفخذين ، والحَجَرَات : النواحي ، وهي جمع حَجْرَة ، وفي المثل — وهو في حديث علي — : « ودَعْ عنك نهباً صِيحَ في حَجَراتِه » ، أي في نواحيه ، والأُكْمُ جمع الإكام ، والإكام جمع أَكَمٍ ، وأَكَمٌ جمع أكمة وهي المكان المرتفع دون الجبال ، والشاهد أن السجود هنا مجازي يدل على الخضوع والذلة .

(٢) هذا البيت من قصيدة للقطامي مدح بها زُفَر بن الحارث الكلابي الذي حماه من بني أَسد يوم الخابور وحمله وكساه وأعطاه مائة ناقة ، والخطاب هنا لضُباعة بنت زُفَر لأنه كان أسيراً عند والدها ، والحبال : العهود والمواصلة التي كانت بين قومه وقومها وهما قيس وتغلب ، ولهذا يروى البيت (أَلَمْ يحزنك أن حبال قيس... وتغلب) ، وتباينت : تفرقت ، وقد رُوي أن ضُباعة لمَّا سمعت هذا البيت قالت : بَلَى والله قد أَحْزَنَني ، والشاهد أنه راعى اللفظ حين قال : (تباينتا) أي حبال القومين ، وإلا فلو راعى المعنى لقال : (تباينت) لأن الضمير يعود على (الحبال) ، وقد روي البيت : (تباينت) ، وعلى هذا فلا شاهد فيه .

وقرأ أَبو السَّمَّال : ﴿وَٱلسَّمَاءُ رَفَعَهَا﴾ بالرفع عطفاً على الجملة الكبيرة وهي قوله تعالى : ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ ؛ لأَن هذه جملة من مبتدإٍ وخبر والأُخـرى كذلك ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «وخَفَضَ الميزان» ، ومعنى [وَضَعَ]: أَقَرَّ وأَثْبَت ، و «المِيزَانُ» : العَدْلُ فيما قال الطبري ، ومجاهد ، وأَكثر الناس . وقال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : إِنَّهُ الميزان المعروف ، وهو جزءٌ من الميزان الذي يعبَّر به عن العدل ، ويظهر عندي أَن قوله تعالى : ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ يريد به العدل ، وأَن قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزَانِ﴾ ، وقوله : ﴿وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ ، وقوله : ﴿وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾ يريد به الميزان المعروف ، وكل ما قيل محتمل سائغ . وقوله تعالى : ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ نهي عن التعمد الذي هو طغيان بالميزان ، وأَمَّا ما لا يقدر البشر عليه من التحرير بالميزان فذلك موضوع عن الناس ، و [أَلَّا] هو بتقدير : «لِئَلَّا» أَو مفعولٌ من أَجله ، و [تَطْغَوْا] نصب ، ويحتمل أَن تكون [أَنْ] مفسرة فيكون [تَطْغَوْا] جزم بالنهي (١) ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «لَا تَطْغَوْا» بغير «أَنْ» .

---

(١) علَّق أبو حيان على ذلك في البحر بقوله : «لا يجوز أن تكون [أَنْ] مفسرة لأنه يشترط أن يكون ما قبلها جملة فيها معنى القول ، وجملة ﴿وَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ ليس فيها معنى القول .

وقرأ جمهور الناس : ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا ﴾ من أَخْسَرَ ، أَي نَقَصَ وأَفْسَدَ ، وقرأ بلال بن أَبي بُردة : ﴿ وَلَا تَخسِرُوا ﴾ بفتح التاءِ وكسر السين من خَسَرَ ، ويقال : خَسَرَ وأَخْسَرَ بمعنى نقص وأَفسد كَجَبَرَ وأَجْبَر ، وقرأ بلالٌ أَيضاً - فيما حكى عنه ابن جني - : [تَخْسَرُوا] بفتح التاءِ والسين من خَسِر بكسر السين(١) .

واختلف الناس في [ٱلْأَنام] - فقال ابن عباس رضي الله عنهما في بعض ما روي عنه : هم بنو آدم فقط ، وقال الحسن بن أَبي الحسن : هم الثقلان الجن والإِنس ، وقال ابن عباس أَيضاً ، وقتادة ، وابن زيد ، والشعبي : هم الحيوان كله . و «ٱلْأَكْمَامُ» في النخل موجودة في موضعين : فجملة فروع النخلة في أَكمام من ليفها ، وطلع النخلة في كِمٍّ(٢) من جهة ، وقال قتادة : أَكمام النخل رقابها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والكِمُّ من النبات كل ما التفَّ على شيءٍ وستره ، ومنه كمائم الزهر ، وبه شبه كُمُّ الثوب .

---

(١) قال أبو الفتح : «وهذا ينبغي أن يكون على حذف حرف الجرّ، أي : تَخْسَرُوا في الميزان ، فلما حذف الجر أفضى إليه الفعل قبله فنصبه ، كقوله تعالى : ﴿ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ ، أي : في كلِّ مرصد .

(٢) في المحكم والتهذيب ضُبط بالضَّـم ، ولكن في المصباح والقاموس والنهاية : كِمُّ الطَّلْعِ وكُلِّ نَوْرٍ : بالكسر .

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ ، الحَبُّ ذو العصفِ هو القمح والشعير وما جرى مجراه من الحب الذي له سنبل وأوراق متشعبة على ساقه ، وهي العصيفة إذا يبست ، ومنه قول عَلْقمة بنُ عَبَدَة :

تَسْقِي مَذَانِبَ قَدْ مَالَتْ عَصيفَتُهَا حَدُورُهَا مِنْ أَتِيِّ الماءِ مَطْمُومُ (١)

قال ابن عباس رضي الله عنهما : العصف : التِّبن ، وتقول العرب : خرجنا نتعصَّف ، أي يستعجلون عصيفة الزرع ، وقرأ ابن عامرٍ ، وأبو البرهسم : [وَٱلْحبَّ] - بالنصب عطفاً على [ٱلْأَرْضَ] - ﴿ذَا ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانَ﴾ ، إلَّا أَن أَبا البرهسم خفض النون . واختلفوا في الريحان - فقال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : معناه : الرِّزْقُ ، ومنه قول الشاعر وهو النَّمِرُ بنُ تَوْلَب :

سَلَامُ الإِلٰهِ وَرَيْحَانُهُ وجَنَّتُهُ وَسَمَاءٌ دِرَرْ (٢)

---

(١) قال علقمة هذا البيت من قصيدة يبكي فيها فراق الحبيبة ، ويصف دمْعَه ويشبِّهه بما يفيض من الدَّلْو العظيمة حين تسرع بها الناقة ، فالضمير في « تسقي » يعود على الناقة وقد ذكرها في الأبيات السابقة ، والمَذَانب : مدافع الماء إلى الرياض ، والواحد مَذْنَب ، والعصيفة : ورق الزرع ، ويروى : « زالت عصيفتها » ، والمعنى في « مال » استوى وقارب أن يجف ، والمعنى في « زال » أنه جفَّ وسقط وتفرَّق بفعل الرِّيح ، وحَدُورها : ما انحدر من هذه المذانب واطمأن في الأرض أي انخفض ، والأتِيُّ : السَّيْل القوي ، والمطمومُ : المملوءُ بالماء . والشاهد أن العصيفة هي ورق الزرع الذي يتفتح عن الثمرة ويسقط . وهذا البيت من شواهد أبي عليٍّ في (مجاز القرآن) ، وقد نقل المفسرون كلامه وكذلك نقله صاحب اللسان في (عصف) .

(٢) استشهد صاحب اللسان بهذا البيت وبيت بعده على أن الريحان هو الرزق ، قال : والعربُ تقول : سبحان الله وريحانه ، قال أهل اللغة : معناه واسترزاقه ، وهو عند سيبويه =

وقال الحسن : هو ريحانكم هذا ، وقال ابن جبير : هو كلُّ ما قام على ساقٍ ، وقال ابن زيد ، وقتادة : الريحانُ هو كل مشموم طيب الريح من النبات ، وفي هذا النوع نعمة عظيمة ، فمنه الأَزهار والمندل والعقاقير وغير ذلك، وقال الفراءُ : العصف فيما يؤكل، والريحانُ كلُّ ما لا يؤكل . وقرأ جمهور الناس : ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ ، وهذه القراءَة في المعنى كالأُولى ، وفي الإعراب حسنة الاتساق عطفاً على [فَاكِهَةٌ] ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن محيصن : [وَٱلْحَبُّ] بالرفع ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانِ﴾ بخفض [ٱلرَّيْحَانِ] عطفاً على [ٱلْعَصْفِ] ، كأَن «الْحَبَّ» هُمَا لَهُ على أَن «العَصْفَ» منه الورق وكل ما يُعصف باليد والريح فهو رزق البهائم ، و «الريحانُ» منه الحبُّ وهو رزقُ الإنس ، والريحانُ ـ على هذه القراءَة ـ لا يدخل فيه المشموم إلَّا بتكلُّف . و «ريحان» هو من ذوات الواو ، قال أَبو علي : إمَّا أَن يكون ريحان اسماً وُضع موضع المصدر ، وإمَّا أَن يكون مصدراً

= من الأسماء الموضوعة موضع المصادر ، تقول: خرجتُ أبتغي ريحان الله ، قال النَّمِرُ ابنُ تَوْلَب :

سَلامُ الإلَـهِ وَرَيْحَانُـهُ   وَرَحْمَتُه وَسَمَاءٌ دِرَرْ
غَمَامٌ يُنَزِّل رِزْقَ العِبَادِ   فَأَحْيَا البِلادَ وَطَابَ الشَّجَرْ

ومعنى قوله : وريحانُه : ورزقه » . والسماءُ الدِّرَرُ هي التي تصب المطر كثيراً فيأتي بالخير الكثير .

على وزن فَعْلان كاللَّيَّان وما جرى مجراه ، أَصله رَوْحان ، أُبدلت الواو ياءً(١) كما أَبدلوا الياءَ واواً في «أشاوي» ، وإِمَّا أَن يكون مصدراً مما شذَّ في المعتل كما شذَّ كَيْنُونَة وبَيْنُونة ، فأَصله رَيْوَحان ، قُلبت الواوُ ياءً وأُدغمت الياءُ في الياءِ فجاءَ (رَيِّحان) فخفف ، كما قالوا : مَيِّتٌ ومَيْتٌ ، وهَيِّن وهَيْن .

و «ٱلْآلَآءُ» : النِّعم ، واحدها إِلًى مثل مِعًى وَأَلًى مثل نَقًى ، حكى هذين أَبو عبيدة ، وأَلْيٌ مثل أَمْنٍ ، وإِلْيٌ مثل حِصْنٍ ، حكى هذين الزهراوي ، والضمير في قوله تعالى : [رَبِّكُمَا] للجن والإِنس ، وساغ ذلك ولم يُصَرَّح لها بذكر على أَحد وجهين : إِمَّا أَنهما قد ذكرا في قوله تعالى : [لِلْأَنَامِ] على ما تقدم من أَن المراد به الثقلان ، وإِمَّا على أَن أَمرهما مفسَّر في قوله تعالى : ﴿خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ﴾ و ﴿خَلَقَ ٱلْجَانَّ﴾ فساغ تقديمهما في الضمير اتساعاً . وقال الطبري : يحتمل أَن يقال : هذا من باب ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾(٢) ، و «يا غلام اضربا

(١) وذلك للفرق بينه وبين الرُّوحانِيِّ ، وهو كلُّ شيءٍ له رُوحٌ .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٢٤) من سورة (ق) : ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ، فالله سبحانه وتعالى يخاطب في هذه الآية خازن النار مالك ، فَثَنَّى والخطابُ لواحد ، وهذا كثير في كلام العرب ، ومنه البيت المشهور في مطلع معلقة امرئْ القيس :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْـزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخولِ فَحَوْمَلِ

وقوله أيضاً في مطلع قصيدة أُخرى :

عنقه » ، وقال منذر بن سعيد : خوطب من يعقل لأن المخاطبة بالقرآن كله للإنس والجان ، ويُروى أن هذه الآية لما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم سكت أصحابه رضي الله عنهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : (إن جواب الجن خير من سكوتكم ، إني لما قرأتها على الجن قالوا : لا نُكَذِّبُ بآلاءِ ربنا)(١).

= خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ   لِنَقْضِي لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ

فهو يخاطب واحداً لكن اللفظ جاء للمثنى ، وقال سويد بن كراع :

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يا بْنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ   وَإِنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعَا

وهو واضح جداً حيث يخاطب فرداً واحداً بلفظ المثنى ، قالوا : والعلّةُ في هذا أن أقلّ أعوان الرجل في إبله وماله اثنان ، وأن أقلّ الرفقة ثلاثة ، فجرى كلام الرجل على ما قد أَلِف من خطابه . أما « يا غلام اضربا عنقه » فهو من كلام الحجاج .

(١) أخرج هذا الحديث الترمذيُّ ، والحاكم في المستدرك ، وزاد السيوطي نسبته إلى ابن المنذر ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، وهو من حديث الوليد ابن مسلم عن زهير بن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال : مالي أراكم سكوتاً ؟ لقد قرأتُها على الجنّ ليلة الجنّ فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيتُ على قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قالوا : ولا بشيءٍ من نِعَمك ربَّنا نكذّب ، فلك الحمد ، وقد صحح الحاكم هذا الحديث كما ذكر السيوطي في الدُّرّ ، كذلك صححه الذهبي، لكن الترمذي قال: غريب لا نعرفه إلاّ من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد . وزهير بن محمد هذا قال عنه البخاري : « ما روى عنه أهل الشام فإنه مناكير ، وما روى عنه أهل البصرة فإنه صحيح » وهذا الحديث مما رواه الوليد بن مسلم وهو من أهل الشام ، ومع هذا فقد أخرج مثله البزّار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والدارقطني في الإفراد ، وابن مردويه ، والخطيب في تاريخه بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾

قال كثير من المفسرين : «الإِنْسَان» : آدم عليه السلام ، وقال آخرون : أَراد اسم الجنس ، وساغ ذلك من حيث أَبوهم مخلوق من الصلصال . واختلف الناس في اشتقاق الصلصال ، فقال مكي - فيما حُكي - والنقاشُ : هو من «صَلَّ اللَّحْمُ وغيره» إذا أَنْتَن ، فهي إشارة إلى الحمأَة ، وقال الطبري وجمهور المفسرين : هو من «صَلَّ» إذا صوَّت ، وذلك في الطين لكرمه وجودته ، فهي إشارة إلى ما كان في تربة آدم عليه السلام من الطين الحُرِّ ، وذلك أَن الله تبارك وتعالى خلقه من طين طيِّب وخبيث ومختلف اللون ، فمرَّة ذكر في خلقه هذا ومرَّة هذا ، وكل ما في القرآن في ذلك من صفات ترددت على التراب الذي خُلق منه . و الفَخَّار : الطين الطيب إذا مسَّه الماءُ فَخَر أَي رَبَا وعَظُم . و «الجان» : اسم جِنْس كالجِنَّة ، و «المارج» : اللَّهَبُ المضطرب من النار ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : وهو

أَحسنُ النار المختلطُ من الأَلوان الشتَّى ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : (كيف بك إذا كنت في حُثالة من الناس قد مَرَجت عهودهم وأَماناتُهم) (١) .

وكرر قوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تأْكيداً وتنبيهاً للنفوس وتحريكاً لها ، وهذه طريقةٌ من الفصاحة معروفة ، وهي من كتاب الله تعالى في مواضع ، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي كلام العرب . وذهب قوم منهم ابن قُتَيْبَة وغيره إلى أَن هذا التكرار إنما هو لمَّا اختلفت النعم المذكورة كرَّر التوقيف مع كل واحدة منها وهذا أَحسن ، قال الحسين بن الفضل : التكرار لطرد الغَفْلة والتأْكيد .

وخصَّ تعالى ذكر المشرقين والمغربين بالتشريف في إضافة الربِّ إليهما لعِظَمِهما في المخلوقات ، وأَنهما طرفا آية عظيمة وعبرة وهي

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم ، وابن ماجه في الفتن ، وأحمد في المسند (٢-١٦٢ ، ٢١٢ ، ٢٢٠) ، ولفظه كما في المسند أن عبد الله بن عمرو قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كيف أنت إذا بقيت في حُثالة من الناس ؟ قال : قلت : يا رسول الله كيف ذلك ؟ قال : إذا مَرِجَتْ عهودُهم وأماناتُهم ، وكانوا هكذا - وشبَّك يونس بين أصابعه يصف ذلك - قال : قلت : ما أصنع عند ذلك يا رسول الله ؟ قال : اتق الله عزَّ وجلَّ ، وخُذْ ما تعرف ودع ما تُنكر ، وعليك بخاصَّتك ، وإيَّاك وعوامَّهم) . ويونس هو راوي الحديث عن الحسن عن عبد الله بن عمرو .

الشمسُ وجريها ، وحكى النقاش أن «المشرقين» هما مشرق الشمس والقمر و «المغربين» كذلك ، على ما في ذلك من العِبَر ، وكلٌّ مُتَّجه ، ومتى وقع ذكر المشرق والمغرب فهي إشارة إلى الناحيتين بجملتهما ، ومتى وقع ذكر المشارق والمغارب فهي إشارة إلى مشرق كل يوم ومغربه ، ومتى ذكر المشرقان والمغربان فهي إشارة إلى نهايتي المشارق والمغارب ؛ لأن ذكر نهايتي الشيءِ ذكرٌ لجميعه ، وقال مجاهد : هو مشرق الصيف ومغربه ومشرق الشتاءِ ومغربه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ معناه : أَرسلهما إرسالًا غير منحاز بعضهما من بعض ، ومنه : مَرجت الدابةُ ، ومنه : الأَمر المريج ، أي المختلط الذي لم يتحصل منه شيءٌ ، ومنه ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ . واختلف

الناسُ في البحرين ـ فقال الحسن ، وقتادة : بحر فارس وبحر الروم ، وقال الحسن أَيضاً : بحر القُلْزم واليمن وبحر الشام ، وقال ابن عباس ، وابن جبير : بحرٌ في السماءِ وبحر في الأَرض ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً : هو مطر السماءِ ـ سمَّاهُ بحراً ـ وبحر الأَرض ، والظاهر عندي أَن قوله تعالى : ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ يريد بهما نوعي الماءِ العذب والأُجاج ، أَي خلطهما في الأَرض وأَرسلهما متداخلين في وضعهما في الأَرض قريب بعضهما من بعض ، والعبرة في هذا التأْويل منيرة ، وأَنشد منذر بن سعيد :

ومَمْزُوجَةُ الأَمْوَاهِ لَا الْعَذْبُ غَالِبٌ عَلَى المِلْحِ طِيباً لَا وَلَا المِلْحُ يَعْذُبُ(١)

وأَمَّا قوله تعالى : [يَلْتَقِيَانِ] فعلى التأْويلين الأَوَّلين معناهما : مُعَدَّان للالتقاءِ وحقُّهما أَن يلتقيا لولا البرزخ ، وعلى القول الثالث أَنهما يلتقيان كل سنة مرة ، فمن ذهب إِلى أَنه بحر يجتمع في السماءِ فهو قول ضعيف ، وإِنما يتوجه اللقاءُ فيه وفي القول الرابع بنزول المطر ، وفي القول الخامس بالأَنهار في البحر وبالعيون قرب البحر.

و «الْبَرْزَخُ» : الحاجز في كل شيءٍ ، فهو في بعض هذه الأَقوال أَجرام الأَرض ، قاله قتادة ، وفي بعضها القدرة ، والبرزخُ أَيضاً

(١) أي لا يغلبُ العَذْبُ على المِلْح فتصير الأمواهُ كلها عذبة ، ولا يغلب المِلْح على العذب فتصير الأمواه كلها ملحة .

المُدَّة التي بين الدنيا والآخرة للموتى ، فهو حاجز ، وقال بعض الناس : إن ماءَ الأَنهار لا يختلط بالماءِ المِلْح بل هو بذاته باق فيه ، وهذا يحتاج إلى دليل أَو حديث صحيح وإلّا فالعيان لا يقتضيه ، وذكر الثعلبي في ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أَلْغازاً وأَقوالًا باطنة لا يجب أَن يُلتفت إلى شيءٍ منها .

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ ـ فقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : معناه : لا يبغي واحد منهما على الآخر ، وقال قتادة أَيضاً ، والحسن : لا يبغيان على الناس والعُمران ، وهذان القولان على أَن اللفظ من البَغْي ، وقال بعض المتأَولين : هي من قولك : بَغَى إذا طلب ، فمعناه : لا يبغيان حالًا من الأَحوال غير حاليهما اللتين خُلقا وسُخِّرا لهما . وقال ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك : اللؤلؤ : كبارُ الجوهر والمرجانُ : صغاره ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً ، ومُرَّة الهَمْدَاني (١) عكس هذا ، والوصف بالصغر هو الصواب في اللؤلؤ ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره : المرجان حجر أَحمر ، وهذا هو الصواب في المرجان ، واللُّؤْلُؤُ بناءٌ غريب لا يُحفظ منه

(١) هو مُرَّة بن شَرَاحيل الهَمْداني ــ بسكون الميم بعدها دالٌ غير منقوطة ــ أبو إسماعيل الكوفي ، قال في تقريب التهذيب : « هو الذي يقال له : مُرَّة الطيِّب ، ثقة عابد ، من الثانية ، مات سنة ست وسبعين ، وقيل بعد ذلك » .

في كلام العرب أكثر من خمسة : اللُّؤْلُؤ ، والجُؤْجُؤ ، والدُّؤْدُؤ ، واليُؤْيُؤ - وهو طائر - والبُؤْبُؤ ، وهو الأَصل(١) .

واختلف الناس في قوله تعالى : [مِنْهُمَا] - فقال أَبو الحسن الأَخفش في كتاب (الحجة) : وزعم قومٌ أَنه قد يخرج اللؤلؤ والمرجان من المِلْح ومن العذب ، وردَّ الناسُ على هذا القول لأَن الحِسَّ يخالفه ولا يخرج ذلك إلَّا من المِلْح ، وقد ردَّ الناسُ على الشاعر في قوله :

فَجَاءَ بِهَا ما شِئْتَ مِنْ لَطَمِيَّـــةٍ عَلَى وَجْهِهَا مَاءُ الْفُرَاتِ يَمُـوجُ (٢)

---

(١) اللُّؤْلُؤ : الدُّرُّ ، وهو يتكون في الأصداف من رواسب أو جوامد صلبة لمَّاعة مستديرة في بعض الحيوانات المائية الدنيا من الرِّخْوِيَّات ، واحدته : لُؤْلُؤَة ، وجمعه : لآلِئُ .
والجُؤْجُؤ : مجتمع رُءُوس عظام الصدر ، وصدر السفينة ، وجمعه : جآجئ .
والدُّؤْدُؤ : آخر أيام الشهر ، ويقال : ليلة دُؤْدُؤٌ : شديدة الظُّلْمة ، وجمعه : دَآدِئ ، وفي الحديث (ليس عفر الليالي كالدَّآدي) .
واليُؤْيُؤ : طائر من جوارح الطير كالباشق ، وهو طائر صغير قصير الذَّنَب ، وجمعه : يَآيِئ .
والبُؤْبُؤ : الأصلُ ، يقال : فلانٌ في بُؤْبُؤ المجد ، وقد يكون معناه : وسط الشيء ، وكذلك من معانيه : إنسَانُ العَيْن ، يقال : هو أعزُّ عليَّ من بؤبؤ عيني ، أي من إنسانها ، وهو في الوقت نفسه وسط العين .

(٢) هذا البيت لأبي ذُؤَيْب الهُذَلي ، وهو من أبيات يصف فيها محبوبته ويشبهها بالدُّرَّة الثمينة التي تعب الغواص في الوصول إليها وسط لُجَج الماء ، ثم جاء بها بعد كثير من التعب والإرهاق ، فالضمير في (فجاء) يعود على الغواص وقد ذكره في الأبيات السابقة ، وفي (بها) يعود الضمير على الدُّرَّة ، واللَّطيمة : عيرٌ تحمل التجارة والعِطْر ، فإن لم يكن فيها عِطْر فليست بلطيمة ، فجعل الشاعر هذه الدُّرَّة تحملها عِيرُ اللَّطيمة ، وقوله: (ما شِئْتَ =

وقال الجمهور من المتأَولين : إنما يخرج ذلك من الأُجاج في المواضع التي تقع فيها الأَنهار والمياه العذبة ، فلذلك قال تعالى : [مِنْهُمَا]، وهذا مشهور عند الغواصين ، وقال ابن عباس ، وعكرمة : إنما تتكون هذه الأَشياءُ في البحر بنزول المطر لأَن الصدف وغيرها تفتح أَجوافها للمطر ، فلذلك قال تعالى : [مِنْهُمَا] ، وقال أَبو عبيدة ما معناه : إن خروج هذه الأَشياءِ إنما هو من المِلْح لكنه تعالى قال : [مِنْهُمَا] تَجَوُّزاً ، كما قال الشاعر :

. . . . مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحَـا (١)

= مِن لَطَمِيَّةٍ) في موضع الحال ، أي جاء بها في هذه الحالة . والفُرَات : العذبُ من الماء، ويمُوج : يضطرب ويتحرك ، جعل الماءَ العذب يتلاطم فوقها ، قالوا : وقد أخطأ هنا ، فقد ظنّ أن الدُّرَّة إذا كانت في الماء العَذْب فليس لها شبيه ، ولم يعلم أنها لا تكون في الماء العذب ، ويروى الشطر الثاني : (تَدومُ البِحَارُ فَوْقَهَا وتَمُوجُ) أي : تسْكُن فوقها وتتحرك ، و (دام) تفيد معنى السكون ، ومنه (لا يَبُولَنّ أحدكم في الماء الدائم) ، وعلى هذا فلا شاهد في البيت ، والرواية الأخيرة هي رواية الديوان .

(١) هذا عجز بيت قاله عبد الله بن الزِّبَعْرى – كما في حواشي الكامل – والبيت بتمامه كما ذكره الفراءُ في (معاني القرآن) :

وَلَقِيتُ زَوْجَكِ في الوَغَـى مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحَـا

والرواية في خزانة الأدب – نقلا عن المبرد في الكامل – وفي اللسان – قلد – : (يَا لَيْتَ زَوْجَكِ قَد غَدَا) ، وتقلَّد الأمْر : احتمله ، وكذلك تقلَّد السيف ، والمعنى في البيت : مُتَقَلِّداً سيفاً وحامِلا رُمْحاً ، قيل: إن الرُّمْح لا يُتَقَلَّد لكنه لمَّا جمع الرُّمح مع السيف =

وكما قال الآخر :

. . . . عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِدًا (١)

فمن حيث هما نوعٌ واحدٌ فخروج هذه الأشياء إنما هو منهما وإن كانت تختص عند التفصيل المبالغ بأحدهما ، وهذا كما قال تعالى : ﴿سَبْعَ

= حَمَلَه على مثل لفظه لأن المعنى يرجع إلى شيءٍ واحد، وهذا هو معنى كلام المبرد ، وقد جعل البيت كقول الشاعر الآخر : (شرَّابُ ألبْابٍ وسَمْنٍ وأَقِطْ) ، فإن اللبن يشرب ، ولكن السَّمْنَ والأقِط لا يشربان وإنما يؤكلان ، لكنه لمَّا جمع بينها حمل الأخيرين على مثل لفظ الأول لأن المعنى يرجع إلى شيءٍ واحد .

(١) هذا رجزٌ لم يعرف قائله ، وفي بعض حواشي نسخة من الصحاح نسب إلى ذي الرُّمَّة ، قال في الخزانة : وفتَّشت ديوانه فلم أجده فيه ، وقد أورد العلامة الشيرازي ، والفاضل اليمني صدراً ، وجعلا الجزء المذكور هنا عَجُزاً ، فصار كالآتي :

لَمَّا حَطَطْتُ الرَّحْلَ عَنْهَا وارِدَا عَلَفْتُهَا تِبْناً ومَـاءً بَـارِدَا

وجعله آخرون صدراً ، وأوردوا له عَجُزاً فصار كالآتي :

عَلَفْتُهَا تِبْناً ومَـاءً بَـارِدَا حَتَّى شَتَتْ هَمَّالَةً عَيْناهَـا

والضمير في (عَلَفْتُها) يرجع إلى الدابة المعهودة ، والشاهد أنه عطف الماء على التِّبن ، ولا يقال عن الماء عَلَفٌ ، ولهذا قالوا : التقدير : وسقيتها ماءً ، وقيل : إنهلما جمع الماء مع التبن حمله على مثل لفظه لأن المعنى يرجع إلى شيءٍ واحد ، وهو بهذا كقول الراعي عبيد :

إذا ما الْغانيَاتُ بَرَزْنَ يَوْمـاً وَزَجَّجْنَ الْحَوَاجِبَ والْعُيُونَـا

إذْ أن العيون لا تُزَجَّج مثل الحواجب ، ولهذا كان التقدير : وكَحَّلْنَ العُيُونَا ، أو يقال : إنه لما جمع العيون مع الحواجب حملها على مثل لفظها لأن المعنى يرجع إلى شيءٍ واحد . وقالوا : إن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما ، وقد ورد هذا في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ ، فإن الرسل من الإنس فقط .

سَمَوَاتٍ طِبَاقاً ، وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ﴾(١) ، وإنما هو في إحداهن وهي الدنيا إلى الأرض ، وقال الرُّمَّاني : العذب فيهما كاللقاح للملح ، فهو كما يقال : الولد يخرج من الذكر والأُنثى . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وأهل المدينة : [يُخْرَجُ] بضم الياء وفتح الراء [ٱللُّؤْلُؤُ] رفعاً . وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [يَخْرُجُ] بفتح الياء وضم الراء على بناء الفعل للفاعل ، وهي قراءة الحسن ، وأبي جعفر . وقرأ أبو عمرو - في رواية حُسين الجعفي عنه - : [يُخْرِجُ] بضم الياء وكسر الراء على إسناده إلى الله تعالى ، أي بتمكينه وقدرته [ٱللُّؤْلُؤَ] نصباً ، ورواها عنه أيضاً بالنون مضمومة وكسر الراء .

و «الْجَوَارِ» جمع جارية وهي السُّفُن ، وقرأ الحسن ، والنَّخَعي : [ٱلْجَوَارِي] بإثبات الياء ، وقرأ أبو جعفر ، وشيبة بحذفها ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي: [ٱلْمُنْشَآتُ] بفتح الشين ، أي أنشأها الله تعالى أو الناسُ ، وقرأ حمزة ، وأبو بكر - بخلاف عنه - : [ٱلْمُنْشِآتُ] بكسر الشين ، أي تُنشئُ هي،

(١) من الآيتين (١٥ ، ١٦) من سورة (نوح) .

السَّيْرَ إِقْبَالًا وإدباراً ، و « ٱلْأَعْلَامُ » الجِبالُ وما جرى مجراها من الظِّراب والآكام (١) ، وقال مجاهد : ماله شراع فهو من المنشآت وما لم يرفع له شراع فليس من المنشآت .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

قوله تعالى : [كَالْأَعْلَامِ] هو الذي يقتضي هذا الفرق ، وأما لفظة « المنشآت » فتعم الكبير والصغير .

والضمير في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ للأَرْض ، وكنَّى تعالى عنها ولم يتقدم لها ذِكْرٌ لوضوح المعنى ، كما قال تعالى : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ (٢) إلى غير ذلك من الشواهد ، والإشارة بالفناء إلى جميع الموجودات على الأَرض من حيوان وغيره ، فغلبت عبارة من يعقل فلذلك قال : [مَنْ] .

و « الوَجْهُ » عبارة عن الذات لأَن الجارحة منفية في حق الله تعالى ، وهذا كما تقول : هذا وجه القول والأَمر ، أَي حقيقته وذاتُه ، وقرأَ جمهور الناس : ﴿ ذُو ٱلْجَلَالِ ﴾ على صفة لفظة الوجه ، وقرأَ عبد الله

---

(١) الظِّراب : جمع ظَرِب وهو الجبلُ المنبسط . والآكام : جمع الجمع ، والمفرد : أَكمة وهي التَّل ، وجمعها أَكماتٌ وأَكَمٌ ، وجمع الأكم إكامٌ ، وجمع الإكام أُكُم ، وجمع الأُكُم آكام .

(٢) من الآية (٣٢) من سورة (ص) .

ابن مسعود ، وأُبَيٌّ رضي الله عنهما : «ذِي ٱلْجَلَالِ» على صفة الرَّبِّ تبارك وتعالى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى : [يَسْأَلُهُ] يحتمل أَن يكون في موضع الحال من «الوجه» والعامل فيه [يَبْقَى] ، أَي هو دائم في هذه الحال ، ويحتمل أَن يكون فعلاً مُسْتَأْنفاً إخباراً مجرداً ، والمعنى : إن كل مخلوق من الأَشياءِ فهو في قوامه وتمسكه ورزقه إن كان مما يُرزق بحالِ حاجةٍ إلى الله تعالى ، فمن كان يسأَل بنطق فالأَمر فيه بيِّنٌ ، ومن كان من غير ذلك فحاله يقتضي السؤال فأَسند فعل السؤال إليه .

وقوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أَيْ يظهر شأْنٌ من قدرته التي سبقت في الأَزل في ميقاته من الزمن ، من إحياءٍ وإماتة ورَفْع وخَفْض وغير ذلك من الأُمور التي لا يعلم نهايتها إلَّا هو تعالى وجلَّ ، و « الشَّأْنُ » اسم جنس للأُمور ، قال الحسين بن الفضل : معنى الآية سوْقُ المقادير إلى المواقيت ، وقد ورد في بعض الأَخبار أن الله تعالى له في كل يوم في اللوح المحفوظ ثلاثمائة وستون نظرة ، يُعِزُّ فيها ويُذِلُّ ، ويُحيي ويُميت ، ويُغني ويُعدم ، إلى غير ذلك من الأَشياءِ ، لا إلٰه إلَّا هو . وفي الحديث أَن النبي صلى الله عليه وسلم قرأَ هذه الآية فقيل : ما هذا الشأْنُ يا رسول الله ؟ قال : (يغفرُ ذنباً ، ويفرجُ كرباً ، ويَرْفعُ ويَضَعُ)(١) ، وذكر النقاش أَن سبب هذه الآية قول اليهود : إن الله استراح يوم السبت فلا ينفذ فيه شيئاً ، تعالى عن قولهم .

وقوله تعالى : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا ٱلثَّقَلَانِ﴾ عبارة عن إتيان الوقت الذي قدَّر فيه وقضى أَن ينظر في أَمر عباده ، وذلك يوم القيامة ،

(١) أخرجه الحسن بن سفيان في مسنده ، والبزار ، وابن جرير ، والطبراني ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وابن عساكر ، عن أبي الدرداء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي قول الله : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ، قال : (من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويُفَرِّج كرباً ، ويرفع قوماً ويضع آخرين) ، زاد البزّار : (هو يجيب داعياً) . (الدر المنثور) . وأخرج البزّار مثله عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وليس المعنى أَنَّ ثمَّ شغلاً يفرغ منه ، وإنما هي إشارة وعيد ، وقد قال صلى الله عليه وسلم لِأَزَبِّ العَقَبَة : (أَما والله لأَفْرُغَنَّ لك ما حييت) (١).

و «التَّفَرُّغ» من كل آدمي حقيقة ، وفي قوله تعالى : [سَنَفْرُغُ] جَرْىٌ على استعمال العرب ، ويحتمل أَن يكون التوعُّد بعذاب في الدُّنيا ، والأَول أَبين . وقرأَ نافع ، وابن كثير ، وعاصم ، وأَبو عمرو ، وابن عامر [سَنَفْرُغُ] بفتح النون وضم الراء(٢) ، وقرأَ الأَعرج ، وقتادة ذلك بفتح الراءِ والنون ، ورويت عن عاصم ، ويقال : فَرَغَ بفتح الراءِ ، وفَرِغَ بكسرها ، ويصح منهما جميعاً أَن يقال : يَفْرَغُ بفتح الراءِ ، وقرأَ عيسى بكسر النون وفتح الراءِ ، قال أَبو حاتم : هي لغة سُفْلَى مضر ، وقرأَ أَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي بالياءِ المفتوحة ، وقرأَ حمزة ، والكسائي بضم الياءِ ، وقرأَ أَبو عمرو

---

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣–٤٦٢) عن كعب بن مالك ، وكان ممن شهد بيعة العقبة وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، وفي الحديث يقول كعب : (فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة بأبعد صوت سمعته قط : يأهْل الجَبَاجب – والجَبَاجب المنازل – هل لكم في مُذَمَّم والصُّباة معه قد أجمعوا على حربكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أَزَبُّ العَقَبة ، هذا ابن أُزَيْب ، اسمع أي عدوَّ الله ، أما والله لأفرُغَنَّ لك) ، وهو في سيرة ابن إسحق أيضاً . والأَزَبُّ في اللغة : الكثير الشعر ، وقال ابن الأثير في كتابه (النهاية في غريب الحديث) : «هو شيطان اسمه أزَبُّ العقبة ، وهو الحيَّة» .

(٢) في الأصول : «بضم النون والراءِ» ، والتصويب عن كتب القراءة والتفسير .

بفتحها وضم الراءِ ، وقرأ الأعمش ـ بخلاف ـ وأبو حيوة : [سَيُفْرَغُ] بضم الياءِ وفتح الراءِ وبناءِ الفعل للمفعول ، وقرأ عيسى بن عمر أيضاً : [سَنَفرِغُ] بفتح النون وكسر الراءِ ، وفي مصحف عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه «سَنَفْرُغُ إِلَيْكُمْ» .

و «الثَّقَلَانِ» : الجنُّ والإِنس ، يقال لكل ما يعظم أَمره : ثقيل ، ومنه ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(١) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إِني تاركٌ فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي)(٢)، ويقال لبيض النعام : ثَقَلٌ ، قال لبيد :

فَتَذَكرا ثَقَلاً . . . .(٣)

---

(١) الآية (٢) من سورة (الزلزلة) .

(٢) أخرج هذا الحديث مسلم في فضائل الصحابة ، والدّارميُّ في فضائل القرآن ، وأحمد في مسنده (٣–١٤ ، ١٧ ، ٣٦ ، ٥٩) ، ولفظه كما في مسند أحمد ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعِتْرتي أهل بيتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يَرِدَا عليَّ الحوض) ، وفي رواية أُخرى ذكرها أيضاً أحمد في مسنده زيادةٌ في أول الحديث هي قوله صلى الله عليه وسلم : (إنِّي أُوشك أن أُدْعى فأجيب) ، وزيادة في آخره هو قوله : (فانظروا بم تخلفوني فيهما) .

(٣) هذا أول بيت قاله ثعلبةُ بن صُعَيْر المازني يذكر الظليم والنعامة ، وليس من شعر لبيد، وقد قال ثعلبةُ هذا البيت من قصيدة يذكر فيها حبيبته عَمْرَةَ ، وكيف وعدته ثم أخلفت وعدها ، فتركها وسافر على ناقة شبَّهها بالظليم ـ وهو ذكر النَّعام ـ ثم استطرد يصف الناقة ، والبيتُ بتمامه كما ذكره صاحب اللسان :

=

وقال جعفر بن محمد الصادق (١): سُمِّي الجن والإنس ثقلَيْن لأَنهما ثقلا بالذنوب، وهذا بارع ينظر إلى خلقهما من طين ونار، وقرأ ابن عامر: ﴿أَيُّهُ ٱلثَّقَلَانِ﴾ بضم الهاء.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ - فقال الطبري: قال قوم: في الكلام محذوف تقديره: يقال لكم: يا معشر الجن والإنس، قالوا: وهذه حكاية عن حال يوم القيامة، «يَوْمَ ٱلتَّنَادِّ» على قراءة من قرأ بشدّ الدَّال (٢)، قال الضحاك: وذلك أنه يفرُّ النَّاس في أقطار الأَرض والجنُّ كذلك لما يرون من هول يوم القيامة، فيجدون سبعة صفوف من الملائكة قد أَحاطت بالأَرض فيرجعون من حيث جاءُوا،

= فتَذكَّرَا ثَقَـلاً رَثِيداً بَعْدَمَا ... أَلْقَتْ ذُكَاءُ يَمينَهَا في كَافِـرِ

ورواية البيت كما ذكرها المُفضَّل الضَّبي في المُفضَّليَّات: «فتَذكَّرَتْ ثقَلاً ...» يعني النعامة التي يشبه بها ناقته، والثَّقل: المتاع وكلُّ شيءٍ مصون، وهو يريد هنا بيضها. والرَّثِيد: المنضود بعضه فوق بعض، وذُكاءُ - بضم الذال -: الشمس، والكافر: الليل؛ لأنه يغطي ويستر بظلمته كل شيءٍ، وكل ما غطى شيئاً فقد ستَره وكَفَره، ومعنى «أَلْقَت يمينها في كافر» مالت للمغيب، أو تهيأت له.

(١) هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي، أبو عبد الله، المعروف بالصادق، صدوق فقيه، إمام، من السادسة، مات سنة ثمان وأربعين. (تقريب التهذيب).

(٢) وذلك في قوله تعالى في الآية (٣٢) من سورة (غافر): ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾.

فحينئذ يقــال لهم : ﴿يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ﴾ . وقال بعض المفسرين : بل هي مخاطبة في الدنيا ، والمعنى : إن استطعتم الفرار من الموت بأَن تنفذوا من أَقطار السموات والأَرض ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن استطعتم بأَذهانكم وفكركم أَن تَنْفُذُوا فتعلموا علْم أَقطار السموات والأَرض ، و «الأَقطارُ» : الجهات ، وقوله تعالى : [فَانْفُذُوا] صيغته الأَمر ومعناه التعجيز . و «السُّلطان» هو القوة على غرض الإِنســان ، ولا يســتعمل إِلَّا في الأَعظم من الأَمر والحجج أَبداً من القــوي في الأُمور ، فلذلك يعبِّر كثير من المفسرين عن الســلطان بأَنه الحُجَّة ، وقال قتــادة : السلطان هنا الملك ، وليس لهم مــلك .

و «الشُّــوَاظ» : لهبُ النار ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، وقال أَبو عمرو بن العلاءِ : لا يكون الشواظ إِلَّا من النــار وشيءٍ معهــا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وكذلك النار كلها لا تُحَسُّ إِلَّا وشيءٌ معها .

وقال مجاهد : الشُّواظُ هو اللهب الأَخضر المنقطع ، ويؤيد هذا القولَ قولُ حسَّان بن ثابت يهجو أُميَّة بن أَبي الصلت :

هَجَوْتُــكَ فاخْتَضَعْتَ حَليفَ ذُلٍّ بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كالشُّـــوَاظ (١)

وقال الضحاك : هو الدخان الذي يخرج من اللهب وليس بدخان الحطب . وقرأ الجمهور : [شُوَاظٌ] بضم الشين ، وقرأ ابن كثير وحده (٢) ، وشبل ، وعيسى : [شِوَاظٌ] بكسر الشين ، وهما لغتان ، وقال ابن عباس ، وابن جُبَيْر : النُّحاسُ : الدُّخان ، ومنه قول الأعشى :

يُضِيءُ كَضَوْءِ سِـرَاجِ السَّليـــ ـــطِ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فيهِ نُحَاسًا (٣)

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها حسان بن ثابت في الردّ على هجاء أُمَيَّة بن خلف له ، وليس أُمية بن أبي الصلت ، والذي قال أُمية بن أبي الصلت هو الثعلبي في تفسيره ، وكذلك الماوردي ، ولكن ورد في الصحاح ، واللسان ، والتاج ، وكتاب الوقف والابتداء لابن الأنباري وديوان حسان أن الأبيات في الردّ على أُمية بن خلف حين قال يهجو حسان بن ثابت :

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٍ حَسَّـــانَ عَنِّي مُغَلْغَلَةً تَدِبُّ إلى عُكَــــاظِ
أَلَيْسَ أَبُوكَ فِينَا كانَ قَيْنـــاً لَدَى القَيْنَاتِ فَسْلاً في الحِفَاظِ
يَمَانِيّاً يَظَلُّ يَشُدُّ كِيـــراً ويَنْفُخُ دائباً لَهَبَ الشُّـــوَاظ؟

ورواية البيت في الديوان تختلف كثيراً عما هنا ، فهو هناك :

مُجَلَّلَةً تُعَمِّمُكُمْ شَنَـــاراً مُضَرَّمَةً تَأَجَّــجُ كالشُّـــوَاظِ

والشَّنار : الأمر المشهور بالشُّنعة والقُبح ، ويقال : عارٌ وشنار . وتُعَمِّمُكُمْ : تشملكم جميعاً وتتناول كل فرد منكم ، أما رواية البيت كما ذكرها ابن عطية هنا فهي التي وردت في سيرة ابن هشام مع اختلاف يسير عما هنا ، فقد وردت هكذا :

هَجَوْتُكَ فاخْتَضَعْتَ لِذُلِّ نَفْسٍ بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كالشُّـــوَاظِ

والشاهد في بيت حسَّان وفي شعر أُميَّة بن خلف استعمال الشواظ بمعنى اللَّهب .

(٢) أي وحده من بين السبعة المشهورين في القراءة .

(٣) هذا البيت للنابغة الجعدي ، عبد الله بن قيس ، وليس للأعشى ، وهو من قصيدة مشهورة للجعدي يقول في مطلعها : =

والسليط : دُهن الشَّيْرَج ، وقرأ جمهور القراء : [وَنُحَاسٌ] بالرفع عطفاً على [شُوَاظٌ]، فمن قال إن النحاس هو المعروف ـ وهو قول مجاهد ، وابن عباس أيضاً ـ قال : ويرسَلُ عليهما نحاسٌ ، أَي يُذاب ويُرْسَل عليهما ، ومن قال هو الدخان قال : يُعذبون بدخان يُرسل عليهما . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والنَّخَعي ، وابن أَبي إسحق : [وَنُحَاسٍ] بالخفض عطفاً على [نَارٍ] ، وهذا مستقيم على ما حكيناه عن أَبي عمرو بن العلاءِ ، ومن رأَى أَن الشواظ يختص بالنار قدَّر هنا : وشيءٍ من نحاس ، وحكى أَبو حاتم عن مجاهد أَنه قرأَ : [وَنِحَاسٍ] بكسر النون والجرِّ ، وعن عبد الرحمن بن أَبي بكر أَنه قرأَ: [وَنَحُسٌّ] بفتح النون وضم الحاءِ والسين المشددة على أَنه فعل ، كأَنه يقول : وَنَقْتُلُ بالعذاب(١)، وعن ابن جندب

= لَبِسْتُ أُنَاساً فَأَفْنَيْتُهُـــــمْ وأَفْنَيْتُ بَعْدَ أُنَاسٍ أُنَاسَـــا

وهو في الصحاح ، والتاج ، واللسان ، وخزانة الأدب ، والكامل. والسليط عند عامة العرب : الزيت ، وعند أهل اليمن : دُهْن السِّمْسِم وهو الشَّيْرج كما يقول ابن عطية ، والنحاسُ : الدخان وهو الشاهد هنا . والضمير في « يُضيءُ » يعود على وجه الفتاة الذي ذكره في البيت السابق وهو :

أَضَـاءتْ لَنَـا النَّـارُ وجْهاً أَغَـ ـرَّ مُلْتَبِساً بالفُؤادِ الْتِبَاسَـا

(١) قال أبو الفتح : « نَحُسٌّ » أي نَقْتل بالعذاب ، يقال : حسَّ القوم يَحُسُّهم حَسّاً إذا استأصلتهم ، قال الله تعالى : ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ ، أي : تقتلونهم قتلا ذريعاً .

أنه قرأ : [وَنَحْسٌ] كما تقول : يومٌ نحْسٌ ، وحكى أبو عمرو مثل قراءة مجاهد عن طلحة بن مصرف ، وذلك لغة في نُحاس ، وقيل : هو جمع نَحس ، ومعنى الآية مستمر في تعجيز الجن والإنس ، أي : أنتما بحال من يُرسل عليه هذا فلا تنتصران .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾

جواب [إذَا] محذوف مقصود به الإبهام ، كأنه تعالى يقول : فإذا انشقت السماءُ فما أعظم الهول ، وانشقاقُ السماءِ انْفطارُها عند القيامة ، وقال قتادة : السماءُ اليوم خضراءُ وهي يوم القيامة حمراءُ ، فمعنى قوله تعالى : [وَرْدَةً] أي : كحمرة الورد ، وهو النوار المعروف ، وهذا قول الزجاج والرمّاني . وقال ابن عباس ، وأبو صالح ، والضحاك : هي من لون الفرس الورد ، فأنّث لكون السماءِ مؤنثة .

واختلف الناس في قوله تعالى : [كَالدِّهَانِ] ـ فقال مجاهد ، والضحاك : هو جمع دهن ، قالوا : وذلك أَن السماءَ يعتريها يوم القيامة أَلوانٌ وذوبٌ وتميُّعٌ من شدة الهول ، وقال بعضهم : شبَّه لمعانها بلمعان الدُّهن ، وقال جماعة من المتأَولين : الدهان : الجِلْد الأَحمر ، وبه شبهها ، وأَنشد منذر بن سعيد :

يَبِعْنَ الدِّهَان الْحُمْرَ كُلَّ عَشِيَّة بِمَوْسِمِ بَدْرٍ أَوْ بِسُوق عُكَاظِ(١)

وقوله تعالى : ﴿لَا يُسْأَلُ﴾ نَفْيٌ للسؤال ، وفي القرآن الكريم آيات تقتضي أَن في القيامة سؤالًا وآياتٌ تقتضي نفيه كهذه وغيرها ، فقال بعض الناس : ذلك في مواطن دون مواطن ، وهو قول قتادة وعكرمة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ وهو الأَظهر في ذلك ـ : إن السؤال متى أُثبت فهو بمعنى التقرير والتوبيخ ، ومتى نُفي فهو بمعنى الاستخبار المحض والاستعلام ؛ لأَن الله تبارك وتعالى عليم بكل شيءٍ ، وقال الحسن ، ومجاهد : لا تسأَل الملائكة عنهم لأَنهم يعرفونهم بسيماهم ، والسِّيما التي يُعرف بها المجرمون هي سواد الوجوه وزرقة العيون في الكفرة ، قاله الحسن ، ويحتمل أَن يكون غير هذا من التشويهات .

واختلف المتأَولون في قوله تعالى : ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : يؤخذ كل كافر بناصيته وقدمه

(١) قال في اللسان : « الدِّهان : الجِلْدُ الأحمر ، وقيل : الأملس » فالبيت يصف من يبعن الجلد الأحمر في الأسواق كل عشية ، وهو شاهد على أن الدِّهان هو الجلد الأحمر .

فيُطوى ويُجمع كالحطب ، ويُلقى كذلك في النار ، وقال النقاش : رُوي أَن هذا الطيَّ على ناحية الصلب قَعَساً(١) ، وقاله الضحاك ، وقال آخرون : بل على ناحية الوجه ، قالوا : فهذا معنى ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَٱلْأَقْدَامِ﴾ ، وقال قومٌ في كتاب الثعلبي : إنما يُسحب الكفرة سحباً ، فبعضهم يُجر بقدميه ، وبعضهم بناصيته ، فأَخبر في هذه الآية أَن الأَخذ يكون بالنواصي ويكون بالأَقدام .

وقوله تعالى : ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ قبلها محذوف تقديره : يُقال لهم على جهة التوبيخ والتقرير ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «هَذِهِ جَهَنَّمُ آلتي كُنْتُمَا بِهَا تُكَذِّبان ، تَصلَيَانها لا تَموتَانِ فيها وَلَا تَحْيَان» . وقرأَ جمهور الناس : [يَطُوفُونَ] بفتح الياءِ وضم الطاءِ وسكون الواو ، وقرأَ طلحة بن مصرف : [يُطَوِّفُونَ] بضم الياءِ وفتح الطاءِ وشد الواو ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن : [يُطَافُونَ] ، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، والمعنى في هذا كله أَنهم يتردَّدون بين نار جهنم وجمرها وبين حميم ، وهو ما غلي في جهنم من مائع عذابها ، و «الحميم» : الماءُ السخن ، وقال قتادة : إن العذاب الذي هو الحميم يُغلى منذ خلق الله تعالى جهنم ، وأَنَى الشيءُ : حَضَر ، وأَنَى اللحم أَو ما يُطبخ أَو يُغلى : نضج وتناهى حرُّه والمرادُ منه ،

---

(١) القَعَس : نقيض الحَدَب ، وهو خروج الصدر ودخول الظهر ، فالمراد أنهم يكونون على هذه الهيئة إذ تطوى أجسامهم بحيث تبرز الصدور وتلتقي النواصي بالأقدام .

ويحتمل أن يكون من هذا ومن هذا، وكونه من الثاني أبين، ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرَ ناظِرِينَ إِنَاهُ﴾(١)، ومن المعنى الآخر قول الشاعر:

. . . . أَنَى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَـامُ(٢)

ويشبه أن يكون الأمر في المعنيين قريباً بعضه من بعض، والأَولُ أعمُّ من الثاني.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ ﴾

---

(١) من الآية (٥٣) من سورة (الأحزاب).

(٢) هذا عجز بيت استشهد به صاحب اللسان في (أنى)، ولم ينسبه، قال: «ابنُ الأنباري: الأنَى من بلوغ الشيء منتهاه، مقصور يكتب بالياء، وقد أَنَى يأني، وقال:

تَمَخَّضَتِ الْمَنُونُ لَهُ بِيَـوْمٍ أَنَى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَـامُ

أي أدرك وبلغ». وذكره في التاج ونسبه إلى عمرو بن حسان. وتَمَخَّض أصله: تحرَّك وتهيَّأ، والمراد هنا أن المنون أتت له بهذا اليوم الذي كان لا بد أن يأتي، وقد أدرك وبلغ كما أن كل حاملة لابد أن تُتم حملها وتلد.

[مَنْ] في قوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ يحتمل أَن تقع على جميع المتصفين بالخوف الزاجر عن معاصي الله تعالى ، ويحتمل أَن تقع لواحد منهم ، وبحسب هذا قال بعض الناس في هذه الآية : إن كل خائف له جنتان ، وقال بعضهم : إن جميع الخائفين لهم جنتان ، و «الْمَقَامُ» هو وقوف العبد بين يدي ربه تعالى ، يفسره ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾(١) ، وأَضَافَ المقام إلى الله تعالى من حيث هو بين يديه . قال الثعلبي : «مَقَامُ رَبِّهِ» قيامُه على العبد ، بيانه ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾(٢) ، وحكى الزهراوي هذا المعنى عن مجاهد ، وفي هذه الإِضافة تنبيه على صعوبة الموقف، وتحريض على الخوف الذي هو أَسرع المطايا إلى الله عزَّ وجلَّ ، وقال قوم : أَراد جنة واحــدة وثَنَّى على نحو قوله تعالى : ﴿أَلْقِيَا في جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّار عَنِيد﴾(٣) ، وقول الحجاج : يا غلام اضربا عنقه ، وهذا ضعيف ؛ لأَن معنى التثنية متَّجه بلا وجه للفرار إلى هذه الشَّاذَّة ،

---

(١) الآية (٦) من سورة (المطفِّفين) .
(٢) من الآية (٣٣) من سورة (الرعد) .
(٣) الآية (٢٤) من سورة (ق) ، والخطاب من الله تعالى لواحد هو مالك خازن النار ، لكن الله تعالى جعله لاثنين ، وقد جرت عادة العرب على ذلك في كثير من أقوالهم وأشعارهم ، وقد سبق التعليق على ذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من هذه السورة . راجع صفحة ١٨٦ هامش ٢ وما بعدها .

ويؤيد التثنية قوله تعالى : ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ، وهي تثنية (ذات) لأَن أَصل (ذات) ذوات .

و «الْأَفْنَان» يحتمل أَن يكون جمع فَنَنٍ وهو الغُصْن ، وهذا قول مجاهد ، فكأَنه تعالى مدحها بظلالها وتكاثف أَغصانها ، ويحتمل أَن يكون جمع فَنٍّ ، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ، فكأَنه تعالى مدحها بكثرة أَنواع فواكهها ونعيمها(١). و [زَوْجَانِ] معناه : نوعان ، و [مُتَّكِئِينَ] حالٌ ، إِمَّا من محذوف تقديره : يتنعمون متكئين وإما من قوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾، و «الاتِّكَاءُ» : جلسة المتنعِّم المتمتِّع ، وقرأَ جمهور الناس : [فُرُشٍ] بضم الراءِ ، وقرأَ أَبو حيوة : [فُرْشٍ] بسكون الراءِ ، ورُوي في الحديث أَنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه البطائن من إِسْتبْرق فكيف الظواهر؟

---

(١) جاءَ الفنن في اللغة بمعنى الغُصن ، وشواهده كثيرة في اللغة ، ومنها قول الشاعر :

ما هَاجَ شَوْقَكَ مِن هَدِيلِ حَمامَةٍ   تَدْعُو عَلَى فَنَنِ الغُصونِ حَمَامَا
تَدعُو أَبَا فَرخَيْن صادفَ ضارِيــاً   ذَا مِخْلَبَيْن مِنَ الصُّقُورِ قَطَامَا

وقول النابغة :

بُكَاءُ حَمَامَةٍ تَدْعُو هَدِيــلاً   مُفَجَّعَــةٍ عَلَى فَنَنٍ تَغَنَّى

وجاء الفنن بمعنى النوع ، وشاهده قول الشاعر :

ومِنْ كُلِّ أَفْنَانِ اللَّذَاذَةِ والصِّبَا   لَهَوْتُ بِهِ والعَيْشُ أَخْضَرُ نَاضِرُ

أي : ومن كل أنواع اللَّذاذة .

قال عليه الصلاة والسلام : (هي من نور يتلألأُ) (١) ، و «الإِسْتَبْرَق» ما خَشُنَ وحَسُن من الديباج ، و «السُّنْدُسُ» ما رقَّ منه ، وقد تقدم القول في لفظة الإستبرق ، وقرأ ابن محيصن : ﴿مِنَ ٱسْتَبْرَقَ﴾ على أنه فعل والألف وصل(٢) .

و «الْجَنَى» ما يُجْتَنَى من الثمار ، ووصفه بالدنوِّ لأنه فيما رُوي في الحديث يتناوله الرجل على أي حالة كان من قيام أو جلوس أو اضطجاع(٣) لأنه يدنو إلى مشتهيه .

والضمير في قوله تعالى : [فِيهِنَّ] للفُرُش ، وقيل : للجنات ؛ إذ الجنَّتان جنات في المعنى .

(١) ذكره القرطبي قائلا : وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن في الدر المنثور ذكر السيوطي الخبر عن ابن عباس وابن جبير ، قال : أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له : بطائنها من إستبرق فما الظواهر ؟ قال : ذاك مما قال الله : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ، وكذلك قال : أخرج أبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله : ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ قال : ظواهرها من نور جامد . ونسب ابن كثير هذا إلى سفيان الثوري أو شريك . (راجع تفسير ابن كثير) .

(٢) قال أبو الفتح في المحتسب : «هذه صورة الفعل البتَّةَ ، بمنزلة اسْتَخْرَجَ ، وكأنه سُمِّي بالفعل وفيه ضمير الفاعل ، فحُكِيَ كأنه جملة ، وهذا باب إنما طريقه في الأعلام كتأبَّطَ شرّاً وشابَ قرناها ، وليس الإستبرقُ عَلَماً يُسَمَّى بالجملة» .

(٣) أخرج الفريابيُّ ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وهناد بن السري ، وعبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث ، عن البراء بن عازب في قوله : ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ ، قال : (قريبة) ، و ﴿ذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ ، قال : (إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ومضطجعين وعلى أي حال شاءُوا) ، وفي لفظ قال : (ذُلِّلَتْ لهم فيتناولون منها كيف شاءُوا) . (الدر المنثور)

و «قاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ» هن الحــور العين قصَرْن أَلحاظهن على أَزواجهن ، وقرأَ أَبو عمرو عن الكسائي وحده ، وطلحةُ ، وعيسى ، وأَصحابُ علي ، وابنُ مسعود رضي الله عنهما : [يَطْمُثْهُنَّ] بضم الميم ، وقرأَ جمهور القراءِ : [يَطْمِثْهُنَّ] بكسر الميم ، والمعنى : لم يَفْتَضِضْهُنَّ (١)؛ لأَن الطَّمث دم الفــرج فيقال لدم الحيض : طَمْثٌ ، ويقال لدم الافتضاض : طَمْثٌ ، فإِذا نُفي الطَّمْثُ فقد نُفي القرب منهن على جهة الوطءِ ، قال الفراءُ : لا يقال «طَمَثَ» إِلَّا إِذا افتضَّ ، وقال غيره : «طَمَثَ» معناه : جامع بكراً أَو غيرها .

واختلف الناس في معنى قوله تعالى : ﴿وَلَا جَانٌّ﴾ ـ فقال مجاهد : الجن قد تجامع نساءَ البشر مع أَزواجهن إِذا لم يذكر الزوجُ الله تعالى ، فنفى في هذه الآية جميع المجامعات ، وقال حمزة بن حبيب : الجِنُّ في الجنَّة لهم قاصرات الطرف من الجن نوعهم ، فنفى في هذه الآية الافتضاض عن البشريَّات والجِنِّيَّات ، ويحتمل اللفظ أَن يكون مبالغة وتأْكيداً كأَنه تعالى قال : لم يطمثهن شيءٌ ، أَراد العموم التام لكنه صرَّح من ذلك بالذي يُعقل منه أَن يَطْمِث ، وقال أَبو عبيدة والطبري : إِن من العرب من يقول : ما طَمَثَ هذا البعير

(١) الافتضاضُ هو النِّكاح بالتَّدمية ، (نقله صاحب اللسان عن الفراء) .

حبل قط ، أَي ما مسَّه ، فإن كان هذا المعنى : ما أَدماه حبلٌ فهو يقرب من الأَول وإلَّا فهو معنى آخر غير ما قدمناه ، وقرأَ الحسن ، وعمرو ابن عبيد : ﴿وَلَا جَأْنٌّ﴾ بالهمز .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ ﴾

«ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ» من الأَشياءِ التي قد برع حُسْنُها ، واستشعرت النفوسُ جلالها ، فوقع التشبيه بها لَا في جميع الأَوصاف لكن فيما يُشبه ويحسن بهذه المشبهات ، فالياقوت في امِّلَاسهِ(١) وشفوفه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في صفة المرأة من نساءِ أَهل الجنة : (يُرَى مُخُّ ساقها من وراءِ العظم)(٢) ، والمرجان في امِّلَاسِهِ وجمال منظره ،

(١) مصدر (امَّلَس) ، وأصل امَّلس هذه : انمَلَس فأدغم (اللسان) .

(٢) أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن المرأة من نساء أهل الجنة ليُرى بياض ساقها من وراء سبعين حُلَّة من حرير حتى يُرى =

وبهذا النحو من النظر سمَّت العربُ النساءَ بهذه الأَشياءِ كدُرَّة بنت أَبي لهب ، ومَرْجانة أُم سعيد ، وغير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ﴾ آية وعْد وبسط لنفوس جميع المؤمنين لأَنها عامة ، قال ابن المنكدر ، وابن زيد ، وجماعة من أَهل العلم : هي للبَرِّ والفاجر ، والمعنى : إن جزاءَ من أَحسن بالطاعة أَن يُحسن إليه بالتنعيم ، وحكى النقاش أَن النبي صلى الله عليه وسلم فسَّر هذه الآية فقال : (هل جزاءُ التوحيد إلَّا الجنة)(١) ؟

= مخها) . وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين ، على كل واحدة سبعون حُلَّة ، يرى مخ ساقهما من وراءِ الثياب) ، قال ابن كثير في تفسيره : «تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه» ، وقد روى مسلم عن محمد بن سيرين قال : إمَّا تفاخروا وإمَّا تذاكروا ، الرجال أكثر في الجنة أم النساءُ ؟ فقال أبو هريرة : أو لم يقل أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : (إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على ضوء كوكب دُرِّيٍّ في السماء ، لكل امرئٍ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم ، وما في الجنة أعزب) . وأخرجه الترمذي في القيامة وفي الجنة ، والدارمي في الرقاق . وذكر السيوطي في الدر المنثور زيادة في رواية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أخرجها أحمد ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقي في البعث والنشور ، قال : (ينظر إلى وجهها في خدها أصفى من المرآة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيءُ ما بين المشرق والمغرب ، وإنه يكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك) .

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وضعَّفه ، عن ابن عمر . وأخرج مثله ابن النجار في تاريخه عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وكذلك أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، والبغوي في تفسيره ، والديلمي في مسند الفردوس ، وابن النجار في تاريخه عن أنس . (الدر المنثور) .

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، اختلف الناس في معنى ﴿مِنْ دُونِهِمَا﴾ – فقال ابن زيد وغيره : معناه : إن هاتين دون تَيْنك في المنزلة والقدر ، والأُولَيان جَنَّتا السابقين والأُخريان جَنَّتا أَصْحَاب اليمين ، قال الرُّمَّاني : قال ابن عباس رضي الله عنهما : الجنات الأَربع للخائف مقام ربِّه تعالى ، وقال الحسن : الأُولَيان للسابقين والأُخريان للتابعين ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : من دونهما في القرب من المُنَعَّمين، وهاتان المُؤَخَّرتا الذِّكر أَفضل من الأُولَيَيْن ، يدل على ذلك أَنه وصف عيني هاتين بالنَّضْخ والأُخريين بالجري فقط ، وجعل هاتين مُدْهَامَّتَيْن من شدة النِّعمة والأُولَيَيْن ذواتا أَفنان ، وكل جنة ذات أَفنان وإن لم تكن مُدْهَامَّة (١) ، وأَكثر الناس على التأْويل الأَول ، وهذه استدلالات ليست بقواطع ، ورُوي عن أَبي موسى الأَشعري رضي الله عنه أَنه قال : جنتان للمقربين من ذهب ، وجنتان لأَهل اليمين من فضة هما دون الأُولَيَيْن .

---

(١) رجَّح الزمخشري هذا القول ، وذكر غيره أن الأول أرجح لأنه ذكر فيه جَرْي العينين والنَّضْخ دون الجرْي ، ولقوله : ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ وفي المتأخرتين قال : ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ﴾ ، ولأن الاتكاء في الأولَيَيْن على ما بطائنه من ديباج وهو الفُرُش وفي المتأخرتين الاتكاء على الرَّفرف وهو كَسْر الخباء ، والفُرشُ المُعَدَّة للاتكاء أفضل ، ولكن هذه مجرد استدلالات لا تقطع بالحقيقة كما قال ابن عطية رحمه الله .

و [مُدْهَامَّتَانِ] معناه : قد علا لونَها دُهْمَةٌ وسوادٌ من النضرة والخضرة ، كذا فسَّره ابن الزبير رضي الله عنهما على المنبر ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِي أَخْـرَجَ ٱلْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْـوَى﴾(١) ، و «النَّضَّاخَة» : الفوَّارة التي يهيج ماؤُها ، قال ابن جبير : المعنى : نضاختان بأنواع الفاكهة ، وهذا ضعيف .

وكرر تعالى «النَّخْل وَٱلرُّمَّان» لأَنهما ليسا من الفاكهة ، وقال يونس بن حبيب وغيره : كررهما ـ وهما من أَفضل الفاكهة ـ تشريفاً لهما ، كما قال تعالى : ﴿ومَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾(٢)

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

(١) الآيتان (٤ ، ٥) من سورة (الأعلى) .

(٢) من قوله تعالى في الآية (٩٨) من سورة البقرة: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لله وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ ٱللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

[خَيْرَاتٌ] جمع «خَيْرَةٍ» وهي أَفضل النساءِ ، ومنه قول الشاعر :

وَلَقَدْ طَعَنْتُ مَجَامِعَ الرَّبَلَاتِ رَبَلَاتِ هِنْدٍ خَيْرَةِ الْمَلِكَاتِ (١)

وقالت أُمُّ سَلَمَة رضي الله عنها : قلت : يا رسول الله أَخبرني عن قوله تعالى : ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ ، قال : (خيرات الأَخلاق حسان الوجوه) (٢) ، وقرأَ بكر بن حبيب السهمي : [خَيِّرَاتٌ] بشد الياءِ المكسورة ، وقرأَ أَبو عمرو بفتح الياءِ .

---

(١) أنشد أبو عبيدة هذا البيت لرجل من بني عديٍّ تَيْم جاهلي ، وهو في الصحاح والتاج واللسان ، والرَّبَلاتُ: جمع رَبْلَةٍ وربَلَة — بسكون الباء وفتحها — وهي ما حول الضَّرْع والحياء من باطن الفخذ ، ومجامع الشيء : أُصوله ومكان اجتماعها ، يفخر بما فعله مع هند هذه ويصفها بأنها خير الملكات . والشاهد هو وصف المرأة بأنها خيْرَة ، يقال : فلانةُ الخَيْرة من المرأتين ، أي الأفضل ، ويقال : رجلٌ خَيْرٌ وخَيِّرٌ، وامرأةٌ خَيْرَة وخَيِّرَة ، والجمع أخيارٌ وخِيارٌ ، قال تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَاتُ﴾ أي الفاضلات من كل شيءٍ .

(٢) هذا جزءٌ من حديث ذكره السيوطي في الدرّ المنثور، وقال : أخرجه ابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، عن أُمٍّ سلمة ، قالت : قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله : ﴿حُورٌ عِينٌ﴾ ، قال : حُورٌ : بِيضٌ ، عِينٌ : ضخام العيون ، شُفْر الحوراء بمنزلة جناح النسر — وفي لفظ لابن مردويه — شُفر الجفون بمنزلة جناح النسر ، قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله : ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ ، قال : رقّتهن كرقّة الجلدة التي في داخل البيضة مما يلي القشر ، قلت : يا رسول الله فأخبرني عن قول الله : ﴿كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ ، قال : صفاؤهن كصفاء الدُّر الذي في الأصداف الذي لم تمسّه الأيدي ، قلت : يا رسول الله فأخبرني عن قول الله : ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ ، قال : خيرات الأخلاق حسانُ الوجوه ... الحديث (. و (شُفْر العين) — بالضم — هو ما نبت عليه الشعر .

وقوله تعالى : [مَقْصُورَاتٌ] معناه : محجوباتٌ مصوناتٌ ، وكانت العرب تمدح النساءَ بملازمة البيوت ، ومنه قول الشاعر :

. . . . وَتَغْفُلُ عَنْ إتْيَانِهِنَّ فَتُعْـــذَرُ (١)

يصف أن جيرانها يَزُرْنَها ولا تزورهن ، ويروى أن بيت الأعشى قد ذُمَّ ، وهو قوله :

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَـــا مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ (٢)

فقيل في ذمِّه : هذه جوَّالةٌ خرَّاجةٌ ولَّاجةٌ ، ومن مَدْح القَصْر قولُ كُثَيِّر :

وأَنْتِ الَّتي حَبَّبْتِ كُلَّ قَصِيـــرَةٍ إِلَيَّ وَلَـمْ تَشْعُرْ بِذاكَ الْقَصَـــائِرُ

أُرِيدُ قَصِيرَاتِ الحِجَالِ وَلَـمْ أُرِدْ قِصَارَ الخُطَى، شرُّ النِّسَاءِ الْبَحَاتِرُ (٣)

---

(١) هذا عجز بيت قاله أبو قيس بن الأسلت الأنصاري ، والبيت بتمامه :

وتَكْسَلُ عَنْ جَارَاتِها فَيَزُرْنَها وتَغْفُلُ عَنْ إتْيَانِهِنَّ فَتُعْـــذَرُ

والكسل : التثاقل عن الأمر الذي لا ينبغي أن يُتثاقل عنه ، وتَغْفُل : تسهو ، والشاهد أن الشاعر يمدحها بذلك إذ ملازمة البيت تدل على الصيانة .

(٢) قال الأعشى هذا البيت من قصيدته المعروفة الّتي بدأها بالحديث عن هريرة ، فقال : « وَدِّع هُرَيْرة إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ » ، وقبله يقول :

غَرَّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَـــا تَمْشي الْهُوَيْنَى كما يمْشي الْوَجِي الْوَحِلُ

فهو يصفها بأنها بيضاءُ ، طويلة الشعر ، لامعة الأسنان ، تمشي ببطءٍ كأن مشيتها حين تخرج من بيت جارتها مرور السحابة لا بطءَ فيها ولا سرعة ، فهو مشي هادئ رزين ، ووجه النقد ذكره المؤلف وإن كان فيما قاله مبالغة ، فإن كلمات « جوَّالة ... الخ » جاءت في صيغة مبالغة لا تحتملها ألفاظ البيت ، ومجرد الزيارة لجارتها لا يعطي هذه الأوصاف . والوَجي هو الذي أصابه وجع في باطن رجله .

(٣) هذا الوصف من كُثَيِّر يؤيد المعنى الذي ذكره ابن عطية وهو مدح القَصْر بمعنى الحَجْب في البيت والمنع من الخروج ، يقال : امرأةٌ قصيرة وقَصورة بمعنى مقصورة في =

وقال الحسن : مقصوراتٌ في الخيـام : لَسْن بطوَّافات في الطُّرق .

و «الخِيَامُ» : البيوت من الخشب والثُّمام(١) وسائر الحشيش ، وهي بيوت المرتحلين من العرب ، وخيام الجنة بيوت اللؤلؤ ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : هي دُرٌّ مجوَّف ، ورواه ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان المسكن عند العرب من شعر فهو بيتٌ ، ولا يقال له خيمة ، ومن هذا قول جرير :

مَتَى كانَ الْخِيَـامُ بذي طلوح سُقيتِ الْغَيْثَ أَيَّتُهَا الخِيَـامُ (٢)

= البيت ممنوعة من الخروج ، وفي حديث أسماء الأشهلية : «إنَّا معشر النساء محصوراتٌ مقصوراتٌ» ، والبيتان في اللسان والتاج ، والرواية فيهما : «عَنَيْتُ قَصيراتِ الحِجالِ ولَمْ أُرِدْ ...» ، وفي التهذيب : «قَصُورات الحجال» ، وفي رواية الفراء للبيت الأول : «لَعَمْري لقد حَبَّبْتِ كلَّ قَصُورَةٍ» ، والبيتان أيضاً في «القرطبي» و «غريب القرآن» ، و «البحر المحيط» ، والحجال جمع حَجَلَة وهي بيت يزين بالثياب والأسرة والستور ، والبَحَاتِرُ جمع بُحْترة — بضم الباء — وهي القصيرة المجتمعة الخَلْق .

(١) الثُّمامُ : عُشب من الفصيلة النجيلية يرتفع إلى مائة وخمسين سنتيمتراً ، فروعه مزدحمة متجمعة ، والنَّورة منه سنبلة مدّلاة ، وكانوا يستخدمونه في تغطية البيوت التي يصنعونها من فروع الشجر وأخشابه ، قيل : كانوا يتخذون ثلاثة أعواد أو أربعة من الخشب ثم يضعون عليها الثمام .

(٢) هذا مطلع قصيدة لجرير ، والخيمة : بيت من بيوت الأعراب مستدير يبنيه الأعراب من عيدان الشجر ، بحيث يقيمون ثلاثة أعوادٍ أو أربعة وينثرون فوقها الثُّمام ، ولهذا قال جرير بعد هذا البيت : =

ومنه قول امرئ القيس :

أَمَرْخٌ خِيَامُهُمْ أَمْ عُشُــــرْ؟ . . . .(١)

فاستفهم : هل هم منجدون أَمْ غائرون ؟ لأَن العُشُر مما لا ينبت إِلَّا في تهامة والمَرْخُ مما لا ينبت إِلَّا في نجد .

و «الرَّفْرَفُ» : ما تدلَّى من الأَسرة من غالي الثياب والبُسُط ، وقال ابن جبير : الرَّفرفُ رياضُ الجنة ، والأَول أَصوبُ وأَبْيَن ، وَوَجْهُ قولِ ابن جبير أَنه من : رفَّ النَّبت إِذا نعُم وحسُن . وما تدلَّى حول الخباءِ من الخرقة الشفافة (٢) يُسمَّى رفرفاً ، وكذلك يسميه الناسُ اليوم ، وقال الحسن بن أَبي الحسن : الرَّفرف : المرافق ،

= تَنَكَّرَ من مَعَارِفِهَـــا وَمَالَتْ دَعَائِمُهَا وَقَدْ بَلِـي الثُّمَــامُ

وهو نبت تظلل به الخيام . وذو الطلوح : مكان ، يدعو لهذه الخيام إذا كانت في هذا المكان بالري والخير ، قال بعض علماء اللغة : «كأنه لم يكن بذي طلوح خيامٌ قط » ، وجرير يقول عنها خيام لأنها لم تصنع من شعر ، بل أقيمت من خشب وحشيش .

(١) هذا صدر بيت قاله امرؤ القيس من قصيدة له يصف فرسه وخروجه إلى الصَّيد ، والبيت بتمامه :

أَمَرْخٌ خِيَامُهُـــــمْ أَمْ عُشُرْ أَمِ الْقَلْبُ في إثْرِهِمْ مُنْحَـدِرْ ؟

والْمَرْخُ : شجر قصير ويكثر في نجد ، والعُشُر : شجر طويل ويكثر بالغَوْر ، والشاعر يستفهم كما قال ابن عطية ، والشاهد أن الشاعر تحدث عن الخيمة التي تصنع من أشجار المرخ أو العُشُر ولم تصنع من شعر .

(٢) في بعض الأصول : « من الخرقة الهفافة » .

و «العبقري» : بُسطٌ حسان فيها صور وغير ذلك تصنع بعبقر ، وهو موضع يعمل فيه الوشي والديباج ونحوه ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : العبقري : الزَّرابي ، وقال ابن زيد : هي الطنافس ، وقال مجاهد : هي الديباج الغليظ ، وقرأ زهير الفرقُبي (١) : [رَفَارِفَ] بالجمع وترك الصرف ، وقرأ أبو طعمة المدني ، وعاصم - في بعض ما روي عنه - : [رَفَارِفٍ] بالصرف ، وكذلك قرأ عثمان بن عفَّان رضي الله تعالى عنه : ﴿رَفَارِفٍ وَعَبَاقِرِيٍّ﴾ بالجمع والصرف ، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم (٢) ، وغلَّط الزجاج والرُّمَّاني هذه القراءَة ، وقرأ أيضاً عثمان بن عفان رضي الله عنه في بعض ما رُوي عنه : [عَبَاقَرِيٍّ] بفتح القاف والياء ، وهذا على أن اسم الموضع «عَبَاقَر» بفتح القاف ، والصحيح في اسم الموضع «عَبْقَر» ، قال امرؤ القيس :

كأَن صَليلَ المَرْوِ حينَ تُشـــذُّهُ صلِيلُ زُيُوفٍ يُنْتَقَدْنَ بِعبْقَـرَا (٣)

---

(١) اختلفت الأصول في كتابة هذا الاسم ، فهو في بعضها : زهير الفرفلي ، وفي بعضها : زهير العرقبي ، وفي بعضها : زهير فقط ، والتصويب عن المحتسَب لابن جني ، وتفسير الطبري .

(٢) أخرج ابن الأنباري في المصاحف ، والحاكم وصححه ، عن أبي بكر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفٍ خُضْرٍ وَعَبَاقِرِيٍّ حِسَانٍ﴾ .

(٣) هذا البيت من قصيدة امرئ القيس المعروفة التي قالها حين توجه إلى قيصر يستنجد به ، والتي يقول في مطلعها : «سَمَا لَكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كَانَ أَقْصَرَا» ، وهو في البيت يصف =

قال الخليل والأَصمعي : العرب إِذا استحسنت شيئاً واستجادته قالت : عَبْقَــرِي .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (فَلَمْ أَر عَبقريًّا من الناس يَفْري فَرِيَّهُ)(١) ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : العَبْقَرِيُّ

= صوت الحصى الذي كان يتطاير تحت أقدام ناقته ، والمَرْوُ: حجارةٌ بيضٌ براقةٌ ، أوْ أصلب الحجارة تقدح بالنار ، والصليلُ : الصوتُ ، وتشُذُّهُ : تُفرِّقُه أو تُنَحِّيه عن طريقها ، ويروى بدلاً منها : تُطِيرُهُ ، والزُّيُوف : الدراهم الرديئة ، وقيل : هي الدراهم الصلبة ، ويُنْتَقَدْنَ : يُضْرَبْن بالأيدي للاختبار ومعرفة الزائف من الأصلي ، وعَبْقَر : موضع باليمن ، وهو الشاهد هنا ، يقول : إن ناقتي في سرعتها تنثر الحجارة بأخفافها وتفرقها ، فيقع بعضها على بعض فتحدث أصواتاً كأصوات الدراهم الصلبة إذا اختبرها الصَّيْرَف ، وخصَّ الزُّيوف لأن صوتها أشد لكثرة ما فيها من النحاس .

هذا والبيت في اللسان ، والرواية فيه : «تَشُذُّه» ، ومعناها بعيد عن معنى البيت .

(١) أخرجه البخاري ومسلم في فضائل الصحابة ، والترمذي في الرؤيا ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بينما أنا على بئر أَنْزِعُ منها جاءني أبو بكر وعمر ، فأخذ أبو بكر الدَّلْو فنَزَع ذَنُوباً أو ذَنُوبين ، وفي نَزْعه ضعف ، والله يغفر له ، ثم أخذها ابن الخطاب من يد أبي بكر فاستحالت في يده غرباً ، فلَمْ أر عبقريّاً من الناس يفري فريَّه ، فنَزَع حتَّى ضَرَبَ الناسُ بِعَطَنٍ) . والغَرْبُ : الدَّلْو العظيمة تُتَّخذ من جلد الثور ، ومعنى (يَفْرِي فَرِيَّهُ) : يجيد عمله ويأتي فيه بالعجب العُجاب . و (فَرِيَّهُ) بفتح الفاء وكسر الراء وشدِّ الياء المفتوحة ، قال ابن الأثير في كتاب النهاية : «وحُكي عن الخليل أنه أنكر التثقيل وغلَّط قائله» فهو يضبطه بسكون الراء وفتح الياء ، والعطنُ : مَبْرَكُ الإبل حول الماء ، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا لاتساع الناس في زمن عمر رضي الله عنه ، وما فتح الله عليهم من الأمصار .

سيِّد القوم وعينهم ، وقال زهير :

بِخَيْـــلٍ عَلَيْهَا جِنَّةٌ عَبْقَــرِيَّةٌ جَديرونَ يَوْماً أَنْ ينالُوا فَيَسْتَعْلُوا (١)

ويقال : عَبْقَر مسكنٌ للجن ، وقال ذو الرُّمَّة :

حَتَّى كأَنَّ رِياضَ القُفِّ أَلْبَسَــهَا مِنْ وَشْي عَبْقَرَ تَجْليلٌ وتَنْجِيدُ (٢)

وقرأ الأعرج : [خُضُرٌ] بضم الضاد .

وقرأ جمهور الناس : ﴿ذِي ٱلْجَلَالِ﴾ على إتباع «الرَّبِّ» ، وقرأ ابن عامر وأهل الشَّام : ﴿ذُو ٱلْجَلَالِ﴾ على إتباع «الاسم» ،

---

(١) هذا البيت من قصيدة زهير التي يمدح بها سنان بن أبي حارثة المُرِّي ، والتي يقول في مطلعها : (صَحَا بِكَ قَلْبٌ في الحِسَانِ طَرُوبُ) ، وقوله «بِخَيْل» متعلق بقوله في البيت السابق : «طاروا إلى مُسْتغيثهم» ، أي أسرعوا بهذه الخيل ، وعبقرية : نسبة إلى عبقر ، وهي أرض كان العرب يظنون أن بها الجن وينسبون إليها كل عبقري ، وجديرون : خليقون مستحقُّون ، فَيَسْتَعْلُوا : يُحققون الظَّفَر والعُلُوَّ على العدوِّ ، يصفهم بأنهم حين يركبون خيلهم لانقاذ مستغيث بهم أهلٌ لأن ينتصروا وينالوا ما يريدون .

(٢) البيت في الديوان ، وفي اللسان ، والتاج ، والقرطبي ، والبحر المحيط ، والقُفُّ : ما ارتفع من الأرض وصلبت حجارته ، وهو حجارة غاص بعضها في بعض ، لونها أحمر ولا يخالطها من السهولة شيءٌ ، ويكون فيه رياضٌ وقيعان ، فالروضة حينئذ من القُفِّ الذي هي فيه ، ولو ذهبت تحفر فيه غلبتك كثرة حجارتها ، والوشي : النَّقش ، وعبقر هنا بمعنى المكان الذي تصنع فيه السجاجيد المنقوشة والديباج المزخرف ، والتَّجليل : الكساءُ والتغطية ، والتَّنجيد : التَّزيين بالفُرُش والسُّتور .

وكذلك في الأول (١) ، وفي حرف أُبيّ ، وابن مسعود رضي الله عنهما : ﴿ذِي ٱلْجَلَالِ﴾ في الموضعين ، وهذا الموضع ممَّا أُريد فيه بالاسم مُسَمَّاه(٢) ، والدعاءُ بهاتين الكلمتين حسَنٌ مرجُوٌّ الإجابة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَلظُّوا بِيَاذَا الجلالِ والإِكرام)(٣) .

كمل تفسير سورة الرحمن والحمد لله ربّ العالمين

(١) يعني في قوله تعالى في الآية (٢٧) من هذه السورة : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ .

(٢) فكأن تقدير الكلام : تبارك ربُّك ، ويدلُّ على ذلك إسناد «تبارك» لغير الاسم في مواضع أُخرى ، كقوله تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ ، وقوله : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ ، وقد قيل : إن الله تعالى ختم نعيم الدنيا في هذه السورة بقوله : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ لأن البقاء مناسبٌ لما ذُكر من فناء العالم ، وختم نعيم الآخرة هنا بما اشتق من البركة والنمو .

(٣) أخرجه الترمذي ، وابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه ، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وأخرجه أحمد ، والنسائي ، وابن مردويه ، عن ربيعة بن عامر رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٥٦) سورة الواقعة مكية وآياتها ست وتسعون

وهي مكيَّة بإجماع ممن يُعتد بقوله من المفسرين ، وقيل : إن فيها آيات مدنية أَو ممَّا نزل في السفر(١)، وهذا كله غير ثابت ، ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من داوم على قراءة سورة الواقعة لم يفتقر أبداً)(٢)، ودعا عثمانُ ابنَ مسعود رضي الله

---

(١) أما المدني فآية واحدة هي قوله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾، قال ذلك ابن عباس وقتادة ، وأما الذي نزل في السفر فأربع آيات ، منها آيتان نزلتا في السفر إلى مكة هما قوله تعالى : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ، وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ ، وآيتان نزلتا في السفر إلى المدينة هما قوله عزَّ وجل: ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ ، قاله الكلبيُّ .

(٢) أخرجه أبو عُبَيْد في فضائله ، وابن الضريس ، والحارث بن أبي أسامة ، وأبو يعلى ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ، وذكر أبو عمرو بن عبد البر في « التمهيد » و « التعليق » والثعلبي أيضاً أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دخل على ابن مسعود رضي الله عنه يعوده في مرضه الذي مات فيه ، فقال : ما تشتكي؟ قال : ذنوبي ، قال : فما تشتهي؟ قال : رحمة ربي ، قال: أفلا ندعو لك طبيباً؟ قال : الطبيب أمرضني ، قال : أفلا نأمر =

عنهما إلى عطائه فأبى أن يأخذ ، فقيل له : خذ للعيال فقال : إنهم يقرؤون سورة الواقعة ، وسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : من قرأها لم يفتقر أبداً (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فيها ذكر القيامة وحظوظ الناس في الآخرة ، وفَهْم ذلك غنًى لا فقر معه ، من فهمه شغل بالاستعداد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

= لك بعطائك ؟ قال : لا حاجة لي فيه ، حبسته عني في حياتي وتدفعه لي عند مماتي ؟ قال : يكون لبناتك من بعدك ، قال : أتخشى على بناتي الفاقة من بعدي ؟ إني أمَرْتُهن أن يقرأن سورة الواقعة كل ليلة ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تُصبه فاقة أبداً) .

(١) أنظر هامش رقم (٢) من الصفحة السابقة .

[ٱلْوَاقِعَةُ] اسمٌ من أَسماءِ القيامة كالصَّاخَّة والآزفة والطَّامة ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وهذه كلها أَسماءٌ تقتضي تعظيمها وتشنيع أَمرها ، وقال الضحاك : الواقعة : الصيحة ، وهي النفخة في الصُّور ، وقال بعض المفسرين : الواقعة صخرة بيت المقدس تقع عند القيامة ، فهذه كلها معان لأَجل القيامة .

و [كَاذِبَةٌ] يحتمل أَن يكون مصدراً كالعاقبة والعافية وخائنة الأَعين ، فالمعنى : ليس لها تكذيب ولَا ردٌّ ولَا مَثْنَوِيَّة(١) ، وهذا قول قتادة والحسن ، ويحتمل أَن يكون صفة لمقدَّر ، كأَنه تعالى قال : ليس لوقعتها حال كاذبة ، ويحتمل الكلام ـ على هذا ـ معنييْن : أَحدهما كاذبةٌ أَي مكذوبة فيما أَخبر به عنها ، وسمَّاها كاذبة لهذا ، كما تقول : قصة كاذبة ، أَي مكذوب فيها ، والثاني حالٌ كاذبة ، أَي لا يمضي وقوعها ، كما تقول : فلان إِذا حمل لم يكذب .

وقوله تعالى : ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ رفع على خبر ابتداءٍ ، أَي هي خافضة رافعة ، وقرأَ الحسن ، وعيسى الثقفي ، وأَبو حَيْوة : ﴿خَافِضَةً رَافِعَةً﴾ بالنصب على الحال بعد الحـال التي هي ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا

---

(١) أي لا تُثَنَّى ولا تَرَجِع .

كَاذِبَةٌ﴾ ، ولك أن تُتابع الأَحوال كما لك أن تُتابع أَخبار المبتدأ ، والقراءَة الأُولى أَشهر وأَبرع معنى ، وذلك أَن موقع الحال من الكلام موقع ما لو لم يُذكر لاستُغني عنه ، وموقع الجمل التي يجزم الخبر بها موقع ما يُتَهَمَّم به (١) .

واختلف الناس في معنى هذا الخفض والرفع في هذه الآية ـ فقال قتادة ، وعثمان بن عبد الله بن سراقة : القيامة تخفض أَقواماً إلى النار ، وترفع أَقواماً إلى الجنة ، وقال ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك : الصيحة تخفض صوتها لتُسمع الأَدنى ، وترفعه لتُسمع الأَقصى ، وقال جمهور من المتأولين : القيامة تنفطر بها السماءُ والأَرض والجبال ، وانهدامُ هذه البنية يرفع طائفة من الأَجرام ويخفض أُخرى ، فكأَنها عبارة عن شدة الهول والاضطراب .

والعامل في قوله تعالى : ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ [وَقَعَتِ] ؛ لأَن هذه بدلٌ من [إِذَا] الأُولى ، وقد قالوا : إنَّ [وَقَعَت] هو العامل في الأُولى ، وذلك لأَن معنى الشرط فيهما قوي ، فهي كَمَنْ وَمَا في الشرط

(١) قال أبو حيان في « البَحْر » بعد أن ذكر هذا الكلام نقلا عن ابن عطية : « وهذا الذي قاله سبقه إليه أبو الفضل الرازي » .

يعمل فيها ما بعدها من الأفعال ، وقد قيل : إنَّ [إِذَا] مضـافة إلى [وَقَعَت] فلا يصح أن تعمل فيها . وإنما العامل فيها فعل مقدر .

ومعنى [رُجَّت] : زُلزلت وحُرِّكت بعنف ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، ومنه : ارتَجَّ السهم في الغرض ، إذا اضطرب بعد وقوعه ، والرَّجة في الناس الأَمر المحرِّك . واختلف اللغويون في معنى [بُسَّت] ـ فقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة : معناه : فُتِّتَتْ كما تُبَسُّ البسيسةُ وهي السويق ، ويقال : بَسَسْتُ الدقيق إذا ثريته بالماء وبقي متفتتاً ، وأَنشد الطبري في هذا :

لَا تَخْبِزَا خَبْزاً وَبُسَّا بَسًّا (١)

---

(١) هذا الرَّجز من شواهد أبي عبيدة في « مجاز القرآن » ، وهو في « المخصص » و « الطبري » و « القرطبي » و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » ، واستشهد به أيضاً الفراء في « معاني القرآن » ، وقد اختلفت الروايات في البيت الثاني فهو في الطبري ومعاني القرآن : (مَلْساً بِذَوْدِ الْحَلَسِيِّ مَلْسَا) ، وفي اللسان: (وَلاَ تُطِيلاَ بِمُنَاخٍ حَبْسَا) ، وفي المخصص: (مَلْساً بِذَوْدِ الحَدَسِيِّ مَلْسَا) ، وهكذا تعددت واختلفت روايته ، ويقولون: إن الرَّجز قاله لصٌّ من غطفان وأراد أن يخبز ، فخاف أنْ يُعجل عن الخبز فأكله عجيناً وقال : (لا تَخْبِزا خَبْزاً وبُسَّا بَسَّا) ، ويظهر أن المعنى الثاني الذي ذكره ابن عطية للخبز والبَسّ هو الأقرب ، ويؤيد ذلك أن « المَلْس » ضربٌ من السير الرقيق ، والذَّوْدُ : الثلاثة إلى العشرة من الإبل، فكأن ما سرقه اللصان كان إبلاً ، وأن الحَلَسِيَّ هو صاحبها ، وهو يقول لهما :=

وقال : هذا قول لصٍّ أعجله الخوف عن العجين فقال هذا لصاحبيه ، وقال بعض اللغويين : [بُسَّت] معناه : سُيِّرت ، قالوا : والخَبْزُ : السَّيْر الشديد وضرب الأرض بالأيدي ، والبسُّ : السَّيْر الرفيق ، وأنشدوا البيت :

لَا تَخْبِزَا خَبْزاً وَبُسَّــا بَسَّــا وجنّبَــاهَا نَهْشَــلًا وعَبْســـا

ذكر هذا أبو عثمان اللغوي في كتاب «الأفعال» .

و «الْهَبَاءُ» : ما يتطاير في الهواءِ من الأجزاءِ الدقيقة ولا يكاد يُرَى إلَّا في الشَّمس إذا دخلت من كُوَّة ، قاله ابن عباس ومجاهد ، وقال قتادة : الهباءُ ما يتطاير من يبس النبات (١) ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الهباءُ ما يتطاير من حوافر الخيل والدواب . وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً : الهباءُ ما يتطاير من شرر النار فإذا طُفئَ لم يوجد شيءٌ . و «الْمُنْبَثُّ» ـ بالثاءِ المثلثة ـ : الشائع في جميع الهواءِ ، وقرأَ النَّخَعيُّ : [مُنْبَتًّا] بالتاءِ بنقطتين ، أي متقطعاً ، ذكر ذلك الثعلبي ، والقول الأول في الهباءِ أحسن الأقوال .

= لا تسيرا بالإبل المسروقة سَيْراً شديداً سريعاً ، بل سيرا بها في رفق ولين ، وقد زاد في المخصص بعد هذين البيتين بيتين آخرين ، وذكرهما أيضاً أبو زيد في «النوادر» ، وهما :

مِنْ غَدْوَةٍ حَتَّى كأَنَّ الشَّمْسَـــا بالأفقِ الْغَرْبِيِّ تُطْلَى وَرْســـا

ومعنى «تُطْلَى وَرْسًا» أنها مالت للغروب وأصابتها صُفرته .

(١) في بعض النسخ : «ما يتطاير من لُبْس الثياب» .

والخطاب في قوله تعالى : [وَكُنْتُمْ] لجميع العالم ؛ لأن الموصوفين من أَصحاب المشأَمة ليسوا في أُمة محمد صلى الله عليه وسلم ، و «الْأَزْوَاجُ» : الأَنواعُ والضروب ، قال قتادة : هذه منازل الناس يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ ابتداءٌ و [مَا] ابتداءٌ ثانٍ ، و ﴿ أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ خبر [مَا] ، والجملة خبر الابتداءِ الأَول ، وفي الكلام معنى التعظيم ، كما تقول : «زيدٌ ما زيدٌ» ، ونظير هذا في القرآن كثير ، و «المَيْمَنَةُ» أَظهر ما في اشتقاقها أَنها من ناحية اليمين ، وقيل : من اليُمْن ، وكذلك «المَشْأَمَةُ» إمَّا أَن تكون من اليد الشُّؤْمى ، وإمَّا أَن تكون من الشُّؤْم ، وقد فُسِّرت هذه الآية بهذين المعنيين ؛ إذ أَصحاب المَيْمَنة الميامينُ على أَنفسهم ، قاله الحسن والربيع ، ويشبه أَن اليُمْن والشُّؤْمَ إنما اشْتُقَّا من اليمين والشمال ، وذلك على طريقتهم في السانح والبارِح(١) ، وكذلك اليَمَن والشَّامُ اشْتُقَّا من اليُمْنى والشُّؤْمَى(٢) .

---

(١) السانح : الطائر أو الظبي إذا مرَّ من مياسرك إلى ميامنك فولاّك ميامنه ، والعرب يَتَيَمَّنُون به ، والبارح : الطائر أو الظبي إذا مرَّ من يمين الرائي إلى يساره ، والعرب تتشاءم به .

(٢) في اللسان : «أشْأَم وشاءَم إذا أتى الشأمَ ، ويامَنَ القومُ وأَيْمنوا إذا أَتَوْا اليمن» ، وفيه أيضاً : «والشَّأم بلاد تذكّر وتُؤنَّث ، وسُمِّيت بها لأنها عن مشأمة القبلة» .

وقوله تعالى : [وَٱلسَّابِقُونَ] ابتداءٌ ، و [ٱلسَّابِقُونَ] الثاني قال بعض النحويين : هو نعت للأَول ، ومذهب سيبويه أَنه خبر الابتداءِ ، وهذا كما تقول : الناسُ الناسُ ، وأَنت أَنت ، وهذا على معنى التفخيم للأَمْر وتعظيمه ، والمعنى هو أَن تقول : السَّابقُون إلى الإِيمان السَّابِقُونَ إلى الجنة والرحمة ، أُولئك ... ، ويتَّجه هذا المعنى على الابتداءِ والخبر .

وقوله تعالى : ﴿أُولَـٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ابتداءٌ وخبر ، وهو في موضع الخبر على قول من قال : «السَّابقون» الثاني صفة ، و [ٱلْمُقَرَّبُونَ] معناه : من الله تعالى في جنة عدن ، قال جماعة من أَهل العلم : وهذه الآية متضمنة أَن العالم يوم القيامة على ثلاثة أَصناف : مؤمنون هم على يمين العرش وهنالك الجنة ، وكافرون وهم على شمال العرش وهنالك النار(١) ، والقول في يمين العرش وشماله نحو من الذي مرَّ في سورة الكهف في اليمين والشمال(٢) ، وقد قيل في أَصحاب الميمنة واليمين : إنهم مَنْ أَخذ كتابه بيمينه ، وفي أَصحاب المشأَمة والشمال : إنهم

---

(١) والصنف الثالث هم السابقون ، ذكر أصحاب الميمنة متعجباً منهم في سعادتهم ، وأصحاب المشأمة متعجباً منهم في شقاوتهم ، ثم ذكر السابقين مثبتاً حالهم ، فأخبر أنهم نهاية في العظمة والسعادة .

(٢) في قوله تعالى : ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ .

مَنْ أَخذه بشماله ، فعلى هذا ليست نسبة اليمين والشمال إلى العرش ، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : أَصحاب اليمين أَطفالُ المؤمنين ، وقيل : المراد ميمنةُ آدم عليه السلام ومشأَمتُه المذكورتان في حديث الإسراءِ في الأَسْوِدَة (١) .

و «السَّابقون» معناه : قد سبقت لهم السعادة وكانت أَعمالهم في الدنيا سبقاً إلى أَعمال البرِّ وإلى ترك المعاصي ، فهذا عموم في جميع الناس ، وخصَّص المفسرون من هذا أَشياءَ ، فقال عثمان بن أَبي سودة (٢) : هم السابقون إلى المساجد ، وقال ابن سيرين : هم الذين صلُّوا للقبلتين ، وقال كعب : هم أَهل القرآن ، وقيل : هم غير هذا مما هو جزءٌ من الأَعمال الصالحة ، ورُوي أَن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن السابقين فقال : (هم الذين إذا أُعطوا الحق قبلوه ، وإذا سُئلوه بذلوه وحكموا للناس بحكمهم لأَنفسهم) (٣) ، وقرأَ طلحة

---

(١) جاء في حديث الإسراء كما رواه مسلم (ج ١ ص ٣٩٥) : : (فلما علونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أَسْوِدَةٌ ، وعن يساره أَسْوِدَة ، قال : فإذا نظر قِبَل يمينه ضحك ، وإذا نظر قِبَل شماله بكى) ، والرجل هو آدم عليه السلام ، والأسودة التي على يمينه هي أهل الجنة من أولاده ، والأسودة التي على شماله هي أهل النار منهم .

(٢) هو عثمان بن أبي سودة المقدسي ، ثقة ، من الثالثة .

(٣) ذكره المهدوي ، وأخرجه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها ، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : الذين إذا أُعطوا الحق قبلوه ، وإذا سُئِلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم) .

ابن مصرف : ﴿ فِي جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ على الإفراد ، و [ٱلْمُقَرَّبُونَ] عبارة عن أعلى منازل البشر في الآخرة ، على سُرُر مَوْضُونَةٍ متكئين ، وقيل لعامر بن عبد قيس (١) في يوم حلبة : من سبق ؟ فقال : المقربون .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

« الثُّلَّةُ » : الجماعة والفرقة ، وهي تقع للقليل والكثير ، واللفظ في هذا الموضع يعطي أن الجملة من الأولين أكثر من الجملة من الآخرين وهي التي عبَّر عنها بالقليل ، واختلف المتأولون في معنى ذلك ـ فقال

(١) هو عامر بن عبد الله بن قيس ، أبو بُردة بن أبي موسى الأشعري ، وقيل : اسمه الحارث ، قال عنه في (تقريب التهذيب) : ثقة من الثالثة ، مات سنة أربع ومائة وقد جاوز الثمانين .

قوم - حكى قولهم مكي - : المراد بذلك الأنبياء عليهم السلام لأنهم كانوا في صدر الدنيا أكثر عدداً ، وقال الحسن وغيره : المراد السابقون من الأُمم والسابقون من هذه الأُمة ، وذلك إمَّا أَن يقرن أَصحاب الأَنبياءِ عليهم السلام بجموعهم إلى أَصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فأُولئك أَكثر عدداً لا محالة ، وإمَّا أَن يقرن أَصحاب الأَنبياءِ عليهم السلام ممن سبق في أَثناءِ الأُمم السَّالِفَة إلى السابقين من جميع هذه الأُمة ، فأُولئك أَكثر ، وروي أَن الصحابة رضي الله تعالى عنهم حزنوا لقلَّة سابقي هذه الأُمة على هذا التأْويل ، فنزلت ﴿ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ فرضوا(١) ، ورُوي عن عائشة رضي الله عنها أَنها تأَوَّلت أَن الفريقين في أُمة كل نبي هي في الصَّدر ثُلَّة وفي آخر الأُمة قليل ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رُوي

---

(١) أخرجه أحمد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة ، وفي آخره : (فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث أهل الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم الشطر الثاني) ، وأخرج ابن مردويه ، وابن عساكر ، عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ ذكر فيها ﴿ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ ، قال عمر : يا رسول الله : ثُلَّة من الأولين وثلة من الآخرين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمر تعال فاستمع ما قد أنزل الله : ﴿ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ ، ألا وإنَّ من آدم إليَّ ثُلَّة وأُمَّتي ثُلَّة ، ولن نستكمل ثُلَّتنا حتّى نستعين بالسودان من رعاة الإبل ممن يشهد أن لا إلـه إلاَّ الله وحده لا شريك له ، وأخرجه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن عروة ابن رويم مرسلا . ورواه الحافظ ابن عساكر عن جابر .

عنه : (الفرقتان في أُمتي ، فسابقُ أولِ الأُمة ثُلَّة ، وسابقُ سائِرِها إلى يوم القيامة قليل) (١) .

وقرأَ الجمهور : [سُرُرٍ] بضم الراءِ ، وقرأَ أَبو السَّمال : [سُرَرٍ] بفتح الراءِ ، و «ٱلْمَوْضُونَة» : المنسوجة بتركيب بعض أَجزائها على بعض كحلق الدرع ، فإِن الدرع موضونة ، ومنه قول الأَعشى :

وَمِنْ نَسْجِ داودَ مَوْضُـــونَةٌ تَسيرُ مَعَ الحَيِّ عِيراً فَعِيراً (٢)

وكذلك سقيفة الخوص ونحوه موضونة ، ومنه وضينُ الناقة وهو حزامها لأَنه موضون ، فهو كقتيل وجريح ، ومنه قوله :

إِلَيْكَ تَعْدُو قَلِقاً وضِينُهـا مُعْترضاً في بَطْنِها جَنينُهَـا
مُخَالِفاً دينَ النَّصارى دِينُها (٣)

(١) رواه سفيان عن أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ (الثُّلَّتان جميعاً من أُمتي) .

(٢) البيت لأعشى بني قيس بن ثعلبة من قصيدة يمدح بها هوذة بن علي الحنفي ، واستشهد به أبو عبيدة في مجاز القرآن ، يقول الأعشى في بيت سابق على هذا : إنه أعد للحرب عدتّها ، ثم يستطرد في هذا البيت فيقول : وأعددت لها درعاً موضونة ، وهي التي نُسجت نسجاً مضاعفاً تُحمل فوق الجمال عيراً من ورائها عيرٌ . وداود عليه السلام هو الذي علمه الله تعالى صناعة الدروع .

(٣) الأبيات في التاج واللسان ، والوَضينُ : بطانٌ عريضٌ منسوج من سيور أو شعر ، وسمَّت العرب وضين الناقة كذلك لأنه منسوج ، والوضين بمعنى الموضون ، وقد أنشد أبو عبيدة هذه الأبيات شاهداً على أن الوضين بمعنى الموضون، والكلام في الأبيات عن الناقة التي =

قال ابن عباس رضي الله عنهما : هذه السُّرر الموضونة هي مَرْمُولَةٌ بالذهب (١) ، وقال عكرمة : هي مشبكة بالدُّرِّ والياقوت ، و [مُتَّكِئِينَ] و [مُتَقَابِلِينَ] حالان ، وفيهما ضمير مرفوع ، وفي مصحف عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه : «مُتَّكِئِينَ عليها ناعمين» .

و «ٱلْوِلْدَانُ» : صغارُ الخدم ، عبارة عن أَنهم صغار الأَسنان ، ووصفهم تعالى بالخُلْد وإن كان جميع ما في الجنة كذلك إشارة إلى أَنهم في حال الولدان مخلدون لا تكبر لهم سِنٌّ ، وقال مجاهد : لا يموتون ، وقال الفراءُ : [مُخَلَّدُونَ] معناه : مُقَرَّطُون بالخَلَدَات ، وهي ضرب من الأَقراط ، والأَول أَصوب لأَن العرب تقول للذي كبر ولم يشب : إنه مخلَّـــد .

و «الأَكواب» : ما كان من أَواني الشرب لا أُذن له ولا خرطوم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : هي جرارٌ من فضة ، وقال أَبو صالح :

= تعدو نحو الممدوح طمعاً في خيره، ومعنى أن وضينها قلِقٌ أنها هزلت واتسع الوضين عليها فصار قَلِقاً ، قال صاحب اللسان عن البيت الأخير : أراد دينه هو لأن الناقة لا دين لها ، وهذه الأبيات يُروى أن ابن عمر أنشدها لما اندفع من جَمْع ، ووردت في حديثه ، وأخرج الطبراني في المعجم عن سالم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفاض من عرفات وهو يقول :

إلَيْكَ تعدو قَلِقاً وَضِينُهَا »

(١) أي : مُزَيَّنَةٌ بالذهب ، يقال : رَمَلَ السَّرير بمعنى : زيَّنَه بالذهب .

مستديرة أفواهها ، وقال قتادة والضحاك : ليست لها عُرى ، و «الْإِبريقُ»: ما له خرطوم ، قال مجاهد : وأُذن ، وهو من أَواني الخمر عند العرب ، ومنه قول عديٍّ بن زيد :

وَتَدَاعَوْا إِلَى الصَّبُوحِ فقامتْ قَيْنَةٌ في يَمِينهَا إِبْرِيقُ(١)

و «الكَأْسُ» : الآنية المُعَدَّة للشرب بها بشريطة أَن يكون فيها خمر ونبيذ ، أَو بسبيل ذلك ، ومتى كان فارغاً فهو مُنْتَسب إِلى جنسه زجاجاً كان أَو غيره ، ولا يقال لآنية فيها ماءٌ أَو لبن : كأْسٌ .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : معناه : من خمر سائلة ، فوزنها مفعول ، أَصلها معيون ، وهذا تأْويل قتادة ، وقوله تعالى : ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ ذهب أَكثر المفسرين إِلى أَن المعنى : لا يلحق رءُوسهم الصداع الذي يلحق من خمر الدنيا ، وقال قوم : معناه : لا يتفرقون عنها ، بمعنى : لا تُقطع عنهم لذَّتهم

(١) البيت لعدي بن زيد العبادي ، وهو في اللسان والتاج ، والرواية فيهما : (وَدَعَا بالصَّبُوحِ يوماً فجاءَت ...) ، والصَّبوح : شرابُ الصباح وهو خلاف الغَبُوق الذي هو شراب المساء . والقَيْنَة : الجارية ، وغلَب على المغنِّية ، والإبريق: الإناءُ الذي له خرطوم ، وهو فارسيٌّ معرب ، وشاهده هذا البيت ، وهناك أبيات كثيرة استعملت هذا اللفظ بالمعنى المذكور .

بسبب من الأَسباب كما يفرق أَهل خمر الدنيا بأَنواع من التفريق ، وهذا كما قال : (يتصدَّعُ السحاب عن المدينة) ... الحديث (١) .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ قال مجاهد ، وقتادة ، وابن جبير ، والضحاك : معناه : لا تذهب عقولهم سُكْراً ، والنَّزيف : السكران ، ومنه قول الشاعر :

. . . . شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ مَاءِ الْحَشْرَجِ (٢)

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في المناقب ، وأبو داود في الاستسقاء ، وأحمد في مسنده (٣-٢٦١) ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، والحديث كما جاء في مسند أحمد أن رجلا نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة وهو يخطب الناس بالمدينة ، فقال : يا رسول الله ! قحط المطر ، وأمحلت الأرض ، وقحط الناسُ ، فاستَسْقِ لنا ربك ، فنظر النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى السماء وما نرى كثير سحاب ، فاستسقى ، فنشأ السحاب بعضه إلى بعض، ثم مُطروا حتى سالت مَشَاعبُ المدينة واضطردت طرقها أنهاراً ، فما زالت كذلك إلى يوم الجمعة المقبلة ما تُقلع ، ثم قام ذلك الرجل أو غيره ونبي الله صلى الله عليه وسلم يخطب فقال : يا نبي الله ، ادْعُ الله أن يحبسها عنَّا ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : اللَّهمَّ حوالَيْنا ولا علينا ، فدعَا ربَّه ، فجعل السحاب يَتَصَدَّعُ عن المدينة يميناً وشمالاً يُمْطر ما حولها ولا يُمْطر فيها شيئاً) .

(٢) هذا عجز بيت لعمر بن أبي ربيعة ، وهو في الديوان ، وفي اللسان والتاج ، وقال ابن بَرِّي : « البيت لجميل بن مَعْمر وليس لعُمَر بن أبي ربيعة » ، ولكنه غير موجود في ديوانه ، والبيت مع بيتين قبله كما في اللسان ، وديوان ابن أبي ربيعة :

قَالَتْ: وَعَيْشُ أبي وَحُرْمَةُ إخْوَتي ... لأُنَبِّهَنَّ الحَيَّ إنْ لَمْ تَخْرُجِ
فَخَرَجْتُ خَوْفَ يَمينها فَتَبَسَّمَتْ ... فَعَلِمْتُ أنَّ يمينها لَمْ تُحْرجِ
فَلَثَمْتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرُونِهَا ... شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ ماء الحَشْرَجِ =

وقرأ ابن أبي إسحق : ﴿وَلَا يَنْزِفُونَ﴾ بكسر الزاي وفتح الياء ، من : «نَزَفَ البِئْرَ» إذا استقى ماءَهَا ، فهي بمعنى : تمَّ خمرهم ونفذت (١) ، هكذا قال أبو الفتح . وحكاها أبو حاتم عن ابن أبي إسحق ، والجحدري ، والأعمش ، وطلحة ، وابن مسعود ، وأبي عبد الرحمن ، وعيسى بضم الياء وكسر الزاي ، قال : ومعناها : لا يفنى شرابهم ، والعرب تقول : «أنزف الرجلُ عَبْرَتَه» . وتقول أيضاً : «أَنْزَفَ» إذا سكر ، ومنه قول الأُبَيْرِد :

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفْتُمُ أَوْ صَحَوْتُمُ ... لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنْتُمُ آلَ أَبْجَرَا(٢)

وعطفت «الفاكهة» على «الكأس والأباريق» .

= والقُرون: ضفائر شعرها ، والنَّزيف : السكران ، أو الذي جفَّ ريقه من العطش ، أو المحموم الذي جَفَّ ريقه . والحشرج : الماءُ الذي يجري على الحصى صافياً ، أو كوز صغير يشرب منه ، أو النقرة في الجبل يجتمع فيها الماءُ فيصفو للشرب .

(١) جملة تحتاج إلى توضيح ، والذي قاله أبو حاتم بعد أن استشهد بكثير من الشعر : «فكأنه سبحانه قال : «لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يَنْزِفُونَ عُقُولَهم كما يُنزفُ ماءُ البئر» .

(٢) أَبْجر : هو أَبْجَر بن جابر العجليّ ، وكان نصرانيًّا ، والبيت في الصحاح واللسان والتاج ، وبعده يقول الأبَيْرِد :

شَرِبْتُمْ ومَدَّرْتُمْ وكَانَ أبُوكُمُ ... كَذاكُمْ إذا ما يَشْرَبُ الكَأسَ مَدَّرَا

والشاهد أن أنزف بمعنى سكر بدليل مقابلتها بقوله : صَحَا ، يقول : سواءٌ سكرتم أو لم تسكروا فأنتم بئس الندامى يا آل أَبْجَر .

قوله تعالى : ﴿ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ ، رُوي أن العبد يرى الطائر يطير فيشتهيه فينزل له كما اشتهاه ، وربما أَكل منه أَلواناً بحسب تصرف شهوته إلى كثير مما رُوي في هذا المعنى .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، والمفضل عن عاصم : ﴿ وَحُورٍ عِينٍ ﴾ بالخفض ، وهي قراءَة الحسن ، وأَبي عبد الرحمن ، والأَعمش ، وابن القعقاع ، وعمرو بن عبيد . وقرأ أُبيٌّ بن كعب ، وابن مسعود : ﴿ وَحُوراً عِيناً ﴾ بالنصب ، وقرأ الباقون من السبعة : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ بالرفع ، كل هذه القراءَات محمولة الإعراب على المعنى لا على اللفظ ، فالخَفْض كأَن المعنى : قيل : تنعمون بهذا كله وبحورٍ عينٍ ، وكأَن المعنى في قراءَة النصب : وتُعطون هذا كله وحُوراً عيناً ، وكأَن المعنى في الرفع : لهم هذا كله وحُورٌ عِينٌ ، ويجوز أَن يعطف [وَحُورٌ] على الضمير المستقر في [مُتَّكِئِينَ] ، قال أَبو علي : ولم يؤكد لكون طول الكلام بدلًا من التوكيد ، ويجوز أَن يُعطف على « الوِلْدان » وإن كان طواف الحور يقلق ، ويجوز أَن يعطف على الضمير المقدَّر مع قوله تعالى : ﴿ عَلَى سُرُرٍ ﴾ . وفي هذا كله نظر ، وقد تقدم معنى « حور عين » ، وقرأ إبراهيم النَّخَعيُّ : « وَحِيرٌ عِينٌ » .

وخصَّ (سبحانه) المكنون من اللؤلؤ لأَنه أَصفى لوناً وأَبعد عن الغيَر ، وسأَلت أُمُّ سَلَمَة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن هذا التشبيه فقال : (صفاؤُهن كصفاءِ الدُّرِّ في الأَصداف الذي لا تمسه الأَيدي)(١) ، و ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ أَن هذه الرُّتب والنعم هي بحسب أَعمالهم ؛ لأَنه رُوي أَن المنازل والقسم في الجنة هي مقسَّمة على قدر الأَعمال ، ونفس دخول الجنة هو برحمة الله تبارك وتعالى وفضله لا بعمل عامل ، فأَمَّا هذا الفضل وأَن دخولها ليس بعمل عامل ففيه حديث صحيح ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل الجنة أَحد بعمله) ، قالوا : ولا أَنت يا رسول الله ؟ قال : (ولا أَنا إلَّا أَن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة) (٢) .

و «اللَّغْوُ» : سقط القول من فحش وغيره ، و «التَّأْثِيمُ» مصدر بمعنى : لا يُؤَثِّم أَحدٌ هناك غيرَه ولا نَفْسَه بقول كأَن يسمع ويتأَلَّم

---

(١) راجع الهامش رقم (٢) ص (٢١٨) عند تفسير قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق والمرضى ، ومسلم في المنافقين ، وابن ماجه في الزهد ، والدارميُّ في الرقاق ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، ففي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَنْ يُنَجِّي أحداً منكم عَمَلُه) ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : (ولا أنا إلاَّ أن يتغمدني الله برحمته ، سدِّدوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيءٌ من الدُّلْجَةِ والقَصْدَ القَصْدَ تبلغوا) ، وفي البخاري أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (سدِّدُوا وقاربوا واعلموا أنْ لنْ يُدْخل أحدَكم عملُه الجنَّة ، وأنَّ أحبَّ الأعمال أدْوَمُهَا إلى الله وإن قَلَّ) .

بسماعه . و [قِيلًا] مستثنى ، والاستثناءُ متصل ، وقال قوم : هو منقطع ، و [سَلَاماً] نعت لِلْقِيلِ ، كأَنه تعالى قال : إِلَّا قيلًا سالماً من هذه العيوب وغيرها ، وقال أَبو إِسحق الزجاج أَيضاً : [سَلَاماً] مصدر وناصبه [قِيلًا] ، كأَنه تعالى ذكر أَنهم يقول بعضهم لبعض : سلاماً سلاماً ، وقال بعض النحاة : [سَلَاماً] منتصب بفعل مضمر تقديره : اسلموا سلاماً.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

«السِّدْرُ» شجرٌ معروف(١) ، وهو الذي يقال له : شجر أُم غيلان ، وهو من العضاه له شوك ، وفي الجنة شجر على خلقته له ثمر كقلال

(١) هو شجر النَّبْق ، والشجرة الواحدة تُسمى : سِدْرة .

هَجَر ، طيب الطعم والريح ، ووصفه تعالى بأَنه مخضود ، أي مقطوع الشوك لا أَذى فيه ، وقال أُمَيَّة بن أَبي الصلت :

إِنَّ الْحَدائِقَ في الجِنَـانِ ظَلِيلَةٌ فيها الْكَوَاعِبُ سِدْرُها مَخْضُـودُ (١)

وعبَّر بعض المفسِّرين عن [مَخْضُودٍ] بأَنه الْمُوقَر حملا ، وقال بعضهم : هو قطع الشوك ، وهو الصواب ، أَما إِن وقره هو كرمه ، ورُوي عن الضحاك أَن بعض الصحابة أَعجبهم سدْرُ وَجٍّ (٢) فقالوا : ليت لنا في الآخرة مثل هذا ، فنزلت الآية ، ولأَهل تحرير النظر هنا إِشارة في أَن هذا الخضد بإِزاءِ أَعمالهم التي سلموا فيها ؛ إِذ أَهل اليمين تَوَّابون لهم سلام ، وليسوا بسابقين .

و « الطَّلْحُ » كذلك من العضاه شجرٌ عظيمٌ كثير الشوك ، وشبهه في الجنة على صفات كثيرة مباينة لحال الدنيا ، و [مَنْضُودٍ] معناه : مركَّب ثمره بعضه على بعض من أَرضه إِلى أَعلاه . وقرأَ علي بن أَبي

---

(١) يستشهد بالبيت على أن « مخضود » بمعنى : مقطوع الشوك ، والبيت في القرطبي وفي الدر المنثور .

(٢) وَجٌّ : قيل : وادٍ بالطائف ، وقيل : موضع بالبادية ، وقيل : هو الطائف . (راجع اللسان) .

طالب ، وجعفر بن محمد رضي الله عنهما ، وغيرُهما : ﴿وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ﴾ ، فقيل لعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه : إنما هو [وَطَلْحٍ] فقال : وما لِلطَّلْح والجَنَّة ؟ فقيل له : أَنصلحها في المصحف ؟ فقال : إن المصحف اليوم لا يُهاج ولا يُغير ، وقال علي بن أَبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهم : «الطَّلْحُ» : الموز ، وقاله مجاهد وعطاءٌ ، وقال الحسن : ليس بالموز ولكنه شجر ظلُّه بارد طيب .

و «الظِلُّ الْمَمْدُودُ» معناه : الذي لا تنسخه شمسٌ ، ويُفَسِّر ذلك قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم : (إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجـواد في ظِلِّها مائة سنة لا يقطعها ، واقرءُوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ .)(١) إلى غير هذا من الأَحاديث في هذا المعنى ، وقال مجاهد : هذا الظل هو من طَلْحها وسدرها .

(١) أخرجه البخاري في «بدء الخلق» وفي تفسير سورة «الواقعة» ، وفي «الرقاق» ، وأخرجه مسلم والترمذي في «الجنة» ، وابن ماجه في «الزهد» ، والدارمي في «الرقاق» ، وأحمد في أكثر من موضع من مسنده ، ففي البخاري عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، يبلغ به النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، قال : (إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظِلِّها مائة عام لا يقطعها ، واقرءوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾) ، وأخرج مثله عن سهل بن سعد ، وفي رواية عن أبي سعيد (إن في الجنة لشجرةً يسير الراكبُ الجوادَ المُضَمَّر السريع في ظلها مائة عام ما يقطعها) .

وقوله تعالى : ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ أي : بزوال الإِبَّان(١) كحال فاكهة الدُّنيا ، ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ بِبُعد التَّناول ، ولا بشوك يؤذي في شجراتها ، ولا بوجه من الوجوه التي تمتنع بها فاكهة الدنيا .

وقرأ جمهور الناس : [وَفُرُشٍ] بضم الراءِ ، وقرأ أَبو حيوة : [وَفُرْشٍ] بسكونها ، والفُرُش : الأَسِرَّة ، وروي من طريق أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه أَن في ارتفاع السرير منها مسيرة خمسمائة سنة ، وهذا والله أَعلم لا يثبت ، وإِنْ قُدِّر فمتأَولٌ خارج عن ظاهره ، وقال أَبو عبيدة وغيره : أَراد بالفُرُش النساءَ ، و [مَرْفُوعَةٍ] معناه في الأَقدار والمنازل ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

ظَلَلْتَ مُفْتَرِشَ الْهَلْبَاءِ تَشْتُمُني عِنْدَ الرَّسُولِ فَلَمْ تَصْدُقْ وَلَمْ تُصِبِ(٢)

ومنه قول الآخر في تَعْديده على صِهْره : «وَأَفْرَشْتُكَ كريمتي»(٣) .

---

(١) الإبَّان : الأوان . قال الشاعر : «ولِحَصْد الزَّرْع إبَّان» ، أي : وقت مُحَدَّدٌ وأوانٌ .

(٢) يستشهد ابن عطية بهذا البيت على أن المرأة تسمى فراشاً ، وصحيح أن العرب تسمي المرأة فراشاً ولباساً وإزاراً ، لكن هذا لا يتفق مع معنى البيت ، إذ كيف يتفق افتراش المخاطب لامرأة هَلْبَاءَ وهو يشتمُ الشاعر عند الرسول ؟ وكلمة الهَلْبَاءِ تطلق على المرأة الكثيرة الشعر ، وعلى الناقة أو الدابة ، وعلى مقعد الإنسان ، وكل من الأمْرين الأخيرين يمكن فهم البيت على أساسه فهما أقرب من فهمه على الأمر الأول .

(٣) هذا واضح الدلالة على أن المرأة تُسمَّى فراشاً ، فهو يقول لصهره : لقد جعلتُ كريمتي فراشاً لك ، وهي نعمة تستحق الذكر .

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ ، قال قتادة : الضمير عائد على «الحور العِين» المذكورات قبل ، وهذا فيه بُعْد لأَن تلك قصة قد انقضت جملة ، وقال أَبو عبيدة مَعْمر : قد ذكرهُنَّ في قوله تعالى : ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ فلذلك رَدَّ الضمير وإنْ لم يتقدم ذكر لدلالة المعنى على المقصد ، وهذا كقوله تعالى : ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾(١) ونحوه ، و [أَنْشَأْنَاهُنَّ] معناه : خلقناهن شيئاً بعد شيءٍ ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية : (عجائز كُنَّ في الدنيا عُمْشاً رُمْصاً) (٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام لعجوز : (إن الجنة لا يدخلها عجوز) ، فحزنت فقال : (إنَّك إذا دخلت الجنة أُنشئت خلقاً آخر) (٣) .

---

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص) .

(٢) رواه الترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وقال الترمذي : غريب ، وزاد السيوطي في الدُّرّ نسبته إلى عبد بن حميد ، والبيهقي في البعث ، والفريابي ، وهناد ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه . والشُّمْطُ : جمع شمطاء وهي التي اختلط سواد شعرها ببياض – وقد ورد وصفهن بذلك في بعض الروايات – والعُمْش : جمع عمشاء وهي التي ضعف بصرها مع سيلان دمع العين في أكثر الأوقات ، والرَّمَص : وسخ أبيض يتجمع في موق العين ، ويقال : رَمِص فلان فهو أرْمص ، وهي رمصاءُ .

(٣) أخرجه عبد بن حميد ، والترمذي في الشمائل ، وابن المنذر ، والبيهقي في البعث ، عن الحسن ، وأخرجه البيهقي في الشعب عن عائشة رضي الله عنها ، كذلك أخرجه الطبراني في الأوسط عن عائشة رضي الله تعالى عنها . (الدر المنثور) .

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكاراً ﴾ ، قيل : معناه : دائمات البكارة ، متى عاود الواطئ وجدها بكراً . و « الْعُرُبُ » جمع عَروب وهي الْمُتَحَبِّبَةُ إلى زوجها بإظهار محبته ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وعبَّر عنهن ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً بالعواشق ، ومنه قول لبيد :

وفي الحُدُوجِ عَروبٌ غَيْرُ فَاحِشَةٍ رَيَّا الرَّوادِفِ يَعْشَى دُونها الْبَصَرُ(١)

وقال ابن زيد : العَرُوبُ : الحَسَنَةُ الكلام ، وقد تجيءُ الْعَروب صفة ذَمٍّ على غير هذا المعنى ، وهي الفاسدة الأَخلاق كأَنها عرَّبت (٢) ، ومنه قول الشاعر :

وَمَا بَدَلٌ مِنْ أُمِّ عُثْمَانَ سَلْفَعٌ مِنَ السُّودِ وَرْهاءُ العِنانِ عَرِيبُ (٣)

---

(١) قاله لبيد بن ربيعة العامري من قصيدة له يتغنى فيها بالحياة الصحراوية ، ويفتخر بمآثره ، والحُدوج : جمع حِدْج وهو مركب للنساء كالهودج يوضع على ظهور الإبل ، ويروى البيت : « وفي الخُدور » ، والعَرُوب : المرأة التي تتحبَّب إلى زوجها ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، وريَّا الرَّوادف : ممتلئة العجيزة ، ويَعشى : يكِلُّ ويضعف البصر من شدة الضوء .

(٢) التَّعريب : الفُحش وما قبُح من الكلام ، ومنه حديث عطاءٍ : أنه كره الإعراب للمحرم ، وهو الإفحاشُ في القول .

(٣) البيت في التاج واللسان ، وقد استشهد به على أن المرأة العَرُوب هي « العاصية لزوجها ، الخائنة بفرجها ، الفاسدة بنفسها » ، قال صاحب اللسان حكاية عن ابن سيده : « وأنشد ثعلب هذا البيت ولم يُفسره ، قال : وعندي أن « عَروب » في هذا البيت : الضَّحَّاكَةُ ، وهم يعيبون النساء بالضحك الكثير ، ورواية البيت فيهما تختلف عما هنا ، فهي هناك : =

وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، والكسائي : [عُرُباً] بضم الراءِ ، وقرأ حمزة ، والحسن : [عُرْباً] بسكونها ، وهي لغة بني تميم ، واختُلف عن نافع ، وأبي عمرو ، وعاصم .

وقوله تعالى : [أَتْرَاباً] معناه : في الشكل والقَدِّ حتى يقول الرائي : هم أَتْرابٌ ، والتِّرْبُ هو الذي مسَّ التُّرابَ مع تِرْبِه في وقت واحد ، وقال قتادة : [أَتْرَاباً] بمعنى : سِنًّا واحدة ، ويروى أَن أَهل الجنة هم على قدر ابن أَربعة عشر عاماً في الشباب والنُّضرة ، وقيل : على أَمثال أَبناءِ ثلاث وثلاثين سنة ، مُرْداً بيضاً مكحَّلين .

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ ـ فقال الحسن بن أَبي الحسن وغيرُه : الأَوَّلون : سالِفُ الأُمم ، منهم جماعةٌ عظيمة هم أَصحاب اليمين ، والآخِرُون : هذه الأُمَّة ، منهم جماعة عظيمة أَهل يمين .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

بل جميعُهم إِلَّا من كان من السَّابقين .

= فَمَا خَلَفٌ مِنْ أُمِّ عِمْرَانَ سَلْفَعٌ مِنَ السُّودِ وَرْهاءُ العِنَانِ عَــرُوبُ

والسَّلْفَعُ : السليطة الجريئة . وقيل : هي قليلة اللحم السريعة المشي ، وفي الحديث (شرُّهُنَّ السَّلْفعة) أي البَذِيَّةُ الفحَّاشة القليلة الحياء ، والورهاءُ : الخَرْقَاءُ الحمقاءُ في كل عمل .

وقال قوم من المتأولين : هاتان الفرقتان في أُمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (الثُّلَّتَانِ مِنْ أُمَّتِي)(١) ، فعلى هذا التابعون بإحسان ومن جرى مجراهم ثُلَّةٌ أُولى ، وسائر الأُمة ثُلَّةٌ أُخرى في آخر الزمان .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

إعراب قوله تعالى : ﴿وَأَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ﴾ قد تقدَّم في نظيره(٢) ، وفي الكلام هنا معنى الإنحاءِ عليهم وتعظيم مصـــابهم .

---

(١) سبق تخريجه عند تفسير الآيتين (١٣ ، ١٤) من هذه السورة ، ص (٢٣٦) .
(٢) وذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ ، ص (٢٣٢) من هذا الجزء .

و «السَّمُومُ» : أَشدُّ ما يكون عند الحَرِّ اليابس الذي لا بلل معه .

و «الحَمِيمُ» : الأَسود ، وهو بناءُ مبالغة ، واختلف الناس في هذا الشيءِ الأَسود الذي يُظِلُّ أَهل النار ، ما هو ؟ فقال ابن عباس ، ومجاهد ، وأَبو مالك ، وابن زيد : هو الدخان ، وهذا قول الجمهور ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً : هو سرادق النار المحيط بأَهلها ، فإنه يرتفع من كل ناحية حتى يُظلَّهم . وحكى النقاش أَن «اليَحْمُوم» اسمٌ من أَسماءِ جهنم ، وقاله ابن كيسان ، وقال ابن أَبي بُريدة ، وابن زيد أَيضاً في كتاب الثعلبي : هو جبلٌ في النار أَسودُ يَفْزَع أَهلُ النار إلى ذراه فيجدونه أَشد شيءٍ وأَمرَّه .

قوله تعالى : ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ ، قال الطبري وغيره : معناه : ليس له صفة مدح في الظلال ، وهذا كما تقول : ثوب كريم ونسب كريم ، تعني بذلك أَن له صفات مدح(١) ، ويحتمل أَن يصفه بعدم الكرم على معنى أَلَّا كرامة لهم ، وذلك أَن المرءَ في الدنيا قد يصبر على سوءِ الموضع لقرينة إكرام يناله فيه من أَحد ، فجمع هذا الظلَّ في النار أَنه سَيِّئُ الصفة وهم فيه مُهانون .

(١) عبارة الطبري أوضح من هذا ، فقد قال : «ليس بكريم لأنه يؤلم كل من استظلَّ به ، والعربُ تُتْبع كلَّ منفي عنه صفة حـَمْدٍ نَفْيَ الكرم عنه ، فتقول : ما هذا الطعام بطيب ولا كريم ، وما هذا اللحم بسمين ولا كريم ، وما هذه الدار بنظيفة ولا كريمة» .

و «الْمُتْرَفُ» : المنعَّم في سرف وتخوُّض ، و [يُصِرُّونَ] معناه : يعتقدون اعتقاداً لا يَنْوُون عنه إقلاعاً ، قال ابن زيد : لا يتوبون ولا يستغفرون ، و «الْحِنْثُ» : الإثم ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْثَ ...) الحديث(١) ، أراد عليه الصلاة والسلام : لم يبلغوا الحُلُم فتتعلَّق بهم الآثام ، وقال الخطابي : الحِنْثُ في كلام العرب العِدْلُ الثقيل ، يشبِّه الإثم به . واختلف المفسرون في المراد بهذا الإثم ـ فقال قتادة ، والضحاك ، وابن زيد : هو الشرك ، وهذا هو الظاهر ، وقال قوم ـ فيما ذكر مكي ـ : هو الحنث في قَسَمهم الذي يتضمنه قوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم﴾ الآية(٢) في التكذيب بالبعث ، وهذا أيضاً يتضمن

(١) أخرجه البخاري في العلم والجنائز ، ومسلم في البرِّ ، والترمذي ، وابن ماجه ، والنسائي في الجنائز ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، ولفظه فيه : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من مسلميْن يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْث إلا كانوا لهما حصناً حصيناً من النار) ، فقيل : يا رسول الله ، فإن كانا اثنين ؟ قال : (وإن كانا اثنين) ، فقال أبو ذرٍّ رضي الله عنه : يا رسول الله ، لم أقدم إلا اثنين ، قال : (وإن كانا اثنين) ، قال : فقال أُبيٌّ بن كعب أبو المنذر سيِّد القراء رضي الله عنه : لم أقدم إلا واحداً ، قال : فقيل له : وإن كان واحداً ؟ فقال : (إنما ذاك عند الصدمة الأولى) .

(٢) من الآية (٣٨) من سورة (النحل) .

الكفر ، فالقول به على عمومه أولى ، وقال الشعبي : الحِنْثُ العظِيمُ : اليمين الغَمُوسُ(١) .

وقد تقدم ذكر اختلاف القراءِ في قوله تعالى : [أئِذَا] و [أئِنَّا] ، ويختص من ذلك بهذا الموضع أَن ابن عامر يخالف فيه أَصله فيقرأُ : [أَيِذَا] [أَيِنَّا] بتخفيف الهمزتين فيهما على الاستفهام ، ورواه أَبو بكر عن عاصم في قوله تعالى : ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ . والعامل في قوله تعالى : [أَئِذَا] فعل مضمر يدل عليه قوله تعالى : [لَمَبْعُوثُونَ] ، تقديره : أَنُبْعَثُ أَو أَنُحْشَرُ ؟ ولا يعمل فيه ما بعده لأَنه مضاف إِليه ، وقرأَ عيسى الثقفي : [مُتْنَا] بضم الميم ، وقرأَ جمهور الناس : [مِتْنَا] بكسرها ، وهذا على لغة من يقول : مِتُّ أَموت على وزن فَعِل بكسر العين يفعُل بضمها ، ولم يُحك منها عن العرب إِلَّا هذه اللفظة وأُخرى هي فَضِل يفضُل . وقرأَ بعض القراءِ : ﴿أَوْ آبَاؤُنَا﴾ بسكون الواو من [أَوْ] ، ومعنى الآية استبعاد أَن يبعثوا هم وآباؤُهم على حدٍّ واحد من الاستبعاد ، وقرأَ الجمهور : ﴿أَوَ آبَاؤُنَا﴾ بتحريك الواو على أَنها واو العطف دخل عليها أَلف الاستفهام ، ومعناها شدة الاستبعاد

(١) اليمين الغموس : الكاذبة ، تغمس صاحبها في الإثم ، وفي الحديث (اليمينُ الغموسُ تذر الديار بلاقع) .

في الآباءِ ، كأَنهم استبعدوا أَن يُبعثوا ثم أَتَوْا بذكر مَن ِ البعثُ فيهم أَبعد ، وهذا بيِّن لأَهل العلم بلسان العرب .

ثم أَمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أَن يعلمهم بأَن العالم محشور مبعوث ليوم معلوم مؤقت . و [مِيقَات] مِفْعال من الوقت ، كميعاد من الوعد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ مخاطبة لكفار قريش ومن كان في حالهم ، و [مِنْ] في قوله تعالى : ﴿مِنْ شَجَرٍ﴾ يحتمل أَن تكون للتبعيض ، ويحتمل أَن تكون لابتداءِ الغاية ، و [مِنْ] في قوله تعالى : ﴿مِنْ

زَقُّومٍ ﴾ لبيان الجنس ، والضمير في [مِنْهَا] عائد على الشجر ، و [مِنْ] للتبعيض أو لابتداءِ الغاية ، والضمير في [عَلَيْهِ] عائد على المأْكول أو على الأَكل ، وفي قراءَة ابن مسعود رضي الله عنه : «لآكِلُونَ مِنْ شَجَرَةٍ» على الإفراد .

و [ٱلْهِيمِ] قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك : هو جمع «أَهْيَم» وهو الجمل الذي أَصابه الهُيَام – بضم الهاءِ – وهو داءٌ معطش يشرب منه الجمل حتى يموت أَو يسقم سقماً شديداً ، والأُنثى هيماءُ ، وقال بعضهم : هو جمع هيماءَ كعيْنَاءَ وعِينٍ وبَيْضاءَ وبِيضٍ ، وقال قوم آخرون : هو جمع هايم وهايمة ، وهو أَيضاً من هذا المعنى لأَن الجمل إِذا أَصابه ذلك هام على وجهه وذهب ، وقال ابن عباس ، وسفيان الثوري : الهِيمُ هنا الرمال التي لا تُرْوَى من الماءِ ، وذلك أَن الهَيَام – بفتح الهاءِ – هو الرمل الدِّق الغَمْر المتراكم ، وقال ثعلب : الهُيام – بضم الهاءِ – الرَّمل الذي لا يتماسك . وقرأَ ابن كثير ، وابن عامر ، وأَبو عمرو ، والكسائي : ﴿شَرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ بفتح الشين ، وهي قراءَة الأَعرج ، وابن المسيَّب ، وشعيب بن الحبحاب ، ومالك بن دينار ، وابن جريج ، ولا خلاف أَنه مصدر ، وقرأَ مجاهد : ﴿شِرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ بكسر الشين ، ولا خلاف أَنه اسم ، وقرأَ أَهل

المدينة وباقي السبعة : ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ بضم الشين ، واختلف فيه – فقال قوم : هو مصدر ، وقال آخرون : هو اسم لما يُشرب .

و «النُّزُلُ» : أَول ما يأْكل الضيف ، وقرأَ أَبو عمرو – في رواية ابن عياش – : [نُزْلُهُمْ] بسكون الزاي ، وقرأَ الباقون ، واليزيديُّ عن أَبي عمرو بضم الزاي ، وهما بمعنى كالشُّغْل والشُّغُل .

و «الدِّينُ» : الجـــزاءُ .

ثم أَخبر تعالى أَنه الخالق ، وحضَّ على التصديق على وجه التقريع ، ثم ساق تعالى الحجة الموحية للتصديق ، كأَن معترضاً من الكفار قال : ولِمَ أُصَدِّق ؟ فقيل له : أَفرأَيت كذا وكذا ؟ الآيات ، وليس يوجد مفطورٌ يخفى عليه أَن المنيَّ الذي يخرج منه ليس فيه عمل ولا إِرادة ولا قدرة ، و [أَمْ] في قوله تعالى : ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ﴾ ليست المعادِلة عند سيبويه ؛ لأَن الفعل قد تكرَّر ، وإِنما المعادِلة عنده : أَقام زيدٌ أَم عمرو ؟ وهذه التي في هذه الآية معادِلة عند قوم من النحاة . وأَما إِذا تغاير الفعلان فليست بمعادِلة إِجماعاً ، وقرأَ الجمهور : [تُمْنُونَ] بضم التاءِ ، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما ، وأَبو السَّمال : [تَمْنُونَ] بفتح التاءِ ، ويقال : «أَمْنَى الرجل ومَنَى» بمعنى واحد .

وقرأ جمهور القراء : ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ بشد الدال ، وقرأ ابن كثير وحده : ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا﴾ بتخفيف الدال ، والمعنى فيهما يحتمل أن يكون بمعنى : قضينا وأثبتنا ، ويحتمل أن يكون بمعنى : سوَّينا وعدَّلنا التَّقدُّم والتَّأَخُّر ، أي جعلنا الموت رُتَباً ، ليس يموت العالَم دفعة واحدة بل بترتيب لا يعدوه أحد ، وقال الطبري : معنى الآية : قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم ، أي تموت طائفة ونبدلها بطائفة ، وهكذا قرناً بعد قرن ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي على تبديلكم إن أردناه ، وأن ننشئكم بأوصاف لايصلها علمكم ولا تحيط بها فكركم ، قال الحسن : من كونهم قردة وخنازير .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

تأول الحسن هذا لأن الآية تنحو إلى الوعيد ، وجاءت لفظة السبق هنا على نحو قوله صلى الله عليه وسلم : (فإن استطعتم ألا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا لا تفوتنكم)(١).

---

(١) أخرجه البخاري في المواقيت وفي تفسير سورة (ق) وفي التوحيد ، وأبو داود في السُّنَّة ، والترمذي في الجنة ، وابن ماجه في المقدمة ، وأحمد في مسنده (٤ـ٣٦٠، ٣٦٢ ، =

وقرأ جمهور الناس : [ٱلنَّشْأَةَ] بسكون الشين ، وقرأ قتادة ، وأبو الأشهب(١) ، وأبو عمرو - بخلاف - : [ٱلنَّشَاءَةَ] بفتحها وبالمدِّ ، وقال أكثر المفسرين : أشار إلى خلق آدم عليه السلام ووقف عليه لأنك لا تجد أحداً ينكر أنه من ولد آدم عليه السلام ، وأنه من طين ، وقال بعضهم : أراد تعالى بالنشأة الأُولى نشأة إنسان إنسان في طفولته ، فيعلم المرءُ نشأته كيف كانت بما يرى من نشأة غيره .

ثم حضَّض تعالى على التذكُّر والنظر المؤدي إلى الإيمان ، وقرأ الجمهور : ﴿فَلَوْلَا تَذَّكَّرُونَ﴾ مشددة الذال ، وقرأ طلحة : ﴿فَلَوْلَا تَذْكُرُونَ﴾ بسكون الذال وضم الكاف ، وهذه الآية نَصٌّ في استعمال القياس والحضِّ عليه .

= ٣٦٥) ، ولفظه كما جاء في مسند أحمد: قال : سمعت قيس بن أبي حازم يحدث عن جرير ، قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة البدر ، فقال : إنكم سترون ربكم عزَّ وجلَّ كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على هاتين الصلاتين قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ثم تلا هذه الآية : ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ ، قال شعبة : لا أدري قال (فإن استطعتم) أو لم يقل .

(١) هو جعفر بن حيَّان السعدي ، أبو الأشهب العطاردي ، البصري ، مشهور بكنيته ، ثقة ، من السادسة ، مات سنة خمس وستين وله خمس وتسعون سنة . (تقريب التهذيب) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

وقف تعالى الكفار على أَمر الزرع الذي هو قوام العيش ، وبيَّن لكل مفطور أَن الحراث الذي يثير الأَرض ويفرق الحَبَّ ليس يفعل في نبات الزرع شيئاً ، وقد يُسمَّى الإنسان زارعاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾(١) ، لكن معنى هذه الآية : أَأَنتم تزرعونه زرعاً يتم أَم نحن ؟ وروى أَبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (لا تقولنَّ زرعت ، ولكن قل : حَرَثْتُ) ، ثم تلا أَبو هريرة رضي الله عنه هذه الآية(٢) .

---

(١) من الآية (٢٩) من سورة (الفتح) .

(٢) أخرجه البزَّار ، وابن جرير ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي في «شعب الإيمان» وضعَّفه . (الدر المنثور) .

و «ٱلْحُطَامُ» : الْيَابِس المتفتِّت من النبات الصائر إلى ذَهاب ، وبه شبه حطام الدنيا ، وقيل : المعنى : تِبْناً لا قَمْحَ فيه ، و [تَفَكَّهُونَ] قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : معناه : تعجبون ، وقال عكرمة : تلاومون ، وقال الحسن : معناه : تندمون ، وقال ابن زيد : تتفجَّعون ، وهذا كله تفسير لا يخصُّ اللفظة ، والذي يخصُّ اللفظة هو : تطرحون الفكاهة عن أَنفُسكم ، وهي المَسَرَّة والجزلُ ، ورجلٌ فكهٌ إذا كان منبسط النفس غير مكترث بشيءٍ ، و «تَفَكَّهَ» من أَخوات «تَحَرَّجَ» و «تَحَوَّب» . وقرأ الجمهور : [فَظَلْتُمْ] بفتح الظاء ، وروي سفيان الثوريُّ في قراءَة عبد الله كسْرَ الظَّاءِ ، قال أَبو حاتم : طُرحت عليها حركة اللام المحذوفة ، وذلك رديءٌ في القياس ، وهي قراءَة أَبي حَيْوة ، وروى أَحمد بن موسى : [فَظَلَلْتُمْ] بلامَيْن الأُولى مفتوحة عن الجحدري ، ورويت عن ابن مسعود رضي الله عنه بكسر اللام الأُولى .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ قبله حذف تقديره : «يقولون» ، وقرأَ الأَعمش ، وعاصم الجحدري : ﴿أَئِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ بهمزتين على الاستفهام ، والمعنى يحتمل أَن يكون : إِنا المعذبون من الغرام ، وهو أَشد العذاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾(١) ،

---

(١) من الآية (٦٥) من سورة (الفرقان) .

ومنه قول الأَعشى :

إنْ يُعَذِّبْ يَكُنْ غَرَامـاً وَإنْ يُعْــ ـــط جَزِيــلًا فَإنَّهُ لَا يُبــالي (١)

ويحتمل أَن يكون المعنى : إنا لمحمَّلون الغَرام ، أَي غرمنا في النفقة وذهاب زرعنا ، تقول : «غَرِمَ الرجلُ وأَغْرَمْته فهو مُغْرم» ، وتقدم تفسير «المحروم» وأَنه المحدود (٢) المُحَارَف (٣) .

و «المُزْنُ» : السحابُ بلا خلاف ، ومنه قول الشاعر :

ونَحْنُ كَمَاءِ المُزْنِ ما في نِصَابِنَا كَهامٌ وَلَا فينا يُعَدُّ بَخيــلُ (٤)

و «الأُجَاجُ » أَشدُّ المياه ملوحة ، وهو ماءُ البحر الأَخضر . و [تُورُونَ]

---

(١) البيت من قصيدة طويلة يمدح فيها الأعشى إياس بن قبيصة الطائي ، وهو في الديوان ، وفي اللسان والتاج ، والرواية فيها كلها : (إن يُعَاقِبْ) بدلا من (إنْ يُعَذِّبْ) . والغرامُ : اللازم من العذاب ، والشرُّ الدائم ، والوَلوع بالشيء ، والجزيلُ : الكثير العظيم ، يمدحه بِحُبِّ العقوبة والتعذيب إذا فعلهما ، وبالكرم الشديد .

(٢) المحدود : القليل الحظ ، الممنوع من الخير .

(٣) المحارَف : المحروم يَطْلُبُ فلا يُرزق ، ولا يصيب خيراً من أيِّ وجه توجَّه له .

(٤) هذا البيت للسَّمَوْأَل ، وهو من قصيدته المشهورة التي قالها في الافتخار والاعتزاز بالنسب ، والتي يقول في مطلعها :

إذَا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ فَكُلُّ رِداءٍ يَرْتَــديهِ جَمِيــلُ

والمُزْنُ : السحابُ الأبيض ، واحدته : مُزْنة ، والنِّصَابُ : الأَصْلُ ، والكَهَام : الضَّعيف المُسِنُّ ، وهما استعارة من « النصاب » بمعنى : المُدْية ، ومن الكهَام بمعنى : غير القاطع .

معناه : تقتدحون من الأَزْنُد ، تقول : أَوريت النار من الزنادِ ، ووري الزِّنادُ نفسه ، والزناد قد يكون من حجرين ومن حجر وحديدة ومن شجر لاسيَّما في بلاد العرب ، فإن أَزْنُدَهم من شجر ولاسيَّما في الشجر الرخو كالمرخ والعفار والكلخ وما أَشبهه ، ولعادة العرب في أن زنادهم من شجر قال تعالى : ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ ، وقال بعض أَهل النظر : أَراد بالشجرة نفس النار ، كأَنه تعالى يقول : نوعها أَو جنسها ، فاستعار الشجرة لذلك ، وهو قول فيه تكلُّف . وقرأَ الجمهور : [آنْتُمْ] بالمدِّ ، وروي عن أَبي عمرو ، وعيسى : [أَنْتُمْ] بغير مدٍّ ، وضعَّفها أَبو حاتم .

و [تَذْكِرَة] معناه : تُذكِّر نار جهنم ، قاله مجاهد وقتادة ، و «المَتَاعُ» ما يُنْتَفَع به ، و «الْمُقْوِينَ» في هذه الآية : الكائنون في الأَرض القواءِ ، وهي الفيافي ، وعبَّر الناسُ في تفسير «الْمُقْوِينَ» بأَشياءَ ضعيفة ، كقول ابن زيد : الخائفون ونحوه ، ولا يقوم منها إِلَّا ما ذكرناه ، ومن قال معناه : المسافرون فهو نحو ما قلناه ، وهي عبارة ابن عباس رضي الله عنهما ، تقول : «أَصبح الرجل» دخل في الصباح ، و «أَصْحَرَ» دخل في الصحراءِ ، و «أَقوى» دخل في الأَرض القَوَاءِ ، ومنه «أَقْوَت الدارُ ، وأَقوى الطَّلَلُ» أَي صار قواءً ،

ومنه قول النابغة :

. . . . أَقْوَتْ وطالَ عَلَيْهَا سالِفُ الْأَبَدِ (١)

وقول الآخر :

. . . . أَقْوَى وأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ (٢)

والفقير والغني إذا أَقْوَيَا سواءٌ في الحاجة إلى النار ، ولا شيءَ يغني غناها في البرد ، ومن قال : «إن أَقوى من الأَضداد من حيث يقال أَقوى الرجل إذا قويت دابته» فقد أخطأَ ، وذلك فعل آخر كأَترب إذا أَثْرَى .

(١) هذا عجز بيت قاله النابغة الذبياني في مطلع قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر ، ويعتذر إليه مما بلغه عنه من أنه يحب المُتَجَرِّدَة زوج النعمان ، والبيت بتمامه :

يا دارَ مَيَّةَ بالعَلْيَـــاء فالسَّنَدِ أَقْوَتْ وَطالَ عَلَيْهَـــا سَالِفُ الأبَدِ

والعَلْيَاءُ ــ بفتح العين وبالمَدِّ ــ : رأسُ الجبل ، والسَّنَد: ما علا عن سفح الجبل ، وعَطف السَّنَد بالفاء هنا يفيد أن دار ميَّة كانت بالعلياء لكنها متصلة بالسَّنَد ، وأقْوَتْ : أقفرت وصارت خاوية خربة ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، والأبد : الدَّهر ، والسالف : الماضي . يقول : طال عليها ما مضى من الدهر فصارت خراباً خاوية .

(٢) البيت من معلقة عنترة « هل غادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّم » ، وهو بتمامه :

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَـــادَمَ عَهْدُهُ أقْوَى وأقْفَـــرَ بَعْـــدَ أُمِّ الهَيْثَم

والطَّلَلُ : ما بقي شاخصاً من آثار الديار ، والجمع أطْلالٌ وطُلُولٌ ، والإقواءُ والإقفارُ : الخلاءُ ، وقد جمع بينهما لضرب من التأكيد ، وأُمُّ الهيثم : كنية عَبْلَة ، يحييه من بين الأطلال ، أي يخصه بالتحية من بين الأطلال ، ثم يقول : لقد قدم عهده بأهله ، وقد خلا من السكان بعد رحيل حبيبته عنه .

ثم أَمر تبارك وتعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بتنزيه ربِّه عزَّ وجلَّ وتنزيه أَسمائه العُلَى عما يقوله الكفرة الذين حُجُّوا في هذه الآيات .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

اختلف الناس في [لَا] من قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ ـ فقال بعض النحويين : هي زائدة ، والمعنى : فأُقسم ، وزيادتها في بعض المواضع معروف (١) ، كقوله تعالى : ﴿ لِئَلَا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ ﴾ (٢) ، وغير ذلك ، وقال سعيد بن جبير وبعض النحويين :

---

(١) أي : أمْرٌ معروف .
(٢) من الآية (٢٩) من سورة (الحديد) .

هي نافية ، كأنه تعالى يقول : فلا صحة لما يقوله الكفار ، ثم ابتدأ تبارك وتعالى فقال : « أُقْسِم »(١) ، وقال بعض المتأولين : هي مؤكدة تعطي في القَسَم مبالغة ، وهي كاستفتاح كلام يشبهه في القَسَم لا في شائع الكلام ، ومنه قول الشاعر :

* فَلَا وَأَبي . . . . . لَا أَخُونُهَا *(٢)

المعنى : « فوَأَبي » ، ولهذا نظائر ، وقرأ الحسن والثّقفي : ﴿فَلَأُقْسِمُ﴾ بغير ألف ، قال أبو الفتح : التقدير : فَلَأَنا أُقْسِم .(٣)

وقرأ الجمهور من القراء : [بِمَوَاقِعِ] على الجمع ، وقرأ عمر ابن الخطاب ، وابن مسعود ، وابن عباس - رضي الله تعالى عنهم - وأَهْلُ الكوفة ، وحمزة ، والكسائي : [بِمَوْقِعِ] على الإفراد ،

---

(١) معنى هذا أن النفي محذوف ، وهذا المنفي هو اسم (لا) وخبرها ، ولهذا قال أبو حيان في البحر : إن هذا لا يجوز بسبب حذف الاسم والخبر . وهذا أمرٌ لا يجوز إلا إذا دلّ عليهما من الكلام دليل ، كأن يقع الكلام جواباً لسؤال ، وهو ما لم يحدث هنا .

(٢) في مكان النقط (....) كلمة غير واضحة ، والشاهد ذكره ابن عطية ، وإذا قدرنا (لا) أداة استفتاح مثل (ألاَ) كان في هذا تنبيه على فضـــيلة القرآن ليتدبروه ، ذكر هذا القرطبي وغيره .

(٣) قال أبو الفتح : « لأن هذا فعل حالٍ - أي حاضر - ولو أريد الفعل المستقبل لزمت فيه النون فقيل : « لأقْسِمَنّ » .

وهو مرادٌ به الجمع ، ونظير هذا كثير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾(١) ، جَمَع من حيث لكل حمار صوت مختص ، وأَفرد من حيث الأَصوات كلها صوتٌ .

واختلف الناس في «النُّجوم» هنا ـ فقال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وغيرهم : هي نجوم القرآن التي نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أَنه رُوي أَن القرآن نزل من عند الله عزَّ وجلَّ في ليلة القدر إلى السماءِ الدنيا ـ وقيل : إلى البيت المعمور ـ جملة واحدة ، ثم نزل بعد ذلك على محمد صلى الله عليه وسلم نجوماً مقطعة في مدَّة من عشرين سنة ، ويؤيد هذا القول عودُ الضمير على القرآن في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ ، وذلك أَنَّ ذِكْرَهُ لم يتقدم إلَّا على هذا التأْويل ، ومن لا يتأَول هذا التأْويل يقول : إن الضمير يعود على القرآن وإن لم يتقدم له ذِكْر لشُهرة الأَمر ووضوح المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾(٢) ، و ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾(٣) ، وغير ذلك . وقال جمهور كثير من المفسرين : النجوم

---

(١) من الآية (١٩) من سورة (لقمان) .

(٢) من الآية (٣٢) من سورة (ص) .

(٣) من الآية (٢٦) من سورة (الرحمن) .

هنا الكواكبُ المعروفة ، واختُلف في مواقعها ــ فقال مجاهد وأبو عبيدة : هي مواقعها عند غروبها وطلوعها ، وقال قتادة : مواقعها هي مواضعها من السماء ، وقيل : مواقعها عند الانقضاض إثر العفاريت ، وقال الحسن : مواقعها عند انكدار النجوم .

وقوله تعالى : ﴿وإِنَّهُ لَقَسَمٌ﴾ تأْكيدٌ للأَمر وتنبيه من المقسم به ، وليس هذا باعتراض بين الكلامين ، بل هذا معنى قصد التَّهمم به ، وإنما الاعتراض قوله تعالى : ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ ، وقد قال قوم : إن قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ﴾ اعتراض ، وإنَّ ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعتراضٌ في اعتراض ، والتحرير هو الذي ذكرناه ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ﴾ هو الذي وقع القَسَم عليه ، ووصفه بالكرم على معنى إثبات صفات المدح له ودفع صفات الحطيطة عنه .

واختلف المتأَولون في قوله تعالى : ﴿في كِتَابٍ مَكْنُون﴾ بعد اتفاقهم على أن «ٱلْمَكْنُونَ» : المصونُ ــ فقال ابن عباس ، ومجاهد : أَراد الكتاب الذي في السماءِ ، وقال عكرمة : أَراد التوراة والإِنجيل ، كأَنه تعالى قال : إنه لكتابٌ كريمٌ ذُكر كرمه وشرفه في كتاب مكنون ، فمعنى الآية ــ على هذا ــ الاستشهاد بالكتب المنزلة ، وهذا كقوله

عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِنْدَ ٱللهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ ٱللهِ ﴾ (١) ، وقال بعض المتأَولين : أَراد مصاحف المسلمين ، وكانت يوم نزلت الآية لم تكن ، فهي – على هذا – إخبار بغيب ، وكذلك هو كتاب مصون إلى يوم القيامة ، ويؤيد هذا لفظة « المَسِّ » فإنها تشير إلى المصاحف ، وهي مستعارة من مسِّ الملائكة .

واختلف الناس في معنى قوله تعالى : ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وفي حكمه – فقال بعض من قال إن الكتاب المكنون هو الذي في السماءِ ، قال : المُطَهَّرُونَ هنا : الملائكة ، قال قتادة : فأَما عندكم فيمسُّه المشرك النجس والمنافق ، قال الطبري : المُطَهَّرُونَ : الملائكة والأَنبياءُ عليهم السلام ومَن لا ذنب له ، وليس في الآية – على هذا القول – حكم مسِّ المصحف لسائر بني آدم ، ومن قال بأَنها مصاحف المسلمين قال : إن قوله تعالى ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ إخبار مضمنه النهي ، وضَمَّةُ السين – على هذا – إعرابٌ ، وقال بعض هذه الفرقة : الكلام نهيٌ ، وضمَّة السِّين ضمَّة بناءٍ ، قال جميعهم : فلا يمسُّ المصحف من بني آدم إلَّا الطاهر من الكفر والجنابة والحدث الأَصغر ، قال مالك : لا يحمله غير طاهر بعلاقته ولا على وسادة ، وفي كتاب رسول الله صلى الله

---

(١) من الآية (٣٦) من سورة (التوبة) .

عليه وسلم لعمرو بن حزم : (ولا يمسُّ القرآن إلّا طاهر) (١)، وقد رخَّص أَبو حنيفة وقوم أَن يمسَّه الجنب والحائض على حائل ، غلاف ونحوه ، ورخَّص بعض العلماءِ في مسِّه بالحدث الأَصغر وفي قراءَته عن ظهر قلب ، منهم ابن عباس وعامر الشعبي ، لاسيما للمعلم والصبيان ، وقد رخَّص بعضهم للجنب في قراءَته ، وهذا الترخيص كله إنما هو على القول الذي ذكرناه من أَن «المطهرين» هم الملائكة ، أَو على مراعاة لفظة المسِّ ، فقد قال سلمان رضي الله عنه : لا أَمسُّ المصحف ولكن أَقرأُ القرآن . وقرأَ جمهور الناس : [ٱلْمُطَهَّرُونَ] بفتح الطاءِ والهاءِ المشددة ، وقرأَ نافع ، وأَبو عمرو - بخلاف عنهما - : [ٱلْمُطْهَرُونَ] بسكون الطاءِ وفتح الهاءِ خفيفة ، وهي قراءَة عيسى الثقفي ، وقرأَ سلمان الفارسي : [ٱلْمَطَهِّرُونَ] بفتح الطاءِ خفيفة وكسر الهاءِ وشدها ، على معنى الذين يُطَهِّرُون أَنفسهم ، ورويت عنه بشد الطاءِ والهاءِ ، وقرأَ الحسن ، وعبد الله بن عون ، وسلمان الفارسي - بخلاف عنه - : [ٱلْمُطَّهِّرُون] بمعنى : الْمُتَطَهِّرين ، والقول بأَن ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ نهيٌ قولٌ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وابن أبي داود ، وابن المنذر ، عن عبد الله بن أبي بكر ، عن أبيه ، قال : في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم : (ولا تمسّ القرآن إلا على طهور) . (الدر المنثور) .

فيه ضعف ، وذلك أنه إذا كان خبراً فهو في موضع الصفة ، وقوله تعالى بعد ذلك : [تَنْزِيلٌ] صفة أيضاً ، فإذا جعلناه نهياً جاءَ معنى أَجنبياً مُعْتَرضاً بين الصفات ، وذلك لا يحسن في رصف الكلام فتدبَّره ، وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه : «مَا يَمَسُّهُ» ، وهذا يُقَوِّي ما رجَّحته من الخبر الذي معناه : حَقُّهُ وَقَدْرُهُ أَلَّا يَمسَّه إِلَّا طاهر .

وقوله تعالى : ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ مخاطبة للكفار ، و «الحديث» المشار إليه هو القرآن المتضمن البعث ، وأن الله تعالى هو خالق الكل ، وأن ابن آدم مصرف بقدره وقضائه ، وغير ذلك ، و [مُدْهِنُونَ] معناه : يُلَايِنُ بعضكم بعضاً ويتبعه في الكفر ، مأْخوذ من الدهن لِلِينه وامِّلَاسِهِ ، وقال أَبو قيس بن الأَسْلت :

ٱلْحَزْمُ وَٱلْقُــوَّةُ خَيْرٌ منْ الْـ إِدْهانِ والْفَهَّةِ والْهَــاعِ (١)

(١) الحزمُ : ضبطُ الرأي وإتقانه ، والإدهانُ والمداهنةُ : المُصانعة واللِّين ، ويقومان على الغش والنفاق وإظهار خلاف ما في الضمير ، والكذبُ فيه كل ذلك ، وهذا هو موضع الاستشهاد هنا ، والفَـهَّـةُ : العيُّ والعجز عن الإبانة ، وقيل : معناها السقطة ، قال أبو عبيدة ابن الجراح لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حين قال له يوم السقيفة : ابسط يدك أبايعك : فقال أبو عبيدة : ما رأيت منك فهَّةً في الإسلام قبلها ، أتبايعني وفيكم الصديق ثاني اثنين ؟ والهاعُ : سوءُ الحرص مع الضعف ، والبيت في اللسان — هيع — ، وفي (جمهرة أشعار العرب) ، والرواية فيهما :

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هي المهاودة فيما لا يحلُّ ، والمداراة هي المهاودة فيما يحلُّ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [مُدْهِنُونَ] : مكذبون .

قوله تعالى : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ، أَجمع المفسِّرون على أَن الآية توبيخ للقائلين في المطر الذي نزله الله تعالى رزقاً للعباد : هذا بِنَوْءِ كذا وكذا ، وهذا بِنَوْءِ الأَسد ، وهذا بِنَوْءِ الجوزاءِ ، وغير ذلك ، والمعنى : وتجعلون شكر رزقكم ، كما تقول لرجل : جعلت يا فلان إحساني إليك أَن سببتني ، فالمعنى : جعلت شكر إحساني ، وحكى الهيثم بن عدي أَن من لغة أَزد شنوءَة : ما رزْق فلان ؟ بمعنى : ما شكْره ؟ وكان علي بن أَبي طالب رضي الله عنه يقرؤُها : «وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» ، وكذلك قرأَ ابن عباس رضي الله عنهما ، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) إلا أَن ابن عباس رضي الله

= الكَيْسُ والقُوَّة خيرٌ مِن الـ إشْفَاقِ والفَهَّـةِ والْهَـاعِ

وعلى هذا فلا شاهد فيه . والبيت في الأصمعية (٧٥) ، والرواية فيهما : (خير من الإدهان والفكَّة) ـ بالكاف ـ ومعناها : الضعف ، وهو أيضاً في (البيان والتبيين) وفي (الحيوان)، وفي (السِّمْط) .

(١) أخرج ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن السّلميّ رضي الله عنه قال : قرأ علي رضي الله عنه (الواقعات) في الفجر فقال: «وتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُون» ، =

عنهما ضم التاءِ وفتح الكاف ، وعلي رضي الله عنه فتح التاءَ وسكن الكاف وخفف الذال ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

وكانَ شُكْرُ الْقَــوْم عِنْدَ المنــن ِ كيُّ الصَّحيحاتِ وفَقْءُ الْأَعْيُن ِ (١)

وقد أَخبر الله تعالى أَنه أَنزل من السماءِ ماءً مباركاً فأَنشأَ به جنات وحبَّ الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ، أَي بهذا الخبر . وقرأَ عاصم في رواية المفضل عنه : [تَكْذِبُونَ] بفتح التاءِ وسكون الكاف وتخفيف الذال كقراءَة علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وكَذِبهم في مقالهم بيِّنٌ لأَنهم يقولون : هذا بنوءِ كذا ، وذلك كذب منهم وتخرُّص . وذكر الطبري أَن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلًا يقول : مُطرنا ببعض عثانين الأَسد ، فقال له : (كذبتَ بلْ هو رزق الله)(٢) ، والمنهي عنه المكروه هو أَن يعتقد أَن للطَّالع من النجوم تأْثيراً في المطر ،

= فلما انصرف قال: إني قد عرفت أنه سيقول قائل : لِمَ قرأها هكذا ؟ إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها كذلك ، كانوا إذا مُطِروا قالوا : مُطِرْنَا بنوءِ كذا وكذا ، فأنزل الله : «وتجعلون شكركم أنكم إذا مطرتم تكذبون» .

(١) لم أجد هذا الرجز إلاَّ في البحر المحيط ، والرواية فيه (مَكانُ) بدلا من (وَكَانَ) ، يصفهم بنكران الجميل ومقابلة الحسنة بالسيئة .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري عن إسماعيل بن أُمية .

وأَما مراعاة بعض الطوالع على مقتضى العادة فقد قال عمر للعباس رضي الله عنهما وهما في الاستسقاءِ : يا عباس ، يا عم النبي صلى الله عليه وسلم : كم بقي من نَوْءِ الثُّريا ؟ فقال العباس رضي الله عنه : العلماءُ يقولون إِنها تعترض الأُفق بعد سقوطها سبعاً ، قال ابن المسيَّب : فما مضت سبعٌ حتى مُطِروا (١) .

وقوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ توقيف على موضع عجز يقتضي النظرُ فيه أَن الله تبارك وتعالى مالك كل شيءٍ ، والضمير في ﴿بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ لنفس الإِنسان ، والمعنى يقتضيها وإِن لم يتقدم لها ذكر ، و «الحُلْقُوم» مجرى الطعام ، وهذه الحالُ هي نزاع المرءِ للموت . وقوله تعالى : [أَنْتُمْ] إِشارة إِلى جميع البشر ، وهذا من الاقتضاب ، كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (٢). وقرأَ عيسى بن عمر : [حينئذٍ] بكسر النون ، و [تَنْظُرُونَ] معناه : إِلى المنازع في الموت . وقوله تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْه مِنْكُمْ﴾ يحتمل أَن يريد ملائكته ورسله ، ويحتمل أَن يريد : بقدرتنا وغلبتنا ، فعلى الاحتمال

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ، عن سفيان ، عن محمد بن إسحق ، عن محمد بن إبراهيم ، عن أبي هريرة ، والذي ذكر هذا الحديث لسعيد بن المسيّب هو محمد بن إبراهيم فقال ابن المسيّب : ونحن قد سمعنا من أبي هريرة ، وقد أخبرني من شهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ... إلخ ما ذكره المؤلف .

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (النساء) .

الأَول يجيءُ قوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ من النظر بالعين ، وعلى التأْويل الثاني يجيءُ من النظر بالقلب ، وقال عامر بن عبد قيس : ما نظرتُ إلى شيءٍ إلّا رأَيْتُ الله تعالى أَقرب إليه مني .

ثم عاد التوقيف والتقرير ثانية بلفظ التَّخْصِيص (١) ، و « المَدِينُ » : المملوك ، هذا أَصح ما يقال في معنى اللفظة هنا ، ومن عبَّر عنها بالمُجَازِي أَو المُحَاسَب فذلك هنا قلق ، والمملوك يقلَّب كيف شاءَ المالك ، ومن هذا المِلك قول الأَخطل :

رَبَتْ فَرَبَى فِي حِجْرِهَا ابنُ مَدِينَـة تَرَاهُ عَلَى مِسْحَاتِهِ يَتَرَكَّلُ (٢)

أَراد : ابن أَمَة مملوكة ، وهو عبد يخدم الكَرْمَ ، وقد قيل في معنى هذا

---

(١) في بعض النسخ : « بلفظ التحقيق » ، والصواب ما أثبتناه ، راجع الهامش رقم (١) من الصفحة رقم (٢٧٦) .

(٢) البيت من قصيدة قالها أبو مالك غياث بن غوث الأخطل ، وهي في وصف خمر بَيْسان من قرى فلسطين ، وهي أول قصيدة في الديوان ، والبيت في اللسان والتاج ، والرواية فيهما : (ربَتْ ورَبَا في كَرْمِهَا) ، والمِسْحاةُ : الفأسُ ، ومعنى يترَكَّلُ : يضغط عليها برجله أو يتورَّك عليها بها لتنزل في الأرض . والشاهد أن قوله : (ابن مدينة) يمكن أن يُفهم على أنه أراد : ابن أمَةٍ مملوكة ، وذلك أنه يقال للأمة : مدينة ، أي مملوكةٌ ، كما يقال للعبد : مَدينٌ ، أي مملوك ، ويمكن أن يفهم (ابن مدينة) على أنه من أهل الحضر الذين يسكنون المدن ، وعلى هذا فلا شاهد فيه ، وفي اللسان : « يقال للرجل الفَطِن العالم بالأمر : ابن بَجْدَتها ، وابن مدينتها ، وابن بلدتها » .

البيت : أَراد أَكَّاراً حَضَرِيًّا لأَن الأَعراب في البادية لا يعرفون الفلاحة وعمل الكرم ، فَنَسَبَه إلى المدينة لما كان من أَهلها ، فمعنى الآية : فلولا ترجعون النفس البالغة إلى الحُلْقُوم إن كنتم غير مملوكين ولا مقهورين ، ودينُ الْمَلِك حُكْمُه وسُلْطَانُه ، وقد نحا إلى هذا المعنى الفراءُ ، وذكره مُستوعباً النقاش . وقوله تعالى : [تَرْجِعُونَهَا] سدَّت مَسَدَّ الأَجوبة والبيانات التي تقتضيها التخصيصات (١) ، و [إِذَا] من قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا ﴾ و [إِنْ] المتكررة ، وحمل بعض القول بعضاً إيجازاً واقتضاباً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

(١) يريد بالتخصيصات أن الله تعالى خَصَّص عجزهم عن ارجاع الروح إلى الجسد وجعله أولاً مُقَيَّداً بوقت بلوغ الحلقوم ، كما جعله ثانياً مُعَلَّقاً على انتفاء مربوبيتهم ، فهم لا يقدرون على ارجاعها لأن مربوبيتهم موجودة فهم مقهورون ولا قدرة لهم . والمراد بقوله : « سَدَّت مَسَدَّ الأجوبة » أنَّ [تَرْجِعُونَهَا] سدَّ مسدَّ جواب [لَوْلا] الأولى ، و [لَوْلا] الثانية في الآيات الكريمة .

ذكر الله تعالى في هذه الآية حال الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة ، وحال كل امرئ منهم ، فأَما المرءُ من السابقين المقربين فسيلقى عند موته رَوْحاً وريحاناً ، و «الرَّوْحُ» : الرحمةُ والسَّعة والفرج والفرح ، ومنه : روح الله ، و «الرَّيْحان» : الطِّيب ، وهو دليل النعيم ، وقال مجاهد : الريحان : الرِّزْقُ ، وقال أَبو العالية ، وقتادة ، والحسن : الرَّيحان هو الشجر المعروف في الدنيا ، يَلْقَى المُقَرَّب ريحاناً من الجنة ، وقرأَ ابن عباس ، والحسن ، وجماعة كثيرة : [فَرُوحٌ] بضم الرَّاءِ ، وقال الحسن : معناه : روحه تخرج في ريحانة ، وقال الضحاك : الريحانُ : الاستراحة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

الريحان ما تنبسط إِليه النفوس ، وقال الخليل : هو طرف كل بَقْلة طيبة فيها أَوائل النَّوْر ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما : (هما ريحانتاي من الدنيا)(١) ،

(١) أخرجه البخاري في (فضائل الصحابة) و (الأدب) ، والترمذي في المناقب ، ولفظه في البخاري عن ابن أبي نعيم : سمعتُ عبد الله بن عمر ، وسأله عن المُحْرِم ، قال شُعبة : أحْسِبه يقتل الذباب ، فقال : أهل العراق يسألون عن الذباب وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (هُمَا رَيحانتاي من الدنيا) .

وقال النَّمر بن تَوْلَب :

سَـــلَامُ الإلَهِ ورَيْحَانُهُ وَرَحْمَتُه وَسَمَـــاءٌ دِرَرْ(١)

وقالت عائشة رضي الله عنها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ : [فَرُوحٌ] بضم الراءِ .

وقوله تعالى : : ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ﴾ عبارة تقتضي جملة مَدْح ، وصفةَ تَخَلُّصٍ وحصول في عال من المراتب ، والمعنى : ليس في أَمرهم إِلَّا السَّلام والنجاة من العذاب ، وهذا كما تقول في مدح رجل : أَمَّا فلان فناهيك به ، أَو بِحَسْبك أَمْرُه ، فهذا يقتضي جملة غير مُفَصَّلة من مدحه ، وقد اضطربت عبارات المتأَولين في قوله تعالى : ﴿فَسَلَامٌ لَكَ﴾ ـ فقال قوم : المعنى : فيقال له : «مُسَلَّم لك أَنك من أَصحاب اليمين» ، وقال الطبري : المعنى : فسلام لك أَنت من أَصحاب اليمين ، وقيل : المعنى : فسلامٌ لك يا محمد ، أَي : لا ترى فيهم إِلَّا السَّلامة من العذاب ، فهذه الكاف في [لَكَ]

(١) سبق التعليق عليه في أول سورة الرحمن ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ . ص (١٨٤) هامش رقم (٢) من هذا الجزء .

إِمَّا أَن تكون للنبي صلى الله عليه وسلم ـ وهو الأَظهر ـ ثم لكلٍّ معتبر فيها من أُمَّته ، وإِمَّا أَن تكون لمن يخاطبه من أَصحاب اليمين ، وغيرُ هذا مما قيل فيه تكلُّفٌ .

و «المُكَذِّبُونَ الضَّالُّونَ» هم الكفار أَصحاب الشمال والمشأَمة ، و «النُّزُلُ» أَوَّلُ شيءٍ يقدم للضيف ، و «التَّصْلِيَةُ» أَن تباشر بهم النار ، و «الجحيم» معظم النار وحيثُ تراكمها .

ولمَّا كَمُلَ تقسيم أَحوالهم وانقضى الخبر بذلك أَكَّد تعالى الإِخبار بأَن قال لنبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم مخاطبة تدخل معه أُمَّته فيها : إن هذا الذي أَخبرتك به لَهُوَ حقُّ اليقين ، وإِضافة الحَقِّ إلى اليقين عبارة فيها مبالغة لأَنهما بمعنى واحد ، فذهب بعض الناس إلى أَنه من باب «دار الآخرة» و «مسْجد الجامع» ، وذهبت فرقة من الحُذَّاق إلى أَنه كما تقول في أَمر تؤكده : هذا يقين اليقين ، أَو صواب الصواب ، بمعنى أَنه نهاية الصواب ، وهذا أَحسن ما قيل فيه ، وذلك لأَن «دار الآخرة» وما أَشبهها يحتمل أَن تقدِّر شيئاً أَضفت الدار إليه ووصفته بالآخرة ثم حذفته وأَقمت الصفة مقامه ، كأَنك قلت : «دار الرجعة الآخرة» ، أَو دار النشأَة الآخرة» ، أَو «الحلقة

الآخرة » ، وهنا لا يتَّجه هذا ، وإنما هي عبارة مبالغة وتأْكيد معناها أَن هذا الخبر هو نفس اليقين وحقيقته (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ عبارة تقتضي الأَمر بالإعراض عن أَقوال الكفرة وسائر أُمور الدنيا المختصة بها ، والإقبال على أُمور الآخرة ، وعبادة الله تعالى والدعاءِ إِليه ، وروى عقبة بن عامر (٢) أنه لما نزل ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم : (اجعلوها في ركوعكم) ، فلما نزلت ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلأَعْلَى ﴾ قال : (اجعلوها في سجودكم) (٣) ، ويحتمل أَن يكون المعنى : سبِّح الله تعالى بذكر أَسمائه العُلَى ، و « الاسم » هنا بمعنى الجنس ، أَي : بأَسماءِ ربِّك ، و « العظيم » صفة للرَّبِّ تعالى ، وقد يحتمل أَن يكون « الاسم » هنا واحداً مقصوداً ، ويكون « العظيم » صفة له ،

(١) قال قتادة : « إن الله تعالى ليس بتارك أحداً من الناس حتى يقفه على اليقين من هذا القرآن ، فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة ، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين » .

(٢) هو عقبة بن عامر الجهني ، صحابي مشهور ، اختلف في كنيته على سبعة أقوال ، أشهرها أبو حماد ، ولي أمْرَ مصر لمعاوية ثلاث سنين ، وكان فقيهاً فاضلاً ، مات في قرب الستين . (تقريب التهذيب) .

(٣) أخرجه سعيد بن منصور ، وأحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه .

فكأنه أَمره أَن يسبحه باسمه الأَعظم وإن كان لم يَنُصَّ عليه ، ويؤيد هذا ويشير إليه اتصال سورة الحديد وأَولها فيه التَّسبيحُ وجملةٌ من أَسماءِ الله تعالى ، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : «اسم الله الأَعظم موجود في ستٍّ آيات من أَول سورة الحديد» ، فتأَمل هذا فإنه من دقيق النظر ، ولله تعالى في كتابه العزيز غوامض لا تكاد الأَذهان تدركها .

❁ ❁ ❁

كمل تفسير سورة الواقعة والحمد لله ربِّ العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

(٥٧) سورة الحديد مدنية وآياتها تسع وعشرون

وهي مدنية ، قال النقاشُ وغيره : بإِجماع من المفسرين ، وقال غيره : هي مكية ، ولا خلاف أَن فيها قرآناً مدنيًّا لكن يشبه صدرُها أَن يكون مكيًّا ، والله تعالى أَعلم ، وقد ذكرنا قول ابن عباس رضي الله عنهما أَن اسم الله عزَّ وجلَّ الأَعظم هو في ستِّ آيات من أَول سورة الحديد ، ورُوي أَن الدعاءَ بعد قراءَتها مستجاب (١) .

---

(١) أخرج أحمد ، والترمذي وحسّنه ، والنسائي ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الشُّعب » عن العرباض بن سارية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال : إنَّ فيهن آية أفضل من ألف آية ، ولكن في إسناده بَقيَّة بن الوليد وفيه مقال معروف ، وقد أخرجه النسائي عن خالد بن معدان ، ولم يذكر العرباض بن سارية ، فهو حديث مرسل، =

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)﴾

قال أَكثر المفسرين : التَّسبيح هنا هو التَّنزيه المعروف في قولهم : «سبحان الله» ، وهذا عندهم إخبارٌ بصيغة الماضي مُضمَّنه الدوامُ وأن التَّسبيح ممَّا ذُكر دائم مستمر ، واختلفوا ، هل هذا التسبيح حقيقة أَو مجاز على معنى أَن أَثر الصنعة فيها يُنَبِّه الرائي على التسبيح؟ قال الزجاج وغيره : والقول بالحقيقة أَحسن ، وقد تقدم القول فيه

= وأخرجه ابن الضريس عن يحيى بن أبي كثير ، وقد قال ابن كثير في تفسيره: «والآية المشار إليها — والله أعلم — هي قوله : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ الآية ، وكان يحيى بن أبي كثير يقول : فنراها الآية التي في آخر سورة الحشر .

غير مرة ، وهذا كله في الجمادات ، وأَمَّا ما يمكن التسبيح منه فقول واحد أَن تسبيحهم حقيقة ، وقال قوم من المفسرين : التسبيح في هذه السورة الصلاةُ ، وهذا قول متكلف ، فأَمَّا فيمن يمكن منه ذلك فسائغ ، وعلى أَن سجود ظلال الكفار هي صلاتهم ، وأَمَّا في الجمادات فيقلق ، وذلك أَن خضوعها وخشوع هيئتها قد يُسمى في اللغة سجوداً تجوزاً واستعارة ، كما قال الشاعر :

. . . . تَرَى الأُكْمَ فِيه سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ(١)

ويبعد أَن تُسَمَّى تلك صلاة إِلَّا على تجوز .

وقوله تعالى : ﴿مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عامٌّ في جميع المخلوقات ، وقال بعض النحاة : التقدير : ما في السموات وما في الأَرض ، ف [مَا] نكرةٌ موصوفةٌ ، فلما تكرر موصوفُها حذفها وأَقام الصفة مقامها ،

---

(١) هذا عجز بيت سبق الاستشهاد به أكثر من مرة ، وأولها عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ ، والبيت في اللسان والتاج والطبري والقرطبي ، وهو بتمامه :

بِجَمْعٍ تَضِلُّ الْبُلْقُ في حَجَراتِهِ تَرَى الأُكْمَ فيهِ سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ

والبُلْق : جمع أَبْلق وهو الفرس إذا كان فيه بياض وسواد ، والحَجَرات : الجوانب ، والأكم : التـــــلال .

وهو العزيز بقدرته ، وسلطانه ، الحكيم بلطفه وتدبيره وحكمته ، ومَلِك السموات والأَرض هو سلطانها الحقيقي الدائم ؛ لأَن ملك البشر مجازٌ فان ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، أَي على كل شيءٍ مقدور .

قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ . الأَول : الذي ليس لوجوده بداية مُفْتَتَحَة ، والآخر : الذي ليس له نهاية منقضية . وقال أَبو بكر الوراق : هو الأَول بالأَزلية والآخر بالأَبدية ، وهو الأَول بالوجود ؛ إذ كُلُّ موجود فبعده وبه ، والآخر إِذا نظر العقل في الموجودات حتى يكون إِليه منتهاها ، قال عزَّ وجلَّ : ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهَىٰ﴾(١) . و [ٱلظَّاهِرُ] معناه : بالأَدلة ونظر العقول في صنعته ، و [ٱلْبَاطِنُ] بلطفه وغوامض حكمته وباهر صفته التي لا تصل إلى معرفتها – على ما هي عليه – الأَوهام ، ويحتمل أَن يريد تعالى بقوله : ﴿وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ الذي بهر ومَلَكَ فيما ظهر للعقول وفيما خفي عنها ، فليس في الظاهر غيره حسب قيام الأَدلة ، وليس في باطن الأَمر وفيما خفي على النظرة مِمَّا عَسَى أَن يُتوهم غيرُه . وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عام في الأَشياءِ عموماً تامًّا .

---

(١) الآية (٤٢) من سورة (النجم) .

وقد تقدم القول في خلق السموات والأرض ، وأكثر الناس على أن بدأة الخلق في يوم الأحد ، ووقع في مسلم أن البداية في يوم السبت ، وقال بعض المفسرين : الأيام الستة من أيام القيامة ، وقال الجمهور : من أيام الدنيا ، وهو الأصوب ، و « الاستواءُ على العرش » هو بالغلبة والقهر المستمرَّيْن بالقدرة ، وليس ما في قهر العباد من المحاولة والتعب ، وقد تقدم القول في مسألة الاستواءِ مستوعباً في طه وغيرها . و ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هو المطر والأموات وغير ذلك ، و ﴿مَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ هو النبات والمعادن وغير ذلك ، و ﴿مَا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ الملائكة والرحمة والعذاب وغير ذلك ، و ﴿مَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ هو الأعمال صالحها وسَيِّئُهَا والملائكة وغير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾ معناه : بقدرته وعلمه وإحاطته وهدايته ، أجمعت الأمة على هذا التأويل فيها ، وأنها مخرجة عن معنى لفظها المعهود ، ودخل في الإجماع من يقول بأن هذا أمر المُشْتَبَه كله ، ينبغي أن يمر ويؤمن به ولا يُفَسَّر ، وقد أجمعوا على تأويل هذه لبيان وجوب إخراجها عن ظاهرها ، قال سفيان الثوري : المعنى : علْمُه معكم ، وتأويلهم هذه حجة عليهم في غيرها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ خبر يعم جميع الموجودات ، و [ٱلْأُمُورُ] هنا ليست جمع المصدر ، بل هي جميع الموجودات لأَن الأَمر والشيءَ والموجود أَسماءٌ شائعة في جميع الموجودات أَعراضها وجواهرها ، وقرأَ الجمهور : [تُرْجَعُ] بضم التاءِ ، وقرأَ الأَعرج ، وابن أَبي إِسحق : [تَرْجِـعُ] بفتح التاءِ .

وقوله تعالى : ﴿يُولِـجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ الآية تنبيه على العبرة فيما يتجاذبه الليل والنهار من الطُّول والقِصَر ، وذلك متشعب مختلف حسب اختلاف الأَقطار والأَزمان الأَربعة ، وذلك بحر من بحار الفكرة

لمن تأمله ، و [يُولِـجُ] معناه : يُدخل ، و «ذَاتُ الصُّدُور» : ما فيها من الأَسرار والمعتقدات وذلك أَغمض ما يكون ، وهذا كما قالوا : «الذِّئب مغبوطٌ بِذِي بطنه»(١) ، وكما قال أَبو بكر الصديق رضي الله عنه : «إِنما هو ذو بطن بنت خارجة» .

وقوله تعالى : ﴿آمنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية . أَمْرٌ للمؤمنين بالثبوت على الإِيمان والنفقة في سبيل الله ، ويروى أَن هذه الآية نزلت في غزوة العُسْرة ، وهي غزوة تبوك ، قاله الضحاك ، وقال : الإِشارة بقوله تعالى : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا﴾ إِلى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وحكمها باقٍ يندب إِلى هذه الأَفعال بقية الدهر . وقوله تعالى : ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ تزهيدٌ وتنبيهٌ على أَن الأَموال إِنما تصير إِلى الإِنسان من غيره ويتركها لغيره ، وليس له من ذلك إِلَّا ما تضمنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يقول

---

(١) ويروى : الذئب يُغبط بغير بطنة ، و ما في بَطْنه ، قال أبو عبيد : وذلك أنه ليس يُظن به الجوع أبداً ، إنما يُظن به البِطْنة لأنه يعدو على الناس والماشية ، قال الشاعر :

وَمَنْ يَسْكُنِ الْبَحْرَيْنِ يَعْظُمْ طحالُه ... ويُغْبَــطُ ما في بَطْنِهِ وهُوَ جَائِــعُ

وقال غيره : إنما قيل فيه ذلك لأنه عظيم الجفْرة أبداً ، لا يبين عليه الضمور وإن أجهده الجوع ، قال الشاعر :

لَكَالذِّئْب مَغْبُوطُ الْحَشَا وهُوَ جَائِــعُ

ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلَّا ما أَكلت فأَفنيت ، أَو لَبستَ فأَبليت ، أَو تصدقت فأَمضيت)(١)، ويروى أَن رجلًا مرَّ بأَعرابي له إِبلٌ فقال له : يا أَعرابي ، لمن هذه الإبل ؟ فقال : هي لله تعالى عندي ، فهذا موافق مصيب إِن كان ممن صحب قولَه عملُه .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ الآية توطئةٌ لدعائهم وإِيجابٌ لأَنهم أَهل هذه الرُّتب الرفيعة ، فإِذا تقرر ذلك فلا مانع من الإِيمان ، وهذا كما تريد أَن تندب رجلًا إِلى عطاءٍ فتقول له : أَنت يا فلان من قوم أَجواد فينبغي أَن تُكْرم ، وهذا مُطَّرد في جميع الأُمور ، إِذا أَردتَ من أَحد فعلًا خَلَّقْته بخُلُق أَهل ذلك الفعل وجعلتَ له رتبتهم ، فإِذا تقرر في هؤلاءِ أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم ، وأَنهم مِمَّن أَخذ الله ميثاقهم ، فكيف يمتنعون من الإِيمان ؟

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق ، ومسلم في الزهد ، وأبو داود في الطلاق ، والترمذي في الزهد وتفسير سورة التكاثر ، والنسائي في الوصايا ، وأحمد في مسنده (٢–٣٦٨ ، ٤١٢ ، ٤–٢٤ ، ٢٦) ، ولفظه كما في مسلم : عن مطرف ، عن أبيه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ، قال : يقول ابن آدم : مالي مالي ، قال : وهل لك يا ابن آدم من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت) ، ومعنى « فأمضيت » : نفّذت ما أردت التصدق به . وفي رواية عن أبي هريرة ذكرها أحمد في مسنده زيادة قوله : (ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس) .

وقرأ جمهور القراء : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ على بناءِ الفعل للفاعل ، وقرأ أبو عمرو : ﴿ وَقَدْ أُخِذَ ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول ، والآخذُ على كلٍّ قول هو الله تعالى ، وهذا الأَخذ كان حين الإِخراج من ظهر آدم عليه السلام على ما مضى في غير هذه السُّورة(١) ، والمخاطبة ببناءِ الفعل للمفعول أَشد غِلَظاً على المخاطب ، ونحوه قول الله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾(٢) ، وكما تقول لِامْرِئٍ : افعل ما قيل لك ، فهو أَبلغ من قولك : افعل ما قلتُ لك .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، قال الطبري : المعنى : إِن كنتم مؤمنين في حالٍ من الأَحوال فالآن ، وهذا معنى ليس في لفظ الآية وفيه إِضمار كثير ، وإِنما المعنى عندي أَن قول الله تعالى : ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ يقتضي أَن يُقَدَّر بأَثره : فأَنتم في رُتَب شريفة وأَقدار رفيعة إِن كنتم مؤمنين ، أَي إِذا دمتم على ما بدأْتُم به .

وقرأ بعض السبعة : [يُنَزِّلُ] مثقَّلة ، وقرأ بعضهم : [يُنْزِلُ] مخففة ، وقرأَها الحسن وعيسى بالوجهين ، وقرأ الأَعمش : [أَنْزَلَ] ،

(١) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ ، الآية (١٧٢) من سورة (الأعراف) . (ج ٦ ص ١٣٤) .

(٢) من الآية (١١٢) من سورة (هود) .

والعبد في قوله تعالى : ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ، و « الْآيَاتِ » آيات القرآن ، و « الظُّلُمَاتِ » : الكفر ، و « النُّورُ » : الإيمان ، وما في الآية وعْدٌ وتأْنيس مؤكد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾

المعنى : وما لكم أَلَّا تنفقوا في سبيل الله وأَنتم تموتون وتتركون أَموالكم ؟ فناب مناب هذا القول قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وفيه زيادة تذكير بالله عزَّ وجلَّ وعبرة ، وعنه يلزم القول الذي قدرناه .

قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ الآية ، رُوي أَنها نزلت بسبب أَن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أَنفقت نفقات كثيرة حتى قال الناسُ : هؤلاءِ أَعظم أَجراً من كلِّ

من أَنفق قديماً ، فنزلت الآية مبينةً أَن النفقة قبل الفتح أَعظم أَجراً ، وهذا التأْويل على أَن الآية نزلت بعد الفتح ، وقد قيل : إنها نزلت قبل الفتح تحريضاً على الإنفاق ، والأَوّل أَشهر ، وحكى الثعلبي أَنها نزلت في أَبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وفي نفقاته (١) ، وفي معناه قول النبي صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد رضي الله عنه : (اتركوا لي أَصحابي ، فلو أَنفق أَحدكم مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مُدَّ أَحدهم ولا نصيفه) (٢) .

---

(١) ذكر ذلك الواحدي في كتابه « أسباب النزول » عن محمد بن غزوان عن الكلبي ، ولكن الكلبي متَّهم بالكذب ، كذلك رواه الواحدي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وفي سنده ضعف ، وذكره ابن كثير في تفسيره ثم قال : « هذا الحديث ضعيف الإسناد من هذا الوجه والله أعلم » . وفضل أبي بكر رضي الله عنه وإنفاقه في سبيل الله أمران معروفان ، ولا يقلل من ذلك ضعف هذا الحديث ، ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم كثير يؤكد فضله وسبقه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أنس قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن ابن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها . فبلغنا أن ذلك قيل للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : (دَعُوا لي أصحابي ، فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أُحد ، أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم) ، قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث : « ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد بعد الفتح ، فجعلوا يقولون : صبأنا ، صبأنا ، فلم يُحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أُسر منهم ، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما ، =

واختلف الناس في الفتح المشار إليه في هذه الآية ـ فقال أَبو سعيد الخدري ، والشعبي : هو فتح الحديبية ، وقد تقدم في سورة الفتح تقدير كونه فتحاً ، ورفعه أَبو سعيد رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّ أَفضل ما بين الهجرتين فتح الحديبية (١) . وقال قتادة ، ومجاهد ، وزيد بن أَسلم : هو فتح مكة الذي أَزال الهجرة ، وهذا

= فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك ، والذي في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا تسبُّوا أصحابي ، فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه) .

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ، حتى إذا كان بعسفان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم ، قلنا : من هم يا رسول الله ؟ أقريش ؟ قال : لا ، ولكنهم أهل اليمن ، هم أرقُّ أفئدة وألْيَنَ قلوباً ، فقلنا : أهم خير منَّا يا رسول الله ؟ قال : لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ما أدرك مُدَّ أحدكم ولا نصيفه ، ألا إن هذا فصل ما بيننا وبين الناس ، ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ الآية . قال ابن كثير بعد أن أورد هذا الحديث : وهذا الحديثُ غريبٌ بهذا السياق ، والذي في الصحيحين من رواية جماعة عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد ذكر الخوارج : (تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية...) الحديث ، ولكن روى ابن جرير هذا الحديث من وجه آخر ، وساق الحديث من هذا الوجه ثم قال : فهذا السياق ليس فيه ذكر الحديبية ، فإن كان ذاك ـ أي الرواية الأولى ـ محفوظاً كما تقدم فيحتمل أنه أنزل قبل الفتح إخباراً عما بعده .

هو المشهور الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيَّة)(١)، وقال له رجل بعد فتح مكة : أُبايعك على الهجرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الهجرة قد ذهبت بما فيها ، وإن الهجرة لشأْنها شديد ، ولكن أُبايعك على الجهاد)(٢)، وحكم الجهاد باق إلى غابر الدهر ، فمن أَنفق في وقت حاجة السبيل أَعظم أَجراً ممن أَنفق مع استغناءِ السبيل ، وأَكثر المفسرين على أَن قوله تعالى : [يَسْتَوِي] مسند إلى [مَنْ] وترك ذكر المعادل الذي لم يستَوِ معه لأَن قوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ﴾ قد فَسَّره وبَيَّنه ، ويحتمل أَن يكون فاعل [يَسْتَوِي] محذوفاً تقديره : لا يستوي منكم الإنفاقُ ، ويؤيد ذلك أَن ذكره قد تقدم في قوله

(١) أخرجه البخاري في الصيد والجهاد ومناقب الأنصار والمغازي ، ومسلم في الإمارة ، والترمذي في السِّير ، والنسائي في البيعة ، وابن ماجه في الكفارات ، والدارمي في السِّير ، وأحمد في أكثر من موضع من مسنده ، ولفظه كما جاء في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيَّة ، وإذا استُنْفِرْتُمْ فانفروا) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي عن مجاشع قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بأخي بعد الفتح ، فقلت : يا رسول الله ، جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة ، قال : ذهب أهل الهجرة بما فيها ، فقلت : على أي شيءٍ تبايعه ؟ قال : أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد ، فلقيت أبا مَعْبَد بَعْدُ ــ وكان أكبرهما ــ فسألته ، فقال : صدق مجاشع .

تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا﴾ ، ويكون قوله تعالى : ﴿مَنْ أَنْفَقَ﴾ ابتداءٌ وخبره الجملة الآتية بَعْدُ(١) .

وقرأ جمهور السبعة : ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَى﴾، وهي الوجه لأَن [وَعَدَ] ليس يعوقه عائق عن أَن ينصب الفعل المقدم ، وقرأ ابن عامر : ﴿وَكُلٌّ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَى﴾ ، فأَمَّا سيبويه رحمه الله تعالى فقدر الفعل خبراً لابتداءٍ ، وفيه ضمير عائدٌ ، وحذْفُهُ عنده قبيح لا يجري إِلَّا في الشعر ونحوه ، ومنه قول الشاعر :

قَدْ أَصْبَحتْ أُمُّ الْخِيَارِ تَدَّعِي عَلَيَّ ذَنْباً كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ (٢)

---

(١) وهي قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ ٱلَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ . وقد ذكر أبو حيان هذا الرأي ووصفه بالبعد ، وقال : « وهذا فيه تفكيك للكلام ، وخروج عن الظاهر لغير موجب » .

(٢) هذا الرجز قاله أبو النجم العجلي ، و « أُمُّ الخيار » هي زوجته ، و « الذَّنْب » الذي ادعته عليه وهو لم يصنعه هو الشَّيب والصلع والشيخوخة ، يقول : إنها تلومني على شيبتي وشيخوختي وهو ذنب لم أرتكبه أنا ، والشعر في خزانة الأدب للبغدادي ، وفي كتاب سيبويه ، وفي شرح شواهد المغني ، وأمالي ابن الشجري ومغني اللبيب ، وقد أكثر النحويون والبيانيون الكلام في هذا البيت ، واختلفوا فيه اختلافاً كبيراً بين نصب (كلّه) ورفعه ، وابن عطية ينقل عن سيبويه أن في الفعل (أصنع) ضمير يعود على المبتدأ وهو (كل) ، وأن التقدير : « لم أصنعه » ، والحذف عنده قبيح ولا يقبل إلاّ في الشعر ، ولكن غير سيبويه يجيز ذلك كالفراء والكسائي وابن مالك ، والبيانيون يقولون : إن رفع «كل» أفضل لأنه يقتضي أنه لم يصنع شيئاً من هذا الذي ادعته عليه من ذنوب ، فالنفي ينصب على كل ذنب من الذنوب، وأما النصب فيقتضي =

قال : ولكن حملوا الخبر على الصفات كقول جرير :

. . . . وَمَا شَيْءٌ حَمَيْتَ بِمُسْتَبَاحِ (١)

وعلى الصِّلات كقوله تعالى : ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشراً رَسُولًا﴾(٢) ، وذهب غير سيبويه إلى أن [وَعَدَ] في موضع الصفة ، كأنه قال : أُولئك وكُلٌّ وعد الله الحسنى ، وصاحبُ هذا المذهب جعل في هذا التَّعسُّف في المعنى فِراراً من حذف الضمير من خبر الابتداءِ . و [ٱلْحُسْنَى] : الجنَّة ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والوعدُ يتضمن ما قبل الجنة من

= أنه لم يصنع الذنوب مجتمعة، وهذا لا ينفي أنه قد صنع بعضها ، وبعض العلماء ينقض ذلك ، راجع خزانة الأدب ، والمحتسب ، والتسهيل وغيرها . ومثل هذا البيت قوله صلى الله عليه وسلم — حين قال له ذو اليدين : أَقَصُرت الصَّلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ — : «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ» ، أي : لم تقصُر الصلاة ولم أنْسَ .

(١) هذا عجز بيت قاله جرير يخاطب عبد الملك بن مروان ، والبيت بتمامه :

أَبَحْتَ حِمَى تِهَامَةَ بَعْدَ نَجْدٍ وَمَا شَيْءٌ حَمَيْتَ بِمُسْتَبَاحِ

يقول له : ملكت العرب وأبحت حماها بعد إبائها عليك ، وما حميته لا يستطيع أحد أن يستبيحه لقوة سلطانك ، وتِهامة : ما هبط ونزل من بلاد العرب ، ونجد : ما علا وارتفع منها ، يعني ملكت جميع البلاد العربية ، والبيت شاهد لجواز حذف الهاء من الفعل إذا وقعت جملته نعتاً ؛ لأن النعت مع المنعوت كالصِّلة مع الموصول ، وحذفها في الصِّلة حَسَن فضارعها النعت في ذلك ، وتقدير الكلام : «وما شيءٌ حَمَيْتَه بِمُسْتَبَاحِ» ، والبيت في الديوان ، وفي الكتاب لسيبويه ، وأمالي ابن الشجري ، ومغني اللبيب .

(٢) من الآية (٩٤) من سورة (الإسراء) .

نصر وغنيمة . وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قـــولٌ فيه وعْـــدٌ ووعيد .

قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ الآية . قال بعض النحويين : [مَنْ] ابتداءٌ ، و [ذَا] خبره ، و [ٱلَّذي] صفة ، وقال آخرون منهم : [مَنْ] ابتداءٌ ، و [ذَا] زائدةٌ مع [ٱلَّذِي] ، و [ٱلَّذِي] خبر الابتداءِ ، وقال الحسن : نزلت هذه الآية في التطوع في جميع أَمر الدين ، و «الْقَرْضُ» و «السَّلَفُ» ونحوه : أَن يعطي الإِنسان شيئاً وينتظر جزاءَه ، و «التضعيف» من الله تعالى هو في الحسنات ، يضاعف الله تعالى لمن يشاءُ من عشرة إِلى سبعمائة ، وقد ورد أَن التضعيف يزيد على سبعمائة ، وقد مرَّ ذكر ذلك في سورة البقرة بوجوهه من التأْويل(١). وقرأَ أَبو عمرو ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي : [فيُضَاعِفُهُ] بالرفع على العطف أَو على القطع والاستئناف ، وقرأَ عاصم ، وابن عامر : [فَيُضَاعِفَهُ] بالنصب بالفاءِ في جواب الاستفهام ، وذلك قلقٌ ، قال أَبو عليٍّ : لأَن السؤال لم يقع عن القرض ، وإِنما وقع السؤال عن فاعل القرض ، وإِنما تنصب الفاءُ فعلًا مردوداً على فعل مستفهم عنه ، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى ، كأَن قوله تعالى :

---

(١) راجع الجزء الثاني صفحة (٤٢٧) .

﴿مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ﴾ بمنزلة أن لو قال : أَيقرضُ اللهَ أَحدٌ فيضاعفَه ، وقرأَ ابن كثير : [فَيُضَعِّفُهُ] مشددة العين مضمومة الفاءِ ، وكذلك قرأَ ابن عامر ، إلَّا أَنه فتح الفاءَ . و «الْأَجْرُ الكَرِيم» : الذي يقترنُ به رضًى وإقبال ، وهذا معنى الدعاءِ : «يا كريم العفو» ، أَي أَنَّ مع عفوه رضًى ومغنماً ، وعفو البشر ليس كذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾

العامل في [يَوْمَ] قوله تعالى : ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ ، و «الرُّؤْية» في هذه الآية رؤْية عين ، و «النُّورُ» ، قال الضحاك بن مزاحم : هي استعارة ، عبارة عن الهدى والحق الذي هم عليه وهدايتُهم الناس

إلى الحق وصدقُهم في الأفعال والأقوال ، وقيل : تَتَبُّعهم الرشاد واعتقادُهم به واقتصاصُهم آثاره وعلاماته وأنواره ، وقيل : هي استعارة ، عبارة عن الهدى والرضوان الذي هم فيه ، وقال الجمهور : بل هو نور حقيقة ، ورُوي في هذا عن ابن عباس وغيره آثار مضمنها أن كل مؤمن مُظهر للإيمان يُعطى يوم القيامة نوراً ، فَيُطْفَى نور كل منافق ويبقى نور المؤمنين ، حتى إن منهم من نوره يضيءُ كما بين مكة وصنعاء ، رفعه قتادة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من نوره كالنخلة السَّحُوق(١) ، ومنهم من نوره يضيءُ ما يقرب من قدميه ، قاله ابن مسعود رضي الله عنه ، ومنهم من يهم نوره بالانطفاء مرَّةً ويَبين مرَّةً ، على قدر المنازل في الطاعة والمعصية ، وخص تعالى «بين الأَيدي» لأَنه موضع حاجة الإنسان إلى النور .

واختلف الناس في قوله تعالى : [وَبِأَيْمَانِهِمْ] — فقال بعض المتأَولين : المعنى : وعن أَيمانهم ، فكأَنه تعالى خصَّ جهة اليمين تشريفاً ، وناب ذلك مناب أَن يقول : وفي جميع جهاتهم ، وقال آخرون منهم : المعنى : وبأَيمانهم كتبُهم بالرحمة ، وقال جمهور المفسرين : المعنى : يَسْعَى نورهم بين أَيديهم ، يريد تعالى الضوءَ المنبسط من أَهل النور ،

(١) السَّحُوق : الطويلة ، يقال في وصف النخلة والمرأة .

وبأَيمانهم أَصْلُه والشيءُ الذي هو مُتَّقد فيه ، فمُضَمَّن هذا القول أَنهم يحملون الأَنوار ، وكونُهم غير حاملين [لها](١) أَكرم ، أَلا ترى أَن فضيلة عَبَّاد بن بشر ، وأُسَيْد بن حُضَيْر(٢) رضي الله عنهما إنما كانت بنور لا يحملانه ؟ هذا في الدنيا فكيف في الآخرة ؟ ومن هذه الآية انتزع حمل المُعْتَق للشمعة . وقرأَ الناسُ : [وَبِأَيْمَانِهِمْ] جمع يمين ، وقرأَ سهل بن سعد ، وأَبو حيوة : [وَبِإِيمَانِهِمْ] بكسر الألف ، وهو معطوف على قوله تعالى : ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ، كأَنه تعالى قال : كائِناً بين أَيديهم وكائناً بسبب إيمانهم .

وقوله تعالى : [بُشْرَاكُمُ] معناه : يقال لهم : بُشْراكم جنات ، أَي دخولُ جنات ، فحذف المضاف وأَقام المضاف إليه مقامه ، وقوله

---

(١) ما بين العلامتين [....] زيادة لتوضيح المعنى .

(٢) أما « عبَّاد » فهو : عبَّاد بن بشر بن وَقَش – بفتح الواو وبالقاف وبالشين المعجمة – الأنصاريُّ ، من قدماء الصحابة ، أسلم قبل الهجرة ، وشهد بدراً ، وأبلى يوم اليمامة أحسن البلاء فاستشهد بها . كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعثه إلى القبائل يُصدِّقها – أي يجمع الصدقات – وجعله على مقاسم حنين ، واستعمله على حرسه في تبوك .

وأما « أُسَيْد » فهو : أُسَيْد بن الحُضَيْر بن سِمَاك بن عَتيك الأوسي ، صحابي ، كان شريفاً في الجاهلية والإسلام ، يعدُّ من عقلاء العرب وذوي الرأي فيهم ، وكان يسمَّى الكامل ، جرح في أُحد سبع جراحات ، وثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وشهد الخندق والمشاهد كلها ، وفي الحديث : (نعم الرجل أُسيْد بن الحضَيْر) ، توفي بالمدينة ، وله ثمانية عشر حديثاً .

تبارك وتعالى : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ إلى آخر الآية مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : «ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ» بدون «هو» .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ﴾ ، قال بعض النحاة : [يَوْم] بدلٌ من الأول ، وقال آخرون منهم : العاملُ فيه مضمر تقديره : اذكر ، ويظهر لي أن العامل فيه قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ، ويجيءُ معنى الفوز أفخم ، كأنه تعالى يقول : إن المؤمنين يفوزون بالرحمة يوم يعتري المنافقين كذا وكذا ، لأن ظهور المرءِ يوم خمول عدوه ومضادِّه أبدع وأفخم ، وقولُ المنافقين هذه المقالة المحكية هو عند انطفاءِ أنوارهم كما ذكرنا قبل ، وقولهم : «انْظُرُونَا» معناه : انتظرونا ، ومنه قول الحطيئة :

وَقَدْ نَظَرْتُكُمْ إينَـاءَ عَاشِيَـــة ... لِلْخِمْسِ طَالَ بِهَا حَبْسِي وتِبْسَاسِي(١)

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر لأنه لم يكرم جواره ، ويمدح بغيض بن عامر الذي أعطاه وأكرم جواره ، والبيت في الديوان ، واللسان ، والتاج ، ومعنى «نظرتكم» : انتظرتكم ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، وإيناء : انتظار ، والعاشية هي الإبل التي ترعى ليلا وتتعشَّى بعد أن شربت ، والخِمس بكسر الخاء : نوع من إظماء الإبل إذ يتركونها أربعة أيام بدون أن تشرب ثم يقدمون لها الماء في اليوم الخامس فتشرب حتى تشبع ، والتبْساس: نوع من مداعبة الإبل بالمسح على ضرع الناقة ، وبالصوت الذي يقال فيه : بس بس =

وقرأ حمزة وحده(١)، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش: [أَنْظِرُونَا] بقطع الألف وكسر الظاء على وزن أَكْرِم، ومنه قول عمرو بن كُلثوم:

أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَـــا وأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ الْيَقِينَـــا(٢)

ومعناه: أَخِّرونا، ومنه النَّظِرَةُ إلى مَيْسَرَة، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً) الحديث(٣)، ومعنى قولهم «أَخِّرونا»:

= حتى تدرَّ لبنها، فالشاعر يقول: إنه فعل مثل ذلك مع الزبرقان وقومه، وانتظر طويلا كالإبل التي تنتظر اليوم الخامس، ولكنه لم ينل من عطائهم شيئاً. ورواية البيت في اللسان:

ولَقَدْ نَظَرْتُكُمْ إِينَاءَ صَـــادِرَةٍ لِلْخِمْسِ طالَ بِهَا حوْزِي وتنْسَاسِي

والصادرة: الإبل التي عادت بعد أن شربت في اليوم الخامس. والحوز: السَّوْق قليلا قليلا، والتنساس: السوق السريع. وفي رواية أخرى: «ولقد نظرتكم أعْشَاءَ»، ومعناها أيضاً: انتظرتكم انتظار هذه الإبل.

(١) يعني: وَحْدَه من بين السبعة المشهورين بالقراءة.

(٢) هذا البيت من معلقة عمرو بن كلثوم، وأبو هند: عَمْرُو بن المنذر، وهو في البيت منصوب على النداء، والفاءُ في «فَلَا تَعْجَلْ» تصل ما بعدها بما قبلها، وأنْظِرْنَا معناه: انتظرنا، أو معناه: أخّرنا — وهو موضع الاستشهاد هنا —. ونُخَبِّرْك: جواب شرط مقدر، أي: أن تنتظرنا أو أن تؤخرنا نخبِّرك اليقين. وقد استشهد الفراءُ بالبيت في «معاني القرآن».

(٣) أخرجه البخاري، والترمذي، والدارمي في البيوع، ومسلم في الزهد، وابن ماجه في الصدقات، وأحمد في مسنده (١—٣٢٧، ٢—٣٥٩، ٥—٣٥١)، ولفظه كما في مسند أحمد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد وهو يقول بيده هكذا — فأومأ أبو عبد الرحمن بيده إلى الأرض —: (من أنظر مُعْسراً أو وضع لَهُ وقاه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حَزْنٌ بربوة — ثلاثاً — ألا إن عمل النار سهل بسهوة، والسعيد مَن وُقي الفِتن، وما من جرعة أحب إليَّ مِن جرعة غيظ يكظمها عبْدٌ، ما كظمها عبْدٌ لله إلا ملأ الله جوفه إيماناً).

أَخِّروا مشيكم لنا حتى نلحق فنقتبس من نوركم ، و « اقْتَبَسَ الرَّجُلُ واسْتَقْبَسَ » : أَخذ من نور غيره قبساً .

وقوله تعالى : ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ﴾ يحتمل أَن يكون من قول المؤمنين ، ويحتمل أَن يكون من قول الملائكة ، وقوله تعالى : [وَرَآءَكُمْ] حكى المهدوي وغيره من المفسِّرين أَنه لا موضع له من الإِعراب ، وأَنه كما لو قال : ارجعوا ارجعوا ، وأَنه على نحو قول أَبي الأَسود الدؤلي : « وراءَك أَوسع لك » ، ولستُ أَعرف مانعاً يمنع أَن يكون العامل فيه [ٱرْجِعُوا] ، والقول لهم : ﴿فَٱلْتَمِسُوا نُوراً﴾ هو على معنى التوبيخ لهم ، أَي أَنكم لا تجدونه ، ثم أَعلم عزَّ وجلَّ أَنه يضرب بينهم في هذه الحال بسور حاجز ، فيسعى المنافقون في ظلمة ، ويأْخذهم العذاب من الله تعالى ، وحكي عن ابن زيد أَن هذا السور هو الأَعراف المذكور في سورة الأَعراف ، وقد حكاه المهدوي ، وقيل : هو حاجز آخر غير ذلك ، وقال عبد الله بن عمرو ، وكعب الأَحبار ، وعُبادة ابن الصامت ، وابن عباس : هو الجدار الشرقي في مسجد بيت المقدس ، وقال زياد بن أَبي سوادة : قام عُبادة بن الصامت على السور الشرقي من بيت المقدس فبكى وقال : من ها هنا أَخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أَنه رأَى جهنم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفيه باب يسمى باب الرحمة ، سمَّاه في تفسير هذه الآية عُبادة وكعبٌ ، وفي الشرق من الجدار المذكور وادٍ يقال له : وادي جهنم ، سمَّاه في تفسير هذه الآية عبد الله بن عمرو ، وابنُ عباس رضي الله عنهم ، وهذا القول في السور بعيد ، والله تعالى أعلم . وقال قتادة ، وابن زيد : الرحمةُ الجنةُ ، والعذابُ جهنمُ ، والسُّور في اللغة الحجاب الذي للمدن(١) وهو مذكر ، والسُّور أيضاً جمع سُورة وهي القطعة من البناءِ فيضاف بعضها إلى بعض حتى يتم الجدار ، فهذا اسم جمع يسوغ تذكيره وتأْنيثه ، وهذا الجمع هو الذي أَراد جرير في قوله :

لمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ سُورُ المَدِينَةِ وَالجِبَالُ الخُشَّعُ(٢)

وذلك أن المدينة لم يكن لها قط حجًى ، وأيضاً فإن وصفَهُ أَنَّ جميع ما في المدينة من بناءٍ تواضَعَ أَبْلغُ ، ومَنْ رأى أنه قصد السُّور الذي

(١) في بعض النسخ : «والسور في اللغة الحِجى الذي للمدن»، والحِجى هو الستر أو الحاجز ، شُبِّه بالعقل الذي يحفظ الإنسان من الهلاك .

(٢) البيت من قصيدة قالها جرير يهجو بها الفرزدق وغيره من الشعراء ، وخَبَرُ ابن الزبير : قتله ، وقد استشهد به ابن عطية على أن «السُّور» اسم جمع يجوز تذكيره وتأنيثه ، وقد أنَّثه جرير ، وقال صاحب اللسان : «أنَّث السُّور لأنه بعض المدينة ، فكأنه قال : تواضعت المدينة» ، والألف واللام في «الخُشَّع» زائده لأن «خشع» خَبَرٌ .

هو الحِجَى قال : إن ذلك إذا تواضع فغيره من المباني أحرى بالتواضع ، فإذا كان السُّور في البيت يحتمل الوجهين فليس هو في قوة مَرِّ الرِّياح ، وصدر القناة ، وغير ذلك مما هو مذكَّر محْضٌ استفاد التأْنيث مما أُضيف إليه .

قوله تعالى : ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ ﴾ ، أي جهة المؤمنين ، [وَظَاهِرُهُ] أي جهة المنافقين ، والظاهر هنا البادي ، ومنه قول الكتاب : «من ظاهر مدينة كذا» .

وقوله تعالى : [يُنَادُونَهُمْ] معناه : ينادي المنافقون المؤمنين : أَلم نكن معكم في الدنيا ؟ فيرد المؤمنين عليهم : بل كنتم معنا ولكنكم عرضتم أنفسكم للفتنة وحُبِّ العاجل والقتال عليه ، قال مجاهد : فَتَنْتُمْ أَنفسكم بالنفاق ، و [تَرَبَّصْتُمْ] معناه هنا : بإيمانكم ، فأَبطأْتم به حتى مُتُّم ، وقال قتادة : معناه : تَرَبَّصْتُمْ بنَا وبمحمد صلى الله عليه وسلم الدوائر ، وشككتم في أمر الله تعالى ، و «الارتيابُ» : التَّشكُّك ، و «الأَماني التي غرَّتهم» هي قولهم : سيهلك محمد هذا العام ، ستهزمه قريش ، ستأْخذه الأَحزابُ ، إلى غير ذلك من أَمانيهم ، وطولُ الأَمل غرَّارٌ لكل أَحد ، و «أَمْر الله الذي جاءَ» هو الفتحُ وظهور الإسلام ، وقيل : هو موت المنافقين وموافاتهم على هذه الحالة الموجبة

للعذاب. و «الغَرُورُ» : الشيطان بإجماع من المتأَولين ، وقرأ سماكُ ابن حرب بضم الغين ، وأَبو حيوة ، وينبغي لكل مؤمن أَن يعتبر هذه الآية في نفسه وتسويفه في توبته .

* قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ * أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ استمرارٌ في مخاطبة المنافقين ، قاله قتادة وغيره ، وروي في معنى قوله تعالى : ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حديث . وهو : أَن الله تعالى يُقَرِّر الكافر فيقول له : (أَرأَيتك لو كان لك أَضعاف الدنيا أَكنتَ تفتدي بجميع ذلك من عذاب النار ؟ فيقول : نعم يا رب ، فيقول الله تعالى : قد سأَلتك ما هو أَيْسر من ذلك وأَنت في صلب أَبيك آدم ، لا تشرك بي ،

فأَبيت إِلَّا الشِّرك)(١)، وقرأَ جمهور القراءِ والناس : [يُؤْخَذُ] بالياءِ من تحت ، وقرأَ أَبو جعفر القارئ : [تُؤْخَذُ] بالتاءِ من فوق ، وهي قراءَة ابن عامر في رواية هشام عنه . وهي قراءَة الحسن ، وابن أَبي إِسحق ، والأَعرج .

قوله تعـالى : ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ ، قال المفســرون : معناه : هي أَولى بكم ، وهذا تفسير بالمعنى ، وإِنما هي اسـتعارة لأَنها من حيث تضُمُّهُمْ وتباشرهم هي تُوَالِيهِم وتكون لهم مكان المَوْلى ، وهذا نحو قول الشاعر :

. . . . تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ(٢)

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء والرقاق ، ومسلم في المنافقين، وأحمد في مسنده (٣–١٢٩)، ولفظه فيه : عن أبي عمران الجوني قال : سمعتُ أنس بن مالك يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (يقول الله عزّ وجلّ لأهْوَن أهل النار عذاباً : لو أن لك ما في الأرض من شيءٍ كنت تفتدي به ؟ فيقول : نعم ، فيقول : قد أردت منك ما هو أهون من هذا وأنت في صُلْب آدم ، ألاّ تشرك بي فأبيت إلاّ أن تُشرك بي) .

(٢) هذا عجز بيت مشهور عن النحويين واللغويين ، وقد قاله عمرو بن معديكرب ، ويشكك صاحب الخزانة في ذلك ، والبيت بتمامه :

وَخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بِخَيْـــلٍ تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيــعُ

وهو في خزانة الأدب ، والكتاب لسيبويه ، والخصائص ، والعمدة ، والتصريح ، والمرزوقي، =

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ الآية ابتداءُ معنى مستأنف ، وروي أنه كثر الضحك والمزاح في بعض تلك المدة في قوم من شبان المسلمين فنزلت هذه الآية ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ملَّ الصحابة ملَّة فنزلت الآية . ومعنى ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أَلَمْ يَحِنْ ، يقال : آن الشيءُ يأْني إذا حان ، ومنه قول الشاعر :

تَمَخَّضَتِ الْمَنُونُ لَهُ بِيَوْمٍ أَنَى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامُ(١)

وقرأ الحسن بن أبي الحسن : ﴿أَلَمَّا يَأْنِ﴾ ورُوي عنه أنه قرأ : ﴿أَلَمْ يَئِنْ﴾ ، وهذه الآية على معنى الحضِّ والتقريع ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : عوتب المؤمنون بهذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن ، وسمع الفضل بن موسى قارئاً يقرأُ هذه الآية والفضلُ يحاول معصية فكانت الآيةُ سبب توبته ،

= وابن يعيش ، ونوادر أبي زيد ، والخيل : الفرسان ، ودَلَفْت: زحفت ، وجيع : مُوجع ، يقول : إذا تلاقوا في الحرب جعلوا الضرب الموجع بينهم بدلا من تحية بعضهم لبعض ، والشاهد فيه جعل الضرب تحية على سبيل الاستعارة .

(١) هذا البيت في اللسان غير منسوب ، وفي التاج منسوباً إلى عمرو بن حسان بن ثابت ، وتمخَّضَ : تحرَّك وتهيَّأ ، والمنون : المنية ، وأَنَى : حانَ ، يقول : إن المنون أتت له بهذا اليوم الذي لابد أن يأتي ، وقد أدرك وبلغ كما أن كل حاملة لابد أن يتم حَمْلُها .

وحكى الثعلبي عن ابن المبارك أَنه في صباه حرَّك العود ليضربه فإِذا به قد نطق بهذه الآية فتاب ابن المبارك وكسر العود وجاءه التوفيق (١) .

و «الخُشوعُ» : الإِخباتُ والتَّطامن ، وهي هيئة تظهر في الجوارح متى كانت في القلب ، فلذلك خصَّ تعالى القلب بالذكر ، وروى شداد ابن أَوس عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (أَول ما يرفع من الناس الخشوعُ)(٢) ، وقوله تعالى : ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي : لأَجل ذكر الله ووحيه الذي بين أَظهرهم ، ويحتمل أَن يكون المعنى : لأَجل تذكير الله تعالى إِيَّاهم وأَمره فيهم ، وقرأَ عاصم في رواية حفص : ﴿وَمَا نَزَلَ﴾ مُخَفَّفَ الزاي ، وقرأَ الباقون ، وأَبو بكر عن عاصم : ﴿وَمَا نَزَّلَ﴾ بتشديد الزاي ، على معنى : نَزَّلَ الله من الحق ، وقرأَ أَبو عمرو – في رواية عياش – وهي قراءة الجحدري ، وابن القعقاع : ﴿وَمَا نُزِّلَ﴾

---

(١) ابن المبارك : هو عبد الله بن المبارك المروزي ، من بني حنظلة ، وحكاية الثعلبي بهذه الصيغة غير منطقية ولا صحيحة ، ولهذا جاءت في بعض النسخ بصيغة أُخرى هي : «حرَّك العود ليضربه فسمع قارئاً ينطق بهذه الآية ... » الخ .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير عن شداد بن أوس ، وقد رمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث حسن ، وزاد في الدر المنثور نسبته إلى ابن المنذر ، وعبد بن حميد ، وعبد الرزاق .

بكسر الزَّاي وشدِّها . وقرأ نافع . وأبو عمرو ، والأعرج ، وأبو جعفر : ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ بالياءِ على ذكر الغائب ، وقرأ حمزة – فيما روى عنه سليمان – ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ على مخاطبة الحضور . والإشارة في قوله تبارك وتعالى : ﴿كَالَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ إلى بني إسرائيل المعاصرين لموسى صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ ، وإنما شَبَّهَ أَهل عصر نَبِيٍّ بأَهل عصر نَبِيٍّ آخر . و «الْأَمَدُ» قيل : معناه انتظار الفتح ، وقيل : انتظار القيامة ، وقيل : أمد الحياة ، و [قَسَتْ] معناه : صلبت وقَلَّ خيرها وانفعالها للطَّاعات وسكنت إلى معاصي الله تعالى ففعلوا من العصيان والمخالفة ما هو مأْثور عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الآية مخاطبةٌ لهؤلاءِ المؤمنين الذين ندبوا إلى الخشوع ، وهذا ضَرْب مَثَل واستدعاءٌ إلى الخير برفق وتقريب بليغ ، أي : لا يبعد عنكم أيها التاركون للخشوع رجوعكم إليه وتلبُّسكم به ، فإن الله يُحيي الأَرض بعد موتها ، وكذلك يفعل بالقلوب ، يردُّها إلى الخشوع بَعْد بُعْدها عنه ، وترجع هي إليه إذا وقعت الإنابة والتكسُّب من العبد بعد نفورها منه كما يحيي الأَرض بعد أَن كانت ميِّتَةً غبراءَ ، وباقي الآية بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾

قرأَ جمهور القراءِ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ ﴾ بتشديد الصَّاد المفتوحة ، على معنى المتصدِّقين ، وكذا هي في مصحف أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه : « إِنَّ ٱلْمُتَصَدِّقِينَ » بالتَّاءِ ، وهو يؤيد هذه القراءَة ، وأَيضاً فيجيءُ قوله تعالى : ﴿ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ ملائماً في الكلام للصدقة ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو بكر عن عاصم : ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾ بتخفيف الصاد ، على معنى الذين صَدَّقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بَلَّغ عن الله تعالى ، وآمنوا به ، ويؤيد هذه القراءَة أَنها أَكثر تناوُلًا للأُمَّة لأَن كثيراً ممَّن لا يتصدَّق تعمه اللفظة في التصديق ، ثم إِن تقييدها بقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ ﴾ يردُّ مقصد القراءَتين بعضه من بعض .

وقوله تعالى : ﴿وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ معطوف على المعنى ؛ لأَن معنى قوله سبحانه : ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَاتِ﴾ : إن الذين تَصَدَّقُوا ، ولا يصحُّ هنا عطفٌ لفظيٌّ ، قاله أَبو علي في الحُجَّة ، وقد تقدَّم معنى «القَرْض» ومعنى «المُضاعفة» التي وعَدَ اللهُ تعالى بها هذه الأُمَّة ، وتقدَّم معنى وصف الأَجْر بالكرم ، كل ذلك في هذه السُّورة .

ويؤيد عندي قراءَة من قرأَ : ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ بشدِّ الصاد أَن الله تعالى حضَّ في هذه السُّورة على الإِنفاق في سبيل الله ، ثم ذكر في هذه أَهل الصَّدقة ووعدهم ، ثم ذكر أَهل الإِيمان والتصديق في قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ ، وعلى قراءَة من قرأَ : ﴿إِنَّ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بتخفيف الصَّاد فَذِكْرُ المؤمنين مكرر في اللفظ ، وكون الأَصناف مفردة بأَحكامها من الوعد أَبْيَن ، والإِيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم يقتضي الإِيمان بجميع الرُّسل عليهم السلام ، فلذلك قال تعالى : [وَرُسُلِهِ] .

و «الصِّدِّيقُونَ» بناءُ مبالغة من الصدق ، أَو من التصديق على ما ذكر الزجاج : «وفِعِّيل لا يكون - فيما أَحفظه - إِلَّا من فعل ثلاثي ،

وقد أشار بعض الناس إلى أنه يجيءُ من غير الثلاثي ، وقال : «مِسِّيكٌ» من «أَمْسَكَ» ، وأقول إنه يقال : مَسَكَ الرجلُ ، وقد حُكي : مَسَكَ الشيءَ ، وفيه نظر .

قوله تعالى : ﴿وَٱلشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ، اختلف الناسُ في تأويل ذلك ـ فقال ابن مسعود ، ومجاهد ، وجماعة : [وَٱلشُّهَدَاءُ] معطوف على قوله تعالى : [ٱلصِّدِّيقُونَ] والكلام متصل ، ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى هذا الاتصال ـ فقال بعضها : وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم صِدِّيقون وشهداءُ ، فكلٌّ مؤمن شهيدٌ ، قاله مجاهد ، وروى البراءُ بن عازب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مُؤْمِنُو أُمَّتِي شهداءُ) ، وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (١) ، وإنما خصَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الشهداءِ السبعة تشريفاً ، ولأنهم في أعلى رتب الشهادة ، ألا ترى أن المقتول في سبيل الله مخصوص أيضاً من السبعة بتشريف ينفرد به ، وقال بعضها : وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم صِدِّيقون وشُهداءُ لكن من معنى الشاهد لا من معنى الشهيد ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾(٢) ، فكأنه

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن البراء بن عازب .

(٢) من الآية (٧٨) من سورة (الحج) .

تبارك وتعالى قال في هذه الآية : هم أَهل الصِّدق والشَّهادة على الأُمم عند ربِّهم ، وقال ابن عباس ، ومسروق ، والضحاك : الكلام تام في قوله تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ ، وقوله تعالى : [وَٱلشُّهَدَاءُ] ابتداءٌ مستأْنف ، ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى الاستئناف ـ فقال بعضها : معنى الآية : والشهداءُ فإِنهم صِدِّيقون حاضرون عند ربِّهم ، وعنى بـ « الشُّهَدَاءِ » الأَنبياءَ عليهم السلام ، فكأَن الانبياءَ عليهم الســلام يشهدون للمؤمنين بأَنهم صِدِّيقون ، وهذا يفسِّــره قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ (١) ، وقال بعضها : قوله تعالى : [وَٱلشُّهَدَاءُ] ابتداءُ يريد به الشهداءَ في سبيل الله ، واستأْنف الخبر عنهم بأَنهم عند ربِّهم لهم أَجرهم ونورهم ، فكأَنه تعالى جعلهم صنفاً مذكوراً وحده ، وفي الحديث : (إِنَّ أَهل الجنة العُلْيا يراهم مَنْ دونهم كما ترون الكوكب الدُّرِّيَّ ، وإِن أَبا بكر وعمر منهما وأَنعما) (٢) .

---

(١) من الآية (٤١) من سورة (النساء) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ، والترمذي في سننه ، وابن حبان في صحيحه ، عن أبي سعيد ، وأخرجه الطبراني في الكبير عن جابر بن سمرة ، وابن عساكر عن أبي هريرة وعن أبي عمرو . ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث صحيح .

وقوله تعالى : ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ خبر عن الشهداءِ فقط على الأَخير من الأَقوال ، وهو خبر عن المؤمنين المذكورين في أَول الآية على الأَقوال الثلاثة الأُول ، وقوله تعالى : [وَنُورُهُم] قال جمهور المفسرين هو حقيقة حسب ما رُوِي مما تقدم ذكره في هذه السورة ، وقال مجاهد وغيره : هو مجازي عبارة عن الهدى والكرامة والبشرى التي حصلوا فيها .

ولما فرغ ذكر المؤمنين وأَهل الكرامة عقَّب تعالى بذكر الكفرة المكذبين ليبين الفرق ، فذكرهم تعالى بأَنهم أَصحاب الجحيم وسُكَّانه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

هذه آية وعظ وتبيين لأَمر الدنيا وضَعَة منزلتها ، و [أَنَّمَا] سادَّة مسدَّ المفعولين للعلم لأَنها لا تدخل على اثنين ، وهي – وإِن كفَّت

عن العمل – فالجملة بعدها نافية . و «الحياة الدنيا» في هذه الآية عبارة عن الأَشغال والتصرفات والفكر التي هي مختصة بالحياة الدنيا ، وأما ما كان من ذلك في طاعة الله تعالى وسبيله ، وما كان من الضرورات التي تقيم الأَود وتُعين على الطاعات ، فلا مدخل له في هذه الآية ، وتأَمل حالة الملوك بعد فقرهم يبن لك أَن جميع ترفهم لعبٌ ولهو . و «الزِّينةُ» التَّحسين الذي هو خارج من ذات الشيءِ، و «التفاخر» هو بالأَنساب والأَموال وغيرها ، و «التَّكاثُر» هو الرغبة في الدنيا وعددها لتكون العِزَّة للكاثر على المذهب الجاهلي (١).

ثم ضرب تعالى مثلًا للدنيا ، فالكاف في قوله تعالى : [كَمَثَلِ] في موضع رفع صفة لما تقدم ، وصورة هذا المثل أَن الإِنسان ينشأُ في حجر مملكة فما دون ذلك ، فيشبُّ ويقوى ويكسب المال والولد ويغشاه الناس ، ثم يأْخذ بعد ذلك في انحطاط فيشيخ ويضعف ويسقم وتصيبه النوائب في ماله وذريته ويموت ويضمحل أَمْرُه ، وتصير أَمواله لغيره وتتغير رسومه ، فأَمْره مثل مطر أَصاب أَرضاً فنبت عن ذلك الغيث نبات مُعجب أَنيق ، ثم هاج ، أَي يَبِسَ واصفر ثم تحطم ثم تفرق بالرياح واضْمَحَلَّ .

---

(١) الكاثر هو الكثير ، قال الأعشى :

وَلَسْتَ بالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصىً وَإِنَّمَا الْعِـزَّةُ لِلْكَاثِـرِ

واختلف المتأَولون في لفظة [ٱلْكُفَّار] هنا ـ فقال بعض أَهل التأْويل : هو من الكفر بالله تعالى ، وذلك أَنهم أَشد تعظيماً للدنيا ، وأَشد إِعجاباً بمحاسنها ، وقال آخرون منهم : هو من « كَفَرَ الْحَبَّ » أَيْ سَتَرَه في الأَرض ، وهم الزُّراع ، وخصَّهم بالذكر لأَنهم أَهل البصر بالنبات والفلاحة فلا يعجبهم إِلَّا المعجب حقيقة الذي لا عيب فيه ، و « هَاجَ الزَّرْعُ » معناه : يَبِس واصْفَرَّ ، و « حُطام » بناءُ مبالغة ، يقال : حطيم وحُطَام بمعنى محطوم أَو محتطم ، كعجيب وعُجاب بمعنى معجب أَو مُتَعَجَّب منه .

ثم قال تعالى : ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ، كأَنه تعالى قال : والحقيقة ما هنا ... ثم ذكر العذاب أَوَّلاً تَهَمُّماً به من حيث الحذر في الإِنسان ينبغي أَن يكون أَولاً ، فإِذا تحذَّر من المخاوف مدَّ حينئذ أَمله ، فذكَر اللهُ تعالى ما يَحْذَرُ قبل ما يطمع فيه وهو المغفرة والرِّضوان ، وروي عن عاصم ضمُّ الراءِ من [وَرُضْوَانٌ] .

و « مَتَاعُ الْغُرُور » معناه : الشيءُ الذي لا يُعَظِّمُ الاستمتاعَ به إِلَّا مُغْتَرٌّ ، وقال عكرمة وغيره : متاع الغرور : القواريرُ(١) ، لأَن الفساد والآفات تسرع إِليها ، فالدنيا كذلك أَو هي أَشد .

---

(١) لأنها معرضة للكسر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

لما ذكر تعالى المغفرة التي في الآخرة ندب في هذه الآية إلى المسارعة إليها والمسابقة ، وهذه الآية حجة عند جميع العلماء في الندب إلى الطَّاعات ، وقد استدل بها بعضهم على أَن أَوَّل أَوقات الصلوات أَفضل لأَنها تقتضي المسارعة والمسابقة ، وذكر بعضهم في تفسير هذه الآية أَشياءَ هي على جهة المثال ، فقال قوم من العلماءِ ، منهم ابن مسعود رضي الله عنه : ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَة مِنْ رَبِّكُمْ﴾ معناه : كونوا في أَول صف في القتال ، وقال آخرون - منهم أَنس بن مالك رضي الله عنه -: اشهدوا تكبيرة الإحرام مع الإمام ، وقال آخرون - منهم علي بن أَبي طالب رضي الله عنه -: معناه : كن أَول داخل في المسجد وآخر خارج منه ، وهذا كله على جهة المثال .

وذكر تعالى العَرْض من الجنة إذ المعهود أنه أقل من الطول ، وقال قوم من أهل المعاني : عبَّر عن المساحة بالعَرْض ، ولم يقصد أن طولها أكثر ولا أقل ، وقد ورد في الحديث أن سقف الجنة العرش ، وورد في الحديث أن السموات السبع في الكرسي كالدرهم في الفلاة ، وأن الكرسي في العرش كالدرهم في الفلاة(١) .

وقوله تعالى : [أُعِدَّتْ] ظاهره أنها مخلوقة الآن مُعَدَّة ، ونصَّ عليه الحسن في كتاب النقاش .

وقوله تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ ، قال ابن زيد : المعنى : ما حدث من حادث خيرٍ أو شرٍّ ، فهذا على معنى لفظ «أصاب» لا على عُرف المصيبة فإن عُرفها في الشرّ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما معناه : إنه أراد عُرْف المصيبة ، وخصها بالذِّكر لأنها أهم على البشر ، وهي بعض من الحوادث ، فدلَّ على أن جميع الحوادث

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره ، عن ابن زيد ، عن أبيه ، وأخرجه ابن مردويه عن أبي ذَرٍّ، وأخرجه الآجُرِّي ، وأبو حاتم البستي في صحيح مسنده ، والبيهقي وذكر أنه صحيح ، ولفظه كما ذكره ابن مردويه أن أبا ذَرٍّ سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكرسي ، فقال صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وأن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة) .

خيرها وشرِّها كذلك ، وقوله تعالى : ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني بالقحوط والزلازل وغير ذلك ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ يريد : بالموت والأمراض وغير ذلك ، وقوله تعالى : ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ معناه : إلّا والمصيبة في كتاب ، و [نَبْرَأَهَا] : نخلقها ، يقال : برأ اللهُ الخلق ، أي خلقهم ، والضمير عائد على المصيبة ، وقيل : على الأرض ، وقيل : على الأنفس ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وجماعة ، وذكر المهدوي جواز عود الضمير على جميع ما ذكر ، وهي كلها معان صحاح لأن الكتاب السابق أزلي قبل هذه كلها . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يريد تحصيل الأشياء كلها في كتاب

وقوله تعالى : ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ معناه : فعل الله تعالى هذا كله وأعلمكم به ليكون سبب تسليمكم وقلّة اكتراثكم بأمر الدُّنيا ، فلا تحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا الفرح المبطر بما آتاكم فيها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس أحد لا يحزن ويفرح ، ولكن من أصابته مصيبة فجعلها صبراً ومن أصاب خيراً فجعله شكراً . وقرأ أبو عمرو وحده : [أَتَاكُمْ] على وزن فعل ماض ، وهذا ملائم لقوله تعالى : [فَاتَكُمْ] ، وقرأ الباقون من السبعة : [آتَاكُمْ] على وزن «أَعْطَاكُمْ» بمعنى : آتاكم اللهُ تعالى : وهي قراءة الحسن ، والأعرج

وأهل مكة ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : «أُوتِيتُمْ» ، وهي تؤيد قراءة الجمهور .

وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ يدل على أن الفرح المنهي عنه إنما هو ما أدّى إلى الاختيال والفخر ، وأما الفرح بنعم الله تعالى المقترن بالشُّكر والتواضع فأمر لا يستطيع أحد دفعه عن نفسه ، ولا حرج فيه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

اختلف النحاة في إعراب [ٱلَّذِينَ] ، فقال بعضهم : هو في موضع رفع على الابتداءِ والخبر عنهم محذوف معناه الوعيد والذم ، وحذفه

على جهة الإبهام نحو حذف الجواب في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ به ٱلْجِبَالُ﴾ الآية (١) ، وقال بعضهم : هو رفع على خبر الابتداءِ ، تقديره : هم الذين يبخلون ، وقال بعضهم : هو في موضع نصب بإضمـار «أعني» أو نحـوه ، وقال بعضهم : هو في موضـع نصب صفة لـ [كُلّ] لأن [كُلّ] وإن كان نكرة فهـو تخصيص لنـوع مَّا ، يسـوغ لذلك وصفُـه بالمعـرفة ، وهـذا هو مذهب الأخفش . و [يَبْخَلُونَ] معناه : بأموالهم وأفعالهم الحسنة من إيمانهم وغير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ يحتمل أن يصفهم بحقيقة الأمر بألسنتهم ، ويحتمل أن يريد أنهم يُقتدى بهم في البخل فهم لذلك كأنهم يأمرون ، وقرأ الحسن : [بِالْبَخَلِ] بفتح الخاءِ والباءِ ، وقرأ جمهور القراءِ وأهل العراق : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِـيُّ ٱلْحَميدُ﴾ بإثبات [هُوَ] ، وكذلك في إمامهم ، وقرأ نافع ، وابن عامر : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ ٱلْغَنِـيُّ ٱلْحَميدُ﴾ بترك [هُوَ] وهي قراءَة أهل المدينة ، وكذلك في إمامهم ، وهذا لم يثبت قراءَةً إلَّا وقد قرئَ على النبي

---

(١) من الآية (٣١) من سورة (الرعد) .

صلى الله عليه وسلم ، قال أَبو علي : فهو في القراءَة التي ثبت فيها يَحْسُنُ أَنْ يكون فصلًا ولا يَحْسُنُ أَن يكون ابتداءً ؛ لأَن حذف الابتداءِ غير سائغ .

و «الكتاب» اسم جنس لجميع الكتب المنزلة ، و «الميزان» : العدلُ في تأْويل أَكثر المتأَولين ، وقال ابن زيد وغيره من المتأَولين : أَراد الموازين المتصرفة بين الناس ، وهذا خير (١) من القول الأَول ، وقوله تعالى : ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ يقوي القول الأَول .

قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ ، عبَّر تعالى عن خلقه واتِّخاذه بالإِنزال ، كما قال تعالى في الثمانية الأَزواج من الأَنعام (٢) ، وأَيضاً فإِن الأَمر بِكَوْن الأَشياءِ لما كان يُلقى من السماءِ جعل الكل نزولًا منها ، وقال جمهور كثير من المفسرين : الحديد هنا أَراد به جنسه من المعادن وغيرها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزل آدم عليه السلام من الجنة ومعه السِّنْدَان والكَلْبَتَان والميقَعَةُ (٣). وقال حذَّاقٌ من المفسرين :

---

(١) في بعض النسخ «وهذا جزء من القول الأول» .

(٢) في قوله تعالى في الآية (٦) في سورة الزُّمَر : ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ .

(٣) السندان : قطعة من الحديد يطرق الحداد عليها ما يريد تشكيله من الحديد ، والكَلْبتان : أداة يأخذ بها الحداد الحديد من النار (كمَّاشة) ، والمِيقعة : المطرقة .

أراد به السلاحَ ، ويترتب معنى الآية : فإن الله تعالى أخبر أنه أرسل رسلًا ، وأنزل كُتُباً وعدلًا مشروعاً ، وسلاحاً ، يحارب بها من عاند ولم يَهْتَد بِهَدْيِ الله ، فلم يبق عُذْرٌ ، وفي الآية ـ على هذا التأْويل ـ حضٌّ على القتال وترغيب فيه ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ يقوي هذا التأْويل ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ﴾ أي : لِيَعْلَمَهُ موجوداً ، فالتَّغَيُّر ليس في علْم الله تعالى ، بل في هذا الحَدَث الذي خرج من العدم إلى الوجود ، وقوله تعالى : [بِٱلْغَيْبِ] معناه : ما سمع من الأَوصاف الغائبة عنه فآمن بها لقيام دلالة عليها ، ثم وصف تبارك وتعالى نفسه بالقوة والعزة ليبيِّن أنه لا حاجة به إلى النُّصرة لكنها نافعة من عظَّم بها نفسه من الناس .

ثم ذكر تعالى رسالة نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام تشريفاً لهما بالذِّكر ، ولأَنهما من أَول الرسل عليهم السلام ، ثم ذكر تعالى نعمه على ذريتهما ، وقوله تعالى : [وَٱلْكِتَابَ] يعني الكتب الأَربعة فإنها جميعاً في ذريَّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وذكر تعالى أنهم مع ذلك منهم من فَسَقَ وعَنَدَ ، فكذلك ـ بل أَحْرَى ـ جميع الناس ولذلك يشرع السلاح للقتال .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

[قَفَّيْنَا] معناه : جئنا بهم بعد الأَولين ، وهو مأْخوذ من القفا ، أَي جاءَ بالثاني في قفا الأَول ، فيجيءُ الأَول بين يدي الثاني ، ومنه القوافي التي تأْتي في أَواخر أَبيات الشِّعر ، ثم ذكر تعالى عيسى عليه السلام تشريفاً وتخصيصاً ، وقرأَ الحسن : [ٱلْأَنْجِيلَ] بفتح الهمزة ، قال أَبو الفتح : هذا مثال لا نظير له ، و ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ مفعولات [جَعَلْنَا] ، والجَعْلُ في هذه الآية بمعنى : الخَلْق ، وقوله تعالى : [ٱبْتَدَعُوهَا] صفة لـ [رَهْبَانِيَّةً] ، وخَصَّها بأَنها ابتُدعت لأَن الرَّأْفة والرَّحمة في القلب لا كسْب للإِنسان فيهما ، وأَمَّا الرهبانية

فهي أَفعال بَدَن مع شيءٍ في القلب ، ففيها موضع للتَّكسُّب ، قال قتادة : الرَّأفة والرَّحمة من الله تعالى ، والرهبانية هم ابتدعوها ، والمراد بالرَّأْفة والرَّحمة حبُّ بعضهم في بعض وتوادُّهم ، والمراد بالرهبانية رفض النِّساءِ واتخاذ الصَّوامع ، والمعتزلة تعرب [رَهْبَانِيَّةً] أَنها نصب بإِضمار فعل يفسِّره [ٱبْتَدَعُوهَا] ، وليست بمعطوفة على الرَّأْفة والرَّحمة ، ويذهبون في ذلك إلى أَنَّ الإِنسان يخلق أَفعاله ، فيعربون الآية على هذا(١) ، وكذلك أَعربها أَبو علي .

ورُوي في ابتداعهم الرَّهبانيَّة أَنهم افترقوا ثلاث فرق : ففرقة قاتلت الملوك على الدين فَغُلبت وقُتلت ، وفرقة قعدت في المدن يدعون إلى الدِّين ويُبيِّنُونه ، ولم تُقاتل ، فأَخذتها الملوكُ فنشرتها بالمناشير ، وقُتلوا ، وفرقة خرجت إلى الفيافي وبنت الصَّوامع والدِّيارات ، وطلبت أَن تسلم قبل أَن تعتزل فتركت وذاكَ ، وتَسَمَّوْا بالرُّهبان(٢) ،

---

(١) في بعض النسخ : « فَيَكْذِبُونَ » ، وفي بعضها « فيعذّبون » بدلا من « فيُعربون الآية على هذا » ، ولعلّ في هذا الكلام ما ينفي تهمة الاعتزال عن ابن عطية ، وهي تهمة ألصقها به بعضهم وأشرنا إليها مراراً في هذا التفسير ، وبخاصة في المقدمة .

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وابن عساكر ، من طرق ، عن ابن مسعود ، وذكره الإمام السيوطي في الدرّ المنثور وفي أوله زيادة على ما هنا .

واسمهم مأْخوذ من الرهب وهو الخوف ، وهذا هو ابتداعهم ، ولم يعرض الله تعالى ذلك عليهم لكنهم فعلوا ذلك ابتغاءَ رضوان الله ، هذا تـأْويل أَبي أُمَامَةَ وجماعة ، وقال مجاهد : المعنى : كتبناها عليهم ابتغاءَ رضوان الله ، فـ « كَتَبَ » ـ على هذا ـ بمعنى : قَضَى ، ويحتمل اللفظ أَن يكون المعنى : ما كتبناها عليهم إِلَّا في عموم المندوبات ؛ لأَن ابتغاءَ رضوان الله تعالى بالقُرب والنوافل مكتوب على كل أُمَّة ، فالاستثناءُ ـ على هذا الاحتمال ـ متَّصلٌ .

واختلف النَّاس في الضمير الذي في قوله تعالى : ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ ، مَن المراد به ؟ فقيل : إِنَّ الذين ابتدعوا الرَّهبانيَّة لأَنفسهم لم يدوموا على ذلك ولا وفَّوْهُ حقَّه ، بل غيَّروا وبدَّلوا ، قاله ابن زيد وغيره ، والكلام سائغ وإِن كان فيهم مَن رَعَى ، أَي : لم يرعوها بـأَجمعهم ، وفي هذا التـأْويل لزوم الإِتمام لكل من بدأَ بتَنَفُّل وتطوُّع ، وأَنه يلزمه أَن يرعاه حقَّ رعايه ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : الضمير للملوك الذين حاربوهم وأَجلوهم ، وقال الضحاك وغيره : الضمير للأَخلاف الذين جاءُوا بعد المبتدعين لها ، وباقي الآية بَيِّنٌ ، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه : « كَتَبْنَاهَا عَلَيهِمْ لكِنْ ٱبْتَدَعُوهَا » .

قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ﴾ ، اختلف النّاس ، مَن المخاطب بهذا ؟ فقالت فرقة من المتأولين : خوطب بها أَهل الكتاب ، فالمعنى : يأَيُّهَا الذين آمنوا بعيسى اتقوا الله وآمنوا بمحمد ، ويؤيد هذا المعنى الحديثُ الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : (ثلاثة يؤتيهم الله أَجرهم مرتين ، رجل من أَهل الكتاب آمن بنبيِّه وآمن بي) الحديث(١) ، وقال آخرون : المخاطبة للمؤمنين من أُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل لهم : يأَيُّها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ، أَي اثبتوا على ذلك ودوموا عليه ، وهذا هو معنى الأَمر أَبداً لمن هو متلبِّس بما يؤمر به .

وقوله تعالى : ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أَي نصيبين بالإِضافة إلى ما كان الأُمم قبلُ يعطونه ، قال أَبو موسى الأَشعري رضي الله عنه : «كِفْلَيْنِ» : ضعفين بلسان الحبشة ، ورُوي أَن عمر بن الخطاب

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والبخاري ومسلم في صحيحيهما ، والنسائي ، وابن ماجه ، وهو عن أبي موسى ، وقد ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» ورمز له بالصحة ، ولفظه كما جاء فيه : (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيِّه وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به واتَّبعه وصدَّقه ، فله أجران ، وعبد مملوك أدَّى حق الله تعالى وحق سيِّده ، فله أجران ، ورجل كانت له أَمَةٌ فغذاها فأحسن غذاءها ، ثم أدبها فأحسن تأديبها ، وعلَّمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها وتزوجها ، فله أجران) .

رضي الله تعالى عنه قال لبعض الأَحبار : كم كان التضعيف للحسنات فيكم ؟ فقال : ثلاثمائة وخمسون ، فقال عمر رضي الله عنه : الحمد لله الذي ضاعف لنا إلى سبعمائة ، ويؤيد هذا المعنى الحديثُ الصحيح الذي يقتضي أَن اليهود عملت إلى نصف النهار على قيراط ، والنصارى من الظهر إلى العصر على قيراط ، وهذه الأُمة من العصر إلى الليل على قيراطين ، فلمَّا احتجت اليهود والنصارى عن ذلك وقالوا : نحن أَكثر عملًا وأَقلُّ أَجراً ، قال تعالى : هل نقصتكم من أَجركم شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال : فإنَّه فضلي أُوتيه من أَشاءُ(١) . و «الكِفْلُ» : الحظُّ والنَّصيب . و «النُّور» هنا إمَّا أَن يكون وعداً بالنُّور الذي يسعى بين الأَيدي يوم القيامة ، وإمَّا أَن يكون استعارة للهدى الذي يُمْشَى به في طاعة الله تعالى .

---

(١) أخرجه البخاري في المواقيت ، وأحمد في مسنده (٢–١٢٩) ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ألا إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أوتي أهل التوراة التوراة ، فعملوا حتى إذا انتصف النهار ثم عجزوا ، فأُعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل ، فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا ، فأُعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أُوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأُعطينا قيراطين قيراطين ، فقال أهل الكتابين : أي ربَّنا ، لِمَ أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ونحن كنا أكثر عملا منهم ؟ قال الله تعالى : هل ظلمتكم من أُجوركم من شيء ؟ قالوا : لا ، قال : فهو فضلي أُوتيه من أشاءُ) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

رُوي أَنه لمَّا نزل هذا الوعد للمؤمنين حسد أَهلُ الكتاب على ذلك ، وكانت اليهود تعظِّم دينها وأَنفسها ، وتزعم أَنها أَحباءُ الله وأَهل رضوانه ، فنزلت هذه الآية مُعلمة أَن الله تعالى فعل ذلك وأَعلم به ليعلم أَهل الكتاب أَنهم ليسوا كما يزعمون ، و «لَا» في قوله تعالى : [لِئَلَّا] زائدة ، كما هي في قوله تعالى : ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾(١) على بعض التأْويلات ، وقرأَ ابن عباس ، والجحدري : [لِيَعْلَمَ] ، وروى إِبراهيم التيمي عن ابن عباس رضي الله عنهما : «كَيْ يَعْلَمَ» ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : «لكَيْلَا يعْلم» ، وروي عن حِطَّان الرقاشي (٢) أَنه قرأَ : «لأَن يعلم» ، وقرأَ ابن مسعود ، وابن جبير ، وعكرمة : «لِكَيْ يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ» ،

(١) من الآية (٩٥) من سورة (الأنبياء) .

(٢) حِطَّان بن عبد الله الرقاشي البصري ، ثقة ، من الثانية ، مات في ولاية بشر على العراق ، بعد السبعين ، (تقريب التهذيب) .

وقرأ الحسن ـ فيما روى ابن مجاهد ـ : «لَيْلَا يَعْلَمْ» بفتح اللّام الأُولى وسكون الياءِ ، فأَمَّا فتح اللام فلغة في لام الجر مشهورة ، وأَصْلُ هذه القراءَة : «لأَنْ لَا» ، استغنى عن الهمزة بلام الجرِّ فحذفت فجاءَ «لَنْ لَا» ، فأُدغمت النون في اللام للتشابه فجاءَ «لَلَّا» ، فاجتمعت أمثلة فقلبت اللام الواحدة ياءً(١). وقرأَ الحسن ـ فيما روى مطرف ـ : «لِيْلَا» بكسر اللام الأُولى وسكون الياءِ ، وتعليلها كالتي تقدمت .

وقوله تعالى : ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ﴾ معناه أَنهم لا يملكون فضل الله تبارك وتعالى ، ولا يدخل تحت قدرتهم ، وقرأَ ابن مسعود رضي الله عنه : «أَلَّا يَقْدِرُوا» بغير نون ، وباقي الآية بَيِّنٌ .

كمل تفسير سورة الحديد والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) راجع «المحتسب» لأبي الفتح ابن جني ففيه توضيح لذلك وتدليل بالأمثلة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٥٨) سُورَةُ المجادلة مدنية
وآياتها اثنتان وعشرون

وهي مدنية بإجماع ، إلَّا أَن النقاش حكى أَن قوله تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ الآيةَ مكيٌّ(١) ، وروى أُبيُّ بن كعب رضي الله عنه أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (مَن قرأَ سورة المجادلة كُتب من حزب الله)(٢).

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾

(١) وقال ذلك الكلبي ، وحكى القرطبي أنها مدنية في قول الجميع ، إلا رواية عن عطاءٍ أن العشر الأُول منها مدني ، وباقيها مكي .

(٢) لم أقف عليه .

﴿سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ عبارة عن إدراك المسموعات على ما هي عليه بأكمل وجوه ذلك دون جارحة ولا تكييف ولا تحديد ، تعالى الله عن ذلك ، وقرأ الجمهور : ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ بالبيان ، وقرأ ابن مُحَيْصن : ﴿قد سَّمِعَ﴾ بالإدغام ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : «قَدْ يَسْمع اللهُ» ، وفيها : «واللهُ قد يَسْمع تحاوَرَكُمَا» .

واختلف الناس في اسم التي تجادل – فقال قتادة : هي خُوَيْلة بنت ثعلبة ، وقيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : هي بنتُ حكيم ، وقال بعض الرواة ، وأبو العالية : هي خُوَيْلة بنت دليج ، وقال المهدوي : وقيل : خولة بنت دليج ، وقالت عائشة رضي الله عنها : هي جميلة ، وقال ابن إسحق : هي خولة بنت الصامت ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيها : خَوْلَة بنتُ خُوَيْلد ، وقال محمد ابن كعب القُرَظي ، ومنذر بن سعيد : هي خولة بنت ثعلبة .

قال ابن سلام : [تُجَادِلُ] : تقاتل في القول ، وأَصْلُ «الجَدْل» : الفَتْل .

وأكثر الرواة على أن الزوج في هذه الآية أَوْسُ بن الصامت الأنصاري (١) ، أخو عُبادة بن الصامت ، وحكى النقاش – وهو في

(١) هو أوس بن الصامت بن قيس ، الخزرجي ، الأنصاري ، أخو عبادة بن الصامت ، ذكروه فيمن شهد بدراً ، قال ابن حبان : مات في أيام عثمان وله خمس وثمانون سنة، =

المصنفات ـ حديثاً عن سَلَمة بن صخر البياضي (١) أنه ظاهر من امرأته إنْ واقعها مدة شهر رمضان ، فواقعها ليلة ، فسأل قومه أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأَبَوْا وهابوا ذلك ، وعظَّموا عليه جريرته ، فذهب هو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه فسأله واسترشد ، فنزلت الآية وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَتعتق رقبة ؟ فقال : والله ما أَملك غير رقبتي ، فقال : أَتصوم شهرين متتابعين ؟ فقال : يا رسول الله وهل أَتيتُ إلّا في الصوم ؟ فقال : أَتطعم ستين مسكيناً ؟ فقال : لا أَجد ، فأَعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقات قومه فكفَّر بها ، فرجع سَلَمة إلى قومه فقال : إني وجدت عندكم الشدَّة والغلظة ، ووجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الرخصة والرفق ، وقد أَعطاني صدقاتكم (٢) .

= وقيل: مات سنة أربع وثلاثين بالرملة ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة . (الإصابة) . وقد ذكرت أكثر المصادر والروايات أنه هو الذي ظاهر من زوجته .

(١) هو سَلَمة بن صخر بن سليمان بن الصِّمة ـ بكسر الصاد وشد الميم كما في المغني ـ الأنصاري ، الخزرجي ، ويقال : سلمان ، ويقال له : البَيَاضيُّ ، صحابي ، قال البغوي : لا أعلم له حديثاً مسنداً إلا حديث الظِّهار . (الإصابة) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن ، وذكر البغوي أن الذين رَوَوْا عنه حديث الظِّهار هم : سعيد بن المسيّب ، وسليمان بن يسار ، وأبو سلمة ، وسماك بن عبد الرحمن ، ومحمد بن عبد الرحمن . (راجع الإصابة والدر المنثور) .

وأَما ما رواه الجمهور في شأْن أَوس بن الصامت فاختصاره أَن أَوْساً ظاهر من امرأَته خولة بنت خُوَيْلد ، وكان الظهار في الجاهلية يوجب عندهم فُرْقةً مُؤَبَّدةً ، قاله أَبو قلابة وغيره ، فلما فعل ذلك جاءَت زوجتُه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ، إن أَوساً أَكل شبابي ، ونثرتُ له بطني ، فلما كبرتُ ومات أَهلي ظاهرَ مني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أَراك إِلَّا حرمت عليه ، فقالت : يا رسول الله لا تفعل ؛ فإني وحيدة ليس لي أَهل سواه ، فراجعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل مقالته ، فراجَعَتْهُ ، فهذا هو مجادلتُها ، وكانت في خلال جدالها تقول : اللَّهم إليك أَشكو حالي وانفرادي وفقري إليه ، وروي أَنها كانت تقول : اللَّهم إن لي منه صغاراً ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا ، فهذا هو اشتكاؤُها إلى الله ، فنزل الوحي - عند جدالها - على رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية ، وكانت عائشة رضي الله عنها حاضرة لهذه القصة كلها ، فكانت تقول : سبحان مَنْ وَسِعَ سمعُه الأَصوات ، لقد كنت حاضرة لهذه القصة كلها ، وكان بعض كلام خَوْلة يخفى علي ، وسمع الله تعالى جدالَها ، فبعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في أَوْس وقال له : أَتعتق رقبة ؟ فقال : والله ما أَملكها ، فقال :

أَتصوم شهرين متتابعين؟ فقال : والله ما أَقدر أَن أَصبر إِلَّا على أَكلات ثلاث في اليوم ، ومتى لم أَفعل ذلك غشي بصري ، فقال له : أَتطعم؟ فقال : لا أَجد إِلَّا أَن يُعينني رسول الله بمعونة وصلاة - يريد الدعاءَ - ، فأَعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعاً ، ودَعَا لَهُ ، وقيل : بثلاثين صاعاً ، فكفَّر بالإِطعام وأَمْسَك أَهله .

وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «تُحاورُكَ في زوجها» ، والمحاورةُ : مراجعةُ القول ومعاطاتُه ، وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو : [يَظَّهَّرُونَ] بالتشديد ، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب - بخلاف عنه - : [يَتَظَهَّرُونَ] ، وقرأَ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [يَظَّاهَرُونَ] ، وقرأَ أُبيٌّ بن كعب أَيضاً : [يَتَظَاهَرُونَ] ، وقرأَ عاصم ، وأَبو جعفر ، والحسن ، وقتادة : [يُظَاهِرُونَ] بضم الياءِ من قولك «فَاعَلَ» ، وهذه مستعملة جدًّا ، وقولهم : «الظِّهَارُ» دليلٌ عليها ، والمراد بهذا كله قول الرجل لامرأَته : أَنت عليَّ كَظَهْرِ أُمِّي ، يريد : في التحريم ، كأَنها إِشارة إِلى الركوب إِذْ عُرْفُه في ظهور الحيوان ، وكان أَهل الجاهلية يقولون ذلك ، فردَّ الله تعالى بهذه الآية على فعلهم ، وأَخبر بالحقيقة من أَن الأُمَّ هي الوالدة ، وأَما الزوجة فلا يكون حكمها حكم الأُمِّ. وقرأَ جمهور الناس : [أُمَّهَاتهمْ] بنصب الأُمَّهات ،

وقرأ عاصم - في رواية المفضل عنه - : [أُمَّهَاتُهُمْ] بالرفع ، وهذا على اللغتين في [مَا] ، لغة أَهل الحجاز ولغة تميم ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : «مَا هُنَّ بأُمَّهَاتِهِمْ» بزيادة باءِ الجرِّ ، وجعل الله تعالى القول بالظهار مُنكراً وزوراً ، فهو مُحَرَّم لكنه إِذا وقع لزم ، هكذا قال فيه أَهل العلم ، لكن تحريمه تحريم المكروهات جدًّا ، وقد رَجَّى الله بعده بأَنه عَفُوٌّ غفورٌ مع الكفَّارة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾

اختلف الناس في معنى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ - فقال قوم : المعنى : والذين يظاهرون من نسائهم في الجاهلية ، كأَنه تعالى قال : والذين كان الظهار عادتهم ثم يعودون إلى ذلك في الإسلام ،

وقاله القتبي ، وقال أَهل الظاهر : المعنى : والذين يظاهرون ثم يظاهرون ثانية ، فلا تلزم عندهم كفارة إِلَّا بأَن يعيد الرجل التظاهر ، قال مُنذر بن سعيد : حينئذ هو عائد إلى القول الذي هو منكر وزور ، وهذا قول ضعيف وإن كان القشيريُّ قد حكاه عن بُكَير بن عبد الله بن الأَشج (١) ، وقال بعض الناس : في هذه الآية تقديم وتأْخير ، وتقديرها : «فتحرير رقبة لما قالوا» ، وهذا أَيضاً قولٌ يُفْسد نَظْم الآية ، وحُكي عن الأَخفش لكنه غير قوي ، وقال قتادة ، وطاوس ، ومالك ، والزهري ، وجماعة كبيرة من أَهل العلم معنى : ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أَي بالوطء ، المعنى : ثم يعودون لما قالوا إِنَّهم لا يعودون إليه ، فإِذا ظاهر الرجل ثم وَطِـئَ فحينئذ تلزمه الكفارة في ذمته وإن طَلَّق أَو ماتت امرأَته ، وقال الشافعي ، وأَبو حنيفة ، ومالك أَيضاً ، وفريق من أَهل العلم : [يَعُودُونَ] معناه : بالعزم على إِمساك الزوجة وَوَطْئِهَا والتزام التكفير لذلك ، فمتى وقع من المظاهِر هذا العزم فقد لزمت الكفارة ذمته ، طلَّق أَو ماتت امرأَته ، وهذان القولان في مذهب

---

(١) اختلفت الأصول في كتابة اسمه ، فبعضهم كتبه « بكر » ، وبعضهم كتبه « بشر » ، والصواب أن ابن الأشج اسمه بُكَيْر ، قال عنه في « تهذيب التهذيب » : « من أعلم أهل عصره بالحديث » ، وقال عنه في « تقريب التهذيب » : « أبو عبد الله ، أو أبو يوسف ، مولى بني مخزوم ، المدني ، نزيل مصر ، ثقة ، من الطبقة الخامسة ، مات سنة عشرين » .

مالك ، وهما حَسَنان ، لزمت الكفارة فيهما بشرطين : ظِهَارٌ وَعَوْدٌ واختلف في « العَوْد » ، ما هو ؟ فقال الشافعي : العَوْد الموجب للكفارة أَن يمسك عن طلاقها بَعْد الظِّهار ، وبِمُضِيٍّ – بعد الظِّهار – ما يمكنه أَن يُطلِّق فيه فلا يُطلِّق .

و « الرَّقَبَة » في الظِّهار لا تكون عند مالك إلَّا مؤمنة ، ردَّ هذا المُطْلَق إلى المُقَيَّد الذي في كفارة القتل الخطأْ .

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ – فقال الحسن ، والثوري ، وجماعة : من قَبْل الوطءِ ، وجَعَلَت المسيس ها هنا : الوطءَ ، فأَباحت للمظاهِر التقبيل والمضاجعة والاستمتاع بأَعلى المرأَة كالحيض ، وقال الجمهور من أَهل العلم : ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ عامٌّ في نوعَي المسيس : الوطءِ والمباشرة ، فلا يجوز لِمُظَاهِر أَن يطأَ ولا يقبِّل ولا يلمس بيده ولا يفعل شيئاً من هذا النوع إلَّا بعد الكفارة ، وهذا قول مالك رحمه الله ، وقوله تعالى : [ذَلِكُمْ] إشارة إلى « التَّحرير » ، أَي فَعَل ذلك عِظَةً لكم لتنتهوا عن الظِّهَار .

و « المُتَتَابِـعُ » في الشهرين صيامُهما ، ولا يفرق بين أَيامهما ، وجائز أَن يصومهما الرجل بالعدد فيصوم ستين يوماً تباعاً ، وجائز أَن يصومهما بالأَهلة ، يبدأُ مع الهلال ويفطر مع الهلال ، فإن جاءَ

أَحد شهريه ناقصاً فذلك يجزئُ عنه ، وجائز أَن يبدأَ صومه في وسط شهرين بِبعض الشهر الأَول فيصوم إِلى الهلال ، ثم يصوم شهراً بالهلال ، ثم يُتم الشهر الأَول بالعدد ، ولا أَحفظ خلافاً من أَهل العلم أَن الصائم في الظِّهار إِن أَفسد التتابع باختياره أَنه يبدأُ صومهما ، واختلف الناس إِذا أَفسده لعذر غالب كالمرض والنسيان ونحوه - فقال أَصحاب الرأْي ، والشافعي في أَحد قوليه ، والنَّخعي ، وابن جبير ، والحكم بن عُيينة ، والثوري : يبتدئُ ، وقال مالك ، والشافعي ، وغيره : يَبْني ، وأَجمعوا على الحائض أَنها تبني في صومها المُتتابع .

وإِطعامُ المساكين في الظِّهار هو بالمُدِّ الهاشمي عند مالك ، وهو مُدٌّ وثلث بِمُدِّ النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : مُدَّان غير ثُلث ، وروى ابن وهب أَنه يطعم مُدَّين بِمُدِّ النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي العلماءِ من يرى إِطعام الظِّهار مُدًّا بِمُدِّ النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يُجزئُ في إِطعام الظِّهار إِلَّا إِكمال عدد المساكين ، ولا يُجزئُ أَن يُطعم ثلاثين مَرَّتين ولا ما أَشبهه ، والطعام هو غالب قوت البلد . وقال مالك ، وعطاءٌ ، وغيره : إِطعام المساكين أَيضاً هو قبل التَّماسِّ حَمْلًا على العتق والصوم ، وقال أَبو حنيفة ، وجمهور من أَهل العلم : لم يَنُصَّ اللهُ تعالى على الشرط هنا فنحن لا نلزمه ،

وللمُظَاهر إذا كان من أَهل الإطعام أَن يطأَ قَبْل الكفارة ويستمتع .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا﴾ إشارة إلى الرخصة والتسهيل في النقل من التحرير إلى الصوم والإطعام ، ثم شدَّد تعالى بقوله : ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ ، أي : فالتزموها وقفوا عندها ، ثم توعَّد الكافرين بهذا الحديث والحكم الشرعي .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾

هذه الآية نزلت في المنافقين وقوم من اليهود كانوا في المدينة يَتَمَرَّسُون (١) برسُول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتربصون (٢) بهم

(١) تمرَّس به : احتك به .
(٢) تربَّص به : انتظر أن يحلَّ به شرٌّ أو خير . وهم هنا ينتظرون الشرَّ .

الدوائر، ويديرون عليهم (١)، ويتمنون فيهم المكروه ، ويتناجون بذلك ، فنزلت هذه الآياتُ إلى آخر أَمر النجوى فيهم .

و «المُحَادَّةُ» : أَن يعطي الإِنسان صاحبه حدَّ قوله أَو سلاحه وسائر أَفعاله ، وقال قوم : هي أَن يكون الإِنسان في حدٍّ وصاحبه في حدٍّ مخالف . و «كُبت الرجلُ» إذا بقي حزنان يبصر ما يكره ولا يقدر على دفعه ، وقال قوم - منهم أَبو عبيدة - : أَصْلُه : كُبِدُوا ، أَيْ أَصابهم داءٌ في أَكبادهم ، فأُبدلت الدال تاءً ، وهذا غير قوي . و «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم» هم منافقوا الأُمم الماضية الذين حادُّوا الرسل عليهم الصلاة والسلام قديماً ، وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يريد : في هذا القرآن ، فليس هؤلاءِ المنافقون بأَعذر من المتقدمين .

وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ ، العامل في [يَوْمَ] [مُهِينٌ] ، ويحتمل أَن يكون فعلاً مضمراً تقديره : اذكر ، وقوله تعالى : [وَنَسُوهُ] نسيانٌ على بابه ؛ لأَن الكافر لا يحفظ تفاصيل أَعماله ، ولما أَخبر تعالى أَنه على كل شيءٍ شهيد وَقَفَ محمداً صلى الله عليه وسلم توقيفاً تشاركه فيه أُمته .

---

(١) أداره عن الأمر وعليه وداوره : لاوَصَهُ ، يقال : أدرتُ فلاناً على الأمر إذا حاولتَ إلزامه إياه ، وأدرته عن الأمر إذا طلبتَ منه تركه .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ ، يحتمل [نَجْوَى] أَن يكون مصدراً مضافاً إلى [ثَلَاثَةٍ] ، كأنه تعالى قال : مِن سِرَار ثلاثة ، ويحتمل [نَجْوَى] أن يكون المراد به جمعاً من الناس سُمِّي بالمصدر ، كما قال تعالى في آية أُخرى : ﴿إِذْ هُمْ نَجْوَى﴾(١) ، أي أُلُوا نجوى ، فيكون قوله تعالى : [ثَلَاثَةٍ] - على هذا - بدلًا من [نَجْوَى] أو صفة ، وفي هذا نظر ، وقوله تعالى : ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي بِعِلْمِهِ وإحاطته ومقدرته ، وقرأ جمهور الناس : ﴿مَا يَكُونُ﴾ ، وقرأ أبو جعفر القارئ ، وأبو حَيْوَة : ﴿مَا تَكُونُ﴾ بالتاءِ منقوطة من فوق ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «وَلَا أربعَة إِلَّا ٱللهُ خامسهم» ، وكذلك : «إِلَّا ٱللهُ رابِعُهُم» و «إِلَّا ٱللهُ سَادِسُهُم» ، وقرأ جمهور القراءِ : ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ عطفاً على اللفظ المخفوض ، وقرأ الحسن ، والأعمش ، وابن أَبي إسحق : ﴿وَلَا أَكْثَرُ﴾ بالرَّفع عطفاً على الموضع ؛ لأَن التقدير : ما يكون نجوى ، ومَنْ جعل النجوى مصدراً محضاً قدَّر قبل [أَدْنَى] فعلًا تقديره : ولا يكون أدنى ، وقرأ الخليل بن أحمد : ﴿وَلَا أَكْبَرَ﴾ بالباءِ بواحدة من تحت ، وباقي الآية بَيِّنٌ .

---

(١) من الآية (٤٧) من سورة (الإسراء) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾

هذه الآية نزلت في قوم من اليهود نهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التناجي بحضرة المؤمنين وإظهار ما يُستراب به من ذلك فلم ينتهوا فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد وقتادة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في اليهود والمنافقين ، وقرأ جمهور القراء : [وَيَتَنَاجَوْنَ] على وزن «يَتَفَاعلون» ، وقرأ حمزة ، والأعمش ، وطلحة ، وابن وثاب : [وَيَنْتَجُونَ] (١) على وزن «يفتعلون» ، وهما بمعنى واحد أبداً كَيَقْتَتِلُونَ ويتقاتلون ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : «وعِصْيَان الرَّسول» .

(١) مضارع «انْتَجَى» ، جاءَ في اللسان «انْتَجَى القومُ وتَنَاجَوْا : تَسَارُّوا» .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ﴾ الآية ، يريد بذلك ما كانت اليهود تفعله من قولهم في التحية : السَّامُ عليك يا محمد ، وذلك أنه رُوي أن اليهود كانت تأْتي فتقول : السَّامُ عليك يا محمد — والسَّامُ : الموت ، وإيَّاه كانوا يريدون — فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وعليكم ، فسمعتهم عائشة رضي الله تعالى عنها يوماً فقالت : بل عليكم السَّام واللعنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلًا يا عائشة ، إن الله يكره الفُحْش والتَّفَحُّش ، قالت : أَما سمعتَ ما قالوا ؟ قال : أَما سمعتِ ما قُلتُ لهم ؟ إني قلتُ : وعليكم (١) .

ثمَّ كشف الله تعالى خُبث طويَّتهم والحُجَّةَ التي إليها يستريحون ، وذلك أَنهم كانوا يقولون : نحن الآن نلقى محمداً بهذه الأُمور التي تَسوؤُه ولا يُصيبنا سوءٌ ، ولا يُعاقبنا الله تعالى بذلك ، ولو كان نبيًّا لهلكنا بهذه الأَقوال ، وجهلوا أَن أَمرهم مؤخر إلى عذاب جهنم ، فأَخبر الله تعالى بذلك ، وأَنها كافِيَتُهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هذه الآية كلها في منافقين ، ويُشبه أَن يكون في المنافقين من تخلَّق بخُلُق اليهود .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب ، عن عائشة رضي الله عنها . (الدر المنثور) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

وصَّى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بأَلَّا يكون منهم تناج في مكروه ، وذلك عام في جميع الناس إلى يوم القيامة ، وخصَّ تبارك وتعالى «الإثم» بالذكر لعمومه ، و «العُدْوان» لعظمته في نفسه ؛ إذا هي ظُلَاماتُ العباد ، وكذلك «معصية الرسول» ذكرها طعناً على المنافقين إذْ كان تناجيهم في ذلك .

وقرأَ جمهور الناس : ﴿فَلَا تَتَنَاجَوْا﴾ على وزن «تَتَفَاعلوا» ، وقرأَ ابن محيصن : ﴿فَلَا تَنَاجَوْا﴾ بحذف التاءِ الواحدة ، وقرأَ بعض القراءِ : ﴿فَلَا تَّنَاجَوْا﴾ بتشديد التاءِ لأَنها أُدغمت في التاءِ ، وقرأَ الأَعمش وأَهل الكوفة : ﴿فَلَا تَنْتَجُوا﴾ على وزن«تَفْتَعِلُوا» . والناس على ضم العين من [ٱلْعُدْوَان] ، وقرأَها أَبو حيوة بكسر العين حيث

وقع . وقرأ الضحاكُ وغيره : ﴿ وَمَعْصِيَاتِ ٱلرُّسُلِ ﴾ على الجمع فيهما (١).

ثم أَمر تعالى بالتَّناجي في البرِّ والتَّقوى ، وذكَّر بالحشر الذي معه الحساب ودخول إحدى الدارين .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَى ﴾ ، ليست [إِنَّمَا] للحصر ولكنها لتأْكيد الخبر ، واختلف الناس في النجوى التي هي من الشيطان التي أَخبر عنها في هذه الآية — فقال جماعة من المفسِّرين : أَرادَ : إنما النَّجوى في الإِثم والعُدوان ومعصية الرَّسول من الشيطان ، وقال قتادة وغيره : الإِشارة إِلى نجوى المنافقين واليهود ، وقال عبد الله ابن زيد بن أَسلم : الإِشارة إِلى نجوى قوم من المسلمين كانوا يقصدون مناجاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لهم حاجة ولا ضرورة إلى ذلك ، وإنما كانوا يريدون التَّنجح بذلك ، وكان المسلمون يظنون أَن تلك النجوى في إخبارٍ بعَدُوٍّ قاصِدٍ ونحوه ، وهذا القولان يُعَضِّدهما ما يأْتي من أَلفاظ الآية ، ولا يُعضِّد القول الأَول . وقال عطية العَوْفي(٢) في هذه الآية : نزلت في المناجاة التي يراها المؤمن فتسوؤُه ، وفيما يراه

(١) في بعض النسخ : ﴿ وَمَعْصِيَاتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ على الجمع فيها .

(٢) هو عطية بن سعد بن جُنَادة — بضم الجيم وبعدها نون خفيفة — العَوْفي ، الجَدَلي ، الكوفي ، أبو الحسن ، صدوقٌ يخطىءُ كثيراً ، كان شيعيا ، من الطبقة الثالثة ، مات سنة إحدى عشرة . (تقريب التهذيب) .

النائم فكأنه نجوى يناجى بها ، وهذا قول أجنبي من المعنى الذي قبله والذي بعده .

وقرأ نافع وأهل المدينة : [لِيُحْزِنَ] بضم الياءِ وكسر الزاي ، والفعل منسوب إلى الشيطان ، وقرأ أبو عمرو ، والحسن ، وعاصم ، وغيرهم : [لِيَحْزُنَ] بفتح الياءِ وضم الزاي ، تقول : «حَزَنْتُ قلْبَ الرَّجلَ» إذا جعلتَ فيه حُزناً ، فهو كقولك : «كَحَلْتُ العين» ، وهو ضرب من التعدِّي كأن المفعول ظرف ، وقد ذكر سيبويه رحمه الله تعالى هذا المعنى من تَعَدِّي الأَفعال ، وقرأ بعض الناس : [لِيَحْزَنَ] بفتح الياءِ والزاي ، و [ٱلَّذِينَ] على هذه القراءَة رفعٌ بإسناد الفعل إليهم ، يقال : حَزِنَ الرجل بكسر الزَّاي .

ثم أخبر تعالى أن الشيطان والتناجي الذي هو منه ليس بضارٍّ أحداً إلَّا أن يكون ضرًّا بإذن الله ، أي بأمره وقدره ، ثم أمر تعالى بتوكل المؤمنين عليه تبارك وتعالى ، وهذا كلُّه يُقوِّي أن التناجي الذي من الشيطان إنما هو الذي وقع للمؤمنين منه خوف ، وللخوف اللاحق للقلوب في هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يتناجى اثنان دون واحد) (١) .

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ولفظه كما جاء في الدر المنثور : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث فإن ذلك يُحزنه) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

قرأ جمهور الناس : [تَفَسَّحُوا] ، وقرأ الحسن ، وداود بن أبي هند(١) ، [تَفَاسَحُوا] ، وقرأ جمهور القراء : ﴿ فِي ٱلْمَجْلِسِ ﴾ ، وقرأ عاصم وحده ، وقتادة ، وعيسى : ﴿ فِي ٱلْمَجَالِسِ ﴾ .

واختلف الناس في سبب الآية والمقصود بها ـ فقال ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد : نزلت في مقاعد الحرب والقتال ، وقال زيد بن أسلم ، وقتادة : نزلت بسبب تضايق الناس في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنهم كانوا يتنافسون في القرب منه وسماع كلامه

(١) هو داود بن أبي هند ، القشيري ، مولاهم ، أبو بكر أو أبو محمد ، البصري ، ثقة متقن ، من الطبقة الخامسة ، مات سنة أربعين ، وقيل قبلها . (تقريب التهذيب) .

والنظر إليه ، فيأتي الرجل الذي له الحق والسنّ والقدم في الإسلام فلا يجد مكاناً ، فنزلت الآية بسبب ذلك ، وقال مقاتل : أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً ليجلس أشياخ من أهل بدر ونحو ذلك ، فنزلت الآية ، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يقم أحدٌ من مجلسه ثم يجلس فيه الرجل ، ولكن تفسَّحوا يفسح الله لكم)(١) ، وقال بعض الناس : إنما الآية مخصوصة في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وليس في سائر المجالس ، ويدل على ذلك قراءة من قرأ : ﴿في ٱلْمَجْلِس﴾ ، ومن قرأ : ﴿في ٱلْمَجَالِسِ﴾ فذلك مرادٌ أيضاً لأن لكل أحد مجلساً في بيت النبي صلى الله عليه وسلم وموضعه ، فجمع لذلك ، وقال الجمهور من أهل العلم : السبب مجلس النبي صلى الله عليه وسلم والحُكم مُطَّردٌ في سائر المجالس التي هي للطَّاعات ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أحبكم إلى الله أَلْيَنُكُمْ مناكب في الصلاة ورُكَباً في المجالس)(٢)، وهذا قول مالك رحمه الله تعالى ، وقال : ما أرى الحكم إلّا يطردُ في مجالس العلم

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان والجمعة ، ومسلم في السلام ، وأبو داود والترمذي في الأدب ، والدارمي في الاستئذان ، وأحمد في المسند (٢–١٧ ، ٤٥ ، ٣٣٨) ، ولفظه كما في مسند أحمد (لا يُقم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا) .

(٢) لم أقف عليه .

ونحوها غابر الدهر ، ويؤيد هذا القول قراءة من قرأ : ﴿فِي ٱلْمَجَالِسِ﴾ ، ومن قرأ : ﴿فِي ٱلْمَجْلِسِ﴾ فذلك - على هذا التأْويل - اسم جنس ، فالسُّنَّة المندوب إليها هي التَّفَسُّح ، والقيامُ منهيٌّ عنه ، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم حديث نهى أَن يقوم الرجلُ فيجلسُ الآخرُ في مكانه ، فأَمَّا القيام إجلالاً فجائز بالحديث ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم حين أَقبل سعد بن معاذٍ رضي الله تعالى عنه : (قوموا إلى سيدكم)(١) ، وواجب على المعظَّم أَلَّا يُحب ذلك ويأْخذ الناس به ، لقوله عليه الصلاة والسلام : (من أَحبَّ أَن يتمثل له الرجال قياماً فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار)(٢) ، وقوله تعالى : ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ معناه : في رحمته وجنَّته .

---

(١) أخرجه البخاري في العتق والاستئذان ، وأبو داود في الأدب ، وأحمد في مسنده (٣-٢٢ ، ٦-١٤٢) ، ولفظه فيه : عن أبي أُمامة بن سهل قال : سمعت أبا سعيد الخدري قال : نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ ، قال : فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد فأتاه على حمار ، قال : فلما دنا قريباً من المسجد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى سيدكم ، أو خيركم ، ثم قال : إن هؤلاء نزلوا على حكمك ، قال : تُقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم ، قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد قضيت بحكم الله ، وربما قال : قضيت بحكم الملك .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، عن معاوية ، ورمز له الإمام السيوطي بأنه حديث حسن .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا فَٱنشُزُوا﴾ معناه : إذا قيل لكم ارتفعوا وقوموا فافعلوا ذلك ، ومنه نُشوز العظام ، أَي نباتها ، والنشز من الأَرض : المرتفع ، واختلف الناس في هذا النشوز الذي أُمروا بامتثاله ، ما هو ؟ فقال الحسن ، والضحاك ، وقتادة : معناه : إذا دُعوا إلى قتال أَو طاعة أَو صلاة ونحوه ، وقال آخرون : إذا دعوا إلى القيام عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأَنه عليه الصلاة والسلام أَحياناً كان يُحب الانفراد في أَمر الإِسلام ، فربما جلس قوم وأَراد كل أَحد أَن يكون آخر الناس عهداً بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآية آمرةً بالقيام عنه متى فهم ذلك بقول أَو فعل ، وقال آخرون : معناه : انشزوا في المجلس بمعنى التَّفَسُّح ؛ لأَن الذي يريد التوسع يرتفع إلى فوق في الهواءِ ، فإذا فعل ذلك جملة اتسع الموضع ، فيجيءُ [ٱنشُزُوا] في غرض واحد مع قوله تعالى : [تَفَسَّحُوا] ، وقرأَ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : [ٱنشُزُوا] برفع الشين ، وهي قراءَة أَبي جعفر ، وشيبة ، والأَعرج . وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : [ٱنشِزُوا] بكسر الشين فيها ، وهي قراءَة الحسن ، والأَعمش ، وطلحة ، يقال : نَشَزَ يَنْشُزُ كَحَشَرَ يَحْشُرُ ويَحْشِر وعَكَفَ يَعْكُف ويَعْكِف ، وقوله تعـالى : ﴿يَرْفَـعِ ٱللَّهُ﴾ جواب الأَمر .

واختلف الناس في ترتيب قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ - فقال جماعة من المتأولين : المعنى : يرفع الله المؤمنين العلماءَ منكم درجات ، فلذلك أَمر بالتَّفَسُّح من أَجلهم ، ويجيءُ - على هذا - قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾ بمنزلة قولك : جاءَني العاقلُ والكريمُ والشجاعُ ، وأَنت تريد رجلًا واحداً . وقال آخرون : المعنى : يرفع اللهُ المؤمنين والعلماءَ ، الصِّنْفين جميعاً درجات ، لكنا نعلم تفاضلهم في الدرجات من مواضع أُخر ، ولذلك جاءَ الأَمر بالتَّفسُّح عامًّا للعلماءِ وغيرهم . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره : المعنى : «يرفع الله الذين آمنوا منكم» ، وتمَّ القولُ ، ثم ابتدأَ بتخصيص العلماءِ بالدرجات ، ونصبهم بإِضمار فعل ، فالمؤمنون رفع على هذا التأْويل ، وللعلماءِ درجات ، وعلى هذا التأْويل قال مطرِّف ابن عبد الله بن الشخِّير: «فضل العلم أَحب إِلي من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع» ، ثم توعَّد تعالى وحذَّر بقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ الآية ، رُوي عن ابن عباس ، وقتادة في سببها أَنَّ قوماً من شباب المسلمين كثرت مناجاتهم للنبي صلى الله عليه وسلم في غير حاجة إِلَّا لتظهر منزلتهم ،

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمحاً لا يردُّ أَحداً ، فنزلت هذه الآية مشدِّدة عليهم في أَمر المناجاة . وقال مقاتل : نزلت في الأَغنياءِ لأَنهم غلبوا الفقراءَ على مناجاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى مجلسه . وقال جماعة من الرواة : لم يُعمل بهذه الآية بل نُسخت قبل العمل ، لكن استقر حكمها بالعزم عليه ، كأَمر إبراهيم عليه السلام في ذبح ابنه عليه السلام ، وصحَّ عن علي رضي الله عنه أَنه قال : ما عمل بها أَحدٌ غيري ، وأَنا كنتُ سبب الرُّخصة والتخفيف عن المسلمين ، وذلك لأَني أَردت مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم في أَمر ضروري ، فصرفت ديناراً بعشرة دراهم ، ثم ناجيته عَشْر مرَّاتٍ ، أُقدِّم في كل مرَّة درهماً ، وروي عنه أَنه تصدَّق في كل مرَّة بدينار ، قال عليٌّ رضي الله عنه : ثم فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أَن هذه العبادة قد شقَّت على الناس ، فقال لي : يا عليُّ ، كم ترى أَن يكون حدُّ هذه الصدقة ؛ أَتراه ديناراً ؟ قلت : لا ، قال : فنصف دينار ؟ قلت : لا ، قال : فكم ؟ قلت : حبَّةٌ من شعير ، قال : إنَّكَ لزهيد ، فأَنزل الله تعالى الرخصة للواجدين ، وأَمَّا من لا يجد فالرخصة له ثابتة بقوله سبحانه : ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١) ،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والترمذي وحسَّنه ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والنحاس ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، =

وقال مقاتل : بقي هذا الحكم عشرة أيامٍ ، وقال قتادة : بقي ساعة من نهار ، وقرأ الجمهور من الناس : [صَدَقَةً] بالإفراد ، وقرأ بعض القراء : [صَدَقَاتٍ] بالجمع .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾

«الإشفاقُ» : الفزع من العجز عن الشيءِ المُتَصَدَّق به أَو من ذهاب المال في الصدقة ، وله وجوه كثيرة يقال فيها الإشفاق ، لكنه في هذا الموضع كما ذكرت . و ﴿ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ معناه : رجع بكم .

= وأخرج مثله سعيد بن منصور ، وابن راهويه ، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم وصححه ، عن علي رضي الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ ﴾ الآية ، معناه : دوموا على هذه الأَعمال التي هي قواعد شرعكم ، ومَنْ قال إن هذه الصدقة منسوخةٌ بآية الزكاة فقوله ضعيف لا يحصِّل كيفية النسخ ، وما ذُكر في نحو هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما لا يصح عنه ، والله تعالى أَعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا ﴾ . نزلت في قوم من المنافقين تولوا قوماً من اليهود وهم المغضوب عليهم ، وقال الطبري : ﴿مَا هُمْ﴾ يريد المنافقين ، و [مِنْكُمْ] يريد به المؤمنين ، و [منْهُمْ] يريد به اليهـــود .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا التأْويل يجري مع قوله تعالى : ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾(١) ، ومع قوله عليه الصلاة والسلام : (مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين)(٢) ، لأَنه مع المؤمنين بقوله ومع الكافرين بقلبه ، لكن هذه الآية تحتمل تأْويلًا آخر وهو أن

---

(١) من الآية (١٤٣) من سورة (النساء) .

(٢) أخرجه أحمد ، ومسلم ، والنسائي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وذكره الإمام السيوطي في الجامع الصغير ورمز له بالصحة ، وفيه زيادة على ما هنا (تُعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة لا تدري أيهما تتبع) . ومعنى العائرة : المترددة .

يكون قوله تعالى : ﴿مَا هُمْ﴾ يريد به اليهود ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ يريد به المنافقين ، فيجيءُ فعل المنافقين ــ على هذا التأْويل ــ أَخَسَّ لأَنهم تولَّوْا قوماً مغضوباً عليهم ليسوا من أَنفسهم فيلزمهم ذِمامُهم ولا من القوم المُحِقِّين فتكون الموالاة صواباً . وقوله تعالى : [وَيَحْلِفُونَ] يعني المنافقين ؛ لأَنهم كانوا إذا وُقفوا على ما يأْتون به من بُغض النبي صلى الله عليه وسلم وشتمه وموالاة عدُوِّه حلفوا أَنهم لا يفعلون ذلك واستسهلوا الحنث ، ورُوي من هذا نوازل كثيرة اختصرتها إيجازاً ، وإذا تُتُبِّعت في المصنفات وُجدت كقول ابن أُبَيٍّ : «لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ» وحلفه على أَنه لم يفعل ، وغير ذلك .

و «الْعَذَابُ ٱلشَّدِيدُ» هو عذاب الآخرة ، وقرأَ جمهور الناس : [أَيْمَانَهُمْ] جمع يَمين ، وقرأَ الحسن : [إِيمَانَهُمْ] أَي ما يظهرونه من الإِيمان .

و «الْجُنَّةُ» : ما يُتَسَتَّر به ويُتَّقَى المحذور ، ومنه «المِجَنُّ» وهو التُّرْسُ ، وقوله تعالى : ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ﴾ يحتمل أَن يكون الفعل غير مُتَعَدٍّ ، كما تقول : صَدَّ زيْدٌ ، أَي : صدُّوا هم أَنفُسهم عن سبيل الله وعن الإِيمان برسوله ، ويحتمل أَن يكون الفعل متعدياً ، أَي : صدُّوا غيرهم من الناس عن الإِيمان ممَّن اقتدى بهم وجرى

في مضمارهم ، ويحتمل أن يكون المعنى : فصدُّوا المسلمين عن قتلهم ، وتلك سبيل الله فيهم لكن ما أظهروه من الإيمان صدُّوا به المسلمين عن ذلك ، و «الْمُهين» : المُذِلُّ ، من الهوان .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾

رُوي أن المنافقين فخروا بكثرة أموالهم وأولادهم وأظهروا السرور بذلك فنزلت الآية معلمةً أن ذلك لا غَناءَ له عنهم ولا مدفع بسببه ، والعامل في قوله تعالى : [يَوْمَ] [أَصْحَابُ] على تقدير فعل .

وأخبر الله تعالى عنهم في هذه الآية أنهم ستكون لهم أَيْمان يوم القيامة وبين يدي الله تعالى يُخَيَّل إليهم بجهلهم أنها تنفعهم وتُقبل

منهم ، وهذا هو حسابُهم أَنهم على شيءٍ ، أَي على فِعْل أَيِّ شيءٍ نافع لهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ في كتاب الثعلبي ـ : قال عليه الصلاة والسلام : (ينادي منادٍ يوم القيامة : أَين خُصماءُ الله ؟ فتأْتي القدرية مسودَّةً وجوههم مزرقة أَعينهم ، فيقولون : ما عبدنا شمساً ولا قمراً ، ولا اتخذنا من دونك إِلٰهاً) ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : صَدَقوا والله ولكن أَتاهم الإِشراك من حيث لا يعلمون ، ثمَّ تَلَا هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَانُ﴾ معناه : تملَّكهم من كل جهة وغَلَب على نفوسهم ، وهذا الفعل ممَّا استُعمل على الأَصل ، فإِن قياس التعليل يقتضي أَن يقال : اسْتَحَاذَ ، وحكى الفراءُ في كتاب «اللغات» أَن عمر رضي الله عنه قرأَ : [ٱسْتَحَاذَ] .

و [يُحَادُّونَ] معناه : يعطون الحدَّ من الأَفعال والأَقوال ، وقال بعض أَهل العلم بالمعاني : معناه : يكونون في حدٍّ غير الحدِّ الذي شرع الله تبارك وتعالى ، ثم قضى الله تعالى على مُحادّه بالذل ، وأَخبر بأَنه كتب فيما أَمضى من قضائه وقدره في الأَزل أَنه يغلب هو ورسله كلَّ من حادَّ الله والرُّسل . وقرأَ نافع ، وابن عامر : [وَرُسُلِـيَ] بفتح الياءِ ، وقرأَ الباقون بسكونها ، وقال الحسن : ما أَمر الله تعالى قطُّ رسولًا

بالقتال إلَّا وأَغلبه وظفَّره بقوته وعزَّته ، لا ربَّ سواه ، وقال غيره : ومن لم يؤمر بقتال فهو غالبٌ بالحُجَّة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

نفت هذه الآية أَن يوجد من يؤمن بالله تعالى حق الإيمان ويلتزم شُعبه على الكمال يُوادُّ كافراً أَو منافقاً ، ومعنى «يُوَادُّ» يكون بينهما من اللطف بحيث يودُّ كل واحد منهما صاحبه ، وعلى هذا التأْويل قال بعض الصحابة رضي الله عنهم : اللَّهم لا تجعل لمشرك قِبَلي يداً فتكون سبباً للمودَّة ، فإِنَّك تقول : وتلا هذه الآية . وتحتمل الآية أَن يُراد بها : لا يوجد من يؤمن بالله والبعث يُوَادُّ من حادَّ الله من حيث هو محادٌّ ؛ لأَنه حينئذ يودُّ المحادَّة ، وذلك يوجب أَلَّا يكون مؤمناً .

ويُروى أَن هذه الآية نزلت في شأْن حاطب بن أَبي بلتعة ومخاطبته أَهل مكة ، وظاهر هذه الآيات أَنها متصلة المعنى ، وأَن هذه في معنى الذَّم للمنافقين الموالين لليهود ، وإِذا قُلنا إِنها في أَمر حاطب جاءَ ذلك أَجنبيًّا في أَمر المنافقين وإِن كان شبيهاً به ، و «الإِخوان» هنا إِخوة النَّسب بدليل اقترانه بالآباءِ ، وعُرف «الإِخوان» أَنه في الأَودَّاءِ ، كما أَن عُرف «الإِخوة» أَنه في النسب ، وقد يكون مستعملًا في إِخاءِ الوُدِّ .

و ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ﴾ معناه : أَثبته وخلقه بالإِيجاد ، وذهب أَبو علي الفارسي وغيره من المعتزلة إِلى أَن المعنى : جعل في قلوبهم علامات تعرف الملائكة بها أَنهم مؤمنون ، وذلك لأَنهم يرون أَن العبد يخلق إِيمانه ، وقد صرَّح النقَّاشُ بهذا المذهب ، وما أُراه قاله إِلَّا غير مُحَصِّل لما قال ، وأَمَّا أَبو علي الفارسي فَعَن بَصَرٍ به (١). وقرأَ جمهور القراءِ : [كَتَبَ] على بناءِ الفعل للفاعل ، و[ٱلْإِيمَانَ] بالنصب ، وقرأَ أَبو حَيْوة ، وعاصم - في رواية المفضل عنه - : [كُتِبَ] على بناءِ الفعل للمفعول ، و[ٱلْإِيمَانُ] بالرفع .

وقوله تعالى : [أُولَـٰئِكَ] إِشارة إِلى المؤمنين الذين تقتضيهم معنى الآية ؛ لأَن المعنى : لكنك تجدهم لا يُوادُّون من حادَّ الله ، وقوله تعالى :

(١) قارن هذا بما نسبه بعضهم إِلى المؤلف من ميله إِلى الاعتزال ، وراجع مقدمة هذا التفسير .

﴿بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ معناه : بِهُدًى وَلُطف ونور وتوفيق إلٰهي ينقدح من القرآن ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : المعنى : بالقرآن ، لأَنه روحٌ ، وقيل : المعنى : بجبريل عليه الصلاة والسلام .

و «الْحِزْبُ» : الفريق الذي يجمعه مذهب واحد ، و «الْمُفْلِحُ» : الفائز بِبُغْيَتِه ، وباقي الآية بَيِّنٌ .

كمل تفسير سورة المجادلة والحمد لله ربِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ،
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

(٥٩) سورة الحشر مدنية وآياتها أربع وعشرون

هذه السُّورة مدنيَّة باتفاق من أَهل العلم ، وهي سورة بني النَّضير ؛ وذلك أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد عاهد بني النَّضير على سِلْمٍ وهم يرون أَنه لا تُردُّ له رايةٌ ، فلما جرت هزيمة أُحُد ارتابوا وداخلوا قريشاً وغدروا ، فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من أُحد تبيَّن له معتقد بني النَّضير وغدرهم بعهده وموالاتهم للكفَّار ، فجمع إليهم وحاصرهم وعاهدهم على أَن يُجليهم عن أَرضهم ، فارتحلوا إلى بلاد مختلفة : خيبر والشام وغير ذلك من البلاد ، ثم كان أَمر بني قُرَيْظَة مرجعه صلى الله عليه وسلم من الأَحزاب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾

قد تقدَّم القول في تسبيح الجمادات التي يتناولها عموم «ما في السموات وما في الأَرض»، وأَن أَهل العلم اختلفوا في ذلك، فقال قوم: ذلك على الحقيقة، وقال آخرون: ذلك مجاز، أَي أَن آثار الصنعة فيها والإِيجاد لها كالتسبيح وداعية إِلى التسبيح مِمَّن له أَن يسبح، وقال مكي: [سَبَّحَ] معناه: صلَّى وسجد، فهذا كله بمعنى الخضوع والطوع، و ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صفتان مناسبتان لما يأْتي بعد من قصة العدو الذين أَخرجهم من ديارهم.

و ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ﴾ هم بنو النَّضير، وكانت قبيلة عظيمة من بني إِسرائيل موازية في الْقَدْر والمنزلة لبني قريظة،

وكان يقال للقبيلتين : الكاهنان لأنهما من ولد الكاهن بن هرون ، وكانت أَرَضُهم وحصونهم قريبةً من المدينة ، ولهم نخل وأَموال عظيمة ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أُحُد خرج إلى بني النضير فحاصرهم وأَجلاهم على أَن يحملوا من أَموالهم ما أَقلَّته الإبل حاشى الحلقة ـ وهي جميع السلاح ـ ، فخرجوا إلى بلاد مختلفة ، فذلك قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ اختلف الناس في معنى ذلك بعد اتفاقهم على أَن «ٱلْحَشْر» هو الجمع والتوجيه إلى ناحية مَّا ـ فقال الحسن بن أَبي الحسن ، وغيره : أَراد تعالى حَشْر القيامة ، أَي هذا أَوله ، والقيام من القبور آخره ، وروى الحسن أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : (امضوا ، هذا أَول الحشر وأَنا على الأَثر)(١). وقال عكرمة ، والزهراوي ، وغيرهما : المعنى : لأَوَّل موضع الحشر وهو الشام ؛ وذلك أَن أَكثر بني النضير جاءَت إلى الشام ، وقد رُوي أَن حشر القيامة هو إلى الشام ، وأَن النبي صلى الله عليه وسلم قال

(١) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن الحسن . (الدر المنثور) .

لبني النضير : (اخرجوا) ، قالوا : إلى أين يا محمد ؟ قال : (إلى أرض المحشر)(١) ، وقال قوم – في كتاب المهدوي – المرادُ الحشر في الدنيا الذي هو الجلاءُ والإخراج ، فهذا الذي فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني النَّضير أوَّلُه ، والذي فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأهل خيبر آخره ، وأخبرت الآية بمغيب ، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بجلاءِ أهل خيبر ، ويحتمل أن يكون آخر الحشر في قول النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه : (لَا يَبْقَيَنَّ دينان في جزيرة العرب) ، فإن ذلك يتضمن إجلاءَ بقاياهم ، قال الخليل – فيما حكى الزجاج – : سميت جزيرة لأَنه أحاط بها بحر الحبشة وبحر فارس ودجلة والفرات . وفي هذه الإحاطة نظر .

وقوله تعالى : ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ معناه : لِمَنَعَتِهم وكثرة عددهم ، فلم تكن آمالكم وظنونكم تنتهي إلى أنهم يخرجون ويَدَعون أَموالهم لكم ، وبحسب ذلك من المنعة والعُدَّة والتَّحصُّن ظنُّوا أَنهم لن يُقْدَرَ عليهم ، وقوله تعالى : ﴿مِنَ ٱللهِ﴾ يريد : من جُند الله وحزب الله .

(١) أخرجه البزار ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « البعث » ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ : قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : اخرجوا ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى أرض المحشر .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ عبارة عن إظهار الله تعالى المسلمين عليهم وإلقائهم في حيِّز الهزم والذل . وقرأ الجمهور : [ٱلرُّعْبَ] بسكون العين ، وقـرأ أبو جعفـر ، وشيبة : [ٱلرُّعُبَ] بضم العين .

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ـ فقال الضحاك ، والزجاج ، وغيرهما : كلما هدم المسلمون من تحصينهم في القتال هدموا هم من البيوت وجبروا الحِصْن دأباً ، فهذا معنى تخريبهم ، وقال الزهري وغيره : كانوا لما أُبيح لهم ما تستقل به الإبل لا يدعون خشبةً حسنةً ولا نجافاً(١) ولا ساريةً إلَّا قلعوها وخربوا البيوت عنه . وقوله تعالى : ﴿ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من حيث فِعْلُهم بكفرهم داعية إلى تخريب المؤمنين بيوتَهم ، فكأنهم قد خربوها بأيدي المؤمنين ، وقال جماعة من المفسرين : إنهم لما أزمعوا الجلاءَ شحوا على ترك البيوت سليمة للمؤمنين فهدموا وخربوا بمعنى الإفساد على من يأْتي ، وقال قتادة : خرب المؤمنون من خارج ليدخلوا وخربوا هم من داخل ، وقرأ جمهور القراءِ : [يُخْرِبُونَ]

(١) النِّجاف : اسكُفَّةُ الباب ، أو هو الذي يستقبل الباب من أعلى الأسْكُفَّة ، ويقال له : الدَّوَّارة ، والأسْكُفَّة هي العَتَبَة .

بسكون الخاء وتخفيف الراء ، وقرأ أبو عمرو وحده ، والحسن ـ بخلاف عنه ـ وقتادة ، وعيسى : [يُخَرِّبُونَ] بفتح الخاء وشد الرّاء ، فقال فريق من العلماء اللغويين : القراءتان بمعنى واحد ، وقال أبو عمرو بن العلاء : «خرّب» معناه : هدم وأفسد ، و «أَخْرَبَ» معناه : ترك الموضع خراباً وذهب عنه .

ثم نبّه تبارك وتعالى المؤمنين وغيرهم ممّن له أن ينظر على نُصرة رسوله صلى الله عليه وسلم وصنعه له فيمن حادّه وناوأه بقوله : ﴿فاعْتَبِرُوا يا أُولي الْأَبْصارِ﴾ ، أي العقول والأفهام .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾

أخبر تعالى في هذه الآية أنه كتب على بني إسرائيل جلاءً ، وكانت بنو النَّضير ممَّن حلَّ بالحجاز عند موت موسى عليه الصلاة

والسلام بيسير ؛ لأنهم كانوا من الجيش الذي رجع ، وقد عصوا في أن لم يقتلوا الغلام ابن ملك العماليق لجماله وعقله ، وقد كان موسى عليه السلام قال لهم : لا تستحيوا أحداً ، فلما رجع ذلك الجيش إلى بني إسرائيل بالشام وجدوا موسى عليه السلام ميتاً ، وقال لهم بنو إسرائيل : أنتم عصاة ، والله لا دخلتم علينا بلادنا ، فقال أهل ذلك الجيش عند ذلك : ليس لنا أحب من البلاد التي غلبنا أهلها ، فانصرفوا إلى الحجاز فكانوا فيه ، فلم يجر عليهم الجلاءُ الذي أجراه بختنصر على أهل الشام ، وقد كان الله تعالى كتب على بني إسرائيل جلاءً فنالهم هذا الجلاءُ على يدي محمد صلى الله عليه وسلم ، ولولا ذلك لعذبهم الله تعالى في الدنيا بالسيف والقتل كأهل بدر وغيرهم ، ويقال : جَلَا الرجلُ ، وأجلاه غيرُه ، وقد يقال : أَجلى الرجل نفسه ، بمعنى : جلا .

و «الْمُشَاقَّةُ» : كون الإنسان في شق ومخالفه في شق .

وقوله تعالى : ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ﴾ سببها أن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وضعوا أيديهم في نخل بني النضير يقطعون ويحرقون ، فقال بنو النضير : ما هذا الإفساد يا محمد وأنت تنهى عن الفساد ؟ فكف عن ذلك بعض الصحابة ، وذلك في صدر الحرب

معهم ، فنزلت الآية مُعْلِمةً أَن جميع ما جرى من قطع أَو إمساك فبإذن الله تعالى ، وردَّت الآية على قول بني النضير إنَّ محمداً ينهى عن الفساد وها هو ذا يُفسد ، فأَعلم الله تعالى أَن ذلك بإذنه وليجزي الفاسقين من بني النضير .

واختلف الناسُ في «اللِّينَة» ـ فقال الحسن ، ومجاهد ، وأَبو زيد ، وعمرو بن ميمون : اللِّينة : النخلة ، اسمان بمعنى واحد ، وجَمْعها لِينٌ وليانٌ ، وقال الشاعر :

وَسَالِفَةٌ كَسَحُوقِ اللِّيَــــان أَضْرَمَ فيها الْغَوِيُّ السُّعُرْ(١)

وقال آخر :

طَرَاقُ الْخَوَافي وَاقــعٌ فَوْقَ لِينَــة نَدَى لَيْله في ريشه يَتَرَقْــرَقُ(٢)

(١) هذا البيت لامرئ القيس ، وهو من قصيدة له يصف فيها فرسه وخروجه للصيد ، وفيها يقول مشبهاً فرسه بالجرادة في خِفَّتها وسرعتها : (وأركبُ في الروع خيفانة ..) ، والبيت في اللسان (سحق) غير منسوب ، وقد استشهد به القرطبي ، وأبو حيان في البحر المحيط ، والسالِفَةُ : أعلى العنق ، أو هي ناحيته من مُعَلَّق القُرْط إلى الحاقنة ، وسَحُوق اللِّيَان هي النخلة الطويلة الجرداءُ التي لا كَرَبَ لَها ، والكَرَبُ هو الأصل العريض للسَّعَفِ إذا يَبِس . والغويُّ : الغاوي المُفسد ، والسُّعُر : شدة الوقود ، يشبه عُنُق فرسه بالنخلة الطويلة الجرداء ، ويصفها بأنها شقراءُ اللون ، فلذلك ذكر الوقود ، والشاهد هنا أنه ذكر اللِّيان ، وهو جمع اللِّينة .

(٢) البيت لِذِي الرُّمَّة ، وهو في اللسان (ريع) ، والرواية فيه : (واقِـعٌ فَوْقَ رِيعَةٍ) ، وعلى هذه الرواية لا يُستشهد به هنا ، ولهذا استشهد به الطبري عند تفسير قوله تعالى =

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من اللغويِّين : اللِّينة من النَّخل ما لم تكن عجوة ، وقال سفيان بن سعيد الثوري : اللِّينة : الكريمة من النَّخل ، وقال أَبو عبيدة ـ فيما رُوي عنه ـ وسفيان : اللِّينة : ما تمرها لونٌ ، وهو نوعٌ من التمر يقال له : اللَّوِن ، قال سفيان : هو شديد الصُّفرة يشِفُّ عن نواه فيُرى من خارج ، وأَصلها «لِوْنَة» فأُبدلت لموافقة الكسرة ، وقال أَبو عبيدة أَيضاً : اللِّين : أَلوان النَّخل المختلطة التي ليس فيها عجوة ولا نوى . وقرأَ ابن مسعود والأَعمش : «أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قُوَّماً عَلَى أُصُولِها» (١) .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ الآية ... إعلامٌ أَنَّ ما أُخذ من بني النَّضير ومن فَدَك فهو خاصٌّ للنبي صلى الله عليه وسلم ،

= في سورة الشعراء : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ ، وقد استشهد به صاحب اللسان أيضاً في (طرق) ، يقال : طائرٌ طِرَاقُ الرِّيش : إذا ركب بعضه بعضاً ، والخوافي : ما تحت القوادم في الطائر من الريش ، والقوادم : أربع ريشات طويلة في أول جناح الطائر ، ومفردها : قادمة ، والشاعر هنا يصف بازياً بأن شَعْر خوافيه كثيفٌ بعضه فوق بعض ، ويقول : إنه نزل فوق نخلة عالية ، وأن الندى يلمع فوق ريشه ، ويعني بهذا أنه قضى ليله فوق هذه النخلة العالية ، والشاهد ذكر اللِّينة هنا وهي النخلة الطويلة الجرداءُ .

(١) في القرطبي أن هذه هي قراءة الأعمش ، أما قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فهي : «ما قطعتم من لِينَةٍ ولا تركتُمْ قَوْمَاءَ عَلَى أُصُولِها» . أما في البحر فذكر أنها قراءة عبد الله والأعمش وزيد بن علي .

وليس على حكم الغنيمة التي يُوجف عليها ويُقاتل فيها ، بل على حكم خُمس الغنائم ، وذلك أن بني النضير لم يوجف عليها ولا قوتلت كبير قتال ، فأَخذ منها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قوتَ عياله ، وقسَّم سائرها في المهاجرين ولم يُعط الأَنصار منها شيئاً ، غير أَن أَبا دُجانة سِمَاكُ بنُ خَرَشَة وسَهْلَ بنُ حُنَيْف(١) شكيا فاقة عظيمة فأَعطاهما ، هذا قول جماعة من العلماءِ ، وفي ذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كانت أَموال بني النَّضير ممَّا أَفاءَ الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ممَّا لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق منها على أَهله نفقة سنة ، وما بقي منها جعله في السلاح والكراع عُدَّة في سبيل الله تعالى ، قال بعض العلماءِ : وكذلك كل ما فُتح على الأَئمة ممَّا لم يوجف عليه

(١) أما سِماك بن خرشة الخزرجي الأنصاري فهو المعروف بأبي دُجانة ، صحابي ، كان شجاعاً ، شهد بدراً وثبت في أُحد ، وأُصيب بجراحات كثيرة ، واستشهد في اليمامة ، وكانت له مشية فيها خيلاءُ، رآه النبي صلى الله عليه وسلم في معركة فقال : هذه مشية يبغضها الله إلا في هذا المكان ، وأما سَهْلُ فهو سَهْل بن حُنيف بن وهب الأنصاري ، أبو سعد ، صحابي من السابقين ، شهد بدراً وثبت يوم أُحد ، وآخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، شهد مع علي صفّين ، وتوفي بالكوفة ، وله (٤٠) حديثاً شريفاً .

فهو لهم خاصة ، والوجيف دون التقريب (١) ، يقال : وجف الفرس وأوجفه الراكب ، والإيجاف : سرعة السير والاجتهاد فيه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾

أَهل القرى المذكورون في هذه الآية هم أَهل الصفراءِ والينبوع ووادي القرى وما هنالك من قرى العرب التي تُسمى قرى عربية ، وحكمها مخالف لبني النَّضير ، ولم يحبس رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه لنفسه شيئاً ، بل أَمضاها لغيره ؛ وذلك أَنها في ذلك

(١) التقريب : نوع من عَدْو الفرس عدواً بدون إسراع ، والوجيف : عدوٌ أقل من التقريب ولكن فيه تحريك وإتعاب للدابة .

الوقت فتحت ، واختلف الناس في صفة فتحها ـ فقيل : غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث بعثاً إلى كل مكان فأَطاع وأَعطاه أَهله فكان مِمَّا لم يوجف عليه ، وكان حكمه حكمَ الغنائم ، وليس في الآية نسخ على هذا التأْويل ، وأَعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ذلك للمهاجرين ولم يعط الأَنصار شيئاً . وقال قتادة ، ويزيد بن رومان : كانت هذه القرى قد أُوجف عليها ولكن كان هذا حكمَ ما لم يوجف عليه ، ثم نسخ الله تعالى هذا الحكم بآية الأَنفال فجعل فيها الخُمس لهذه الأَصناف وبقيت الأَربعة الأَخماس للمقاتلة ، وآية هذه السُّورة لم يكن فيها شيءٌ للمقاتلة ، وهذا القول يضعف لأَن آية الأَنفال نزلت إثر بَدْر قبل بني النضير وقبل أَمر هذه القرى بسنة ونيِّف ، و « القربى » في هذه الآية قرابةُ النبي صلى الله عليه وسلم ، مُنعوا الصدقة فعُوضوا من الفيءِ .

وقوله تعالى : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ مخاطبة للأَنصار لأَنه لم يكن للمهاجرين في ذلك الوقت غنى ، وقرأَ جمهور الناس : [يَكُونَ] بالياءَ ، وقرأَ ابن مسعود ، وأَبو جعفر ، وهشام عن ابن عامر بالتاءِ ، وهي « كان » التامة ، وقرأَ جمهور الناس : [دُولَةً] بضم الدال ونصب الهاءِ ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن السُّلَمي :

[دَوْلَةً] بفتح الدال ونصب الهاءِ ، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع ، وهشام عن ابن عامر : [دُولَةٌ] بضم الدال والهاءِ ، وقال عيسى بن عمر : هما بمعنى واحد ، وقال الكسائي وحُذَّاق النظرة : الفتح في المُلْك - بضم الميم - لأَنها الفعلة في الدَّهر ، والضم في المِلْك - بكسر الميم - والمعنى أَنها كالعواري ، فيتداول الأَغنياءُ ذلك المال بتصرفاتهم ويبقى المساكين بلا شيءٍ ، ولا حظَّ في شيءٍ من هذه الأَموال ليتيم غني ولا لابْن سبيل حاضر المال ، وقد مضى القول في الغنائم في سورة الأَنفال .

ورُوي أَن قوماً من الأَنصار تكلموا في هذه القرى المُفْتَتَحَة وقالوا : لنا منها سهمنا ، فنزل قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ الآية ... مؤدباً في ذلك وزاجراً ، ثم اطَّرد بعْدُ معنى الآية في أَوامر النبي صلى الله عليه وسلم ونواهيه ، حتى قال قوم : إِن الخمر محرمة في كتاب الله تعالى بهذه الآية ، وانتزع منها ابن مسعود رضي الله عنه لعنةَ الواشمة والمستوشمة... الحديث(١) ، ورأَى مُحرماً في ثيابه المخيطة

(١) حديث الواشِمَة والمُسْتَوْشِمَة أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، وأحمد في مسنده ، عن علقمة ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : (لعن الله الواشِمات والمُسْتَوْشِمَات والمُتَنَمِّصات والمُتَفَلِّجات للحسن المُغَيِّرات خلق الله) . فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها : أُم يعقوب ، فجاءت فقالت : إنه بلغني =

فقال له : اطرح هذا عنك ، فقال له الرجل : أتقرأُ عليَّ بذلك آية من كتاب الله تعالى ؟ فقال ابن مسعود رضي الله عنه : نعم ، وتلا هذه الآية .

وقوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ ﴾ بيان لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَساكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ، فكرَّر لام الجر كما كانت الأُولى مجرورة باللام ليبين أَن البدل إنما هو منها ، ثم وصفهم تعالى بالصفة التي تقتضي فقرهم وتوجب الإِشفاق عليهم ، وهي إخراجهم من ديارهم وأَموالهم ، وجميع المهاجرين إمَّا أَخرجهم الكفار وإِمَّا أَحوال الكفار وظهورهم وفرض الهجرة في ذلك الوقت ، ووصفهم بالفقر وإن كان لهم بعض أَمْوال وهي حال الفقراءِ في اللغة ، وقد مضى بيان هذا في سورة الكهف. وقوله تعالى: [يَبْتَغُونَ] في موضع الحال ،والفضلُ والرضوان يراد بهما الآخرة والجنة ، ونَصْرُ الله هو نَصْر شرعه ونبيِّه صلى الله عليه وسلم .

= أنك لعنت كيت وكيت ! فقال : ومالي لا ألعن من لعن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله ؟ فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول : فقال : لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه ، أما قرأت : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ؟ قالت : بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه ، قالت : فإني أرى أهلك يفعلونه ، قال : فاذهبي فانظري ، فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئاً ، فقال : لو كانت كذلك ما جامعتها . واللفظ للبخاري ، والوشْم : غرز الإبرة في البدن وذرُّ النَّيلج عليه حتَّى يزرقَّ أثره أو يخضَرَ ، والتَّنَمُّص : نتف شعر الوجه بالخيط . والتَّفليج : أن تفرِّق المرأة بين أسنانها طلباً للزينة .

و «الصَّادقون» في هذه الآية يجمع صدق اللسان وصدق الأفعال لأَن أَفعالهم في أَمر هجرتهم إنما كانت وفق أَقوالهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا ﴾ هم الأَنصار ، والضمير في [قَبْلِهِمْ] للمهاجرين ، و «الدَّار» هي المدينة ، والمعنى : تَبَوَّءُوا الدَّار مع الإِيمان معاً ، وبهذا الاقتران يصح معنى قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ، فتأَمَّله . والإِيمان لَا يُتَبَوَّأُ لأَنه ليس مكاناً ، ولكن هذا من بليغ الكلام ، ويتخرج على وجوه كلُّها جميل حَسَن (١) .

---

(١) قيل : إنه نصب بفعل آخر غير « تبوَّأ » ، والتقدير : والذين تَبَوَّءُوا الدار واعتقدوا الإيمان ، فهو كقوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ ، ويكون من باب : « علفتها تبناً وماءً بارداً » ، أي : وسقيتها ماءً ، ذكر ذلك أبو عليٍّ والزمخشري ، وقيل : هو من باب حذف المضاف ، والتقدير : تبوَّءُوا الدارَ ومواضعَ الإيمان ، وقيل : هو على طريق المَثَلِ ، كما تقول : تَبَوَّأَ من بني فلان الصميم .

وأثنى الله تعالى في هذه الآية على الأنصار بأَنهم يحبون المهاجرين رضي الله عن جميعهم ، وبأَنهم يُؤثِرُون على أَنْفُسهم ، وبأَنهم قد وُقُوا شُحَّ أَنفُسهم ؛ لأَن مقتضى قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أَن هؤلاءِ الممدوحين قد وُقُوا الشُّحَّ .

و «الْحَاجَةُ» : الحَسَد في هذا الموضع ، قاله الحسن ، ويعمُّ بعْدُ جميع الوجوه التي هي بخلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في إعطاءِ المهاجرين أَموال بني النَّضير والقرى . و [أُوتُوا] معناه : أُعطوا ، والضمير المرفوع بأَن لم يُسَمَّ فاعله هو للمهاجرين .

وقوله تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية ... صفة للأَنصار ، وقد روي – من غير ما طريق – أَنها نزلت بسبب رجل من الأَنصار – قال أَبو المتوكِّل : هو ثابت بن قيس ، وقال أَبو هريرة رضي الله عنه في كتاب مكي : كنية هذا الرجل أَبو طلحة ، وخلط المهدوي في ذكر هذا الرجل – نَدَبَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى ضيافة مهاجري ، فانتدب الأَنصاري ولم يكن له مال فذهب بالضيف وقال لامرأَته : هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : والله ما عندي إلَّا قُوت الصِّبية ، فقال لها : نَوِّمي صبيانك ، وأَطفئي السراجَ ، وقدِّمي ما عندك للضيف ، ونوهمه أَنَّا نأْكل ، فَفَعَلا ذلك ، فَلَمَّا غَدَا

على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (عجب الله من فعلك البارحةَ) ، ونزلت الآية في ذلك(١) .

والايثارُ على النفس أكْرم خُلُق ، وقال حذيفة العدوي : طابت يوم اليرموك ابن عمٍّ لي في الجرحى ومعي شيءٌ من ماءٍ ، فوجدته ، فقلت : أسقيك ؟ فأشار أن نعم ، فإذا رجل يصيح : آهٍ ، فأشار ابن عمِّي أن انطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت: أتشربُ ؟ فإذا آخر يقول : آهٍ ، فأشار هشام أن انطلق إليه ، فجئته فإذا به قد فاضت نفسه ، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعتُ إلى ابن عمي فإذا هو قد مات ، فعجبت من إيثارهم رحمهم الله تعالى ، وقال أبو يزيد البسطامي : قَدِم علينا شاب من بَلْخ فقال لي : ما حدُّ الزُّهد عندكم ؟ فقلت : إذا فقدنا صَبَرْنا ، وإذا وجدنا شَكَرْنا ، قال : هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ ، قلت : فما الزهد عندكم ؟ قال : إذا فقدنا شَكَرْنا ، وإذا وجدنا آثَرْنا .

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : أتى رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال : ألا رجلٌ يضيف هذا لِلَيْلَةٍ رحمه الله تعالى ؟ فقال رجل من الأنصار – وفي رواية : فقال أبو طلحة الأنصاري : أنا يا رسول الله ، فذهب به إلى أهله ، الحديث كما ذكره ابن عطية .

وروي أَن سبب هذه الآية أَن النبي صلى الله عليه وسلم لمَّا قسَّم هذه القرى في المهاجرين قال للأَنصار : (إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أَموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم أَمسكتم أَموالكم وتركتم لهم هذه) ، فقالوا : بل نقسم لهم من أَموالنا ونترك لهم هذه الغنيمة ، فنزلت هذه الآية (١) .

و «الْخَصَاصَةُ» : الفاقة والحاجة ، وهو مأْخوذ من خصاص البيت ، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفروج والفتوح ، فكأَن حال الفقير هي كذلك يتخلَّلُها النقص والاحتياج ، و «شُحَّ النَّفس» هو كثرة طَمَعِها وضبطها على المال والرغبة فيه وامتداد الأَمل ، هذا جماع شح النفس ، وهو داعية كل خلق سوءٍ ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من أَدى الزكاة المفروضة ، وقرى الضيف ، وأَعطى في النائبة ، فقد برئ من الشُّح)(٢) .

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره دون سند ، وذكره القرطبي قائلا : وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر ابن إسحق في السيرة طرفاً منه جاءَ فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قسَّم أموال بني النضير على المهاجرين الأولين إلا أنه أعطى سَهْل بن حُنيف وأبا دُجانة سِماك بن خراشة ، وهذا يتفق مع ما ذكره الزمخشري ، لكن الزمخشري ذكر أيضاً أنه أعطى معهما الحرث بن الصِّمة .

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، عن مجمع بن يحيى بن جارية ، قال : حدثني عمي خالد بن يزيد بن جارية رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بريءٌ من الشح من أدّى الزكاة ، وقَرى الضيف ، وأدّى في النائبة) . (الدر المنثور) ، وزاد في الجامع الصغير نسبته إلى أبي يعلى في مسنده ، والطبراني في الكبير ، ثم رمز له الإمام السيوطي بأنه حديث حسن .

واختلف الناس بعد هذا الذي قلناه ـ فذهب الجمهور والعارفون بالكلام إلى هذا ، وعلى هذا التأْويل كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يطوف وهو يقول : اللَّهم قِني شُحَّ نفسي ، لا يزيد على ذلك ، فقيل له في ذلك فقال : إذا وقَّيته لم أَفعل سوءًا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

شُحُّ النفس فقر لا يُذْهِبُهُ غِنى المال بل يزيده وينصب به .

وقال ابن زيد ، وابن جبير ، وجماعة : من لم يأْخذ شيئاً نهاه الله تعالى عنه ولم يمنع الزكاة المفروضة فقد برئ من شُحِّ النفس ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : شُح النفس هو أَكل مال الغير بالباطل ، وأَما منع الإِنسان ماله فهو بُخل ، وهو قبيح ولكنه ليس بالشُّح ، وقـرأَ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : [شِـحَّ] بكسر الشين . و [يُوقَ] وزنه «يُفْعَل» ، من وقَى يقي ، مثال : وَزَن يَزِنُ ، وقرأَ أَبو حيوة : [يُوَقَّ] بفتح الواو وشد القاف ، و [الْمُفْلِحُـونَ] : الفائزون ببغيتهم .

واختلف الناس في تأْويل قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ـ فقال الفراءُ : أَراد الفرقة الثالثة من الصحابة ، وهي التي آمنت أَو كبرت في آخر مُدَّة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال جمهور العلماءِ :

أَراد من يجيءُ من التابعين وغيرهم إلى يوم القيامة ، فوصف الله تبارك وتعالى القول الذي ينبغي أَن يلتزمه كل من لم يكن من الصدر الأَول . وإعراب [ٱلَّذِينَ] رفع عطفاً على [هُمْ] أَو على [وَٱلَّذِينَ] أَو رفع بالابتداءِ . وقوله تعالى : [يَقُولُونَ] حالٌ فيها الفائدة ، والمراد : والذين جاءُوا قائلين كذا ، أَو يكون [يَقُولُونَ] صفة .

ولهذه الآية قال مالك وغيره : إنه من كان له في أَحد من الصحابة قول سوءٍ أَو بغض(١) فلا حظَّ له في الغنيمة أَدباً له ، وجاءَ بعض العارفين إلى علي بن الحسين رضي الله عنهما فسبُّوا أَبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، فقال لهم : أَمِنَ المهاجرين الأَولين أَنتم ؟ قالوا : لا ، قال : : أَفَمِن الذين تبوءُّوا الدار والإِيمان أَنتم ؟ قالوا : لا ، قال : فقد تبرأْتم من هذين الفريقين ، وأَنا أَشهد أَنكم لستم من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿وَٱلَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية ... فقوموا ، فَعَل الله تعالى بكم وفَعَل ، وقال الحسن : أَدركت ثلاثمائة من الصحابة منهم سبعون بدريًّا كلهم يحدثني أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من فارق الجماعة قِيدَ شبر فقد خلع رِبْقَة الإِسلام من عنقـه)(٢) ، فالجمـاعة أَلَّا تسبُّوا الصحـابة ، ولا تُماروا

---

(١) في بعض النسخ : «أو نقص» .

(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤–١٣٠) ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن الحرث الأشعري ، وفي آخره كما جاء في مسند أحمد: =

في دين الله تعالى ، ولا تُكفِّروا أَحداً من أَهل التوحيد بذنب .

و «الْغِلُّ» : الحِقْد والاعتقاد الرديءُ ، وقرأَ الأَعمش : «في قُلُوبِنَا غِمْراً» ، والغِمْر : الحِقْد : وقد تقدم الاختلاف في قراءَة : [رَؤُوف] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

= (وأنا آمركم بخمس، اللهُ أمرني بهن ، بالجماعة ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد في سبيل الله ، فإنه من خرج من الجماعة قِيدَ شِبْر فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثَا جهنم ـ قالوا : يا رسول الله ، وإن صام وصلّى ؟ قال : وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم ـ فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عزَّ وجلَّ المسلمين المؤمنين عباد الله عزَّ وجلَّ) . والرِّبْقَة في الأصل : عُروة في حبل تجعل في عنق البهيمة أو يدها تُمسكها ، فاستعـارها للإسلام يعني ما يَشُدُّ به المسلم نفسه من حدود الإسلام وأحكامه ، وأمَّا قوله صلى الله عليه وسلم : (فهو من جُثَا جهنم) فقد قال ابن الأثير في كتاب النهاية : « الجُثَا : جمع جُثْوة بالضم ، وهو الشيءُ المجموع » فكأن المعنى : من جماعة جهنم ، وتروى الكلمة جُثِيٍّ ، وتروى : جُثِيٌّ ، وقال أبو عبيدة : قد يكون المعنى : إنه ممن يجثو على الركب في جهنم . ورويت اللفظة في مسند أحمد (جُثَاء) بالهمزة .

هذه الآية نزلت في عبد الله بن أُبي بن سلول ، ورفاعة بن التابوت ، وقوم من منافقي الأَنصار كانوا بعثوا إلى بني النَّضير وقالوا لهم : اثبتوا في معاقلكم فإنَّا معكم كيفما تقابت حالكم ، وإنما أَرادوا بذلك أَن تقوى نفوسهم عسى أَن يثبتوا حتى لا يقدر محمد عليه الصلاة والسلام عليهم فيتم لهم مرادهم ، وكانوا كَذَبَة فيما قالوا من ذلك ، ولذلك لم يخرجوا حين أُخرج بنو النَّضير بل قعدوا في ديارهم ، وقوله تعالى عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ﴾ معناه: ولَئِن حاولوا نصرهم فإنهم ينهزمون ثم لا ينصر الله تعالى أَحداً منهم .

وجاءَت الأَفعال غير مجزومة في قوله تعالى : ﴿لَا يَخْرُجُونَ﴾ و ﴿لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ لأَنها راجعة على حكم أَنفُسهم لا على حكم الشرط ، وفي هذا نظر (١) .

ثم خاطب تعالى أُمة محمد صلى الله عليه وسلم مُخبراً أَن اليهود والمنافقين أَشد خوفاً من المؤمنين منهم من الله تعالى لأَنهم لا يتوقعون

(١) علق أبو حيان في البحر على ذلك فقال : «وأيُّ نظر في هذا وقد جاء على القاعدة المتَّفَق عليها من أنه إذا تقدم القَسَم على الشرط كان الجواب للقسم وحُذف جواب الشرط ، وكان فعله بصيغة المُضِيِّ أو مجزوماً بلم ، وله شرط وهو ألا يتقدمه طالب خبر ، واللام في [لَئِنْ] مُؤذنة بِقَسَم محذوف قبله فالجوابُ له» .

عاجل الشَّر من المؤمنين ولا يؤمنون بآجل العذاب من الله تعالى ، وذلك لقلَّة فهمهم للأُمور وتوفيقهم للحق .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

الضمير في قوله تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ لبني النضير وجميع اليهود ، هذا قول جماعة من المفسِّرين ، ويحتمل أن يريد بذلك اليهود والمنافقين ؛ لأَن دخول المنافقين في قوله تعالى : ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ متمكن بَيِّن ، ومعنى الآية : لا يقاتلونكم في جيش بِفَحْصٍ (١) ، و «الْقُرَى» : المدن ، قال الفراءُ :

---

(١) يريد : بأرض منبسطة مكشوفة ، وفي اللسان ذكر أن فحص الأُرْدن : ما انبسط منه وكشف من نواحيه .

هذا جمع شاذٌّ ، قال الزجاج : ما في القرآن فليس بشاذ ، وهو مثل : ضَيْعَةٍ وضُيُع .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وكثير من المكِّيِّين : [جِدَارٍ] على معنى الجنس ، وقرأ كثير من المكِّيِّين ، وهارون عن ابن كثير : [جَدْرٍ] بفتح الجيم وسكون الدال ، ومعناه : أَصل بنيان كالسُّور ونحوه ، وقرأ الباقون من القراء : [جُدُرٍ] بضم الجيم والدال ، وهو جمع جِدَارٍ ، وقرأ أبو رجاء ، وأبو حَيْوَة : [جُدْرٍ] بضم الجيم وسكون الدال ، وهو تخفيف في جمع جِدارٍ ، ويحتمل أن يكون من جدر النخيل ، أَي من وراء نخلهم إذ هي مِمَّا يُتَّقى به عند المضايقة (١) .

وقوله تعالى : ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أَي في غائلتهم وإِحَنِهم (٢) ، وفي قراءَة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُم أَشَتُّ» ، وهذه حال الجماعات المتخاذلة ، وهي المغلوبة أَبداً في كل ما تحاول ، واللفظة مأْخوذة من الشتات وهو التفرُّق ونحوه .

---

(١) في بعض النسخ : «عند المصافقة» ، والمصافقة هي الضرب .

(٢) الغائلة : الحقد الباطن والشَّر ، والإِحَن : الحقائد والأَضغان ، ومفردها إِحْنَة ، يقال : إِنَّ الإِحَن تجرُّ المِحَن .

وقوله تعالى : ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ معناه : مثلهم كمثل الذين من قبلهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم بنو قَيْنُقَاع ؛ لأَن النبي صلى الله عليه وسلم أَجلاهم عن المدينة قبل بني النَّضير ، وكانوا مِثْلًا لَهُم ، وقال قتادة ومجاهد : الذين من قبلهم أَهلُ بدر الكفَّار ؛ فإِنهم قبلهم ومِثْلٌ لهم في أَن غُلبوا وقُهروا ، وقال بعض المتأَولين : الضمير في قوله تعالى : ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ للمنافقين ، وهم منافقوا الأُمم المتقدِّمة ؛ وذلك أَنهم غُلبوا ونالتهم الذِّلَّة على وجه الدهر ، فهم مثل لهؤلاءِ ، ولكن قوله تعالى : [قَرِيباً] إِمَّا أَن يكون في زمن موسى عليه السلام وإِلَّا فالتَّأْويل المذكور يضعف، إِلَّا أَن يجعل [قَرِيباً] ظرفاً للذَّوْقِ ، فيكون التقدير : ذاقوا وبَالَ أَمرهم قريباً من عصيانهم وبحدثانه ، ولا يكون المعنى أَنَّ المثلَ قريب في الزَّمن مِنَ المُمَثَّل له ، وعلى كل تأْويل ف [قَرِيباً] ظرفٌ أَو نعت لظرف . و «الْوَبَالُ» : الشِّدَّة والمكروه وعاقبة السوءِ ، و «الْعَذَابُ الْأَلِيمُ» هو في الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَانِ﴾ معناه : مثل هاتين الفرقتين من المنافقين وبني النَّضير كمثل الشيطان والإِنسان ، فالمنافقون مثلهم الشَّيطان ، وبنو النَّضير مثلهم الإِنسان ، وذهب مجاهد وجمهور من المتأْوِّلين إِلى أَن الشَّيطان والإِنسان في هذه الآية اسْمَا جِنْس ؛ لأَن العرف أَن يَعمل هذا الشَّياطينُ بناس كما يغوي الشَّيطان الإِنسان ثمَّ

يفرُّ عنه بعد أَن يُورِّطه ، كذلك أَغوى المنافقون بني النضير وحرَّضوهم على الثُّبوت ووعدوهم النصر ، فلما غدر بنو النَّضير وكشفوا عن وجوههم تركهم المنافقون في أسوأ حال ، وذهب قوم من رواة القصص أَن هذا في شيطان مخصوص مع عابد من العُبَّاد مخصوص ، وذكر الزجاج أَن اسمه برصيصا ، قالوا : إِنَّه استُودع امرأَةً ، وقيل : سيقَتْ إِليه ليشفيها بدعائه من الجنون ، فسوَّل له الشَّيطان الوقوع عليها فحملت فخشي الفضيحة ، فسوَّل له قَتْلَها ودَفْنها ففعل ، ثم شهره ، فلمَّا استُخرجت المرأَة وحُمِل العابد شرَّ حمل ، وهو قد قال : إِنها ماتت فقُمتُ عليها ودفنتها ، فلما وُجدت مقتولة علموا كذبه ، فتعرَّض له الشَّيطان وقال له : اكفر واسجد لي وأَنا أُنجِّيك ففعل ، وتركه عند ذلك وقال : إِنِّي بريءٌ منك ، وهذا كله حديث ضعيف ، والتأْويل الأَول هو وجه الكلام ، وقول الشيطان «إِنِّي أَخاف الله» رياءٌ وسُمعة ، وليست على ذلك عقيدته ، ولا يعرف اللهَ تعالى حق معرفته ، ولا يحجزه خوفُه عن سوءٍ يوقع فيه ابن آدم من أَول إِلى آخر .

قوله تعالى : ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾ الآية ، يحتمل الضمير أَن يعود على المخصوصيْن المذكوريْن ، ويحتمل أَن يعود على اسمي الجنسين ، أَي : هذا هو عاقبة كل شيطان وإِنسان يكون أَمرهما هكذا ، وقرأَ الحسن ، وعمرو بن عبيد : [عَاقِبَتُهُمَا] بالرفع ، وقرأَ الجمهور :

[عَاقِبَتَهُمَا] بالنصب ، وموضع [أَنَّ] يخالف إعراب «العاقبة» في القراءتين، وقرأ ابن مسعود ، والأعمش : [خَالِدَانِ] بالرفع على أنه خبر [أَنَّ] والظَّرف ملغى ، ويلحق هذه القراءة من الاعتراض إلغاء الظرف مرتين ، قاله الفراء ، وذلك جائز عند سيبويه على التأكيد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

هذه آية وعظ وتذكير وتقريب للآخرة ، وتحذير ممَّن لا تخفى عليه خافية ، وقرأ جمهور الناس : [وَلْتَنْظُرْ] بسكون اللام وجزم الراءِ على أَصل لام الأَمر ، وقرأ يحيى بن الحارث ، وأَبو حيوة ، وفرقة كذلك بلام الأَمر إِلَّا أَنها كسرت على أَصل لام الأَمر ، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن ـ فيما رُوي عنه ـ : [وَلِتَنْظُرَ] بنصب الراءِ

على لام «كيْ» ، كأَنه تعالى قال : وأَمرنا بالتقوى لتنظر ، أَو كأَنه تعالى قال : اتقوا الله وليكن تقواكم لتنظر .

وقوله تعالى : [لِغَدٍ] يريد يوم القيامة ، قال قتادة : قرب الله تعالى القيامة حتى جعلها غداً ، وذلك لأَنها آتية لا محالة ، وكلُّ آتٍ قريب ، ويحتمل أَن يريد تعالى بقوله : [لِغَدٍ] لِيَوْم الموت لأَنه لكل إِنسان كغده ، ومعنى الآية : ما قدمت من الأَعمال ، فإِذا نظرها الإِنسان تزيَّد من الصَّالحات وكفَّ عن السَّيِّئات ، وقال مجاهد ، وابن زيد : الأَمس الدُّنيا وغدٌ الآخرة .

وقرأَ الجمهور : ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ بالتاءِ من فوق على مخاطبة جميع الذين آمنوا ، وقرأَ أَبو حيوة : ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ بالياءِ من تحت كناية عن «نَفْس» التي هي اسم الجنس ، و «الذين نسوا الله» هم الكفَّار ، والمعنى : تركوا الله تعالى وغفلوا عنه حتى كانوا كالنَّاسين ، وعبَّر تعالى عمَّا خصَّهم به من الضَّلَالة بـ ﴿أَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ ، سمَّى عقوبتهم باسم ذنبهم بوجْهٍ مَّا ، وهذا أَيضاً هو الجزاءُ بالذنب على الذنب ، فكسبوا هم نسيان جهة الله تعالى فعاقبهم الله تعالى بأَن جعلهم ينسون أَنفسهم ، قال سفيان : المعنى : حظَّ أَنفسهم ، ويعطي لفظ هذه الآية أَن من عرف نفسه ولم ينسها عرف ربه سبحانه ، وقد قال علي بن أَبي طالب رضي الله تعالى عنه : اعرف نفسك تعرف ربك ، وروي عنه أَنه قال أَيضاً : من لم يعرف نفسه لم يعرف ربَّه ، وقرأَ

ابن مسعود رضي الله عنه : «وَلَا أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ» بزيادة «لا» .

وقوله تعالى : ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا ٱلْقُرْآنَ﴾ الآية ... موعظةٌ للإنسان ، وذمٌّ لأَخلاقه في غفلته وإعراضه عن داعية الله تعالى ، وذلك أَن القرآن نزل عليهم وفهموه وأَعرضوا عنه ، وهو لو نزل على جبل وفهم الجبل منه ما فهم الإنسان لخشع واستكان وتصدَّع من خشية الله تبارك وتعالى ، وإذا كان الجبل على عِظَمِهِ وقوته يفعل هذا فما عسى أَن يحتاج ابن آدم ليفعل ، لكنه يُعرض ويصُدُّ على حقارته وضعفه ، وضرب الله تبارك وتعالى هذا المثل ليتفكر فيه العاقل ويخشع ويلين قلبه ، وقرأَ طلحة بن مصرف : [مُصَّدِّعاً] على إدغام التاءِ في الصاد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

لمَّا قال تعالى : ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ جاءَ بالأَوصاف التي توجب لمخلوقاته هذه الخشية ، و «ٱلْغَيْبُ» : ما غاب عن المخلوقين ،

و «الشَّهَادَةُ» : ما شهدوه ، وقال حرب المكي : الغيب الآخرة ، والشهادة الدُّنيا ، وقرأ جمهور الناس : [ٱلْقُدُّوسُ] بضم القاف ، وهو فعْلٌ من تَقَدَّسَ إذا تَطَهَّر ، وحظيرة القدس الجنة لأَنها طاهرة ، ومنه : رُوحُ القُدس ، والأَرض المقدَّسة ، وبيت المقدس ، ورُوي عن أَبي ذَرٍّ رضي الله عنه أَنه قرأَ : [ٱلْقَدُّوسُ] بفتح القاف ، وهي لغة . و «السَّلَامُ» معناه : الذي سُلِم من جوره ، وهذا اسم على حذف مضاف ، أَي ذو السلام ، لأَن الإِيمان به وتوحيده وأَفعاله هي لمن آمن سلامٌ كلها . و«المُؤْمِنُ» اسم فاعل من «آمَنَ» بمعنى «أَمَّنَ» ، وقال أَحمد ابن يحيى ثعلب : معناه : المُصَدِّقُ المؤمنين في أَنهم آمنوا ، قال النحاسُ : أَو في شهادتهم على الناس في القيامة ، وقال ناسٌ من المتأَولين : معناه : المُصَدِّقُ نفسه في أَقواله الأَزلية ، لا إِلٰه غيره ، و «المُهَيْمِنُ» معناه : الأَمين والحفيظ ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال مؤرج : المهيمن : الشاهد بلغة قريش ، وهذا بناءٌ لم يجىءْ منه في الصفات إِلَّا مُهَيْمِن ومُسَيْطِر ومُبَيْقِر ومُبَيْطِر ، وجاءَ منه في الأَسماءِ «مُحَيْمِر» وهو اسم وادٍ و «مُدَيْبِر» . و «الْجَبَّارُ» هو الذي لا يدانيه شيءٌ ولا يلحق رتبته ، ومنه «نخلةٌ جبارةٌ» إذا لم تلحق ، وأَنشد الزهراويُّ :

أَطَافَتْ بِهِ جِيـلانُ عِنْدَ قِطَـافِهِ   وَرَدَّتْ إِلَيْهِ الماءَ حَتَّى تَجَبَّـرَا (١)

و [ٱلْمُتَكَبِّرُ] معناه : الذي له التكبُّر حقاً .

ثم نزَّه تعالى نفسَه عن إشراك الكفار به الأَصنامَ التي ليس لها شيءٌ من هذه الصِّفات ، و [ٱلْبَارِئُ] بمعنى : الخالق ، بَرَأَ اللهُ تعالى الخَلْقَ ، أَي أَوجدهم ، و [ٱلْمُصَوِّرُ] هو الذي يوجد الصُّور ، وقرأ عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه : [ٱلْمُصَوَّرَ] ، على إعمال [ٱلْبَارِئُ] فيه ، وهي حسنة ، يُراد بها الحُسْن في الصور ، وقال قوم عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : إنه قرأَ : [ٱلْمُصَوَّرِ] بفتح الواو وكَسْر الراءِ ، على قولهم : «الحَسَنُ الوَجْهِ» .

---

(١) هذا البيت لامرئ القيس، وهو من قصيدته التي قالها حين توجه إلى قيصر مستنجداً به على بني أسد ، وهو في الديوان ، واللسان ، والتاج — مادة جيل — والشاعر يصف هنا وفي الأبيات التي قبل هذا نخيلا ارتفع وعلا ، وكثرت فروعه ، وتَدَلَّت القنوان منه بالبسْر الأحمر وجيلان — بكسر الجيم — قوم كان كسرى يرسلهم عمالا إلى البحرين ، — وقد تضبط (جَيلان) بفتح الجيم — يقول : طافت بهذا النخل جيلان عند قطافه ، وجمعت حوله الماءَ حتى ارتفع في السماء عالياً . والشاهد على هذا في قوله : «تجَبَّرا» ، ولكن الرواية في الديوان وفي التاج «حتى تحيَّرا» بالحاء والياء ، وقد اختلفت الروايات في البيت ، فروي :

أُتيحَ لَهُ جَيْلانُ عِنْدَ جَـذَاذِهِ   وردَّدَ فيه الطَّرْفَ حَتَّى تَحَيَّـرَا

ورواية التهذيب : «عند جداره» ، ورواية شرح القاموس : «عند قطافه» ، ورواية الديوان : «وردَّدَ فيه العَيْنَ حتى تَحَيَّرَا» ، وعلى كل هذه الروايات لا شاهد في البيت ، والتحيُّر يرجع إلى الطرف ، فقد تحير في ارتفاع النخل وكثرة فروعه .

وقوله تعالى : ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي : ذات الحسن في معانيها القائمة بذاته لا إلٰه إلّا هو ، وهذه الأَسماءُ هي التي حصرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله عليه الصلاة والسلام : (إنَّ لله تِسْعَةً وتسعين اسماً ، مائة إلّا واحداً ، من أَحصاها دخل الجنة) (١) ، وقد ذكرها الترمذي وغيره مُسْنَدَةً ، واختلف الرواة في بعضها ، ولم يصحَّ فيها شيءٌ إلَّا إحصاؤُها دون تَعْيين ، وباقي الآية بَيِّنٌ .

كمل تفسير سورة الحشر والحمد لله ربِّ العالمين

(١) حديث (إن لله تسعة وتسعين اسماً) ذكره الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال : إنه حديث صحيح ، وقد أخرجه الترمذي ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه ، والبيهقي في شعب الإيمان — هذا والأسماءُ مذكورة في مسند الترمذي وغيره مع اختلاف الرواة في بعضها كما قال ابن عطية رحمه الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ،

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٦٠) سُورَةُ المُمْتَحِنَةِ مَدَنِيَّة
وآياتها ثلاث عشرة

تفسير سورة الممتحنة (*)

وهي مدنيَّة بإجماع من المفسِّرين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) ﴾

(*) قيل : اسم السورة [المُمْتَحَنَة] بفتح الحاء ، إضافة إلى المرأة التي نزلت فيها ، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط ، امرأة عبد الرحمن بن عوف ، وقيل : هي [المُمْتَحِنَة] بكسر الحاء ؟ إذْ أُضيف الفعل إلى السورة مجازاً .

« الْعَدُوّ » اسم يقع للجمع والمفرد ، والمراد به ها هنا كفار قريش ، وهذه الآية نزلت بسبب حاطب بن أَبي بَلْتَعَة(١) ، وذلك أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَراد الخروج إلى مكة عام الفتح ، فورَّى عن ذلك بِخَيْبَر ، فشاع في الناس أَنه خارج إلى خيبر ، وأَخبر هو جماعة من أَصحابه بقصده إلى مكة ، منهم حاطب بن أَبي بَلْتَعَة ، فكتب حاطب إلى قوم من كفَّار مكة يخبرهم بقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم إيَّاهم ، فجاءَ الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فبعث عليًّا والزُّبيرَ وثالثاً ، قيل هو المقداد ، وقيل أَبو مَرْثَد(٢) ، وقال : انطلقوا حتى تأْتوا روضة خاخٍ(٣) فإِن بها ظعينة(٤) معها

---

(١) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي ، صحابي جليل ، شهد الوقائع كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من أشد الرماة ، وكانت له تجارة واسعة ، بعثه النبي صلى الله عليه وسلم بكتابه إلى المقوقس حاكم مصر ، كان أحد فرسان قريش وشعرائها ، مات في المدينة . (الإصابة) .

(٢) المقداد بن عمرو بن ثعلبة ، البهراني ، ثم الكندي ، ثم الزهري ، تبنَّاه الأسود بن عبد يغوث الزهري فنسب إليه فقيل : المقداد بن الأسود ، صحابي مشهور ، من السابقين ، لم يكن ببدر فارساً غيره ، مات سنة ثلاث وثلاثين ، وأما أبو مَرْثَد فهو كنَّاز بن الحصين بن يربوع الغنوي ، أبو مَرْثَد – بفتح الميم وثاءٌ بعد الراءِ الساكنة ، صحابي بدريٌّ مشهور بكنيته ، مات سنة اثنتي عشرة للهجرة (تقريب التهذيب) ، وأما عليٌّ والزبير فغنيَّان عن التعريف .

(٣) مكان بين مكة والمدينة ، على بعد اثني عشر ميلا من المدينة .

(٤) الظعينة : المرأة في الهودج .

كتاب من حاطب إلى المشركين ، فانطلقوا حتى وجدوا المرأة ، واسمها سارة ، مولاة لقوم من قريش ، وقيل : بل كانت امرأةً من مزينة ولم تكن سارة ، فقالوا لها : أَخرجي الكتاب ، فقالت : ما معي كتاب ، ففتَّشوا جميع رحلها فما وجدوا شيئاً ، فقال بعضهم : ما معها كتاب ، فقال عليٌّ رضي الله عنه : ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كُذب ، والله لتخرجن الكتاب أَو لَنُجَرِّدَنَّكِ ، فقالت : اعرضوا عني ، فحلَّته من فروة رأْسها ، وقيل : أَخرجته من حجزتها ، فجاءُوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ، فقال لحاطب : من كتب هذا ؟ فقال أَنا يا رسول الله ، ولكن لا تعجل عليَّ ، فوالله ما فعلت ذلك ارتداداً عن ديني ولا رغبة عنه ، ولكني كنت امرءًا ملصقاً في قريش ولم أَكن من أَنْفُسها ، فأَحببت أَن تكون لي عندهم يَدٌ يَرْعَوْنَني بها في قرابتي ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : دعني يا رسول الله أَضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (صدق حاطب ، إنه من أَهل بدر ، وما يُدريك يا عمر لعلَّ الله قد اطَّلع على أَهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم ، لا تقولوا

(١) قيل : كان في الكتاب ما يأتي : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجَّه إليكم بجيش كالليل ، يسير كالسيل ، وأُقسم بالله لو لم يسر إليكم إلا وحده لأظفره اللهُ بكم ، وأنجز له موعده فيكم ، فإن الله وليُّه وناصره » .

لحاطب إلَّا خيراً) ، فنزلت الآية لهذا السبب(١) . وروي أن حاطباً كتب : «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوكم في مثل الليل والسيل ، وأُقسم بالله لو غزاكم وحده لنُصر عليكم فكيف وهو في جَمٍّ كثير» .

و [تُلْقُونَ] في موضع الصِّفة لِـ [أَوْلِيَاءَ] ، و «أَلْقَيْتُ» يتعدى بحرف الجر وبغير حرف الجر ، فدخول الباءِ وزوالها سواءٌ ، وهذا نظير قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾(٢) ، وقوله تعالى : ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ﴾(٣) ، وروى المعلى عن عاصم أنه قرأ : ﴿وَقَدْ كَفَرُوا لِمَا﴾ بلام .

وقوله تعالى : [يُخْرِجُونَ] في موضع الحال من الضمير في [كَفَرُوا] ، والمعنى : يُخرجون الرَّسول ويُخرجونكم ، وهي حال مؤكدة فلذلك ساق الفعل مستقبلًا والإخراج قد مرَّ ، وتضييق الكفَّار على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إخراج إذ كان مؤدياً إلى الإخراج ،

(١) أخرجه أحمد ، والحميدي ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وأبو عوانة ، وابن حبان ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي وأبو نعيم معاً في الدلائل ، عن علي رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

(٢) من الآية (٣٩) من سورة (طه) .

(٣) من الآية (١٥١) من سورة (آل عمران) .

وقوله تعالى : ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا﴾ مفعول من أَجله ، أَي أَخرجوكم من أَجل أَن آمنتم بربكم ، وقوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ شرط جوابه متقدمٌ في معنى ما قبله ، وجاز ذلك لما لم يظهر عمل الشرط ، والتقدير : إِنْ كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاءَ مرضاتي فلا تتَّخذوا عدُوِّي وعدوكم أَولياءَ ، و [جِهَاداً] نصب على المصدر ، وكذلك [ٱبْتِغَاءَ] ، ويجوز أَن يكون ذلك مفعولًا من أَجله ، و «ٱلْمَرْضَاةُ» مصدرٌ كالرِّضى ، و [تُسِرُّونَ] بدلٌ من [تُلْقُونَ] ، ويجوز أَن يكون في موضع خبر ابتداءٍ كأَنه تعالى قال : أَنتم تُسرُّون ، ويصح أَن يكون فعلًا مرسلًا ابتدأَ به القول ، والإِلْقاءُ بالمودَّة معنىً مَّا ، والإِسرارُ بها معنى زائد على الإِلقاءِ ، فترجح بهذا أَن [تُسِرُّونَ] فعلٌ ابتُدِئَ به القول ، أَي تفعلون ذلك وأَنا أَعلم ، وقوله تعالى : [أَعْلَمُ] يحتمل أَن يكون «أَفعل» ، ويحتمل أَن يكون فعلًا لأَنك تقول : «علمتُ بكذا» فتُدخل الباءَ ، وقوله تعالى : ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ﴾ الآية ... جملةٌ في موضع الحال ، وقرأَ أَهل المدينة : [وَأَنَا] بإِشباع الأَلف في الإِدراج ، وقرأَ غيرهم : [وَأَنَا] بطرح الأَلف في الإِدراج .

والضمير في [يَفْعَلْهُ] عائد على الاتخاذ المذكور ، و [سَوَاءَ] يجوز أَن يكون مفعولًا بـ [ضَلَّ] ، وذلك على تَعَدِّي [ضَلَّ] ، ويجوز

أَن يكون ظرفاً على غير التعدِّي لأَنه يجيءُ بالوجهين ، والأَول أَحسن في المعنى ، و «السَّوَاءُ» : الوسط ، وذلك لأَنه تتساوي نسبته إلى أَطراف الشيء ، و «السَّبِيلُ» هنا شرعُ الله تعالى وطريقُ دينه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾

أَخبر الله تعالى أَن مداراة هؤلاءِ الكفَّار غير نافعة في الدُّنيا وأَنها ضارَّة في الآخرة ، ليبيِّن فساد رأْي مصانعتهم ، فقال تعالى : ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ ﴾ أَي : إِن يتمكَّنوا منكم وتَحْصُلُوا في ثِقَافِهِم ظهرت العداوة وانبسطت أَيديهم بضرركم وقَتْلكم ، وأَلسنتُهم بسبِّكم ،

وهذا هو السُّوءُ ، وأَشد من هذا كله أَنهم إِنما يُقْنِعُهم منكم أَن تكفروا ، وهذا هو وُدُّهم .

ثم أَخبر تعالى أَن هذه الأَرحام التي رغبتم في وصلها ليست بنافعة يوم القيامة ، فالعامل في [يَوْمَ] قوله تعالى : [تَنْفَعَكُمْ] ، وقال بعض النحاة في كتاب الزهراوي : العامل فيه [يَفْصِلُ] وهو مِمَّا بعده لا مِمَّا قبله .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، والعامة : [يُفْصَلُ] بضم الياءِ وسكون الفاءِ وتخفيف الصَّاد مفتوحة ، وقرأَ ابن عامر ، والأَعرج ، وعيسى : [يُفَصَّلُ] بضم الياءِ وفتح الفاءِ وشد الصاد منصوبة ، واختُلف - على هاتين القراءَتين - في إِعراب قوله تعالى : [بَيْنَكُمْ] - فقيل : نُصب على الظرف ، وقيل : رُفع على ما لم يُسَمَّ فاعله إِلَّا أَن لفظه بقي منصوباً لأَنه كذلك كثر استعماله ، وقرأَ عاصم ، والأَعمش : [يَفْصِلُ] بفتح الياءِ وسكون الفاءِ وكسر الصاد خفيفة ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وابن وثاب : [يُفَصِّلُ] بضم الياءِ وفتح الفاءِ وشدِّ الصاد المكسورة ، وإِسناد الفعل في هاتين القراءَتين إِلى الله تعالى ، وقرأَ النَّخَعي ، وطلحة بن مصرِّف : [نُفَصِّلُ] بنون العظمة مرفوعة وفتح الفـاءِ وشدِّ الصَّاد ، وفي قوله تعـالى : ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيـرٌ﴾ وعيد وتحذير .

وقرأ جمهور السبعة : [إِسْوَةٌ] بكسر الهمزة ، وقرأ عاصم وحده : [أُسْوَةٌ] بضمها ، وهما لغتان ، والمعنى : قُدوة وإمام ، و «إِبْرَاهِيمُ» صلى الله عليه وسلم هو خليل الرحمن عزَّ وجلَّ ، واختلف الناس في «الذين معه» ـ فقال قوم من المتأولين : أراد من آمن به من الناس ، وقال الطبري وغيره : أراد الأنبياءَ الذين كانوا في عصره عليه السلام وقريباً من عصره ، وهذا القول أرجح لأَنه لم يُرْوَ أَن إبراهيم عليه السلام كان له أَتباع مؤمنون في مكافحته نمروذ ، وفي البخاري أَنه عليه الصلاة والسلام قال لسارة حين رحل بها إلى الشام مهاجراً من بلد النمروذ : ما على الأَرض من يعبد الله غيري وغيرك ، وهذه الأُسوة مفيدة في التَّبري من الإشراك وهو مُطَّرد في كل ملَّة ، وفي نبينا صلى الله عليه وسلم أُسوة حسنة على الإطلاق لأَنها في العقائد وفي أَحكام الشرع كلها .

وقرأ جمهور الناس : [بُرَءَاءُ] على وزن فُعَلاءَ ، والهمزة الأُولى لام الفعل ، وقرأ عيسى الثقفي : [بِرَاءٌ] على وزن فِعال بكسر الفاءِ ككريم وَكِرَامٍ ، وقرأ يزيد بن القعقاع : [بُرَاءٌ] على وزن فُعال بضم الفاءِ كَتُؤَامٍ ، وقد رُويت عن عيسى قراءَة ـ قال أَبو حاتم : زعموا أَنه عيسى الهمداني ـ ، «ويَجُوز» : [بَرَاءٌ] على المصدر بفتح الباءِ ، يُوصفُ به الجمع والإفراد (١) .

(١) يريد أن يقول: قال أبو حاتم : زعموا أن عيسى الهمداني قرأ : [بَرَاءٌ] على المصدر بفتح الباء ، ويجوز أن يكون كلام أبي حاتم صحيحاً .

وقوله تعالى : ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ معناه : كذَّبْناكم في أقوالكم ولم نؤمن بشيءٍ منها ، ونظير هذا قوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله عزَّ وجلَّ : (فهو مؤمن بي كافر بالكوكب)(١) ، ولم يُلحق العلامة في [بَدَا](٢) لأَن تأْنيث العداوة والبغضاءِ غير حقيقي .

ثم استثنى تعالى استغفار إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأَبيه ، فذكر أَنه كان عن موعدة ، وقد فسَّرنا ذلك في موضعه ، وهذا استثناءٌ ليس من الأَول ، والمعنى عند مجاهد ، وقتادة ، وعطاءٍ الخراساني ، وغيرهم أَن الأُسوة لكم في هذا الوجه لا في هذا الآخر لأَنه كان في علَّة ليست في نازلتكم ، ويحتمل أَن يكون الاستثناءُ من التَّبري والقطيعة التي ذكرت ، أَي لم تبق صلة إلَّا كذا .

وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ الآية ... حكايةٌ عن قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام والذين معه أَنه هكذا كان .

---

(١) هذا جزءٌ من حديث رواه مسلم في الإيمان ، والبخاري في الأذان والاستسقاء والمغازي والتوحيد ، وأبو داود في الطب ، ومالك في باب الاستسقاء من الموطإ ، ولفظه كما في صحيح مسلم عن زبير بن خالد الجُهَنِي : قال : صلَّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحُدَيْبِيَة في إثر السماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسولُه أعلم ، قال : قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مُطرنا بِنَوْءِ كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب .

(٢) في أكثر النسخ : ولم تُلحق العلامة في [بُرَءَاءُ] ، وهو خطأ من النَّسَّاخ . والمراد أن علامة التأنيث لم تلحق بالفعل [بَدَا] لأن التأنيث في « العداوة والبغضاء مجازيٌّ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا ﴾ الآية ... حكايةٌ عن إبراهيم عليه السلام ومن معه ، والمعنى : لا تغلِّبهم علينا فنكون لهم فتنةً وسببَ ضلالة لأَنهم يتمسَّكون بكفرهم ويقولون : إنما غلبناهم لأَنا على الحق وهم على الباطل ، نحا هذا المعنى قتادة ، وأَبو مجلز ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لا تُسَلِّطهم علينا فيفتنونا عن أَدياننا ، فكأَنه قال : لا تجعلنا مفتونين ، فعبَّر عن ذلك بالمصدر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا أَرجح الأَقوال لأَنهم إنما دعَوْا لأَنفُسهم ، وعلى منحى قتادة إنما دعوا للكفَّار ، أَما إن مقصدهم إنما هو أَن يندفع عنهم ظهور الكفَّار الذي بسببه فُتن الكفَّار ، فجاءَ في المعنى تحليق بليغ ، ونحوه

قول النبي صلى الله عليه وسلم : (بئس الميت سعد)(١) ليهود ؛ لأنهم يقولون : لو كان محمد نبيًّا لم يمت صاحبه .

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ الآية ... خطاب لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله سبحانه : [لِمَنْ] بدل من قوله : [لَكُمْ] ، وكرر حرف الجر ليتحقَّق البدل ، وذلك عُرف هذه المبدلات ، ومنه قوله تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ﴾(٢) ، وهو في القرآن كثير ، وأكثر ما يلزم من الحروف اللام ، ثم أعلم تعالى باستغنائه عن العبادة ، وأنه الحميد في ذاته وأفعاله ، لا يُنقص ذلك كفر كافر ولا نفاق منافق .

ورُوي أن هذه الآيات لما نزلت وأزمع المؤمنون امتثال أمرها وصَرْم حبال الكفرة وإظهار عداوتهم ، لحقهم تأسف على قراباتهم أن لم يؤمنوا ولم يهتدوا حتى يكون بينهم الوُدُّ والتواصل ، فنزلت ﴿عَسَى

(١) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري في الجنائز ومناقب الأنصار والفرائض ، ومسلم ، ومالك في موطئه في الوصية ، وهو عن سعد بن أبي وقاص ، قال : (مرضتُ بمكة مرضاً فأشفيت منه على الموت ، فأتاني النبي صلى الله عليه وسلم يعودني ، فقلت : يا رسول الله ، إن لي مالاً كثيراً وليس يرثني إلا ابنتي ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : لا ، قال : قلت : فالشَّطْرُ؟ قال : لا ، قلت : الثُّلُث ؟ قال : الثلث كبير ، إنك إن تركت ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكفَّفون الناس ، وإنَّك لن تُنفق نفقةً إلا أُجِرْتَ عليها حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك ، فقلت : يا رسول الله ، أُخلَّف عن هجرتي ، فقال : لن تُخلَّف بعدي فتعمل عملا تُريد به وجه الله إلا ازددت به رفعة ودرجة ، ولعلَّ أن تُخلَّف بعدي حتى ينتفع بك أقوامٌ ويُضَرَّ بك آخرون ، لكن البائس سعد بن خولة يرثي له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة) ، قال سفيان : وسعد بن خولة رجلٌ من بني عامر بن لؤي .

(٢) من الآية (٨) من سورة (الحشر) ، وقوله سبحانه [لِلْفُقَرَاءِ] بدل من قوله قبلها ﴿وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ، وهما معطوفان على مجرور باللام .

ٱللَّهُ﴾ الآيةُ مُؤنسةً في ذلك ، ومُرَجِّيَةً أَن يقع ، فوقع ذلك بإِسلامهم في الفتح ، وصار الجميع إِخواناً ، ومن ذكر أَن هذه المودَّة تزوُّج النبي صلى الله عليه وسلم أُم حبيبة بنت أَبي سفيان وأَنها كانت بعد الفتح فقد أَخطأَ ؛ لأَن النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها وقت هجرة الحبشة ، وهذه الآيات نزلت سنة ثمانٍ من الهجرة ، ولا يصح ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما إِلَّا أَن يسوقَه مثالًا وإِن كان متقدماً لهذه الآية لأَنه استمر بعد الفتح كسائر ما نشأَ من المودَّات ، و «عَسَى» من الله واجبة الوقوع إِن شاءَ الله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ ﴾

اختلف الناس في هؤلاءِ الذين لم ينْه عنهم أَن يتبرَّءُوا منهم — فقال مجاهد : هم المؤمنون من أَهل مكة الذين آمنوا ولم يهاجروا

وكانوا لذلك في رتبة سوءٍ لتركهم فرص الهجرة ، وقال آخرون : أَراد المؤمنين التاركين للهجرة كانوا من أَهل مكة وغيرهم ، وقال الحسن ، وأَبو صالح : أَراد خُزاعة وبني الحارث وقبائل من العرب كفاراً إِلَّا أَنهم كانوا مظاهرين للنبي صلى الله عليه وسلم ، مُحبِّين فيه وفي ظهوره ، ومنهم كنانة وبنو الحارث بن عبد مناة ومُزَيْنَة ، وقال قوم : أَراد من كفار قريش من لم يقاتل ولا أَخرج ولا أَظهر سوءًا ، وعلى هذين القولين فالآية منسوخة بالقتال ، وقال عبد الله ابن الزبير رضي الله عنهما : أَراد النساءَ والصبيان من الكفرة ، وقال : إِن الآية نزلت بسبب أُمِّ أَسماءَ حين استأْذنت النبي صلى الله عليه وسلم في بِرِّها وصلتها فأَذن لها ، وكانت المرأَة خالتها فيما رُوي فسمَّتها في حديثها أُمًّا ، وقال أَبو جعفر بن النحاس ، والثعلبي : أَراد المستضعفين من المؤمنين الذين لم يستطيعوا الهجرة ، وهذا قول ضعيف ، وقال مُرَّة الهمداني ، وعطية العوفي : نزلت في قوم من بني هاشم منهم العباسُ رضي الله تعالى عنه ، وقال قتادة : نسختها ﴿فَاقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾(١) . وقوله تعالى : ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ بدل ، وهذا هو بدل الاشتمال ، و «الإِقْسَاطُ» : العدلُ ،

(١) من الآية (٥) من سورة (التوبة) .

و [ظَاهَرُوا] معناه : عاونوا ، و «الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي الدِّين وأَخرجوهم» مَرَدَةُ قريش .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتُ ﴾ الآية... نزلت إِثْر صلح الحديبية ، وذلك أَن الصُّلْح تَضَمَّن أَنْ يَرُدَّ المؤمنون إلى الكفَّار كلَّ من جاءَ مسلماً من رجل أَو إمرأَة ، فنقض الله تعالى من ذلك أَمر النساءَ بهذه الآية ، وحكم بأَن المهاجرة المؤمنة لا تُرَدُّ إلى دار الكُفْر بل تبقى تستبرئ وتتزوج ، ويُعطى زوجها الكافر الصداق الذي أَنفق ، وأَمر أَيضاً المؤمنين بطلب صداق من فرَّت امرأَته من المؤمنين ، وحكم تعالى بهذا في النازلة ، وسمَّاهُنَّ تعالى مؤمنات قبل أَن يُتَيَقَّن ذلك لأَنه ظاهر أَمرهن ، و [مُهَاجِرَاتٍ] نصب على الحال ، و [ٱمْتَحِنُوهُنَّ] معناه: جربوهن واستخبروا حقيقة ما عندهن .

واختلف الناس في هذا الامتحان ، كيف كان ؟ فقال ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، وعكرمة : كان بأَن تُسْتَحْلف المرأَة أَنها ما هاجرت لبغض زوجها ، ولا بجريرة جَرَّتها ، ولا بسبب من أَعراض الدنيا سوى حبِّ الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والدَّار الآخرة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً : الامتحان أَن تُطالب بأَن تشهد أَن لا إِلٰه إِلَّا الله وأَن محمداً رسول الله ، فإِذا فعلت ذلك لم تُرد ، وقال

فريق منهم عائشة أُم المؤمنين رضي الله تعالى عنها : هو أَن تعرض عليها الشروط التي في الآية بعد هذا من ترك السرقة والزنى والبهتان والعصيان ، فإذا أَقرَّت المرأة بذلك فهو امتحانها ، وقيل : إن هذه الآية نزلت في أُميمة بنت بشر امرأَة حسَّان بن الدحداحة ، وفي كتاب الثعلبي أَنها نزلت في سُبيعة بنت الحارث(١) .

وقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ إشارةٌ إلى الاستراب ببعضهن ، وحضٌ على امتحانهن ، وذكر تعالى العلة في أَلَّا يُرَدَّ النساءُ إلى الكفَّار وهي امتناع الوطءِ وحُرْمته ، وقرأَ طلحة : ﴿ لَا هُنَّ يَحْلِلْنَ لَهُمْ ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

---

(١) في « أسد الغابة » أن اسمها « سعيدة بنت الحارث الأسلمية » ، راجع الجزء الخامس ص ٧٤٥ منه .

أَمر الله تعالى بأَن يُؤْتى الكفَّار مهور نسائهم اللاتي هاجرن مؤمنات ، ورفع الجناح في أَن يتزوجن بعد إِيتاءِ أُجورهن ، وأَمر المسلمين بفراق الكافرات وأَلَّا يمسكوا بِعصَمِهِنَّ ، فقيل : الآيات في عابدات الأَوثان ومن لا يجوز نكاحها ابتداءً ، وقيل : هي عامة نُسخ منها نساءُ أَهل الكتاب .

و «العِصَمُ» جمع عصمة ، وهي أَسباب الصحبة والبقاءِ في الزوجية ، وكذلك العصمةُ في كل شيءٍ هي السبب الذي يُعتصم به ويعتمد عليه ، وقرأَ جمهورُ السبعة والناسُ : [تُمْسِكُوا] بضم التاءِ وكسر السين وتخفيفها ، من «أَمسك» ، وقرأَ أَبو عمرو (١) وحده ، وابن جبير ، ومجاهد ، والأَعرج ، والحسن - بخلاف : ﴿وَلَا تُمَسِّكُوا﴾ ، من «مسَّك» بالشد في السين ، وقرأَ الحسن ، وابن أَبي ليلى ، وابن عامر - في رواية عبد الحميد - : ﴿وَلَا تَمَسَّكُوا﴾ بفتح التاءِ والميم وفتح السين وشدها ، وقرأَ الحسن : ﴿وَلَا تَمْسِكُوا﴾ بفتح التاءِ وسكون الميم وكسر السين مخففة ، ورأَيت لأَبي علي الفارسي أَنه قال : سمعتُ الفقيه أَبا الحسن الكرخي يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ : إِنه في الرجال والنساءِ ، فقلت له :

---

(١) يعني : وحده من بين السبعة المشهورين ، وإلا فقد قرأ بها غيره كما ذكر المؤلف .

النحويون لا يرون هذا إلّا في النساءِ ؛ لأَن « كَوَافر » جمع « كافرة » ، فقال : وايْش يمنع من هذا ؟ أَليس الناسُ يقولون : طائفة كافرة وقرية كافرة ؟ فَبُهِتُّ وقلت : هذا تأْييد(١) .

وأمر الله تعالى أَن يُسأَل أَيضاً الكافرون أَن يدفعوا الصدقات التي أَعطاها المؤمنون لمن فرَّ من أَزواجهم إِلى الكفار ، وقرر الحكْم بذلك على الجميع ، فروي عن ابن شهاب أَن قريشاً قالت : نحن لا نرضى هذا الحكم ولا نلتزمه ولا ندفع لأَحدٍ صداقاً ، فنزلت بسبب ذلك هذه الآية الأُخرى ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ﴾ الآية ، فأَمر الله تعالى المؤمنين أَن يدفعوا إِلى من فرَّت زوجته ففاتت بنفسها إِلى الكفار صداقه الذي أَنفق ، قال ابن عباس رضي الله عنهما – في كتاب الثعلبي – : خمس نسوة من نساءِ المهاجرين رجعن عن الإِسلام ولَحِقْنَ بالمشركين : أُمُّ الحكم بنت أَبي سفيان ، وكانت تحت عياض بن شداد(٢) ،

(١) علَّق أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) على كلام أبي علي الفارسيّ بقوله : « وهذا الكوفي معتزلي فقيه ، وأبو علي معتزلي ، فأعجبه هذا التخريج ، وليس بشيءٍ ؟ لأنه لا يقال « كافرة » في وصف الرجال إلا تابعاً لموصوفها أو يكون محذوفاً مُراداً ، أما بغير ذلك فلا يُجمع فاعلة على فواعل إلا ويكون للمؤنث » .

(٢) هو عياضُ بن شداد بن غَنْم بن زهير بن أَبي شداد القرشي الفهري ، شهد المواقع كلها ، وكانَ يُسَمَّى : زاد الراكب لأنه كان يؤثر رفقته بزاده .

وفاطمة بنت أَبي أُميَّة أُخت أُمِّ سَلَمة ، وكانت تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وعَبْدة بنت عبد العزيز ، كانت تحت هشام بن العاص . وأُم كلثوم بنت جرول ، كانت تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأَعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة (١) .

واختلف الناس ، من أَي مال يُدفع إليه الصداق؟ فقال محمد ابن شهاب الزهري : يُدفع إليه من الصدقات التي كانت تدفع إلى الكفار بسبب من هاجر من أَزواجهم ، أَراد الله تعالى دفعها إليهم حين لم يرضوا حكمه حسب ما ذكرناه ، وهذا قول صحيح يقتضيه قوله تعالى : [فَعَاقَبْتُمْ] ، وسنبين ذلك عند تفسير اللفظة إن شاءَ الله تعالى ، وقال مجاهد ، وقتادة : يُدفع إليه من غنائم المغازي ، وقال هؤلاءِ : المعاقبة هي الغزو والمغنم ، وتأَوَّلوا اللَّفظة بهذا المعنى ، وقال الزهراوي أَيضاً : يُدفع إليه من أَيِّ وجوه الفيءِ أَمكن .

و «المعاقبة» في هذه الآية ليست بمعنى مجازاة السوءِ بسوءٍ ، ولكنها بمعنى : فَصِرْتُم منهم إلى الحال التي صاروا إليها منكم ،

(١) لم يذكر هنا غير أربع ، والذي في كتاب الثعلبي أنهن ستُّ نسوة ، ويضاف إلى ما هنا : بَرْوع بنت عُقبة ، كانت تحت شَمَّاس بن عثمان ، وشَهْبَة بنت غَيْلان ، ولم يذكر اسم زوجها.

وذلك بأن يفوت إليكم شيءٌ من أزواجهم ، وهكذا هو التعقيب على الحمل والدواب ، أن يركب هذا عُقْبَة وهذا عُقْبَة ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : «وَإِنْ فَاتَكُم أَحَدٌ من أزواجكم» ، ويقال : عاقب الرجل صاحبه في كذا ، أي : جاءَ فعْل كل واحد منهما بعقب فعْل الآخر ، ويقال : أَعقب الرجل ، ومنه قول الشاعر :

وَحَارَدَتِ النُّكْدُ الْجِلادُ ولَمْ يكُنْ لِعُقْبَةِ قِدْرِ ٱلْمُسْتَعِيرِينَ مُعْقِبُ (١)

ويقال : عقَّب - بشدِّ القاف - أي أصاب عُقْبَى ، والتَّعقيب : غزْوٌ إِثْر غزْو ، ويقال : عَقَب - بتخفيفها - ، ويقال : عَقِب - بكسرها - ، كلُّ ذلك بمعنى يقرُب بعضه من بعض ، ويجمع ذلك قُربى . وقرأ جمهور الناس : [عَاقَبْتُمْ] ، وقرأ الأَعرج ، ومجاهد ،

(١) هذا البيت للكميت ، وهو في الديوان والتاج واللسان ، وهو في وصف الإبل ، ومعنى حارَدَتْ : انقطعت ألبانها أو قلَّت ، يقال : ناقة مُحَارِدٌ ومحارِدَةٌ : بمعنى : شديدة الحِرَادِ ، والنُّكْدُ : التي ماتت أولادها ، والجلاد : الغِلاظُ الجلودِ ، القصارُ الشُّعور ، الشِّدادُ النصوص ، وهذا النوعُ من الإبل أقوى وأصبر وأقلُّ لَبَناً من نوع آخر أغزر لَبَناً وأضعف ويقال له : الخور ، والعُقْبَة من التَّعقيب ، وهو أن يأتي شيءٌ بعد شيءٍ ، يقال : عَقَب هذا هذا إذا جاء بعده ، ويقال أيضاً : أعْقَبَ هذا هذا ، فهو عُقْبَةٌ له ، والبيت شاهد على أن أعْقَبَ بمعنى عَقَبَ ، فالشاعر يقول : مُعْقِبٌ ، والقِدْر : إناءٌ يُطبخ فيه - وهي مؤنثة وقد تذكَّر - ، يقول : لقد جفَّت ألبان الإبل حتى لم يبق شيءٌ يأخذه أحد من المستعيرين بعد آخرهم ، أي لم يبق بعد الآخر آخر ثان .

والزهري ، وعكرمة ، وحميد : [عَقَّبْتُمْ] بالتشديد في القاف ، وقرأ الأَعرج أَيضاً وأَبو حيوة ، والزهراوي أَيضاً : [عَقَبْتُمْ] بفتح القاف خفيفة ، وقرأَ النَّخَعي ، والزهري أَيضاً : [عَقِبْتُمْ] بكسر القاف ، وكلها بمعنى : غَنِمْتُمْ ، ورُوِي عن مجاهد : [أَعْقَبْتُمْ] بأَلف مقطوعة قبل العين . وهذه الآية كلُّها قد ارتفع حكمها . ثم ندب تعالى إلى التقوى وأَوجبها ، وذكر العِلَّة التي بها تجب التقوى وهي الإِيمان بالله تعالى والتصديق بوحدانيته وصفاته وعقابه وإِنعامه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

هذه بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا ، وهي كانت في المعنى بيعة الرجال قبل فرض القتال ، وسمَّاهم تبارك وتعالى : «المؤمنات» بحسب الظاهر من أَمرهن ، ورفضُ الإِشراك هو محض

الإيمان ، وقتل الأولاد هو من خوف الفقر والفاقة ، وكانت العرب تفعل ذلك . وقرأ الحسن ، وأبو عبد الرحمن : [يُقَتِّلْنَ] بضم الياءِ وفتح القاف وكسر التاءِ مشدَّدة .

و «الإِتْيانُ بالبهتان» قال أكثر المفسِّرين : معناه أن تَنْسُب إلى زوجها ولداً ليس هو له ، واللَّفظ أعم من هذا التخصيص ، وإن الفِرْية بالقول على أحد من الناس بعظيمة لَمِنْ هذا(١) ، وإن الكذب فيما اؤْتُمِنَّ عليه من الحيض والحمل لفِريةُ بهتان ، وبعض أقوى من بعض ، وذلك أن بعض الناس قال : ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾ يراد به اللسان في الكلام ، والفم في القُبلة ونحوها ، و «بين الأَرْجُل» يراد به الفروج ، وولَّد الإلحاق ونحوه . و «المعروف» الذي نُهي عن العصيان فيه ، قال أنس ، وابن عباس ، وزيد بن أسلم رضي الله عنهم : هو النَّوح وشق الجيوب ووشم الوجوه ووصل الشعر وغير ذلك من أوامر الشريعة فرضها وندبها .

ويُروى أن جماعةً من النساءِ فيهن هند بنت عتبة ـ بايَعْن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليهن الآية ، فلما قَرَّرهن على أَلَّا يُشْرِكن قالت هند : وكيف نطمع أن تقبل منَّا ما لم تقبله من الرجال ، بمعنى أن هذا بَيِّنٌ لزومه ، فلما وقف على السَّرقة قالت : والله إني

(١) يعني أن الافتراء على أحد من الناس بالقول أنه ارتكب عظيمة من الأمور لَهِيَ من هذا النوع .

لأُصيب الهنة من مال أَبي سفيان لا أَدري ما يحلُّ لي من ذلك ، فقال أَبو سفيان ـ وكان حاضراً ـ : ذلك حلالٌ فيما مضى وبقي ، وقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : كُلي وولدك بالمعروف ، وقد تكرر هذا المعنى في الحديث الآخر ، قولها : «إن أَبا سفيان رجل مسِّيك» ، فلما وقف على الزِّنى قالت : يا رسول الله وهل تزني الحُرَّة ؟ قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، ما تزني الحُرَّة ، وذلك أَن الزِّنى في قريش إنما كان في الإماءِ في أَغلب الأَمر ، وفيما يعرِف مثل هند ، وإلَّا فالبغايا قد كُنَّ أَحراراً ، فلما وقف على قتل الأَولاد قالت : نحن ربَّيناهم صغاراً ، وقتلتهم أَنت ببدرٍ كباراً ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما وقف على العصيان في المعروف قالت : ما جلسنا هذا المجلس وفي أَنفسنا أَن نعصيك(١) . ويروى أَن جماعة نساءٍ بايعن النبي صلى الله عليه وسلم فقلن : يا رسول الله نبايعك على كذا وكذا الآية . فلما فرغن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فيما اسْتَطَعْتُنَّ وأَطَقْتُنَّ ، فقُلْن : اللهُ ورسوله أَرحم بنا منَّا بأَنفُسنا .

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن سعد ، عن الشعبي رضي الله عنه ، وأخرج مثله ابن جرير ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما . (الدر المنثور) .

هذا وحديث المبايعة مذكور في البخاري ، ومسلم ، وابن مردويه ، عن أم عطية .

وقوله تعالى : [فَبَايِعْهُنَّ] معناه : امْض معهن صفقة الإيمان بأَن يُعْطِينَ ذلك من أَنْفُسهن ويُعْطَيْن عليه الجنة ، واختلفت هيئات مبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم النساءَ بعد الإجماع على أَنه لم تمسَّ يده الشريفة يد امرأة أَجنبية – فيروى عن عائشة رضي الله عنها وغيرها أَنها قالت : إنه بايع النساءَ قولًا (١) ، وقال : (إنما قولي لمائة امرأَة كقولي لامرأَةٍ واحدة)(٢) ، وقالت أَسماءُ بنت يزيد بن

---

(١) روى البخاري عن عـُرْوَة أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿ يَـأَيُّهَـا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، قال عـُرْوَة : قالت عائشة : فمن أَقَرَّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قد بايعتك) كلاماً ، ولا والله ما مسَّت يَدهُ يَدَ امرأة في المبايعة قط ، ما يُبايعـُهن إلا بقوله : (قد بايعتك على ذلك) ، هذا لفظ البخاري ، وقد أخرج الحديث أيضاً عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن عائشة رضي الله عنها . (الدر المنثور) . وأخرجه أيضاً أحمد (٦–١٥٣) والترمذي .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن سعد ، وأحمد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن أُمَيْمة بنت رقيقة ، ولفظه كاملا أنها قالت : أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم في نساءٍ لنبايعه ، فأخذ علينا ما في القرآن : « أَلاَّ نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئاً » حتى بلغ ﴿ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ فقال : فيما استطعتن وأطقتُنَّ ، قلنا : الله ورســوله أرحم بنا من أنفسنا ، يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : (إني لا أُصافح النساءَ ، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة) . (الدر المنثور) .

السَّكن : كنتُ في النسوة المبايعات ، فقلت : يا رسول الله ، ابسُطْ يدك نبايعك ، فقال لي صلى الله عليه وسلم : (إنِّي لا أُصافح النساءَ لكن آخُذُ عليهن ما أَخذ الله عليهن)(١) ، وذكر النقاش حديثاً أَن النبي صلى الله عليه وسلم مدَّ يده المكرمة من خارج بيت ، ومدَّ نساءٌ من الأَنصار أَيديهن من داخله فَبَايَعْن(٢)، وما قَدَّمْتُه أَثبت ، وروي عن الشعبي أَنه صلى الله عليه وسلم لفَّ ثوباً كثيفاً على يده ، وجاءَ نسوة فَلَمَسْنَ يده كذلك(٣)، ورُوي عن الكلبي أَنَّه قدم عمر بن

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن سعد ، وأحمد ، وابن مردويه ، عن أسماءَ بنت يزيد رضي الله عنها ، قالت : بايعتُ النبي صلى الله عليه وسلم في نسوة فقال : (إنِّي لا أُصافحكن، ولكن آخذ عليكن ما أخذ الله) . (الدر المنثور) .

(٢) أخرج أحمد ، وابن سعد ، وأبو داود ، وأبو يعلى ، وعبد بن حميد ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب ، عن إسماعيل بن عطية ، عن جدته أُم عطية رضي الله عنها ، قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جمع نساء الأنصار في بيت ، فأرسل إليهن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، فقام على الباب فسلم ، فقال : أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكن ، تبايعن على ألا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ، ولا تزنين ... الآية ؟ قلنا : نعم ، فمدَّ يده من خارج البيت ، ومددنا أيدينا من داخل البيت ، قاله إسماعيل : فسألت جدتي عن قوله تعالى : ﴿ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ قالت : نهانا عن النياحة .

وهذه الرواية عن أُم عطية تفيد أن الذي تكلم مع النساء ومدَّ يده هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أما رواية النقاش التي ذكرها ابن عطية فتفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي مدَّ يده المكرَّمة ، ونلحظ أن ابن عطية علَّق على رواية النقاش بقوله : « وما قدمتُه أثبت ».

(٣) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن سعد ، عن الشعبي رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع النساءَ ووضع على يده ثوباً، فلما كان بعدُ كان يخير النساءَ فيقرأُ عليهن =

الخطاب رضي الله عنه فلمس النساءُ يده وهو خارج من بيتٍ وهُنَّ فيه لا يراهُنَّ(١) ، وذكر النقاش وغيره أَن النبي صلى الله عليه وسلم بايعه النساءُ بمكَّةَ على الصَّفَا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يصافحهن(٢) ، ورُوي من حديث عمرو بن شعيب ، عن أَبيه ، عن جدِّه ، رفعه النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وعن عروة بن مسعود الثَّقفي أَنه صلى الله عليه وسلم غَمَس يده في إِناءٍ فيه ماءٌ ، ثم دفعه إِلى النساءِ يغمسن أَيديهن فيه(٣) .

ثم أَمره تبارك وتعالى بالاستغفار لهنَّ ، ورجَّاهُنَّ في غُفرانه ورحمته بقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

= هذه الآية ﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ الآية... ثم ذكر حضور هند امرأة أبي سفيان وكلامها . (الدر المنثور) .

(١) راجع الهامش رقم (٢) صفحة (٤١٨) ، هذا وقد أخرجه أيضاً ابن جرير الطبري عن أم عطية رضي الله عنها .

(٢) في تفسير ابن كثير أن مقاتل بن حيان قال : أُنزلت هذه الآية يوم الفتح ، بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجال على الصفا ، وعُمر بايع النساءَ يُحلِّفهن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ثم قال ابن كثير : رواه ابن أبي حاتم . ثم ساق روايته ، فيها خبر هند بنت عتبة .

(٣) أخرجه ابن سعد ، وابن مردويه ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جَدِّه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بايع النساءَ دعا بقدح من ماءٍ فغمس يده فيه ثم يغمسن أيديهن، فكانت هذه بيعته .

قوله تعالى : ﴿ قَوْماً غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ ، قال ابن زيد ، والحسن ، ومنذر بن سعيد : هم اليهود لأَن غضب الله عزَّ وجلَّ قد صار عُرفاً لهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هم في هذه الآية كفار قريش ؛ لأَن كل كافر فعليه غضب الله تعالى لا يردُّ ذلك ثبوت غضب الله على اليهود .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولا سيَّما في المَرَدَة ككفَّار قريش ، إِذ أَعمالهم معصية ليست بمجرد ضلال بل فيها مناورات (١) مقصودة ، وفي الكلام في التشبيه الذي في قوله تعالى : ﴿ كَمَا يَئِسَ ﴾ يتبيَّن الاحتياج إلى هذا الخلاف ، وذلك أَن اليأْس من الآخرة إِمَّا أَن يكون بالتكذيب بها ، وهذا هو يأْس كفار مكة ، وإِمَّا أَن يكون باليأْس عن الحظ فيها والنعمة مع التصديق بها ، وهذا هو يأْس اليهود ، فمن قال إِن القوم المشار إِليهم هم كفَّار مكَّة قال : معنى قوله تعالى : ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ ﴾ : كما يئس الكافر من صاحب قبر ؛ لأَنه إِذا مات له حميم قال : هذا

(١) اختلفت الأصول في هذه الكلمة ، ففي بعضها جاءت : « شرارات » وفي بعضها كانت « سرارات » .

آخر العهد به ، لن يُبعث أبداً ، فمعنى الآية أن اعتقاد أهل مكّة في الآخرة كاعتقاد الكافر في البعث ولقاء موتاه ، وهذا هو تأويل ابن عباس ، والحسن ، وقتادة في معنى قوله تعالى : ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ . ومن قال إن القومَ المشار إليهم هم اليهود قال : معنى قوله تعالى : ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ : كما يئس الكافر من الرّحمة إذا ماتَ وكان صاحب قبر ، وذلك أنه يُروى أن الكافر إذا كان في قبره عُرض عليه مقعده من الجنة إن لو كان مؤمناً ، ثم يُعرض عليه مقعده من النار الذي يصير إليه (١) ، فهو يائس من رحمة الله تعالى مع علمه بها ويقينه ، وهذا تأويل مجاهد ، وابن جبير ، وابن زيد في قوله تعالى : ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ ، فمعنى الآية أن يأس اليهود من رحمة الله تعالى في الآخرة مع علمهم بها كيأس ذلك الكافر في قبره ، وذلك لأنهم قَدْ رِينَ على قُلوبهم ، وحملهم الحسد على

(١) حديث إن الميت يعرض عليه مقعده. الخ . أخرجه البخاري في الجنائز وبدء الخلق والرقاق ، ومسلم في الجنة ، والترمذي في الجنائز ، وكذلك كل من النسائي ، ومالك في الجنائز ، وابن ماجه في الزهد ، وأحمد في مسنده (٢–١٦ ، ٥١ ، ١١٣ ، ١٢٣) ، ولفظه كما في مسند أحمد : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما منكم أحد إلا يعرض عليه بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال : هذا مقعدك حتّى تبعث إليه) .

ترك الإيمان ، وغلب على ظنونهم أنهم مُعَذَّبون ، وهذه كانت صفة كثير من مُعاصري النبي صلى الله عليه وسلم .

و [مِنْ] في قوله تعالى : ﴿مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقُبُورِ﴾ على القول الأَول لابتداءِ الغاية ، وفي القول الثاني هي لبيان الجنس أَو للتبعيض ، يتوجَّهان فيها ، وبيان الجنس أَظهر .

❁ ❁ ❁

كمل تفسير سورة الممتحنة والحمد لله ربِّ العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٦١) سورة الصف مدنية وآياتها أربع عشرة

وهي مدنية في قول الجمهور ، وقال مكي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والمهدوي عن عطاءٍ ومجاهد : إنها مكيَّة ، والأَول أصح لأَن معاني السُّورة تعضده ، ويشبه أَن يكون فيها المكي .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾

قد تقدَّم القول غير مرَّة في تسبيح الجمادات ، و «الْعَزِيزُ» في سلطانه وقدرته ، و «الحكيم» في أَفعاله وتدبيره ، واختلف الناس

في السبب الذي نزلت فيه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ ﴾ - فقال ابن عباس ، وأبو صالح : نزلت بسبب أن جماعة قالوا : لَوَددنا أن نعرف أحب الأعمال إلى ربنا حتى نعتني به ، ففرض الله تعالى الجهاد ، وأعلمهم بفضله لديه ، وأنه يحب المقاتلين في سبيله كالبنيان المرصوص ، وكان إذْ فُرض قد تكرَّهه قوم منهم ، وفرَّ من فرَّ يوم أُحد ، فعاتبهم الله تعالى بهذه الآية ، وقال قتادة والضحاك : نزلت بسبب أن جماعة من شباب المسلمين كانوا يتحدثون عن أنفسهم في الغزو بما لم يفعلوا ، ويقولون فعلنا وصنعنا ، وذلك كذب ، فنزلت الآية في ذلك ، وقال ابن زيد : نزلت في المنافقين لأن جملة منهم كانوا يقولون للمؤمنين : نحن منكم ومعكم ، ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك ، فنزلت الآية عتاباً لهم .

وحكم هذه الآية باق غابر الدهر ، وكل من يقول ما لا يفعل فهو ممقوت مَذِق الكلام (١) ، والقول الأخير في المنافقين إنما يتوجه بأن يكونوا غير مُجَلِّحين بالنفاق (٢) ، فلذلك خوطبوا بالمؤمنين ،

(١) من معاني كلمة « المَذْق » : الكذب وعدم الإخلاص .

(٢) يعني : ركبوا رؤوسهم في النفاق ومضوا فيه إلى غايته .

أي : في زعمكم وما تُظهرون ، والقول الأول يترجَّح بما يأْتي بعد من أمر الجهاد والقتال .

و «الْمَقْتُ» : البغض من أجل ذنب أو ريبة أو دناءة يصنعها الممقوت ، هذا حدُّ المقت ، فتأمَّله ، و [مَقْتاً] نصب على التمييز ، والتقدير كَبُر فِعْلكم مقتاً ، والمراد : كبر مَقْتُ فِعْلكم ، فحذف المضاف إليه ونصب المضاف على التمييز ، وهذا كما تقول : تَفَقَّأَ شحماً بطنُك ، ثم تقول : تَفَقَّأَ بطنُك شحماً ، و ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ يحتمل أن يكون بدلًا من المقدر ، ويحتمل أن يكون خبر ابتداءٍ مضمَر ، ويحتمل ـ على غير هذا التقدير ـ أن يكون فاعلًا بـ [كَبُرَ] ، وقول المرءِ ما لا يفعل يوجب مقت الله تعالى ، ولذلك فرَّ كثير من العلماءِ من الوعظ والتذكير وآثروا السكوت .

ثم أكَّد تعالى الإخبار بمحبته للمقاتلين صفًّا ، ومحبة الله تعالى هي ما يظهر عليهم من نصره وكرامته ، وهي هنا صفة فعل وليست بمعنى الإرادة لأَن الإِرادة لا يصح أَن يقع ما يخالفها ، ونحن نجد المقاتلين على غير هذه الصفة كثيراً ، وقال بعض الناس : قتال الرَّجَّالة (١) أفضل من قتال الفرسان لأَن التَّراصَّ فيه يتمكن .

---

(١) جمع راجِلٍ وهو الذي يقاتل وهو على رجليه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف خَفِـيَ على قائله مقصد الآية ، وليس المراد نفس التصافّ ، وإنما المقصد الجدُّ في كل أوطان القتال وأحواله ، وقصد بالذِّكْر أشدَّ الأَحوال وهي الحالة التي تحوج إلى القتال صفًّا متراصًّا ، ونابت هذه الحال المذكورة مناب جميع الأَحوال ، وقضت الآية بأَن الذين يبلغ جِدُّهم إلى هذه الحال حريُّون أَلَّا يُقَصِّروا عن حال ، و «الْمَرْصُوص» : المصفوف المُتَضَام ، وقال أَبو بَحْرِيَّة(١) : «إِذا رأَيتموني أَلتفت في الصف فجزُّوا فؤادي»(٢) ، ومنه قول الشاعر :

بِالشَّـامِ بَيْنَ صَفَائِـحٍ صُمٍّ تَرَصَّصُ بالْجَنُوبِ(٣)

---

(١) اختلفت النسخ في كتابة اسمه ، فهو في بعضها : أبو يحيى ، وفي بعضها : أبو بحيرة ، والصواب ما أثبتناه ، وهو عبد الله بن قيس الكندي السَّكوني التراغمي أبو بحريَّة الحمصي ، شهد خطبة عمر بالجابية ، وروى عن معاذ بن جبل ، وأبي الدرداء ، وأبي عبيدة بن الجراح وأبي هريرة ، وروى عنه ابنه وخلق كثير ، قال ابن عبد البَرِّ : « هو تابعي ثقة » ، وقال الحافظ في التقريب : « حمصي مشهور مخضرم ، ثقة ، مات سنة سبع وسبعين » رضي الله عنهم أجمعين .

(٢) الذي في الطبري : « فجَئُوا لحيي » ، وهي من وَجَأَه إذا دَفَعَه بجُمْع كفِّه في الصدر أو العُنق .

(٣) الصَّفائح : جمع صفيحة وهي كل عريض من حجارة أو لوح ونحوهما ، والصُّم : المُصْمتة الصُّلْبة ، وتَرَصَّصُ : أُحْكِمَ جمْعه وضُمَّ بعضه إلى بعض ، وكلُّ ما أُحْكِم وضُمَّ فقد رُصَّ ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، ولم أقف على هذا البيت في المراجع التي بين يديَّ .

وقال منذر بن سعيد ، والفراءُ ، وغيرهما : المرصوصُ : المعقود بالرصاص ، وهذا يحتمل أن يكون أصل اللفظه .

ثم ذكر تعالى مقالة موسى عليه السلام ، وذلك ضرب مثل للمؤمنين الذين يقولون مالا يفعلون ، ذكَّرهم الله تعالى بقوم آذوا نبيَّهم على علم منهم بنبوَّته ، وَزَاغُوا فَأَزَاغَ اللهُ تعالى قلوبهم ، فاحذروا أَيها المؤمنون أن يُصَيِّركم العصيان وقول الباطل إلى مثل حالهم ، وقال أَبو أُمامة : هم الخوارج ، وقال سعد بن أَبي وقاص رضي الله عنه : هم الحرورية .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

المعنى أَنهم أَشباههم في أَنهم لما زاغوا أَزاغ الله تعالى قلوبهم .

وقوله تعالى : ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ تقرير ، والمعنى : تؤذونني بِتَعَنُّتكم وعصيانكم واقتراحاتكم ، وهذه كانت أَفعال بني إسرائيل .

وانظر أَنه تعالى أَسند الزَّيْغ إليهم لكونه فعل حطيطة (١) ، كما قال تعالى : ﴿نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾(٢) ، وهذا بخلاف قوله

---

(١) نزول في المكانة وتحقير .

(٢) من الآية (١٩) من سورة (الحشر) .

تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾(١) فقد أسند التوبة إلى نفسه لكونها فعل رِفْعة ، ومنه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(٢) ، و «زَاغَ» معناه : مالَ ، وصار عُرفها في الميل عن الحق ، و ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ معناه : طبع عليها وختم وكثُر مَيْلُها عن الحق ، وهذه هي العقوبة على الذنب بالذنب ، وأمال ابن أبي إسحق [زَاغُوا] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾

المعنى : واذكر يا محمد إذ قال عيسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ، وهذا مثال آخر ضربه الله تعالى لكفار قريش ، وحكي عن موسى عليه

(١) من الآية (١١٨) من سورة (التوبة) .
(٢) الآية (٨٠) من سورة (الشعراء) .

السلام أنه قال : ﴿يَا قَوْمِ﴾ وعن عيسى عليه السلام أنه قال : ﴿يَا بَنِي إِسرائيل﴾ من حيث لم يكن له فيهم أب . و [مُصَدِّقاً] حال مؤكدة ، و [مُبَشِّراً] عطف عليه ، وقوله : ﴿يأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾ وقوله : ﴿آسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ جملتان كل واحدة منهما في موضع خفض على الصفة لـ [رَسُولٍ] ، و «أَحْمَد» فعل سمِّي به ، ويحتمل أن يكون أَفْعل كأَسود ، وهو في هذه الآية للكلمة لا الشخص ، وليست على حدِّ قولك : جاءَنا أَحمد ؛ لأَنك ها هنا أَوقعت الاسم على مسمَّاه ، وفي هذه الآية إنما أَراد : اسمه هذه الكلمة ، وذكر أَبو علي هذا العرض ، ومنه ينفك إعراب قوله تعالى : ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾(١) ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، ونافع ، وعاصم - في رواية أَبي بكر - : ﴿مِنْ بَعْدِيَ﴾ بفتح الياء ، وقرأَ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم - في رواية حفص - : ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ بسكون الياء .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الآية... يحتمل أن يريد عيسى عليه السلام ، وتكون الآية وما بعدها تمثيلًا بأُولئك لهؤلاءِ المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أَن يكون التمثيل قد فرغ عند قوله : [أَحْمَد] ، ثم خرج إلى ذكر أَحمد ، لمَّا تطرَّق

(١) من الآية (٦٠) من سورة (الأنبياء) .

ذكره فقال تعالى مخاطبة للمؤمنين : فلمَّا جاءَ أحمد هؤلاءِ الكفار قالوا : هذا سحر مبين ، و «البيِّنَات» هي الآيات والعلامات ، وقرأ جمهور الناس : ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾ إشارة إلى ما جاءَ به ، وقرأ ابن مسعود ، وطلحة ، والأعمش ، وابن وثاب : ﴿هَذَا سَاحِرٌ﴾ إشارة إليه بنفسه .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ تعجيب وتقرير ، أي لا أحد أظلم منه ، و «افتراءُ الكذب» هو قولهم : «هذا سحرٌ» وما جرى مجرى هذا من الأقوال بغير دليل ، وقرأ الجمهور : [يُدْعَى] على بناءِ الفعل للمفعول ، وقرأ طلحة بن مصرف : [يَدَّعِي] بمعنى : ينتمي وينتسب ، ومن ذلك قول الشاعر :

فَرَمَيْتُ فَوْقَ مُلاءَةٍ مَحْبُوكَةٍ وَأَبَنْتُ لِلْأَشْهَادِ حَزَّةَ أَدَّعِي (١)

---

(١) قال هذا البيت ساعدةُ بن العَجْلان الهذليُّ يرثي أخاه مسعوداً حين قتله ضَمْرة بن بكر ، وهو من قصيدة مطلعها :

لَمَّا سَمِعْتُ دُعَاءَ ضَمْرَةَ فيهِمُ وَذَكَرْتُ مَسْعُوداً تَبَادَرَ أَدْمُعِي

المُلاءَةُ : المِلْحفة ، ومحبوكة : مشدودة محكمة ، وأبَنْتُ للأشْهادِ : أعلنتُ للملأ والحضور ، وحَزَّة : حين ، وأدَّعي : أنْتَسِب ، يقول : إنه رَمَى هذه الرمية فأصابت الملاءة المحبوكة على عَدُوِّه ، وإنه أعلن عن نفسه بقوله : خُذْها وأنا ابن فلان ، والشاهد هنا أن « أدَّعي » بمعنى : انْتَسِب وأنْتمي .

والمعنى – على هذه القراءَة – إنما هو إشارة إلى الأَنبياءِ عليهم السلام ، لمَّا حكى عن الكفار أَنهم قالوا : «هذا سِحْرٌ» بيَّن بعد ذلك أَن العقل لا يقبله ، أَي : وهل أَظلم من هذا الذي يزعم أَنه نبيٌّ ويدَّعي إلى الإِسلام وهو مع ذلك مُفْتَرٍ على ربه ؟ وهذا دليل واضح لأَن مسالك أَهل الافتراءِ والْمَخْرَقَة (١) إنما هي دون هذا وفي أُمور خسيسة ، وضبط النقاشُ هذه القراءَة [يُدَّعَى] بضم الياءِ وفتح الدال المشددة على ما لم يسمَّ فاعله .

والضمير في [يُرِيدُونَ] للكفار ، واللام في قوله تعالى : [لِيُطْفِئُوا] لام مؤكدة دخلت على المفعول ؛ لأَن التقدير : يريدون أَن يطفئوا ، و «أَن» مع الفعل في تأْويل المصدر ، فكأَنه تعالى قال : يريدون إطفاءَ ، وأَكثر ما تلزم هذه اللامُ المفعولَ إذا تقدَّم ، تقول : لِزيدٍ ضربت ولِرُؤْيتك قصدت . و «نُور الله» هو شرعه سبحانه وبراهينه ، وقوله تبارك وتعالى : [بِأَفْوَاهِهِمْ] إشارة إلى الأَقوال ، أَي بقولهم : سِحْر وشِعْر وتكَهُّن وغير ذلك .

(١) المَخْرقة : الاختلاق والافتراءُ ، قال أبو الهيثم : « الاختراق والاختلاق والاختلاص والافتراءُ واحد » .

وقرأَ نافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، وأَبو بكر عن عاصم ، وابن محيصن ، والحسن ، وطلحة ، والأَعرج : ﴿وَٱللَّهُ مُتِمٌّ﴾ بالتنوين [نُورَهُ] بالنصب ، وقرأَ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، والأَعمش : ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ بالإِضافة ، وهي في معنى الانفصال ، وفي هذا نظر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

هذا تـأْكيد لأَمر الرِّسالة وشدٌّ لأَزْرها ، كما يقول الإِنسان لأَمر يثبته ويُقَوِّيه : أَنا فعلتُه ، أَي : فمن يقدر على معارضته فليعارض ، و «الرَّسولُ» المشار إِليه هو محمد صلَّى الله عليه وسلم . وقوله تعالى : ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ﴾ لفظ يصلح للعموم ، وأَن يكون المعنى : أَلَّا يبقى

موضع فيه دين غير الإسلام ، وهذا لا يكون إلَّا عند نزول عيسى عليه السلام ، قاله أبو هريرة ، ومجاهد ، ويحتمل أن يكون المعنى : أَن يظهره حتى لا يوجد دين إلَّا والإسلام أَظهر منه ، وهذا قد كان وَوُجد .

ثم ندب تعالى المؤمنين وحضَّهم على الجهاد بهذه التجارة التي بيَّنها ، وهي أَن يعطي المرءُ نفسه وماله ويأْخذ ثمناً جنة الخُلْد ، وقرأَ جمهور الناس والقراءِ : [تُنْجِيكُمْ] بتخفيف النون وكسر الجيم دون شدٍّ ، وقرأَ ابن عامر وحده (١) ، والحسن ، والأَعرج ، وابن أَبي إسحق : [تُنَجِّيكُمْ] بفتح النون وشدِّ الجيم . وقوله تعالى : [تُؤْمِنُونَ] لفظه لفظ الخبر ومعناه الأَمر ، أَي : آمنوا ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «أَلِيمٌ ، آمِنوا بالله وجاهِدُوا» . وقوله تعالى : [تُؤْمِنُونَ] فعل مرفوع تقديره : ذلك أَنه تؤمنون (٢) ، وقال الأَخفش : هو عطف بيان على [تِجَارَةٍ] ، قال المبرد : هو بمعنى : آمنوا على الأَمر ، ولذلك جاءَ [يَغْفِرْ] مجزوماً ، وقوله تعالى : [ذَلِكُمْ] إشارة إلى الجهاد والإِيمان ، و [خَيْرٌ] هنا يحتمل أَن يكون للتفضيل ،

---

(١) أي : من السبعة .

(٢) علَّق أبو حيان الأندلسي على كلام ابن عطية هذا بعد أن نقله بقوله : «وهذا ليس بشيءٍ لأن فيه حذف المبتدأ وحذف «أنه» وإبقاء الخبر ، وهذا لا يجوز» . البحر المحيط (٨-٢٦٣) .

فالمعنى: من كلِّ عمل، ويحتمل أن يكون إخباراً أَن هذا خيرٌ في ذاته ونفسه.

والجزمُ في قوله تعالى: [يَغْفِرْ] على الجواب للأَمر المقدر في [تُؤْمِنُونَ]، أَو على ما يتضمنه قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ من الحضِّ والأَمر، وإِلى نحو هذا ذهب الفراءُ، ورُوي عن أَبي عمرو بن العلاءِ أَنه قرأَ: «يَغْفِلَّكُمْ» بإِدغام الراءِ في اللام، ولا يجوِّز ذلك سيبويه، وقوله تعالى: [وَمَسَاكِنَ] عطف على [جَنَّاتٍ]، و«طيبُ المساكن»: سَعَتُها وجمالُها، وقيل: طيبُها المعرفةُ بدوام أَمرها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الصحيح، وأَيُّ طيب مع الفناءِ والموت؟

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ۖ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: [وَأُخْرَىٰ]، قال الأَخفش: هي في موضع خفض عطفاً على [تِجَارَةٍ]، وهذا قولٌ قلقٌ قد ردَّ عليه ناسٌ واحْتَجَّ له

آخرون ، والصحيح ضعفه لأن هذه «الأُخرى» ليست ممَّا دلَّت عليه ، إنما هي ممَّا أُعطي ثمناً وجزاءً على الإيمان والجهاد بالنفس والمال . وقال الفراءُ : [وَأُخْرَى] في موضع رفع ، وقال قوم : [أُخْرَى] في موضع نصب بإضمار فعل ، كأنه تعالى قال : يغفرْ ذنوبكم ويُدخلْكم جنات ويمنحْكُم أُخرى وهي النصر والفتح القريب ، وقرأَ ابن أَبي عبلة : ﴿نَصْراً مِنَ ٱللهِ وَفَتْحاً﴾ بالنصب فيهما ، ووصفها تعالى بأَن النفوس تحبها من حيث هي عاجلة في الدنيا ، وقد وكلت النفس بحب العاجل ، ففي هذا تحريض ، ثم قوَّاه تعالى بقوله : ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وهذه الأَلفاظ في غاية الإِيجاز وبراعة المعنى .

ثم ندب الله تعالى المؤمنين إلى النصرة ، ووضع لهم هذا الاسم وإن كان العُرْف قد خصَّ به الأَوس والخزرج ، وسمَّاهم الله تعالى به . وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، والأَعرج ، وعيسى : [أَنْصَاراً] منوَّناً [للهِ] ، وقرأَ الباقون(١) ، والحسن ، والجحدري بالإِضافة ، وفي حرف عبد الله(٢) : «أَنتم أَنصار الله» .

ثم ضرب تعالى المثل بقوم بادروا حين دُعوا ، وهم الحواريُّون ، والحواريون خُلْصان (٣) الأَنبياءِ عليهم السلام ، سُمُّوا بذلك لأَنه

(١) أي : من السبعة .
(٢) في بعض النسخ : «وفي حرف أُبَيٍّ» .
(٣) الخُلْصان : الخالِصُ من الأخْدان ، يستوي فيه الواحد والجمع . (المعجم الوسيط) .

ردَّد اختيارهم وتصفيتهم وكذلك ردَّد تخيل الحواري ، واللفظتان من «الحَوَر» ، وقيل : سُمُّوا بذلك لبياض ثيابهم ، وكانوا غسَّالين(١) نصروا عيسى عليه السلام ، واستُعمل اسمهم حتى قيل للناصر العاضد : حواري ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (وحواري الزبير)(٢) ، وافتراق طوائف بني إسرائيل هو في أمر عيسى عليه السلام ، قال قتادة : والطائفة الكافرة ثلاث فرق : اليعقوبية وكلُّهم قالوا : هو الله ، والإسرائيلية وهم قالوا : هو ابن الله ، والنسطورية وهم قالوا : هو إلٰه ، وأُمُّه إلٰه ، والله تعالى ثالثهما ، تعالى الله سبحانه عن أَقوالهم عُلُوًّا كبيراً .

قوله تعالى : ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ ، قيل : ذلك قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعد فترة من رفع عيسى عليه السلام ، ردَّ الله تعالى الكرَّة عليهم لمن آمن به فغلبوا الكافرين الذين قتلوا صاحبه الذي أُلقي عليه الشبه ، وقيل : ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أَصبح المؤمن بعيسى عليه السلام ظاهراً لإيمانه

(١) المشهور أنهم كانوا قَصَّارين ، أي يدقُّون الثياب ويبيِّضونها .

(٢) أخرجه الشيخان ، كما أخرجه البزار عن عائشة رضي الله عنها ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والبزار والطبراني عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما : (تفسير ابن كثير ، ومجمع الزوائد ٩ـ١٥١) ، كما أخرجه ابن ماجه في المقدمة ، ولفظه كما جاء في البخاري ــ باب فضائل الصحابة ــ عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن لكل نبيٍّ حواريَّ ، وإنَّ حواريَّ الزُّبير بن العوام) .

بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه لا يؤمن أحد حق الإيمان بعيسى عليه السلام إلَّا وفي ضمن ذلك الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه بشَّر به وحرَّض عليه ، وقيل : كان المؤمنون قديماً به ظاهرين بالحُجَّة .وإن ظلُّوا مفترقين في البلاد ، مغلوبين في ظاهر الحياة الدنيا ، وقرأ مجاهد ، وحُميد ، والأَعرج ، وابن محيصن : [فَآيَدْنَا] مخفَّفة الياءِ ممدودة الأَلف .

❁ ❁ ❁

كمل تفسير سورة الصَّف والحمد لله ربِّ العالمين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

(٦٢) سورة الجمعة مدنية وآياتها إحدى عشرة

تفسير سورة الجمعة (*)

وهي مدنيَّة ، وذكر النقاش قولًا أَنها مكِّيَّة ، وذلك خطأٌ ممَّن قاله ؛ لأَن أَمر اليهود لم يكن إِلَّا بالمدينة ، وكذلك أَمْر الجمعة لم يكن قط بمكَّة ، أَعني إِقامتها وصلاتها ، وأَمَّا أَمْر الانفضاض فلا مرية في كونه بالمدينة ، وذكر النقاش عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال : كُنَّا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت سورة الجمعة(١) ،

(*) في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خُلق آدم ، وفيه أُدخل الجنة ، وفيه أُخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة) ، وأخرجه أيضاً الترمذي ، وابن مردويه .

(١) ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره أن هذا الحديث رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، من طرق ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وزاد =

وهذا أيضاً ضعيف ؛ لأن أبا هريرة رضي الله عنه إنما أسلم أيَّام خيبر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾

تقدَّم القول في مثل ألفاظ الآية الأُولى بأَجمعها ، واختلفت القراءة في إعراب الصفات في آخرها ، فقرأ جمهور الناس : [ٱلْمَلِكِ] بالخفض نعتاً [لِلَّهِ] ، وكذلك ما بعده، وقرأ أبو وائل شقيق(١)،

= الإمام السيوطي في الدر المنثور نسبته إلى سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه كما ذكره السيوطي : (كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم حين أُنزلت سورة الجمعة ، فتلاها فلما بلغ ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قال له رجل : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فوضع يده على رأس سلمان الفارسي رضي الله عنه وقال: (والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثريَّا لناله رجال من هؤلاء) ، وتأمل قول المؤلف : إن هذا ضعيف .

(١) هو شقيق بن سلمة الأسدي ، أبو وائل ، الكوفي ، قال عنه في التقريب : « ثقة ، مخضرم ، مات في خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وله مائة سنة » .

ومسلمة ، وأَبو الدينار : [ٱلْمَلِكُ] بالرفع على القطع ، وكذلك ما بعده ، وفتح أَبو الدينار القاف من [ٱلْقَدُّوسِ] .

و «الْأُمِّيُّونَ» يراد بهم العرب ، والأُمِّي في اللغة : الذي لا يكتب ولا يقرأُ ، منسوب إلى «أُمِّ القرى» وهي مكَّة ، وهذا ضعيف ؛ لأَن الوصف بالأُمِّيين – على هذا – يقف على قريش . وإنما المراد جميع العرب ، وفيهم قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نحسب ولا نكتب ، الشهر هكذا وهكذا)(١) ، وهذه الآية تعديد نعم الله تعالى عليهم فيما أَولاهم ، و «الآياتُ المتْلُوَّةُ» : القرآن ، و [يُزَكِّيهِمْ] معناه : يطهِّرهم من الشِّرك ، وينمِّي الخير فيهم ، و «الكتاب» : الوحي المتْلُوُّ ، و «الحِكْمَةُ» : السُّنَّةُ التي هي على لسانه عليه الصلاة والسـلام .

ثم أَظهر تعالى تأْكيد النعمة بذكر حالهم التي كانت في الضد من الهداية ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِـي ضَلَالٍ

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور ، وقد أخرجه أيضاً الإمام أحمد في مسنده (٢–٤٣ ، ٥٢ ، ١٢٢ ، ١٢٩) ، ولفظه فيه أن الأسود بن قيس قال : سمعت سعيد بن عمرو بن سعيد يحدِّث أنه سمع ابن عمر يحدِّث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إنَّا أُمَّة أُمِّيَّة لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا وهكذا – وعقد الإبهام في الثالثة – ، والشهر هكذا وهكذا وهكذا ، يعني تمام الثلاثين) .

مُبِينٍ ﴾ ، و [آخَرِينَ] في موضع خفض عطفاً على [ٱلْأُمِّيِّنَ] ، أَو في موضع نصب عطفاً على الضمائر المتقدِّمة ، واختلف الناس في المَعْنيِّين بقوله تعالى : [وَآخَرِينَ] ـ فقال أَبو هريرة رضي الله عنه وغيره : أَراد فارس ، وقد سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الآخرون ؟ فأَخذ بيد سلمان الفارسي رضي الله عنه وقال : (لو كان الدين في الثريَّا لناله رجال من هؤلاءِ) ، خرجه مسلم (١) ، وقال سعيد ابن جبير ، ومجاهد : أَراد الرُّوم والعجم ، فقوله تعالى : [مِنْهُمْ] ـ على هذين القولين ـ إنما يريد به : في البشرية والإِيمان ، كأَنه تعالى قال : وآخرين من الناس ، وقال مجاهد أَيضاً ، وعِكْرِمة ، ومقَاتل : أَراد التابعين من أَبناءِ العرب (٢) ، فقوله تعالى : [مِنْهُمْ] يريد به النَّسب والإِيمان ، وقال ابن زيد ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن حبان : أَراد بقوله تعالى : [وَآخَرِينَ] جميع طوائف الناس ، ويكون [مِنْهُمْ] في البشرية والإِيمان على ما قلناه ، وذلك أَنَّا نجد بعثه عليه الصلاة والسلام إلى جميع الخلائق ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما لأَهل اليمن : أَنتم هم .

---

(١) راجع الهامش رقم (١) صفحة (٤٣٨) .

(٢) روى ابن أبي حاتم عن سهل الساعديِّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن في أصلاب أُمتي رجالا ونساءً يدخلون الجنة بغير حساب ، ثم تلا : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ ، قال الإمام القرطبي : والقول الأول أثبت .

وقوله تعالى : ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا﴾ نفيٌ لما قَرُب من الحال ، والمعنى أَنهم مزمعون أَن يلحقوا بهم ، وهي «لم» زيدت عليها «ما» تأْكيداً ، قال سيبويه : «لَمَّا» نَفْي قولك : «قد فعل» ، و «لَمْ» نفي قولك : «فعل» دون «قَدْ» .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ الآية ... تَبْيِينٌ لموقع النعمة وتخصيصه إِيَّاهم بها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

الذين حُمِّلوا التوراة هم بنو إسرائيل والأَحبار المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، و [حُمِّلُوا] معناه : كُلِّفُوا القيام بأَوامرها

ونواهيها ، فهذا كما حمل الإنسان الأمانة ، وليس ذلك من الحمل على الظهر وإن كان مُشْتَقاً منه ، وذكر تعالى أنهم لم يَحْملوها ، أي : لم يُطيقوا أَمرها ويَقِفوا عند حدِّها حين كذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والتوراةُ تنطق بِنُبُوَّته ، فكأَن كل خير لم ينتفع به من حُمِّله ، كمثل حمارٍ عليه أَسفارٌ فهي عنده والزِّبل وغير ذلك بمنزلة واحدة .

وقرأَ يحيى بن يَعْمَر : [حَمَلُوا] بفتح الحاءِ والميم مخففة ، وقرأَ المأْمون العباسي : «يُحَمَّل» بضم الياءِ وفتح الحاءِ وشدِّ الميم المفتوحة ، وفي مصحف ابن مسعود : «كَمَثَلِ حِمَارٍ» بغير تعريف ، و «السِّفْرُ» : الكتابُ المجتمع الأَوراق مُنَضَّدة ، ثم بيَّن تعالى حال مثلهم وفساده بقوله سبحانه : ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ ، والتقدير : بئس المثل مثل القوم .

قوله تعالى : ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ﴾ الآية . رُوي أَنها نزلت بسبب أَن يهود المدينة لمَّا ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم خاطبوا يهود خيبر في أَمره ، فذكروا نُبُوَّته ، وقالوا لهم : إن رأَيتم اتِّباعه أَطعناكم ، وإِن رأَيتم خلافه خالفناه معكم ، فجاءَهم جواب أَهل خيبر يقولون : نحن أَبناءُ إِبراهيم خليل الرحمن ، وأَبناءُ عُزَيْر ابن الله ، ومنَّا الأَنبياءُ ، ومتى كانت النُّبوَّة في العرب ؟ نحن أَحق

بالنبوة من محمد - عليه الصلاة والسلام - ، ولا سبيل إلى اتباعه ، فنزلت الآية بمعنى : إنكم إذا كنتم من الله بهذه المنزلة فقُربه وفِراقُ هذه الحياة الخسيسة أَحب إليكم فتمنوا الموت إن كنتم صادقين تعتقدون في أَنفسكم هذه المنزلة .

ثم أَخبر تعالى عنهم أَنهم لا يَتَمَنَّوْنه ولا يلقونه إِلَّا كرهاً لعلمهم بسوءِ حالهم عند الله تعالى وبعدهم عنه ، هذا هو اللازم من أَلفاظ الآية ، وروى كثير من المفسِّرين أَن الله تعالى جعل هذه الآية معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وآية باهرة ، وأَعلمه أَنه إن تمنى أَحد منهم الموت في أَيام معدودة ماتَ وفارق الدُّنيا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : تمنوا الموت على جهة التعجيز وإِظهار الآية ، فما تمنَّاه أَحدٌ خوفاً من الموت وثقةً بصدق محمد صلى الله عليه وسلم (١).

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا جهل قال : إن رأيتُ محمداً عند الكعبة لآتينَّه حتى أطأ على عُنقه ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا) ، أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ، والترمذي ، والنسائي .

ثمَّ توعَّدهم تعالى بالموت الذي لا محيد لهم عنه ، ثمَّ بما بعده من الرَّدِّ إلى الله تعالى ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : «تَفِرُّونَ مِنْهُ مُلاقِيكُمْ» بإسقاط [فَإِنَّهُ] .

وقوله تعالى : [فَيُنَبِّئُكُمْ] أي : إنباءَ مُعاقِبٍ مُجازٍ عليه بالتعذيب ، وقرأ ابن أبي إسحق : ﴿فَتَمَنَّوِا الْمَوْتَ﴾ بكسر الواو ، وكذلك يحيى بن يَعْمَر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

النداءُ بالجمعة هو في ناحية المسجد ، وكان على الجدار في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال السائب بن يزيد(١) : كان

(١) هو السائب بن يزيد بن سعيد بن ثُمامة الكندي ، ويعرف بابن أُخت النَّمِر ، صحابي صغير ، له أحاديث قليلة ، وحُجَّ به في حجة الوداع وهو ابن سبع سنين ، وولاه =

للنبي صلى الله عليه وسلم مؤذن واحد على باب المسجد ، وفي مصحف أَبي داود : وكان بين يديه وهو على المنبر أَذان ، وهو الذي استعمل بنو أُمَيَّة ، وبقي بقرطبة إِلى الآن ، ثم زاد عثمان رضي الله عنه النداءَ على الزوراءِ يُسمع الناس ، فقوم عبَّروا عن زيادة عثمان بالثاني كأَنهم لم يعتدُّوا الذي كان بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، وقومٌ عبَّروا عنه بالثالث . وقرأَ ابن الزبير ، والأَعمش : [ٱلْجُمْعَةِ] بإِسكان الميم ، وهي لغة .

والمأْمور بالسَّعي هو المؤمن الصحيح البالغ الحرُّ الذَّكَر ، ولا جمعة على مسافر في طاعة ، فإِن حضرها أَحسن وأَجْزَته ، واختلف الناس في الحدِّ الذي يلزم منه السَّعي ـ فقال مالك : ثلاثة أَميال من منزل الساعي إِلى المنادي ، وقال فريق : من منزل الساعي إِلى أَول المدينة التي فيها النداءُ ، وقال أَصحاب الرأْي : يلزم أَهل المدينة كلها السَّعي من سمع النداءَ ومن لم يسمع وإِن كانت أَقطارها فوق الثلاثة أَميال ، وقال أَبو حنيفة : ولا يلزم مَنْ منزله خارج المدينة كزرارة من الكوفة ، وإِنما بينهما مجرى نهر ، ولا تجوز لهم إِقامتُها لأَنَّ مِنْ شروطها الجامع والسُّلطان القاهر والسُّوق القائمة ، وقال بعض أَهل العلم :

= عمر سوق المدينة، مات سنة إحدى وتسعين ، وقيل: قبل ذلك، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة . (تقريب التهذيب) .

السعي من خمسة أَميال ، وقال الزهري : من ستَّة أَميال ، وقال أَيضاً : من أَربعة أَميال ، وقاله ابن المنكدر ، وقال ابن عمر ، وابن المسيَّب ، وابن حنبل : إنما يلزم السعي من سمع النداءَ ، وفي هذا نظر .

والسَّعي في الآية ليس الإسراع في المشي كالسَّعي بين الصَّفا والمروة ، وإنما هو بمعنى قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (١) ، فالقيامُ والوضوءُ ولبسُ الثوب والمشيُ سعيٌ كلُّه إلى ذكر الله تعالى ، قال الحسن ، وقتادة ، ومالك ، وغيرهم : إنما تُؤْتَى الصلاة بالسَّكينة ، والسَّعيُ هو بالنِّيَّة والإرادة والعمل(٢) ، و « الذِّكْرُ » هو وعظ الخطبة ، قاله ابن المسيَّب ، ويؤيد ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إنَّ الملائكة على أَبواب المسجد يوم الجمعة ، يكتبون الأَول فالأَول ، فإذا

---

(١) الآية (٣٩) من سورة (النجم) ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ ، فالسعي في هذه الآيات هو العمل ، ومن هذا المعنى قول زهير بن أبي سُلمى :

سَعَى بَعْدَهُم قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُوا فَلَمْ يُفْلِحُوا وَلَمْ يُلامُوا وَلَمْ يَأْلُوا

فمعنى « سعى » في كل هذه الأمثلة : عَمِل .

(٢) وقيل : إن معنى « السَّعْي » هنا هو القَصْدُ ، قال الحسن : والله ما هو بِسَعْيٍ على الأقدام ولكنه سَعْيٌ بالقلوب والنِّيَّة ، وقيل : إن السَّعْي في الآية هو سَعْيٌ على الأقدام ، وهو الدرجة العالية ، فهو فضل وليس بشرط ، أما السَّعْيُ بمعنى الجري والاشتداد فيه فهو غير مراد .

خرج الإمامُ طُويت الصُّحف وجلست الملائكة يستمعون الذِّكر) ، والخطبة عند جمهور العلماءِ شرط في انعقاد الجمعة ، وقال الحسن : هي مستحبَّة ، وقرأَ عمر بن الخطاب ، وعليٌّ ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وجماعة من التابعين رضوان الله عليهم أَجمعين : ﴿فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(١) ، وقال ابن مسعود : لو قرأْتُ : [فَاسْعَوْا] لأَسرعتُ حتى يقع ردائي .

واختَلف الناسُ في البيع في الوقت المنهي عنه إذا وقع : ما الحكم فيه ؟ بعد إجماعهم على وجوب امتناعه بدءًا – فقال الشافعي : يمضى ، وقالَ مَرَّةً : يُفسخ ما لم يفت ، فإن فات مضى . وقال مالك : يُفسخ ما لم يفت ، فإن فات أَصلح بالقيمة ، واختُلف في وقت التقويم – فقيل : وقت القبض ، وقيل : وقت الحكم .

وقوله تعالى: [ذَٰلِكُمْ] إشارة إلى السعي وترك البيع ، وقوله سبحانه : [فَانْتَشِرُوا] أجمع الناس على أن مقتضى هذا الأَمر الإباحة ، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أنه للإباحة في طلب المعاش ، وأَن ذلك مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾(٢) ، إلَّا ما رُوي

(١) هذه القراءة تبين أن المراد مجرد العمل والمضي فيه لا أنه السعي بالجري والاشتداد فيه .
(٢) من الآية (٢) من سورة (المائدة) .

عن أَنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (ذلك الفضلُ المُبْتَغَى هو عيادة مريض أَو صِلَة صديق أَو اتباع جنازة)(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وفي هذا ينبغي أَن يكون المرءُ بقيةَ يوم الجمعة (٢) ، ويكون تخيُّره (٣) صبح يوم السبت ، قاله جعفر بن محمد الصادق ، وقال مكحول : الفضل المُبْتَغَى : العلم ، فينبغي أَن يطلب إِثر الجمعة .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً﴾ الآية ، نزلت بسبب أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائماً على المنبر يخطب يوم الجمعة ، فأَقبلت عيرٌ من الشام تحمل مِيرَةً(٤) ، وصاحبُ أَمْرها دِحْيَةُ ابن خليفة الكلبي ، قال مجاهد : وكان من عُرفهم أَن تدخل العير المدينة بالطبل والمعازف والصياح من ورائها ، فدخلت العير بمثل ذلك ، فانفض أَهل المسجد إِلى رؤْية ذلك وسماعه ، وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً على المنبر ، ولم يبق معه غير اثني عشر رجلًا ، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه : أَنا أَحدهم .

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره عن أنس رضي الله عنه .

(٢) يعني : ينبغي أن يكون في عيادة المريض أو صلة الصديق أو اتباع الجنازة أو ما شابه ذلك من الفضل .

(٣) يقصد تخيُّر العمل وأن ذلك يكون صباح يوم السبت .

(٤) المِيرَةُ : الطعام يجمع للسفر ونحوه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ولم تَمُرَّ بي تسميتهم في ديوان فيما أَذكر(١) ، إِلَّا أَني سمعت أَبي رحمه الله تعالى يقول : هم العشرة المشهود لهم بالجنة ، واختُلف في الحادي عشر ، فقيل : عمار بن ياسر رضي الله عنه ، وقيل : عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ، وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في كتاب الثعلبي : بقي معه ثمانية نفر ، وروي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لولا هؤلاءِ لكانت الحجارة سُوِّمت على المُنْفَضِّين من السماءِ)(٢) ، وفي حديث آخر (والذي نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أَحدٌ لسال عليكم الوادي ناراً)(٣) ، وقال قتادة :

---

(١) روى أسد بن عمرو والد أسد بن موسى بن أسد حديثاً مرسلا فيه أَسماؤهم ، وجاء فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق معه إلا أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسعيد بن زيد ، وبلال ، وعبد الله بن مسعود في إحدى روايتين ، وفي الرواية الأخرى عمار ابن ياسر رضوان الله عليهم أجمعين .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن مقاتل بن حيان ، وقد ذكر فيه قصة العير التي قدمت مع دحية يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر ، وفي آخره : (فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك : لولا هؤلاء – يعني الذين بقوا في المسجد عند النبي صلى الله عليه وسلم – لقصدت إليهم الحجارة من السماء ، ونزل ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ ٱللهِ خَيْرٌ مِنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَارَةِ وَٱللهُ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ ﴾.) (الدر المنثور)

(٣) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن ، وأخرج مثله عن قتادة ، كذلك أخرج مثله البيهقي في شُعب الإيمان . (الدر المنثور) .

بلغنا أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات ؛ لأن قدوم العير كان يوافق يوم الجمعة ، بسبب أن المراحل كانت تُعطي ذلك ، وقال تعالى : [إِلَيْهَا] ولم يقل : «إليهما» تقديماً للأهم إذ كانت هي سبب اللَّهو ولم يكن اللَّهو سببها(١) ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «ومِن التجارة لِلَّذين اتَّقوا والله خير الرازقين» .

وتأَمَّلْ أَن قُدِّمت التجارة مع الرؤْية لأَنها أَهمُّ ، وأُخِّرت مع التفضيل لتقع النفس أَولًا على الأَبْيَن .

وفي هذه الآية قيام الخطيب ، وأَول من استراح في الخطبة عثمان رضي الله عنه ، وأَول من خطب جالساً معاوية رضي الله عنه . و «الرَّزَّاق» صفة فعل ، وقد يتصف بها بعض البشر تجوُّزاً إِذا كان سبب رزق الحيوان ، والله تعالى خير الرازقين .

كمل تفسير سورة الجمعة والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط : «وقرئ [إِلَيْهِمَا] بالتثنية للضمير ، كقوله تعالى : ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ ، وتخريجه على أن يُتجوَّز بـ [أَوْ] فتكون بمعنى «الواو» . » .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٦٣) سورة المنافقون مدنية وآياتها إحدى عشرة

وهي مدنيَّة بإجماع، وذلك أنها نزلت في غزوة بني المصطلق(١) بسبب أن عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول كان منه في تلك الغزوة أقوال، وكان له أتباع يقولون قوله، فنزلت السُّورة كلها بسبب ذلك، ذكر الله تعالى فيها ما تقدم من المنافقين من حَلِفهم وشهادتهم في الظاهر بالإيمان، وأنهم كَذَبة، وذكر تعالى فيها ما تأخر منهم ووقع في تلك الغزوة، وسيأتي بيان ذلك فصلًا فصلًا عند تفسير الآيات إن شاء الله تعالى.

---

(١) سبب النزول ذكره الواحدي في كتابه «أسباب النزول»، وأخرجه ابن إسحق في السيرة، وكذا أخرجه الطبري من طريقه، وأصل القصة في الصحيحين من طريق أبي إسحق عن زيد بن أرقم، ورواها الترمذي، والنسائي، والحاكم من طريق أبي سعد الأَوْدي.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾

فضح الله تعالى بهذه الآية سريرة المنافقين ، وذلك أنهم كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نشهد إنَّك لرسول الله ، وهم في إخبارهم هذا كاذبون ؛ لأَن حقيقة الكذب أَن يخبر الإنسان بضد ما في قلبه ، وكسرت الأَلف من [إنَّ] في الثلاثة لدخول اللام المؤكدة في الخبر وذلك لا يكون مع المفتوحة ، وقوله تعالى : [يَشْهَدُ] وما جرى مجراها من أَفعال اليقين والعلم تجابُ بما يجاب به القَسَم ، وهي بمنزلة القَسَم .

وقرأَ الناس : [أَيْمَانَهُمْ] جمع يمين ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن ـ بخلاف عنه ـ : [إِيمَانَهُمْ] بكسر الأَلف ، أَي : هذا الذي يُظهرون ،

وهذا على حذف مضاف تقديره : إظْهار ، و « الْجُنَّةُ » : ما يُتَسَتَّر به في الأَجرام والمعاني ، وقوله تعالى : [فَصَدُّوا] يحتمل أَن يكون غير مُتَعَدٍّ ، تقول : « صدَّ زيدٌ » ، ويحتمل أَن يكون متعدِّياً كما قال :

صَدَدْتِ الْكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو . . . . (١)

فالمعنى : صدُّوا غيرهم ممن كان يريد الإِيمان ، أَو من المؤمنين في أَن يقاتلوهم أَو ينكروا عليهم ، وتلك سبيل الله تعالى فيهم ، وقد تقدَّم تفسير نظير هذه الآية .

وقوله تعالى : [ذَلِكَ] إشارةٌ إلى فعل الله تعالى بهم في فضيحتهم وتوبيخهم ، ويحتمل أَن تكون الإِشارة إلى سوءِ ما عملوا ، فالمعنى : ساءَ عملهم بأَن كفروا بعد إِيمان .

---

(١) هذا صدر بيت هو الخامس في معلقة عمرو بن كلثوم في كثير من الروايات ، وأسقطه وبيتين بعده أبو بكر الأنباري في « شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات » ، والبيت بتمامه :

صَدَدْتِ الْكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو وَكَانَ الْكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا

والرواية في « موسوعة الشعر العربي » : « صَبَنْتِ الكَأْسَ » بمعنى : صَرَفْتِ ، وعلى هذا فلا شاهد فيه ، يقول : صرفت الكأس عنا يا أُم عمرو ؟ وكان مجرى الكأس على اليمين فأجريتها على اليسار ، يعني أنها تعمدت إبعادها عنه .

وقوله تعالى : ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ إمَّا أن يراد به : منهم من كان آمن ثم نافق بعد صِحَّةٍ من إيمانه ، وقد كان هذا موجوداً ، وإمَّا أَن يريدهم كلهم ، فالمعنى : ذلك بأَنهم أَظهروا الإيمان ثم كفروا في باطن أَمرهم ، فسمَّى ذلك الإظهار إيماناً ، وقرأَ بعض القراءِ : [فَطَبَعَ] على بناءِ الفعل للفاعل ، وقرأَ جمهور القراءِ : [فطُبِـعَ] بضم الطاءِ على بنائه للمفعول بغير إدغام ، وأَدغم أَبو عمرو(١) ، وقرأَ الأَعمش : «فطبع الله» ، وعبَّر الله تعالى بالطبع على ما خلق في قلوبهم من الريب والشَّك وحتَم عليهم به من الكفر والمصير إلى النار .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ توبيخٌ لهم ؛ لأَنهم كانوا رجالًا أَجمل شيءٍ وأَفصحه ، فكان منظرهم يروق وقَوْلُهم يخلب ، لكن الله تعالى جعلهم كالخُشُب المُسَنَّدة إذْ لا أَفهام لهم نافعة ، ولا نظر يصيب ، فذلك المنظر لا مَخْبَر له كالخُشُب المُسَنَّدة ، إنما هي أَجرام لا عقول لها ، معتمدة على غيرها ، لا تَثْبُت بنفسها ، ومنه قولهم : «تساند القوم» إذا اصطفُّوا وتقابلوا للقتال ، وقد يحتمل أَن يُشَبِّه اصطفافهم في الأَندية باصطفاف الخُشُب المُسَنَّدة ، وخلوهم من الأَفهام النافعة بخُلُوِّ الخشب

(١) يعني أدغم عيْن [فَطُبِـعَ] في عين [عَلَى] .

من ذلك ، وقال رجل لابن سيرين : رأيتني في النوم محتضناً خشبة ، فقال ابن سيرين : أظنك من أهل هذه الآية ، وتلا ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ .

وقرأ عِكْرمة ، وعطية : [يُسْمَعْ] بالياءِ مضمومة ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، وعاصم : [خُشُبٌ] بضم الخاءِ والشين ، وقرأ قنبل ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي : [خُشْبٌ] بضم الخاءِ وسكون الشين ، وهي قراءَة البَرَاءِ بن عازب رضي الله عنه ، واختيار أَبي عُبَيد ، وقرأ سعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيَّب : [خَشَبٌ] بفتح الخاءِ والشين ، وذلك كله جمع «خَشَبَة» بفتح الخاءِ والشين ، فالقراءَتان أولًا كما تقول : بَدَنَةٌ وبُدُنٌ وبُدْنٌ ، قاله سيبويه ، والأَخيرة على الباب في ثَمَرَة وثَمَر .

وكان عبد الله بن أُبَيٍّ من أَبْهى المنافقين وأَطولهم ، ويدل على ذلك أَنه لم يوجد قميص يكسو العباس رضي الله عنه غير قميصه ، وقد تقدم في سورة البقرة تحرير أَمر المنافقين وكيف سترهم الإِسلام .

وقوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ فَضْحٌ أَيضاً لما كانوا يُسِرُّونه من الخوف ، وذلك أَنهم كانوا يتوقعون أَن يأْمر النبي صلى الله عليه وسلم ـ عن الله ـ بقتلهم ، قال مقاتل : فكانوا متى

سمعوا نُشدان ضالة ، أَو صياحاً بـأَيٍّ وجه كان ، أَو أُخبروا بنزول وحي ، طارت قلوبهم وطاشت عقولهم حتى يسكن ذلك ويكون في غير شأْنهم ، وجرى هذا اللَّفظ مثلًا في الخائف، ونحوه قول الشاعر :

يُرَوِّعُهُ السِّــرَارُ بِكُلِّ أَرْضٍ   مَخَافَةَ أَنْ يكُونَ بِهِ السِّرَارُ (١)

وقول جرير :

مَازِلْتَ تَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ   خَيْلًا تَكُرُّ عَلَيْهِمُ وَرِجَالًا (٢)

ثم أَخبر تعالى بأَنهم هم العدو ، وحذَّر منهم ، و « العَدُوُّ » يقع للواحد وللجمع . وقوله تعالى : ﴿ قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ دعاءٌ يتضمن الإِقصاءَ والمنابذة وتمني الشَّر لهم .

---

(١) السِّرَارُ : المُسَارَّة والمناجاة ، وفي حديث عمر أنه كان يحدثه عليه الصلاة والسلام كأخي السِّرار ، لخفض صوته ، ويُرَوِّعه : يُفزعه ويُخيفه ، يقول : إنه يخاف من المناجاة وخفي الأصوات خشية أن يكون هذا السِّرارُ خاصّاً به . ولم أقف على قائل هذا البيت .

(٢) لم أجد هذا البيت في ديوان جرير، وقد نسبه الزمخشري والقرطبي إلى الأخطل ، وذكر صاحب البحر المحيط أن ابن عطية نسبه إلى جرير ، وأن الزمخشري نسبه للأخطل . وحَسِبَ الشيءَ يَحْسَبه : ظنَّه ، وكرَّ يكُرُّ : رجع إلى الهجوم ، وهو خلاف الفَرِّ ، يصوِّر خوفه الذي يوقع في ظنِّه أن كل شيءٍ عدوٌّ يهاجمهم . ورجالا في البيت معطوفة على « خيلا » .

هذا والمعنى المقصود في البيتين كثير مطروق في الشعر العربي ، وقد غالى المتنبي فيه حين قال :

وَضَاقَتِ الأَرْضُ حَتَّى صَارَ هَارِبُهُـمْ   إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُـلا

وقوله تعالى : ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ معناه : يُصرفون ، فيحتمل أن تكون [أَنَّى] استفهاماً ، كأنه تعالى قال : كيف يُصرفون ؟ أَوْ : لأَيِّ سبب لا يرون رُشْد أَنفسهم ؟ ويحتمل أن تكون [أَنَّى] ظرفاً لـ [قَاتَلَهُمُ] كأنه تعالى قال : قاتَلَهُم اللهُ كيف انصرفوا وصُرفوا ، فلا يكون في القول استفهام على هذا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

كان من أمر عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق ، فبلغ الناسُ إلى ماءٍ سبق

إليه المهاجرون ، وكأنهم غلبوا الأنصار عليه بعض الغَلَبة ، فقال عبد الله بن أُبَيٍّ لأَصحابه : قد كنتُ قلت لكم في هؤلاءِ الجلابيب ما قلتُ فلم تسمعوا مني ، وكان المنافقون ومَنْ لا يتحرى يُسَمُّون المهاجرين رضي الله عنهم الجلابيب ، ومنه قول حسَّان بن ثابت :

أَرَى الْجَلَابِيبَ قَدْ عَزُّوا وَقَدْ كَثُرُوا وابْنُ الفُرَيْعَةِ أَمْسَى بَيْضَةَ الْبَلَدِ(١)

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أَتحضُّ علينا يا حسَّان ؟ ثم إن الجَهْجَاهَ الغفاريَّ ـ وكان أَجيراً لِعمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وَرَد إلى الماءِ بفرس لِعُمر ، فازدحم هو وسِنانُ بن وبرة الجهني ـ وكان حليفاً للأَوس ـ ، فكسع الجَهْجَاهُ سِناناً ، فغضب سِنَان وتَثَاوروا ، ودعا

---

(١) البيت في ديوان حسَّان ، والرواية فيه : « أَمْسَى الْخَلابِيسُ ... » ومعناها : المُتَفَرِّقُون الذين يأتون من ها هُنا وهَاهُنا ، والرواية في اللسان ، والتهذيب ، وشرح الشواهد الكبرى للعيني ، والأغاني ، ومعجم ما استعجم ، وسمط اللآلئ ، وتاريخ الطبري : « أمْسَى الجلابيب » ، وبَيْضَة البَلَدِ هي بيضة النعامة تتركها في الصحراء لا راعي يرعاها ولا حامي يحميها ، فهي مثال للذِّلة والهوان ، وابن الفُرَيْعَة هو حسَّان ، قال في القاموس : « وحسَّان ابن ثابت يُعرف بابن الفُرَيْعَة كجُهينة ، وهي أُمُّه » ، ويعني حسَّان بكلامه في البيت أن أذل الناس وسفلتهم قد عزُّوا وقد كثُروا بعد هذه الذِّلَّة وأنه وهو ابن الفُرَيْعَة الذي كان ذا ثروة وثراء قد أُخِّر عن شرفه القديم ، واستُبد بالأمر من دونه ، فهو بمنزلة بيضة البلد التي تبيضها النعامة ثم تتركها للضياع في الفلاة فلا تحضنها ولا ترعاها ، وقد روي عن أبي العباس أن العرب تقول للرجل الكريم : هو بيضة البلد يمدحونه ، ويقولون للآخر : هو بيضة البلد يَذُمُّونه ، فهو من الأضداد ـ راجع اللسان ـ .

الجهجاه بالمهاجرين ، ودعا سِنان بالأنصار ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (ما بال دَعوى الجاهلية) ، فلما أُخبر بالقصة قال : (دعوها فإنها مُنْتِنَة) ، واجتمع في الأمر عند عبد الله بن أُبَيٍّ قوم من المنافقين – وكان فيهم زَيْدُ بن أَرقم(١) فتًى صغيراً لم يُتَحَفَّظ منه – ، فقال عبد الله بن أُبيٍّ : أَوَ قَدْ تداعوا علينا ؟ والله ما مَثَلنا ومَثَلهم إلَّا كما قال الأَوَّلُ : «سمِّن كلبك يَأْكُلْكَ»(٢) ، وقال لهم : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأَعزُّ منها

---

(١) هو زيد بن أرقم الخزرجي الأنصاري ، صحابي جليل ، غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم سبع عشرة غزوة ، وشهد صفين مع عليٍّ رضي الله عنه ، وله في كتب الحديث سبعون حديثاً ، ومات سنة ستٍّ وستين ، وقيل : ثمان وستين . (تهذيب التهذيب، وتقريب التهذيب ، وخزانة البغدادي) .

(٢) هذا مثل معروف ، ويُروى : «أَسْمِنْ كلبك ...» ، قالوا : أول من قاله هو حازم بن المنذر الحماني ، وذلك أنه وجد طفلا صغيراً فحمله إلى بيته وأمر أمَةً له أن ترضعه ، فأرضعته حتى فُطم وأدرك وراهق ، فجعله راعياً لغنمه ، وسمَّاه جحيشاً ، فكان يرعى الشاة والإبل ، ثم أحبته ابنة لحازم يقال لها : راعوم ، وأحسَّ حازم بالعلاقة بينهما فرصدهما ثم تبعهما حتى رآهما في موقف سوءٍ ، فقال : «سمِّن كلبك يأكلك» ، فأرسلها مثلا ، وشدَّ على جحيش بالسيف فأفلت منه ولحق بقومه همدان ، وانصرف حازم إلى ابنته وهو يقول : «موتُ الحُرَّة خير من العِرَّة» فأرسلها مثلا ، فلما وصل إليها وجدها قد ماتت مختنقة فقال : «هان علي الثُّكْل لِسُوءِ الفِعْل» فأرسلها مثلا ، ثم أنشأ يقول أبياتاً منها :

قَدْ هَانَ هَذَا الثُّكْلُ لَوْلا أَنَّنِي ... أَحْبَبْتُ قَتْلَكِ بالحُسَامِ الصَّارِمِ
وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِذَاكَ لَوْلا أَنَّنِي ... شَمَّرْتُ في قَتْلِ اللَّعِينِ الظَّالِمِ

الأَذلُّ ، وقال لهم : إنما يقيم هؤلاءِ المهاجرون مع محمد بسبب معونتكم لهم وإنفاقكم عليهم ، ولو قطعتم ذلك عنهم لَفَرُّوا ، فذهب زيد بن أَرقم إلى عمِّه – وكان في حِجره – وأَخبره ، فأَتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأَخبره ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا زيد ، غضبتَ على الرجل ، أَو لعلَّك وهمتَ) ؟ فأَقسم زيدٌ ما كان شيءٌ من ذلك ، ولقد سمع من عبد الله بن أُبَيٍّ ما حكى ، فعاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أُبَيٍّ عند رجال من الأَنصار ، فبلغه ذلك فجاءَ وحلف ما قال ، وكذَّب زيداً ، وحلف معه قوم من المنافقين ، فكذَّب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم زيداً وصدَّق أَيْمان عبد الله بن أُبي ، فبقي زيد في منزله لا يتصرف حياءً من الناس ، فنزلت هذه السورة عند ذلك ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في زيد وقال : لقد صدَّقك الله يا زيد ووفت أُذُنك ، فخزي عند ذلك عبد الله بن أُبي بن سلول ، ومقته الناس ، ولامه المؤمنون من قومه ، وقال بعض منهم : امض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واعترف بذنبك فيستغفر لك ، فلوى رأْسه إنكاراً لهذا الرأْي وقال لهم : لقد أَشرتم عليَّ بالإيمان فآمنت ، وأَشرتم عليَّ أَن أُعطي زكاة مالي ففعلت ، ولم يبق لكم إلَّا أَن تأْمروني بالسُّجود لمحمد .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فهذا هو قصص هذه السُّورة موجزاً .

و «تعال» نداءٌ يقتضي لفظه أَنه دعاءُ الأَعلى للأَسفل ، ثم استعمل في كل داعٍ لما فيه من حسن الأَدب ، وقرأَ نافع ، والمفضَّل عن عاصم : [لَوَوْا] بتخفيف الواو ، وهي قراءَة الحسن - بخلاف - ، ومجاهد ، وأَهل المدينة ، وقرأَ الباقون ، وأَبو جعفر ، والأَعمش : [لَوَّوْا] بشد الواو على تضعيف المبالغة ، وهي قراءَة طلحة ، وعيسى ، وأَبي رجاءٍ ، وزِرٍّ ، والأَعرج ، وقرأَ بعض القراءِ هنا : [يَصِدُّونَ] بكسر الصاد ، والجمهور بضمها .

قوله تعالى : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ الآية . رُوي أَنه لمَّا نزلت : ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لأَزيدنَّ على السبعين)(٢) ، وفي حديث آخر (لو علمتُ أَني إِنْ زدتُ غُفر لهم لزِدْتُ)(٣) ، فكأَنه عليه الصلاة

---

(١) من الآية (٨٠) من سورة (التوبة) .

(٢) هذا جزءٌ من حديث أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن عروة وأخرج مثله ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن مجاهد . (الدر المنثور) .

(٣) أخرج هذا الحديث أحمد ، والبخاري ، والترمذي ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، والنحاس ، وابن حبان ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، =

والسلام رجا أن هذا الحدَّ ليس على جهة الحتم جملة ، بل على أن ما يجاوزه يخرج عن حكمه ، فلما فعل ابن أُبَيٍّ وأصحابه ما فعلوا شدَّد الله تعالى عليهم في هذه السُّورة ، وأعلم أنه لا يغفر لهم دون حدٍّ في الاستغفار (١) ، وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لو علمتُ أني لو زدتُ غُفر لهم) نصٌّ على رفض دليل الخطاب (٢) .

= قال: سمعت عُمر يقول : لما توفي عبد الله بن أُبي دُعي رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام عليه ، فلما وقف قلتُ : أَعلى عدوٍّ الله عبد الله بن أُبيٍّ القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ؟ أُعدِّد أيامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم ، حتى إذا أكثرتُ قال : يا عمر أخِّر عني ، إنِّي قد خُيِّرت، وقد قيل لي : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾، فلو أعلم أني إن زدْتَ على السبعين غُفر له لزدتُ عليها ، ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه ، فعجبتُ لي ولجُرْأَتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ ، فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق بعده حتى قبضه الله عزَّ وجلَّ . (الدر المنثور) .

(١) يقول ابن عطية في تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ، وإذا ترتب التخيير في هذه الآية صحَّ أن ذلك التَّخيير هو الذي نُسخ بقوله تعالى في سورة المنافقين : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ ﴾ .

(٢) لأن دليل الخطاب يقتضي أن الزيادة على السبعين يُغفر معها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَوْ عَلِمْتُ) فجعل ذلك مما لا يعلمه ومما ينبغي أن يُتَعَلَّم ويطلب علمه من الله عزَّ وجلَّ ، وفي هذا حجة عظيمة للقول برفض دليل الخطاب ، وابن عطية بما قاله هنا يشير إلى ما قاله مالِكٌ رحمه الله في مسائل تقتضي القول بدليل الخطاب . (راجع الجزء السادس ص ٥٨١ من هذا التفسير) .

وقرأ جمهور الناس : [أَسْتَغْفَرْتَ] بالقطع وألف الاستفهام . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : [آسْتَغْفَرْتَ] بمدَّة على الهمزة ، وهي ألف التسوية ، وقرأ أيضاً بوصل الألف دون همز على الخبر ، وفي هذا كله ضعف ؛ لأنه في الأُولى أثبت همزةَ الوصل وقد أغنت عنها همزة الاستفهام ، وفي الثانية حَذَفَ همزةَ الاستفهام وهو يريدها ، وهذا مما لا يُستعمل إلَّا في الشِّعر .

وقوله تعالى : ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ إشارة إلى عبد الله بن أُبي ومَنْ قال بقوله ، قاله عليٌّ بن سليمان(١) ، ثمَّ سفَّه تعالى أَحْلَامَهم في أَن ظنُّوا أَن إنفاقهم هو سبب رزق المهاجرين ، ونسوا أَن حرمان الرِّزق بيد الله تعالى ، إذا انسد بابٌ انفتح غيره . وقرأ الفضل بن عيسى الرَّقاشي(٢) : ﴿حَتَّى يُنْفِضُوا﴾ بضم الياء وتخفيف الضاد ، يقال : أَنْفَضَ الرجلُ إذا فني طعامُه فنفض وعاءَه . و «الخزائن» موضع الإعداد ، ونجد القرآن قد نطق في غير موضع بالخزائن ،

(١) قال عنه في التقريب : «شامي مجهول ، من الطبقة السابعة» .

(٢) هو الفضل بن عيسى بن أبان الرَّقاشي ، أبو عيسى البصري الواعظ ، مُنْكر الحديث ، ورمي بالقَدَر ، من الطبقة السادسة .

ونجد في الحديث (خزنة الريح)(١)، وفي القرآن ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾(٢)، فجائز أن يكون هذا عبارة عن القدرة ، وأن هذه الأشياءَ إيجادُها عند ظهورها ، وجائز - وهو الأظهر - أن منها أشياءَ مخلوقة موجودة يصرِّفها الله تعالى حيث يشاءُ ، وظواهر ألفاظ الشريعة تعطي هذا ، ومعناه في التفسير قال : عتت على الخُزَّان(٣)، وفي الحديث (ما انفتح باب من خزائن الريح على قوم عادٍ إلَّا قدر حلقة الخاتم ، ولو انفتح من خزائن الريح على قدر منخر الثور لهلكت الدنيا)(٤)،

---

(١) التعبير بلفظ «خزَنَة» كثير في الحديث الشريف ، ومنه ما رواه أحمد في مسنده (٢-٣٦٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من أنفق زوجاً - أو قال زوجين - من ماله ، - أراه قال: في سبيل الله - دَعَتْهُ خزَنَة الجنة: يا مُسْلم، هذا خير هلُمَّ إليه) ، وما رواه أيضاً عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، قال : (خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً كالمودِّع فقال: أنا محمد النبي الأمي ، قالها ثلاث مرات - ولا نبي بعدي ، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه ، وعلمت كم خزَنَة النار وحملة العرش ...) الخ ، أمَّا ما أشار إليه ابن عطية فلم أقف عليه بهذا اللفظ ، لكنه ورد بلفظ (خزائن) في الحديث الذي سيذكره المؤلف بعد هذا مباشرة .

(٢) من الآية (٤٣) من سورة (النُّور) .

(٣) في بعض النسخ : «ومعنا في التفسير ... الخ» ، وعلى كل فالتعبير قلِقٌ مما يدل على أن فيه تحريفاً من النساخ .

(٤) أخرج ابن أبي الدنيا ، وأبو يعلى ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما فتح الله على عاد من الريح التي هلكوا فيها إلا مثل الخاتم ...) الحديث . وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الريح مسجنة في الأرض الثانية ، فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تهلك عاداً ، قال : أي ربِّ، =

وقال رجل لحاتم الأَصمِّ : من أَين تـأْكل ؟ فقرأ : ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ، وقال الجُنَيْد : «خزائن السماءِ الغيوب ، وخزائن الأَرض القلوب» .

وقرأ الجمهور : ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ﴾ بضم الياءِ وكسر الراءِ ، بمعنى أَن العزيز يُخرج الذليل ويُبعده ، وقرأ أَبو حاتم : [لَنَخْرُجَنَّ] بنون الجماعة مفتوحة وضم الراءِ [ٱلْأَعَزَّ] نصباً ﴿مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ أَيضاً نصباً على الحال ، وذكرها أَبو عمرو الداني عن الحسن(١) ، ورُويت هذه القراءَة : [لَنُخْرِجَنَّ] بضم النون وكسر الراءِ ، وقرأَ قوم - فيما حكى الفراءُ والكسائي ، وذكرها المهدوي - : ﴿لَيَخْرُجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ بفتح الياءِ وضم الراءِ ونصب [ٱلْأَذَلَّ] على الحال ، بمعنى أَنَّنا نحن الذين كنَّا أَعِزَّةً سنخرج أَذِلَّاءَ(٢) ، وجاءَت هذه الحال معرفة وفيها شذوذ ، وقد حكى سيبويه : «ادخلوا الْأَوَّل فالْأَوَّل» .

= أُرسل عليهم من الريح قدر منخر ثور ؟ قال له الجبار : لا ، إذاً تكفأُ الأرض ومَنْ عليها ، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم ، فهي التي قال الله : ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ .

(١) قال أبو حيان في البحر بعد أن ذكر هذه القراءة : «ونَصَبَ [ٱلْأَعَزَّ] على الاختصاص ، كما قال : «نحن العربَ أقرى الناس للضيف» ، ونصب [ٱلْأَذَلَّ] على الحال .

(٢) تعبير الفراء أدقُّ وأوضح ، قال : «كأنك قلت : لَيَخْرُجَنّ العزيزُ منها ذليلا» .

ثم أَعلم الله تعالى أَن العزَّة لله سبحانه ، وللرسول صلى الله عليه وسلم ، وللمؤمنين ، وفي ذلك وعيد ، ورُوي أَن عبد الله بن عبد الله ابن أُبَيٍّ - وكان رجلًا صالحاً - لمَّا سمع الآية جاءَ إلى أَبيه وقال له : أَنت والله يا أَبت الذليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز ، فلما وصل إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله على باب السِّكَّة التي يسلكها أَبوه ، وجرد السيف ومنعه الوصول ، وقال : والله لا دخلت إلى منزلك إلَّا أَن يأْذن لك في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله بن أُبَيٍّ في أَذل حال ، وبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فبعث إليه أَن خلِّه يمضي إلى منزله ، فقال : أَما الآن فنعم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾

الْإِلْهَاءُ : الاشتغال بشهوة ولذَّة ، و « ذِكْرُ اللهِ » هنا عامٌّ في التوحيد والصلاة والدعاءِ وغير ذلك من فرض ومندوب ، هذا قول الحسن

وجماعة من المفسِّرين ، وقال الضحاك ، وعطاءٌ وأَصحابُه : المراد بالذِّكر الصلاةُ المكتوبة ، والأَول أَظهر ، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قال جمهور من المتأَولين : المراد الزكاة ، وقال آخرون : ذلك عامٌّ في مفروض ومندوب ، وقوله تعالى : ﴿يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أَي علاماتُه وأَوائل أَمره ، وقوله : ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ طلباً للكَرَّة والإِمهال ، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه : [أَخَّرْتَنِ] بغير ياءٍ ، وسماه تعالى قريباً لأَنه آت ، وأَيضاً فإنما يتمنى ذلك ليقضي فيه العمل الصالح فقط ، وليس يتسع الأَمل حينئذ لطلب العيش وتصرفه ، وفي مصحف أُبي : [فَأَتَصَدَّقَ] ، وقوله تعالى : ﴿وَأَكُنْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ ظاهره العموم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الحجُّ ، ورُوي عنه أَنه قال في مجلسه يوماً : «ما من رجل لا يؤدي الزكاة والحج إِلَّا طلب الكَرَّة عند موته» ، فقال له رجل : أَما تتَّقي الله ؟ أَمُؤْمن يطلب الكَرَّة ؟ فقال له ابن عباس رضي الله عنهما : نعم وقرأَ الآية (١) .

---

(١) روى الترمذي عن الضحاك بن مُزاحم عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : «من كان له مالٌ يبلِّغه حَجَّ بيت ربِّه أو تجب عليه فيه زكاةٌ فلم يَفْعَل ، سأل الرجعة عند الموت» ، فقال رجل: يا بن عباس اتَّق الله ، إنما سأل الرجعةَ الكفار ، فقال سأتلو عليك =

وقرأ جمهورُ السبعة والناسُ : [وَأَكُنْ] بالجزم عطفاً على الموضع ؛ لأَن التقدير : إن تُؤَخرني أَصَّدَّق وأَكُنْ من الصَّالحين ، هذا مذهب أَبي علي الفارسي ، فأَمَّا ما حكاه سيبويه عن الخليل فهو غير هذا ، وهو أَنه جزم على تَوَهُّم الشَّرط الذي يدل عليه التمني ، ولا موضع هنا لأَن الشرط ليس بظاهر ، وإنما يعطف على الموضع حيث يظهر الشرط ، كقوله تعالى : ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ﴾(١) ، فمن قرأ بالجزم عطف على موضع ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ لأَنه لو وقع هناك فعل كان مجزوماً ، وكذلك من قرأ : [وَيُكَفِّرْ] بالجزم عطفاً على موضع ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾(٢) ، وقرأ أَبو عمرو ، والحسن ، وأَبو رجاءٍ ، وابن أَبي إسحق ، ومالك بن دينار ، وابن محيصن ، والأَعمش ، وابن جبير ، وعُبَيْد الله بن الحسن العنبري : [وَأَكُونَ] بالواو نصباً ،

= بذلك قرآناً ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾.. إلى قوله ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ، قال : فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المالُ مائتين فصاعداً ، قال : فما يوجب الحجَّ ؟ قال : الزَّادُ والراحلة .

(١) من الآية (١٨٦) من سورة (الأعراف) .

(٢) من الآية (٢٧١) من سورة (البقرة) . هذا والفرق بين العطف على الموضع والعطف على التوهم — وهو أساس الخلاف بين الفارسي وسيبويه — أن العامل في العطف على الموضع موجود دون مُؤَثِّر ، والعامل في العطف على التوهم مفقود وأَثَرُه موجود ، ومن هذا نرى أنه خلاف مبني على مجرد التقدير .

قال أَبو حاتم – وكان من العلماءِ الفصحاءِ – : [وَأَكُونَ] بالنصب عطفاً على [فَأَتَصَدَّقَ] ، وقال أَبو حاتم في كتبها في المصحف بغير واو : إِنهم حذفوا الواو كما حذفوها من «اتَّخَذَ» وغيره ، ورجَّحها أَبو علي ، وفي مصحف أُبي بن كعب ، وابن مسعود رضي الله عنهما : «فَأَتَصَدَّقَ وَأَكُونَ» .

وفي قوله تعالى : ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ حضٌّ على المبادرة ومسابقة الأَجل بالعمل الصَّالح ، وقرأَ السبعة والجمهورُ : [تَعْمَلُونَ] بالتَّاءِ على المخاطبة لجميع الناس ، وقرأَ عاصم – في رواية أَبي بكر – : [يَعْمَلُونَ] بالياءِ على تخصيص الكفَّار بالوعيد .

كمل تفسير سورة المنافقون والحمد لله ربِّ العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

(٦٤) سُورةُ التغابُن مدنية وآياتها ثماني عشرة

قال بعض المفسِّرين : هي مدنية ، وقال آخرون منهم : هي مكِّيَّة إلَّا من قوله تعالى وجلَّ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ ﴾ إلى آخر السُّورة فإنه مدني (١) ، وذكر الثعلبي عن ابن عمران أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما من مولود يولد إلَّا وفي تشابيك رأْسه مكتوب خمس آيات من فاتحة سورة التغابن) (٢) .

---

(١) وقال الضحاك : هي مكيَّة .

(٢) أخرجه ابن حبان في الضعفاء ، والطبراني ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ولفظه كما ذكره في « فتح القدير » : « ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن » ، وقال ابن كثير في تفسيره : أورده ابن عساكر في ترجمة الوليد بن صالح ، وهو غريب جداً بل مُنْكَر » ، وأخرج البخاري في تاريخه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : ما من مولود يولد إلا مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من أول سورة التغابن . هذا وفي اللسان قال : « والشَّبكة : الرأسُ ، وجمعها شَبَك » ، والشَّبْكُ في الأصل : الخلط والتداخل .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عمومٌ معناه التنبيه ، و «الشيءُ» هو الموجود .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ تعديد نعمة ، والمعنى : فمنكم كافر لنعمته في الإيجاد حين لم يوجد لجهله بالله ، ومنكم مؤمن بالله ، والإيمان بالله تعالى شكر لنعمته ، فالإشارة ـ على هذا التأويل في الإيمان والكفر ـ هي إلى اكتساب العبد ، هذا قول جماعة من المتأولين ، وحجتهم قول النبي صلى الله عليه وسلم : (كلُّ مولود يولد على الفطرة)(١) ،

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسَانه ، كما تُنتج =

وقول الله تعالى : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾(١) ، وكأن العبارة في قوله تعالى : [فَمِنْكُمْ] تعطي هذا كله ، وكذلك يقوِّيه قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقيل : المعنى : خلقكم منكم مؤمن ومنكم كافر في أصل الخِلْقَة ، فهي جملة في موضع الحال ، فالإشارة ـ على هذا ـ في الإيمان والكفر هي إلى اختراع الله تعالى وخلقه ، وهذا تأْويل ابن مسعود ، وأَبي ذَرٍّ رضي الله عنهما ، ويجري مع هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إنَّ أَحدكم يكون في بطن أُمه نطفة أَربعين يوماً ، ثم علقة أَربعين يوماً ، ثم مضغة أَربعين يوماً ، ثم يجيءُ مَلَك فيقول : يا ربِّ ، أَذكر أَم أُنثى ؟ أَشقيٌّ أَم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأَجل ، فيكتب ذلك في بطن أُمه)(٢) ، فقوله في الحديث : (أَشقيٌّ أَم سعيد) ؟

=البهيمةُ بهيمةً جمعاء ، هلْ تحسُّون فيها من جدعاءَ ؟) ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : واقرءُوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ...﴾ الآية . ورواه الإمام أحمد في مسنده بلفظ : (ليست نَسَمة تُولد إلا وُلدت على الفطرة) ، وفي رواية لمسلم (كل إنسان تلده أُمُّه على الفطرة) .

(١) من الآية (٣٠) من سورة (الرُّوم) .

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه ، ولفظه كما في ابن جرير والدر المنثور : (إذا مكث المنيُّ في الرحم =

هو في هذه الآية ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾، ويجري مع هذا المعنى قوله في الغلام الذي قتله الخضر: (إنه طبع يوم طبع كافراً)(١)، وما رَوى ابن مسعود رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: (خلق الله فرعون في البطن كافراً، وخلق يحيي بن زكرياءَ مؤمناً)(٢)، وقال عطاءُ بن أَبي رباح: معنى الآية: فمنكم كافرٌ بالله مؤمن بالكوكب، ومؤمن بالله كافر بالكوكب، وقدم الكافر لأَنه أَعرف من جهة الكثرة.

وقوله تعالى: [بِالْحَقِّ] أَي: حين خلقها محقوقاً في نفسه ليس عبثاً ولا لغير معنى، وقرأَ جمهور الناس: [صُوَرَكُمْ] بضم الصاد، وقرأَ أَبو رُزَيْن: [صِوَرَكُمْ] بكسرها، وهذا تعديد النعمة في حسن

= أربعين ليلة أتاه ملك النفوس فعرج به إلى الرب، فيقول: يا رب، أَذَكَر أم أُنثى؟ فيقضي الله ما هو قاض، فيقول: أشقيٌّ أم سعيد؟ فيكتب ما هو لاقٍ»، وقرأ أبو ذَرٍّ من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

(١) أخرجه مسلم في القَدَر وفي الفضائل، وأبو داود في السُّنَّة، والترمذي في تفسير سورة الكهف، وأحمد في مسنده (٥-١١٩، ١٢١)، ولفظه كما في صحيح مسلم، عن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الغلام الذي قتله الخَضر طُبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره عن ابن مسعود رضي الله عنه، ولفظه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (خلق الله فرعون في بطن أُمه كافراً، وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً).

الخلقة لأَن أَعضاءَ ابن آدم متصرفة في جميع ما تتصرف به أَعضاءُ الحيوان وبزيادات كثيرة فُضِّل بها ، ثم هو مفضَّل بحسن الوجه وجمال الجوارح ، وحُجَّة هذا قوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(١) ، وقال بعض العلماء : النعمة المُعَدَّدَة هنا إنما هي صورة الإنسان من حيث هو إنسان مدرك عاقل ، فهذا هو الذي حَسُن له حتى لحق ذلك كمالات كثيرة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والقول الأَول أَجرى على لغة العرب لأَنها لا تعرف الصور إلَّا الشكل .

وذكر تعالى علمه بما في السموات والأَرض ، فعلم أَعظم المخلوقات ، ثم تدرَّج القول إلى أَخفى من ذلك وهو جميع ما يقوله الناس في سرٍّ وعَلَن ، ثم تدرَّج إلى خفيٍّ وهو ما يهجس بالخواطر ، و «ذاتُ الصَّدْر» : ما فيه من خطرات واعتقادات ، كما يقال : «الذئب مغبوطٌ بذي بطنه»(٢) ، والصدر هنا عبارة عن القلب .

---

(١) الآية (٤) من سورة (التِّين) .

(٢) هذا مثل معروف ، ويروى : « الذئب يُغبط بغير بطنة » ، و « يُغبط ما في بطنه » ، قال أبو عبيدة: وذلك أنه ليس يُظن به الجوع أبداً ، إنما يُظن به البِطْنة لأنه يعدو على الناس =

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ جزمٌ ، أَصله : يأْتيكم ، قال سيبويه : «واعلم أَن الآخر إذا كان يُسكَّن في الرفع حذف في الجزم» ، والخطاب في هذه الآية لقريش ، ذُكِّروا ما حلَّ بعادٍ وثمود وقوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام وغيرهم ممن سمعت قريش أَخبارهم ، و «وَبَالُ الأَمْرِ» : مكروهُهُ وما يسوءُ منه .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ﴾ إشارة إلى ذوق الوبال وكون عذاب الآخرة لهم ، ثم ذكر تعالى من مقالات أُولئك الماضين ما هو مشبه

= والماشية ، قال الشاعر :

وَمَنْ يَسْكُنِ الْبَحْرَيْنِ يَعْظُمْ طحَالُهُ وَيُغْبَطُ ما في بَطْنِهِ وَهْوَ جَائِعُ

وقال غيره : إنما قيل له ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً ، لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع ، وقال الشاعر :

لَكَالذِّئْبِ مَغْبُوطُ الْحَشَا وَهُوَ جَائِعُ

لقول الكفار من قريش من استبعاد بعثة الله تعالى للبشر ، ونُبوَّة أَحد من بني آدم ، وحسَد الشخص المبعوث . وقولهم : [أَبَشَرٌ] رفع بالابتداءِ ، وجمع الضمير في [يَهْدُونَنَا] من حيث كان «البَشَر» اسم هذا النوع الآدمي ، كأَنهم قالوا : أَناسٌ هداتُنَا ؟ وقوله تعالى : ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ عبارة عمَّا ظهر من هلاكهم وأَنهم لن يضرُّوا الله شيئاً فبان أَنه كان غنيًّا أَولًا ، وبسبب ظهور هلاكهم بعد أَن لم يكن ظاهراً ساغ استعمال هذا الغَنَاءِ مُستنداً إلى اسم الله تعالى ؛ لأَن بناءَ «اسْتَفْعَلَ» إنما هو لطلب الشيءِ وتحصيله بالطلب .

وقوله تعالى : ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يخصُّ قريشاً ثم هي بعْدُ تعُمُّ كل كافر بالبعث ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : «الزَّعْم كنية الكذب» ، وقال عليه الصلاة والسلام : (بئس مطيَّةُ الرجل زعموا)(١) ، ولا توجد «زَعَم» مستعملة في فصيح من الكلام إلَّا عبارة عن الكذب أَو قول انفرد به قائله فيريد قائله أَن يلقي عهدته على الزاعم ، ففي ذلك ما ينحو إلى تضعيف الزعم ، وقول سيبويه : «زَعَم الخليل» إنما يجيءُ فيما ينفرد به الخليل .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، وأبو داود ، عن حذيفة ، ورمز له السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه ضعيف .

ثم أَمره الله تعالى أَن يجيب نفيهم بما يقتضي الردَّ عليهم وإيجاب البعث وأَن يُؤكد ذلك بالقَسَم ، ثم توعَّدهم في آخر الآية بأَنهم يُخْبَرون بأَعمالهم على جهة التوقيف والتوبيخ المؤدي إلى العقاب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

هذا دعاءٌ إلى الله تعالى وتبليغٌ وتحذيرٌ ، و «النُّور» : القرآن . والعامل في [يَوْمَ] يحتمل أَن يكون [تُنَبَّؤُنَّ] ، ويحتمل أَن يكون [خَبِيرٌ] ، وهو تعالى خبير في كل يوم لكن يخصُّ ذلك اليوم لأَنه يومٌ تضرهم فيه خِبْرة الله تعالى بأُمورهم ، وقرأَ جمهور السبعة : [يَجْمَعُكُمْ] بضم العين ، وقرأَ أَبو عمرو بسكونها ، ورُوي عنه أَنه

أَشمَّها الضمَّ ، وقرأ سلام ، ويعقوب : [نَجْمَعُكُمْ] بالنون وضم العين ، وهذا على جواز تسكين الحركة وإن كانت للإعراب ، كما قال جرير :

. . . . فَلَمْ تَعْرِفْكُمُ الْعَرَبُ(١)

و «يوم الجمع» هو يوم القيامة ، وهو يوم التغابن ؛ وذلك أن كل واحد يُبعث من قبره وهو يرجو حظًّا أو منزلةً ، فإذا وقع الجزاءُ عيَّر المؤمنون الكافرين لأَنهم يُجزون الجنة ويحصل الكفار في النار ، نحا هذا المعنى مجاهد وغيره ، وليس هذا الفعل في «التَّغابن» من اثنين ، بل هو كتَوَاضَعَ وتَحَامَلَ(٢) .

---

(١) هذه الجملة آخر بيت قاله جرير يهجو بني العم الذين أعانوا عليه الفرزدق ، والبيت بتمامه مع بيت قبله :

مَا لِلْفَرَزْدَقِ مِنْ عِزٍّ يَلُوذُ بِهِ ... إلا بَنُو الْعَمِّ في أَيْدِيهِمُ الْخُشُبُ
سِيرُوا بَنِي العَمِّ فَالأَهْوَازُ مَنْزِلُكُمْ ... وَنَهْرُ تِيرَى فَلَمْ تَعْرِفْكُمُ الْعَرَبُ

ونهر تيرى بلدٌ من نواحي الأهواز .

(٢) وقيل : بل هو تغابن بين أهل الجنة وأهل النار ، وذلك أن أهل الجنة غبنوا أهل النار ، لأن أهل الجنة أخذوا الجنة ، وأهل النار أخذوا النار ، على طريق المبادلة ، فوقع الغبْن لأجل مبادلة الخير بالشر ، والجيِّد بالردىء ، والنعيم بالعذاب ، يقال : غَبَنْتُ فلاناً إذا بايَعته أو شَارَيْته فكان النقص عليه والغلبة لك ، وكذلك أهل الجنة وأهل النار ، وإذا قيل إنه لم تقع بينهما معاملة حتى يكون هناك غَبْن قيل : هو تمثيل للغبن في الشراء والبيع ، كما قال تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾ .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، والمفضل عن عاصم : [نُكَفِّرْ] بنون ، وكذلك [نُدْخِلْهُ] ، وهي قراءة الأعرج ، وأبي جعفر ، وشيبة ، والحسن ـ بخلاف ـ وطلحة ، وقرأ الباقون(١) ، والأعمش ، وعيسى ، والحسن في الموضعيْن بالياء ، على معنى : يُكَفِّر الله ، والأول هو نون العظمـــة .

وقوله تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ يحتمل أن يريد المصائب التي هي رزايـــا ، وخصهـا بالذِّكر لأَنهـا الأَهمُّ على النـــاس والأَبْيَنُ أثراً في نفوسهم ، ويحتمل أن يريد جميع الحوادث من خيرٍ وشرٍّ ، وذلك أن الحكم واحد في أنها بإذن الله تعالى ، و «الإِذْنُ» في هذا الموضع عبارة عن العلم والإرادة وتمكين الوقوع .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ قال فيه المفسِّرون : المعنى : من آمن بالله تعالى وعرف أن كل شيءٍ بقضاءِ الله وقدره وعلمه ، هانت عليه مُصيبَتُه ، وسلَّم الأمر لله تعالى . وقرأ سعيد بن جبير ، وطلحة بن مُصَرِّف : [نَهْدِ] بالنون ، وقرأ الضحاك : [يُهْدَ] بضم الياءِ وفتح الدال [قَلْبُهُ] رفعاً ، وقرأ عكرمة ، وعمرو بن دينار :

(١) أي : من السبعة

﴿يَهْدَأْ قَلْبُهُ﴾(١) برفع القلب ، ورُوي عن عكرمة أنه سكَّن بدل الهمزة ألفاً ، على معنى أن صاحب المصيبة يُسَلِّم فتسكُن نفسه ، ويُرشد الله تعالى المؤمن به إلى الصَّواب في الأُمور . وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عموم مطلق على ظاهره .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ﴾ عطف على قوله : [فَآمِنُوا] ، وفي قوله سبحانه : ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ إلى آخر الآية وعيدٌ وتبرئة لمحمد صلى الله عليه وسلم إذا بلَّغ ، وفي قوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ

(١) بفتح الياء وبهمزة ساكنة في آخر الفعل ، من الهدوء ، ذكر ذلك أبو حيان الأندلسي في « البحر المحيط » .

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تحريضٌ للمؤمنين على مكافحة الكفار والصبر على دين الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ إلى آخر السُّورة ، قُرْآنٌ مَدَنيٌّ ، اختلف الناس في سببه – فقال عطاءُ بن أَبي رباح : إِنه نزل في عوف بن مالك الأَشجعي ، وذلك أَنه أَراد غزواً مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فاجتمع أَهله وأَولاده فثبَّطوه وشكوا إِليه فراقه ، فلم يَغْزُ ، ثم إِنه ندم وهَمَّ بمعاقبتهم ، فنزلت الآية بسببه محذِّرة من الأَزواج والأَولاد وفتنتهم ، ثم صرف تعالى عن معاقبتهم بقوله سبحانه : ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا﴾ .

وقال بعض المفسِّرين : سبب الآية أَن قوماً آمنوا بالله تعالى وثَبَّطهم أَزواجهم وأَولادهم عن الهجرة فلم يهاجروا إِلَّا بعد مُدَّة ، فوجدوا غيرهم قد تفقَّه في الدِّين ، فندموا وأَسفوا وهمُّوا بمعاقبة أَزواجهم وأَولادهـم .

ثم أَخبر تعالى أَن الأَموال والأَولاد فتنة تشغل المرءَ عن مراشده ، وتحمله من الرَّغبة في الدُّنيا على ما لا يحمده في آخرته ، ومنه قوله

صلى الله عليه وسلم : (الولد مَبْخَلَةٌ مَجْبَنة)(١)، وخرَّج أَبو داود حديثاً في مُصنَّفه أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب يوم الجمعة حتى جاءَ الحَسَن والحُسَين رضي الله تعالى عنهما ، وعليهما قميصان أَحمران يَجُرَّانهما ، يَعْثران ويقومان ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنبر حتى أَخذهما وصعد بهما ، ثم تلا هذه الآية وقال : إِني رأَيت هذين فلم أَصبر ، ثم أَخذ في خطبته(٢) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه ونحوها هي فتنة الفضلاءِ ، فأَما فتنة الجهال الفسقة فمؤديةٌ إِلى كل مَهْلَكة ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : «لا يقولنَّ

---

(١) أَخرجه أبو يَعْلَى في مسنده ، ولفظه كما ذكره السيوطي في الجامع الصغير (الولد ثمرة القلب ، وإنَّه مَجْبَنَة مَبْخَلَة مَحْزَنة) ، وقد رمز له السيوطي بأنه حديث ضعيف ، وأخرجه البزَّار عن أبي سعيد بهذا اللفظ ثم قال : « لا نعرفه إلا بهذا الإسناد » ، وقال أحمد : حدثنا الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد من كندة ، فقال : (هل لك من ولد) ؟ قلت : غلام وُلد لي في مخرجي إليك من ابنة حمد ، ولوددت أن بمكانه سبع القوم ، فقال : (لا تقولن ذلك فإن فيهم قرة عين وأجراً إذا قُبِضُوا) ، ثم قال : (ولَئِن قلتَ ذاك إنهم لَمَجْبَنَة مَحْزَنَةٌ) ، قال الإمام ابن كثير في تفسيره : تفرَّد به أحمد .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن بُرَيْدة رضي الله عنه ، وأخرج مثله ابن مردويه عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما (الدر المنثور) .

أَحدكم : اللَّهم اعصمني عن الفتنة ، فإِنه ليس يرجع أَحد إِلى أَهلٍ ومالٍ إِلَّا وهو مشتمل على الفتنة ، ولكن لِيَقُل : اللَّهم إِني أَعوذ بك من مُضِلَّات الفِتَن» ، وقال عمر لحذيفة رضي الله عنهما : كيف أَصبحتَ ؟ قال : أَصبحتُ أُحبُّ الفتنة وأَكره الحقَّ ، فقال عمر : ما هذا ؟ قال : أُحبُّ ولدي وأَكره الموت .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

قال قتادة وفريق من الناس : إِنَّ قوله تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ ناسخٌ لقوله تعالى : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾(١) ، ورُوي أَن الأَمر نزل

(١) من الآية (١٠٢) من سورة (آل عمران) .

بحقِّ التُّقَاة فشق ذلك على الناس حتى نزل ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ، وذهبت فرقة منهم أَبو جعفر النحاس إلى أنه لا نَسْخ في الآيتين ، وأن قوله تعالى : ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ مقصده : فيما استطعتم ، ولا يُعقل(١) أن يطيع أَحدٌ فوق طاقته واستطاعته ، فهذه على التأْويل مُبَيِّنة لتلك ، وتحتمل هذه الآية أَن تكون : فاتَّقوا الله مُدَّة استطاعتكم التقوى ، وتكون [مَا] ظرفاً للزمان كله ، كأَنه يقول : حياتَكُمْ وما دام العمل ممكناً .

قوله تعالى : [خَيْراً] ، ذهب بعض النحاة إلى أَنه نصب على الحال ، وفي ذلك ضعف ، وذهب آخرون منهم إلى أَنه نصب بقوله سبحانه : [أَنْفِقُوا] ، قالوا : والخير هنا المالُ ، وذهب فريق آخرون منهم إلى أَنه نعت لمصدر محذوف تقديره : إنفاقاً خيراً ، ومذهب سيبويه أَنه نصب بإِضمار فعل يدل عليه قوله تعالى : [أَنْفِقُوا] .

وقرأَ أَبو حيوة : [يُوَقَّ] بفتح الواو وشدِّ القاف ، وقرأَ ابن عمر رضي الله عنهما : [شِحَّ] بكسر الشين ، وتقدم تفسيره في سورة الحشر ، وقال الحسن : نظرك إلى امرأَة لا تملكها من الشُّحِّ ، وقيل : يا رسول الله ، ما يُدخلُ العَبْدَ النَّارَ ؟ قال : (شُحٌّ مطاعٌ ، وهوًى

---

(١) في بعض النسخ : «ولا يُقْصد » .

مُتَّبَعٌ ، وجُبْنٌ هالعٌ ، وإعجاب المرءِ بنفسه) ، ذكره النقاش(١) ، والحديث في المصنفات أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا رأَيتَ شُحًّـا مُطاعاً وهوًى مُتَّبعاً وإعجـابَ كلِّ ذي رأْيٍ برأْيه ، فعليـك بِخُوَيْصة نفسك)(٢) .

وقرأَ جمهور السبعة : [يُضَاعِفْهُ] ، وقرأَ ابن كثير وابن عامر : [يُضَعِّفْهُ](٣) ، وذهب بعض العلماءِ إِلى أَن هذا الحضَّ هو على أَداءِ الزكاة المفروضة ، وذهب آخرون منهم إِلى أَن الآية في المندوب إِليه ، وهو الأَصح إِن شاءَ الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ إِخبارٌ بمجازاته تعالى على الشيءِ ، وأَنه يحط به عمن شاءَ الله العظيم ، لا ربَّ غيره .

كمل تفسير سورة التغابن والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) وأخرج البخاري في تاريخه ، وأبو داود ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (شرُّ ما في رجل شُحٌّ هالعٌ وجُبْن خالعٌ) ، ذكر ذلك السيوطي في «الجامع الصغير» ورمز له بأنه حديث حسن ، وزاد في «الدر المنثور» نسبته إلى ابن أبي شيبة ، وابن مردويه ، والبيهقي .

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ، وأبو داود في الملاحم ، وابن ماجه في الفتن .

(٣) اختلفوا في حذف الألف من [يُضَاعِفْهُ] هنا وفي البقرة ، واختلفوا في تضعيف العين . راجع كتاب «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٦٥) سورة الطلاق مدنية وآياتها اثنتا عشرة

وهي مدنية بإجماع من أهل التفسير .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا (١) فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا (٢) وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا (٣) ﴾

الطلاق على الجملة مكروه لأنه تبديد شمْل في الإسلام ، وروى أبو موسى الأَشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(لا تطلِّقــوا النساءَ إلَّا من ريبة ، فــإن الله لا يحب الذواقــين ولا الذواقات)(١) ، وروى أَنس عنه عليه الصلاة والسلام قال : (ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلَّا منافق)(٢) .

واختُلف في البداية بالنبي صلى الله عليه وسلم ثم قوله تعالى بعد ذلك [طَلَّقْتُمُ] ـ فقال بعض النحويين ـ حكاه الزهراوي ـ : ذلك خروج من مخاطبة إفرادٍ إلى مخاطبة جماعة ، وهذا موجود ، وقال آخرون منهم : إن في نداءِ النبي صلى الله عليه وسلم أُريدت أُمته معه ، فلذلك قال تعالى : [طَلَّقْتُمُ] ، وقال آخرون منهم : إن المعنى : يَـٰأَيُّهَا النبي قل لهم : إذا طلقتم ، وقال آخرون : إنه من حيث يقول الرجل العظيم : « فَعَلْنا ، وَضَعْنَا » ، خوطب النبي صلى الله عليه وسلم في هذه بـ [طَلَّقْتُمُ] إظهاراً لتعظيمه ، وهذا على نحو قوله تعالى في عبد الله بن أُبَيٍّ : ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾(٣) إذا كان قوله مما يقوله

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ، عن أبي موسى رضي الله عنه ، ورمز له الإمام السيوطي في « الجامع الصغير » بأنه حديث ضعيف .

(٢) أخرجه ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه ، ذكره الإمام السيوطي في « الجامع الصغير » ، ورمز له بالضعف .

(٣) من الآية (٧) من سورة (المنافقون) .

جماعة ، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ما يُخاطب به فهو خطاب لجماعة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يظهر لي في هذا أنهما خطابان مفترقان ، خوطب النبي صلى الله عليه وسلم على معنى تنبيه لسماع القول وتَلَقِّي الأَمر ، ثم قيل له : ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ ، أَي أَنت وأُمَّتُك(١) ، فقوله تعالى : ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ ابتداءُ كلام كما لو ابتدأ السُّورة به ، وطلاق النساءِ حَلُّ عِصْمتهن ، وصورة ذلك وتنويعه مما لا يختص بالتفسير .

وقوله تعالى : ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ ، أَي : لاستقبالها وقوامها وتقريبها عليهن . وقرأ عثمان ، وابن عباس ، وأُبَيٌّ بن كعب ، وجابر بن عبد الله ، ومجاهد ، وعليٌّ بن الحسين ، وزيد بن علي ، وجعفر بن محمد رضي الله عن الصحابة والتابعين : ﴿في قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ﴾ ، وروي عن بعضهم وعن ابن عمر رضي الله عنهما : ﴿لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ﴾ ، أَي لاستقبالها ، وروى ابن عمر القراءتين عن النبي صلى الله عليه

(١) يقول بعض العلماء : إن الخطاب له والمعنى له وللمؤمنين ، وإذا أراد الله بالخطاب المؤمنين لاطفه بقوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ، فإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعاً له قال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ .

وسلم(١)، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: «لِقُبُلِ طُهْرِهِنَّ».

ومعنى هذه الآية أَلَّا يطلِّق أَحد امرأَته إِلَّا في طُهْر لم يمسَّها فيه، هذا على مذهب مالك رحمه الله وغيره مِمَّن قال: إِنَّ «الأَقْرَاءَ»: الأَطهارُ، فيطلق عندهم المطلِّق في طُهْر لم يمسَّ فيه، وتعتد به المرأَة ثم تحيض حيضتين تعتد بالطهر الذي بينهما، ثم تقيم في الطهر الثالث مُعْتَدَّة به، فإِذا رأَت أَول الحيضة الثالثة حلَّت، ومن قال بأَن «الأَقراءَ»: الحيضُ - وهم العراقيون - قال: [لِعِدَّتِهِنَّ] معناه: أَن تطلق طاهراً فتستقبل ثلاث حِيَض كوامل، فإِذا رأَت الطهر بعد الثالثة حلَّت، ويخفُّ عند هؤلاءِ مسَّ في طهر الطلاق أَو لم يمسّ، وكذلك مالكٌ يقول: «إِن طلَّق في طُهْر قد مسَّ فيه مضى الطلاق»، ولا يجوز طلاق الحائض لأَنها تطول العِدَّة عليها، وقيل: بَلْ تَعْتَد، ولو علل بالتطويل لا ينبغي أَن يجوز ولو رضيته(٢)، والأَصل في

---

(١) أخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ في قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ﴾، وأخرج ابن الأنباري، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ﴾، وقُبُل الشيء هو إقبالُه وأوَّله.

(٢) الرأي الذي عليه علماء المسلمين أن مَنْ طلَّق في طُهْر لم يُجامع فيه نفذ طلاقُه وأصاب السُّنَّة، فإن طلَّق حائضاً نفذ طلاقُه وأخطأ السُّنَّة، ويرى سعيد بن المسيَّب أن الطلاق في الحيض لا يقع لأنه خلاف السُّنَّة، وإلى ذلك ذهب الشِّيعة.

ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : طلقتُ امرأتي وهي حائض ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لِعُمَر : (مُرْهُ فليراجعها ثم لِيُمْسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم يطلقها إن شاءَ ، فتلك العِدَّة التي أَمر الله تعالى بها أَن يُطَلَّق لها النساءُ)(١) ، وروى حذيفة أَنه عليه الصلاة والسلام قال : (طلِّقوا المرأَة في قُبُلِ طُهْرِهَا)(٢) . ثم أَمر تعالى بإِحصاءِ العِدَّة لما يلحق ذلك من أَحكام الرَّجعة والسُّكنى والميراث وغير ذلك(٣) .

ثم أَخبر تعالى بأَنهن أَحق بسُكنى بيوتهن التي طُلِّقن فيها ، فنهى عن إخراجهن وعن خروجهن(٤) ، وسُنَّة ذلك أَلَّا تبيت المرأَة

(١) أخرجه مالك ، والشافعي ، وعبد الرزاق في المصنف ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو يعْلَى ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وأخرج مثله ابن مردويه عن ابن عمر أيضاً ولكن من طريق أبي الزبير . (الدر المنثور) .

(٢) لم أقف عليه .

(٣) وهذا في المدخول بها ؟ لأن غير المدخول بها لا عدَّة عليها لقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ .

(٤) أي : لا يجوز للزوج أن يخرجها من مسكن النكاح مادامت في العدَّة ، ولا يجوز لها هي أن تخرج إلا للضرورة ، فإن خرجت فهي آثمة ، لكن العدة لا تنقطع بخروجها . قال الإمام القرطبي : «والرجعية والمبتوتة في هذا سواءٌ، وهذا لصيانة ماء الرجل ، وهذا معنى إضافة =

المطلَّقة «بعيدة» (١) عن بيتها ولا تغيب عنه نهاراً إلَّا في ضرورة وما لاخطب له من جائز التصرف، وذلك لحفظ النسب والتَّحرز بالنساءِ، فإن كان البيت ملكاً للزوج أو بِكِراءٍ منه فهذا حُكْمه، فإن كان لها فعليه الكراءُ، فإن كان قد امتعته مدة الزوجية ففي لزوم خروج العدة له قولان في المذهب: اللزوم رعاية لانفصال مُكارمة النكاح، والسقوط من أجل أن العِدَّة من سبب النكاح.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ - فقال قتادة، والحسن، ومجاهد: ذلك الزِّنى، فيخرجن للحَدِّ، وهو قول الشعبي، وزيد بن أَسلم، وحمَّاد، والليث. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذلك البَذَاءُ على الأَحْماءِ، فتخرج ويسقط حقها في السكنى، وتلزم الإقامة في مسكن تتخذه حِفْظاً للنسب، وفي مصحف أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه: «إِلَّا أَن يَفْحُشْنَ عَلَيْكُمْ»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: الفاحشةُ جميعُ المعاصي، فمتى سرقت أَو زنت أَو أربت في تجارة أَو غير ذلك فقد سقط حقها في السُّكنى،

= البيوت إليهن، فهي إضافة إسكان وليست إضافة تمليك»، على أن هناك خلافاً بين الفقهاء وتفريقاً بين الرجعية والمبتوتة، وبين الخروج نهاراً والخروج ليلا، وموضعه كتب الفقه.

(١) ما بين العلامتين سقط من الأصول.

وقال ابن عمر ، والسُّدي : الفاحشةُ الخروج عن البيت خروج انتقال ، فمتى فعلت ذلك سقط حقها في السكنى ، وقال قتادة أيضاً : المعنى : أَن يأْتين بفاحشةٍ في نشوز عن الزوج فيطلِّق بسبب ذلك فلا يكون عليه سكنى ، وقال بعض الناس : الفاحشةُ متى وردت معرَّفة فهي الزِّنى ، ومتى جاءَت منكرة فهي في المعاصي ، فمرة يراد بها سوءُ عِشْرة الزوج ومرة غير ذلك .

وقرأَ عاصم : [مُبَيَّنَةً] بفتح الياءِ المشددة(١) ، تقول : بانَ الأَمْرُ وبَيَّنته على التضعيف على التعدية ، وقرأَ الجمهور بكسرها ، تقول : بانَ الأَمرُ وبيَّن بمعنى واحد ، إلَّا أَن التضعيف للمبالغة ، ومن ذلك قولهم : قد بَيَّنَ الصُّبْحُ لذي عينين .

وقوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ﴾ إشارة إلى جميع أَوامره في هذه الآية ، وقوله سبحانه : ﴿لَعَلَّ ٱللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً﴾ ، قال قتادة وغيره : يريد به الرَّجعة ، أَي : أَحْصُوا العِدَّة ، وامْتثلوا هذه الأَوامر المُثَقِّفَة لنسائكم ، الحافظة لأَنسابكم ، وطَلِّقوا على السُّنَّة ، تجدوا المَخْلَص إن ندمتم ، فإنكم لا تدرون لعلَّ الرَّجعة تكون بعد ،

---

(١) لعلها قراءة أبي بكر عنه ، أما قراءة حفص عن عاصم فهي بكسر الياء المشددة كما هو ثابت في المصحف .

والإِحداثُ هنا بَيِّن التوجيه ، عبارةٌ عَمَّا يوجد من التراجع ، وجوَّز قوم أَن يكون المعنى : أَمْراً من النَّسْخ ، وفي ذلك بُعْدٌ .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ يريد به آخِرَ الْقُرْءِ ، و « الإِمْسَاكُ بِالْمَعْرُوفِ » هو حُسْنُ العِشْرة في الإِنفاق وغير ذلك ، و « الْمُفَارَقَةُ بِالْمَعْرُوفِ » هي أَداءُ المهر والمتعةُ ودفْعُ جميع الحقوق والوفاءُ بالشروط وغير ذلك حسب نازلة نازلة ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ يريد : على الرجعة ، وذلك شرط في صحة الرجعة ، وللمرأَة منع الزوج من نفسها حتى يُشْهِد ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المراد : على الرَّجعة وعلى الطلاق ؛ لأَن الإِشْهاد يرفع من النوازل إِشكالات كثيرة ، وتَقْييد تاريخ الإِشهاد من الإِشهاد ، وقال النَّخَعي : العَدْلُ مَنْ لم تظهر منه ريبة ، وهذا قول الفقهاء ، والعَدْل حقيقةً الذي لا يخاف إِلَّا الله تعالى ، وقوله سبحانه : ﴿ وَأَقِيمُوا ٱلشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ أَمْرٌ للشهود ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ ﴾ إِشَارةٌ إِلى إِقامة الشهادة ، وذلك أَن جميع فصول الأَحكام والأُمور فإِنما تدور على إِقامة الشهادة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ، قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وكثير من المتأَولين : هو في معنى الطلاق ، أَي : ومن لا يتعدى في طلاق السُّنَّة

إلى طلاق الثلاث وغير ذلك يجعل اللهُ له مخرجاً إن ندم بالرَّجعة ، ويرزقه ما يطعم أَهله ، ويوسع عليه ، ومن لا يَتَّق الله فربَّما طلَّق وبَتَّ وندم فلم يكن له مخرجٌ ، وزال عنه رزق زوجته ، وقد فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما نحو هذا ، فقال لِمُطَلِّقٍ ثلاثاً : إنك لم تتق الله تعالى ، فبانت منك امرأَتُك ولا أَرى لك مخرجاً ، وقال ابن عباس أَيضاً : معنى ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ : يخلِّصه من كرب الدنيا والآخرة ، واختلفت أَلفاظ رُواة هذه القصة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، لكن هذا هو المعنى .

وقال بعض رواة الآثار : نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأَشجعي ، وذلك أَنه أُسر ولدُه ، وقُدر عليه ، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأَمره بالتقوى ، فقيل : لم يلبث أَن تَفَلَّت ولدُه ، وأَخذ قطيع غنم للقوم الذين أَسروه ، وجاءَ أَباه ، فسأَل عوف رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَتطيب له تلك الغنم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، ونزلت الآية في ذلك .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الآية كلُّها عظةٌ لجميع الناس ، و « الحَسْبُ » : الكافي المرضي ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : هذه أَكثر الآيات حضًّا على التفويض ، وروي أَن

رجلًا قال لِعُمر رضي الله عنه : وَلِّني مِمَّا ولَّاكَ اللهُ تعالى ، فقال له عمر : أَتقرأُ القرآن ؟ قال : لا ، قال عمر : فإني لا أُولي من لا يقرأُ القرآن ، فتعلم الرجلُ رجاءَ الولاية ، فلما حفظ كثيراً من القرآن تخلَّف عن عمر ، ثم لَقِيَه يوماً فقال له عمر رضي الله عنه : ما أَبطأَ بك ؟ قال : تعلمتُ القرآن فأَغناني اللهُ عن عمر وعن بابه ، ثم قرأَ هذه الآية من هذه السُّورة .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَالِـغُ أَمْرِهِ﴾ بيانٌ وحضٌّ على التوكل ، أي : لا بد من نفوذ أَمر الله تعالى توكَّلْتَ أَيُّها المرءُ أَم لم تتوكَّل ، قاله مسروق ، فإن توكَّلت كفاك وتعجلتَ الراحة والبركة ، وإن لم تتوكل وكلَكَ إلى عجـزك وتَسَخُّطك ، وأَمره عزَّ وجـلَّ في الوجهين نافذ .

وقرأَ داود بن أَبي هند(١) - ورويت عن أَبي عمرو - ﴿بَالِـغٌ أَمْرُهُ﴾ برَفْع الأَمر(٢) ، وحذف مفعول تقديره : بالغٌ أَمْرُهُ ما شاءَ ،

---

(١) هو داود بن أبي هند القشيري ، مولاهم ، أبو بكر أو أبو محمد ، البصري ، ثقة مُتْقِن ، كان يهم بآخرة ، من الطبقة الخامسة ، مات سنة أربعين ، وقيل : مات قبلها ، (تقريب التهذيب) .

(٢) مع تنوين [بَالِـغٌ] .

وقرأ جمهور السبعة ، والناسُ : ﴿ بَالِغٌ أَمْرَهُ ﴾ بنصب الأمر (١) ، وقرأ حفصٌ والمفضل عن عاصم : ﴿ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ على الإضافة وترك التنوين في [بَالِغٌ] ، ورويت عن أبي عمرو ، والأعمش ، وهي قراءة طلحة بن مصرف . وقرأ جمهور الناس : [قَدْراً] بسكون الدال ، وقرأ بعض القراءِ : [قَدَراً] بفتح الدال ، وهذا كله حضٌّ على التوكل .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾

(١) مع التنوين في [بَالِغٌ] أيضاً .

« اللَّائي » هو جمع ذات فيما حكى أَبو عبيدة ، وهو ضعيف ، والذي عليه الناس أَنه جمع « التي » ، وقد يجيءُ جمعاً لـ « الذي » ، واليائساتُ من المحيض على مراتب ، فيائسة هو أَول يأْسها فهذه ترفع إلى السُّنَّة ويبقيها الاحتياط على حكم من ليست بيائسة لأَنها لا تدري لعل الدم يعود ، ويائسة قد انقطع عنها الدم لأَنها طعنت في السن ثم طُلِّقت وقد مرت عادتها بانقطاع الدم إلَّا أَنها ممن يخاف أَن تحمل نادراً ، فهذه التي في الآية على أَحد التأْويلين في قوله تعالى : ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ ، وهو قول من جعل الارتياب بأَمر الحول ، وهو الأَظهر ، ويائسة قد هرمت حتى تيقن أَنها لا تحمل ، فهذه ليست في الآية لأَنها لا ترتاب بحملها ، لكنها في حكم الأَشهر الثلاثة إجماعاً فيما علمت ، وهي في الآية على تأْويل من يرى أَن قوله تعالى : ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ معناه في حكم اليائسات ، وذلك أَنه روى إسماعيل ابن أَبي خالد أَن قوماً منهم أُبَيٌّ بن كعب رضي الله عنه ، وخلَّاد ابن النعمان (١) لمَّا سمعوا قول الله تعالى : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ

---

(١) جاء في الإصابة أنه خلاد بن النعمان الأنصاري ، وأن مُقاتل أبو سليمان ذكر في تفسيره أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن عِدَّة التي لا تحيض ، فنزلت ﴿ وَٱللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ ﴾ الآية .

بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾(١) قالوا : يا رسول الله ، فما عِدَّة من لا قُرْءَ لها من صِغَر أو كِبَر؟ فنزلت هذه الآية ، فقال قائل منهم : فما عِدَّةُ الحامل ؟ فنزلت ﴿ وَأُوْلَاتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾(٢) ، وقد تقدَّم ذكر الخلاف في تأْويل ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ .

و «أُولات» جمع ذات ، وأَكثر أَهل العلم على أَن هذه الآية تعم الحوامل المطلقات والمعتدَّات من الوفاة ، والحُجَّةُ حديث سُبَيْعة الأَسْلمية ، قالت : «كنت تحت سعد بن خولة ، فتوفي في حَجَّة الوداع» ، ووضعت حملها قبل أَربعة أَشهر ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : (قد حَلَلْتِ) ، وأَمرها أَن تتزوج (٣) . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : نزلت سورة النسـاءِ القُصرى بعد الطُّولى ، يعني أَن قوله تعالى :

---

(١) من الآية (٢٢٨) من سورة (البقرة) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ، وابن المنذر ، من طريق الثوري ، عن إسماعيل ، هكذا قال السيوطي في «الدر المنثور» ، وليس في النص الذي أورده ذِكْرٌ لمن سأل الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن مردويه ، عن سُبَيْعة الأسلمية ، وفيه أنها وضعت بعد وفاة زوجها بخمس وعشرين ليلة ، وأخرج مثله ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن مردويه ، عن أبي السنابل بن بعكك ، وفيه أن سُبَيْعة وضعت بعد وفاة زوجها بثلاث وعشرين ليلة ، وفي رواية لعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، عن المسور بن مَخْرمة أنها لم تمكث إلا ليالي يسيرة . (الدر المنثور) .

﴿وَأُولَاتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ نزل بعد قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وعَشْراً﴾(١) ، وقال علي بن أَبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهم : إنما هذه في المطلقات ، وأَمَّا في الوفاة فعدَّة الحامل آخر الأَجلين ، فإنْ وضعت قبل أَربعة أَشهر وعَشْر تمادت إلى آخرها ، والقول الأَول أَشهر ، وعليه الفقهاءُ ، وقرأَ الضحاك : [أَحْمَالَهُنَّ] على الجمع .

وأَمر الله تعالى إسكان المطلَّقات ، ولا خلاف في التي لم تُبَت ، وأَمَّا الْمَبْتُوتة فمالِك رحمه الله تعالى يرى لها السكنى لمكان حفظ النسب ، ولا يرى لها نفقة لأَن النفقة بإِزاءِ الاستمتاع ، وهو قول الأَوزاعي ، والشافعي ، وابن أَبي ليلى ، وأَبي عُبَيْد ، وابن المسيَّب ، وعطاءٍ ، والشَّعبي ، وسليمان بن يسار . وقال أَصحاب الرأْي والثُّورى : لها السَّكن والنَّفقة ، وقال جماعة من العلماءِ : ليس لها سُكْنَى ولا نفقة .

و «الوُجْدُ» : السَّعة في المال ، وضمُّ الواو وفَتْحها وكسرها هي كلها بمعنى واحد ، وقرأَ الجمهور : [وُجْدِكُمْ] بضم الواو بمعنى السَّعة في الحال ، وقرأَ الأَعرج – فيما ذكر عِصْمة – : [وَجْدِكُمْ] بفتح الواو ،

(١) من الآية (٢٣٤) من سورة (البقرة) .

وذكرها أَبو عمرو عن الحسن ، وأَبي حَيْوة ، وقرأَ الفيَّاض بن غزوان ، ويعقوب بكسر الواو ، وذكرها المهدوي عن الأَعرج ، وعمرو بن ميمون .

وأَمَّا الحامل فلا خلاف في وجوب سكناها ونفقتها ، بُتَّتْ أَو لم تُبت ؛ لأَنها مُبَيَّنة في الآية ، واختلفوا في نفقة الحامل المتوفَّى عنها زوجها على قولين لعلماء الأُمة ، فمنعها قوم ، وأَوجبها في التركة قوم ، وكذلك النفقة على المرضع واجبة وهي الأَجر مع الكسوة وسائر المؤن التي بَسْطُها في كتب الفقه .

وقوله تعالى : ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ ، أَي : ليأْمُر كل واحد صاحبه بخير ، ولاشك أَن من أَمر بخير فهو أَسرع إلى فعل ذلك الخير ، وليقبل كل أَحد ما أُمِر به من المعروف فالقبول والامتثال هو الائتمار ، وقال الكسائي : [أْتَمِرُوا] معناه : تشاوروا ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾(١)، ومنه قول امرئ القيس :

. . . . وَيَعْدو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتَمِرْ(٢)

---

(١) من الآية (٢٠) من سورة (القصص) .

(٢) هذا عجز بيت قاله امرؤ القيس في مطلع قصيدة له يصف فيها فرسه وخروجه إلى الصيد ، والبيت بتمامه :

أحَارِ بْنَ عَمْرٍو كَأَنِّي خَمِرْ وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتَمِرْ =

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي : تشطَّطت المرأة في الحــدِّ الذي يكون أُجــرةً على الرِّضــاع فلِلزَّوج أن يسترضع أُخــرى بما فيه رفْقُهُ ، إلَّا إنْ لم يقبل المولود غير أُمِّه فتجبر حينئذ على رضاعه بأُجرة مِثْلها ومِثْل الزوج في حالهما أَو غناهما . ثم حضَّ الله تعالى أَهل الجِدَة على الإِنفاق وأَهل الإِقتار على التوسط ، كلٌّ بقدر حاله ، وهذا هو العدل بينهم لئلا تضيع هي ولا يتكلَّف هو ما لا يُطيق .

واختلف العلماءُ في الذي يعجز عن نفقة امرأَته ـ فقال مالك ، والشافعي ، وأَحمد ، وإِسحق ، وأَبوهريرة ، وابن المسيَّب ، والحسن : يُفَرَّق بينهما ، وقال أَصحاب الـرأْي ، وعمــر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وجماعة : لا يُفَرَّق بينهما ، ثم رجَّى تعالى باليُسْر تسهيلًا على النفوس وتطييباً لها .

وقرأَ الجمهور : [وَيُعْظِمْ] بالياءِ ، وقرأَ الأَعمش : [وَنُعْظِمْ] بالنون ، واختُلف عنه (١).

= والخَمِرْ: الذي خالطه داءٌ أو وجع أو سُكْر ، ويعدو: يرجع ، و «ما يَأْتَمِرْ»: ما يدبِّره ويريد أن يوقعه بغيره ، يقول مخاطباً الحارث بن عمرو : إنه يشعر بحالة غير عادية ، كأنه مريض أو سكران ، وإن ما يدبره الإنسان لغيره من شرور يعود عليه هو .

(١) لاحظ أن هذا تأخر عن موضعه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا
وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا
﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ
ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ
صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ
أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾

« كَأَيِّنْ » هي كاف الجرِّ دخلت على « أَيّ » ، وهذه قراءة الجمهور ، وقرأ ابن كثير ، وعُبَيْد عن أبي عمرو : [وَكَائِنٍ] ممدودة مهموزة ، كما قال الشاعر :

وَكَائِن بالأَبَاطِحِ مِنْ صَدِيقٍ . . . . (١)

(١) البيت لجرير ، وهو من قصيدة يمدح بها الحجاج بن يوسف ، وقد ذكر المؤلف صدر البيت فقط ، والبيت بتمامه :

وَكَائِن بالأَبَاطِحِ مِنْ صَــديقٍ يَرَاني لَوْ أُصِبْتُ هُوَ الْمُصَــابَا =

وقرأ بعض القراءِ : [وَكَايِنٍ] بتسهيل الهمزة ، وفي هذين الوجهين قَلْب ؛ لأَن الياءَ قبل الأَلفات . و «الْعُتُوُّ» : تَرْكُ الائتمار والقبول .

وقوله تعالى : [فَحَاسَبْنَاهَا] قال بعض المتأَولين : الآية في الآخرة ، أَي : ثَمَّ هو الحساب والتعذيب والذوق وخسارة العاقبة ، وقال آخرون : ذلك في الدنيا ، ومعنى ﴿حَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً﴾ لَمْ نغتفر لهم زَلَّة بل أُخذوا بالدقائق من الذنوب . وقرأَ نافع ، وأَبو بكر ، وابن ذكوان : [نُكُراً] بضم الكاف ، وأَسكنها الباقون ، وهي قراءَة عيسى ، وقوله تعالى : ﴿أَعَدَّ ٱللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ يظهر منه أَنه بيان لوجه خُسران عاقبتهم ، فيتأَيد بذلك أَن تكون المحاسبة والتعذيب والذوق في الدنيـــا .

ثم ندب تعالى أُولي الأَلباب إِلى التَّقوى تحذيراً ، وقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ صفة لـ «أُولِي الأَلْبَابِ» ، وقرأَ نافع ، وابن عامر :

= والأباطح : جمع أبْطح ، وهو مَسيلٌ واسع للماء فيه دقاق الحصى ، والمصيبة : ما أصاب من الدهر ، يتكلم عن التعاون والوفاء والمساندة بين الأصدقاء في وقت كبر فيه وذهب شبابه ، يقول في مطلع القصيدة :

سَئِمْتُ مِنَ الْمُوَاصَلَةِ الْعِتَابَــا وَأَمْسَى الشَّيْبُ قَدْ وَرِثَ الشَّبَابَا

[نُدْخِلْهُ] بالنون ، وكذلك روى المفضل عن عاصم ، وقرأ الباقون بالياء ، وقوله تعالى : ﴿قَدْ أَنْزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولًا﴾ ، اختلف الناسُ في تقرير ذلك — فقال قوم من المتأولين : المراد بالاسمين القرآن ، و «رَسُولًا» بمعنى رسالة ، وذلك موجود في كلام العرب ، وقال آخرون : [رَسُولًا] نعت أو كالنعت لقوله سبحانه : [ذِكْراً] ، فالمعنى : ذِكْراً ذا رسولٍ ، وقيل : «الرسول» ترجمة عن «الذِّكْر» كأنه بدلٌ منه ، وقال آخرون : المراد بهما جميعاً محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : ذا ذِكْرٍ رسولًا ، وقال بعض حُذَّاق المتأولين : الذِّكْرُ اسمٌ من أسماءِ الرسول عليه الصلاة والسلام ، واحتج بهذه القاضي أبو بكر الباقلاني في تأويل قوله تعالى : ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾(١) ، وقال بعض النحاة : معنى الآية : ذِكْراً بعث رسولًا ، فهو منصوب بإضمار فعل ، وقال أبو علي الفارسي : يجوز أن يكون [رَسُولًا] معمولًا للمصدر الذي هو الذِّكْر (٢) .

---

(١) من الآية (٢) من سورة (الأنبياء) .

(٢) وقيل : الذِّكْرُ هنا هو الشرف ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ ، ثم بيَّن الله تعالى هذا الشرف بقوله : [رَسُولاً] ، وقيل : إن الرسول هنا هو جبريل ، فيكون هو والذِّكر مُنَزَّلين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأَبْيَن الأَقوال عندي معنًى أَن يكون « الذِّكْر » القرآن ، و « الرَّسولُ » مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : بعث رسولًا ، لكن الإِيجاز اقتضى اختصار الفعل الناصب للرسول ، ونحا هذا المنحى السُّدِّي .

وقرأَ نافع ، وابن كثير ، وأَبو عمرو ، وأَبو بكر : [مُبَيَّنَاتٍ] بفتح الياء ، وقرأَها بكسر الياءِ ابن عامر ، وحفص ، وحمزة ، والكسائي ، والحسن ، والأَعمش ، وعيسى . وسائر الآية بَيِّنٌ ، والرزقُ المشار إِليه رزق الجنة لدوامه ودُرُوره .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾

لا خلاف بين العلماءِ أَن السموات سبعٌ لأَن الله تعالى قال : ﴿ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً ﴾(١) ، وفسَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم أَمرهن في

(١) من الآية (٣) من سورة (المُلْك) .

حديث الإسراء ، وقال عليه الصلاة والسلام لسعدٍ رضي الله عنه : (حكمت فيهم بحكم الملِك من فوق سبع أَرْقِعَة)(١) ، ونطقت بذلك الشريعة في غير ما موضع ، وأَمَّا الأَرض فالجمهور على أَنها سبع أَرضين ، وهو ظاهر هذه الآية ، وأَن المماثلة إنما هي في العدد ، ويستدل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من غصب شبراً من أَرضٍ طُوِّقه من سبع أَرضين)(٢) ، إلى غير هذا مِمَّا وردت به روايات ، وروي عن قوم من العلماءِ أَنهم قالوا : الأَرض واحدة ، وهي مماثِلةٌ لكل سماءٍ بانفرادها في ارتفاع جرمها ، وفي أَن فيها عَالَماً يَعْبُد ، كما في كل سماءٍ عالم يَعْبُد .

---

(١) جاء ذلك في حادثة نزول بني قريظة على حكم سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه ، وقد ذكره ابن هشام في السيرة ، قال ابن إسحق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن عبد الرحمن بن عمرو عن سعد بن معاذ ، عن علقمة بن وقّاص الليثي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : (لقد حكَمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة) ، والأرقعة : السموات ، والواحدة رقيع .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ، ومسلم في المساقاة ، ولفظه كما في البخاري ، عن أبي سلَمة بن عبد الرحمن – وكانت بينه وبين أُناس خصومة في أرض – فدخل على عائشة رضي الله عنها فذكر لها ذلك فقالت : يا أبا سلَمة ، اجتنب الأرض ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (مَنْ ظلم قيدَ شبر طُوِّقه مِنْ سبع أرضين) . وذكر السيوطي في الجامع الصغير أن أحمد أخرجه هو والبخاري ومسلم عن عائشة وعن سعيد بن زيد ، ثم رمز له بأنه صحيح .

وقرأ الجمهور : [مِثْلَهُنَّ] بالنصب ، وقرأ عاصم : [مِثْلُهُنَّ] بالرفع(١) ، و «الأَمْرُ» هنا الوحي وجميع ما يأْمر به تعالى مَنْ يعقل ومن لا يعقل ، فإن الرِّياح والسَّحاب وغير ذلك مأْمورٌ كله ، وباقي السُّورة حضٌّ على توحيد الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم معناه الخصوص ، وقوله تعالى : ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ عموم على إطلاقه .

❁ ❁ ❁

كمل تفسير سورة الطلاق والحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) قراءة عاصم – في رواية حفص – بالنصب مثل الجمهور .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٦٦) سورة التحريم مدنية
وآياتها اثنتا عشرة

وهي مدنية بإجماع من أهل العلم بلا خلاف(١).

قوله عزّ وجلّ:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾

رُوي في الحديث عن زيد بن أسلم والشعبي وغيرهما ما معناه أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أهدى إليه المقوقس مارية القبطية

---

(١) وتُسَمَّى سورة «النَّبِيِّ».

اتخذها سُرِّية (١)، فلما كان في بعض الأَيام وهو يوم حفصة بنت عمر رضي الله عنهما ـ وقيل: بل كان في يوم عائشة رضي الله عنها ـ جاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت حفصة فوجدها قد مرَّت لزيارة أَبيها، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في جاريته، فَقَالَ معها (٢)، فجاءَت حفصة فوجدتهما، فأَقامت خارج البيت حتى أَخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مارية وذهبت، فدخلت حفصة غَيْرَى متغيرة، فقالت: يا رسول الله، أَما كان في نسائك أَهون عليك منِّي؟ أَفي بيتي وعلى فِراشي؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مترضِّياً لها: أُيرضيك أَن أُحرِّمها؟ قالت: نعم، فقال: إِنِّي قد حرَّمتُها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وقال مع ذلك: والله لا أَطؤها أَبداً، ثم قال: لا تخبري بها أَحداً، فمن قال: إن ذلك كان في يوم عائشة قال: اسْتكْتمها خوفاً من غضب عائشة، وحُسْن عِشْرة لها، ومن قال: بل كان في يوم حفصة قال: اسْتَكْتمها

(١) قال أهل اللغة في الجارية التي يتسرَّاها مالكها لم سُمِّيت سُرِّية؟: نُسبت إلى السرِّ ـ وهو الجماع ـ وضُمَّت السِّين للفروق بين الحرَّة والأمة، فقيل للحرة التي تنكح سرا: سِرِّية، وقيل للمملوكة التي يتسراها صاحبها: سُرِّية. وقيل: سُمِّيت سُرِّية لأنها موضع سرور الرجل.

(٢) أي: قضى معها وقت القيلولة.

لنفس الأَمر ، ثم إن حفصة قرعت الجدار الذي كان بينها وبين عائشة رضي الله عنهما لتبشِّرها بالأَمر ، ولم تر في إفشائه إليها حرجاً ، واسْتَكْتَمَتْهَا ، فأَوحى الله بذلك إلى نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، ونزلت الآية (١) .

ورُوي عن عِكْرِمة أَن هذا نزل بسبب أُم شريك التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم (٢) ، وذكر النقاش نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما . وروى عُبَيْد بن عُمير عن عائشة رضي الله عنها أَن هذا التحريم المذكور في الآية إنما هو بسبب الشراب العسل الذي

---

(١) أخرج هذا الخبر ابن جرير ، وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرج مثله ابن سعد ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ، وأخرج مثله عبد بن حميد ، عن قتادة ، قال ابن العربي : « إن من روى أنه صلى الله عليه وسلم حرَّم مارية فإنه أمثل في السَّند وأقرب إلى المعنى ، لكنه لم يُدَوَّن في الصحيح ، ورُوي مرسلا » . ونقل ابن كثير في تفسيره هذا الحديث عن ابن جرير ، عن زيد بن أسلم ، وعن الهيثم بن كليب ، عن عمر رضي الله عنه ، ثم قال : « وهذا إسناده صحيح ، ولم يُخرجه أحد من أصحاب الكتب السِّتَّة ، وقد اختاره الحافظ الضياءُ المقدسي في كتابه المستخرج .

(٢) قال ابن كثير : « وهذا قولٌ غريب » ، وقال ابن العربي عن هذا أنه أضعف الأقوال ، قال : « أما ضعفه في السَّند فلعدم عدالة رواته ، وأما ضعفه في معناه فلأن ردَّ النبي صلى الله عليه وسلم للموهوبة ليس تحريماً لها ، لأن من ردَّ ما وُهب له لم يحرم عليه ، إنما حقيقة التحريم أنه يكون بعد التحليل » ، هذا وأم شريك هذه اختلف في اسمها ، فقيل : غُزَيَّة ، وغَزِيَّة ، وقيل : غُزَيْلة ، وقيل : ليلى بنت حكيم ، وشهرتها : أُم شَريك بنت جابر الأسدية .

شربه عند زينب بنت جحش ، فتمالأَت عائشة وحفصة وسودة على أَن تقول له من دنا منها : أَكلت مغافير – والمغافير صمْغُ العُرْفط – وهو حلوٌ ثقيل الريح ، ففعلن ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، ولكني شربت عسلًا ، فقلن له : جَرَسَتْ نحلُه العُرْفط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أَشربُه أَبداً ، وكان يكره أَن توجد منه رائحة ثقيلة ، فدخل – بعد ذلك – على زينب رضي الله عنها فقالت له : أَلا نسقيك من ذلك العسل ؟ فقال : لا حاجة لي به ، قالت عائشة رضي الله عنها : تقول سَوْدة حين بلغها امتناعه : والله لقد حرمناه ، قلت لها : اسكتي (١) .

والقول الأَول – أَن الآية نزلت بسبب مارية – أَصحُّ وأَوضح ، وعليه تفقَّه الناسُ في الآية ، ومتى حرَّم الرجل مالًا أَوْ جاريةً دون

---

(١) أخرجه ابن سعد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن عائشة رضي الله عنها ، وأخرج مثله ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما . قال القرطبي : «وهو أصحُّ الأقوال» ، وقال ابن كثير : «والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسَل كما في البخاري عند هذه الآية» ، ثم ساق كلام البخاري ، وذكر بعد ذلك أن مُسْلِماً روى هذا الحديث في كتاب الطلاق . ومعنى (جَرَسَتْ نَحْلُه العُرْفُط) : رَعَتْ نحلُه شجر العُرْفُط الذي صمغه المغافير ، فلهذا ظهر ريحُه في العَسَل الذي شرِبْتَه يا رسول الله ، والجَرْسُ هو الأكل ، والمغافير : بَقْلة أو صمغة متغيرة الرائحة ، فيها حلاوة ، والعُرْفُط : نبتٌ له ريحٌ كريح الخمر .

أَن يعتق أَو يشترط عتقاً أَو نحو ذلك فليس تحريمه بشيءٍ ، واختلف العلماءُ إذا حرَّم زوجته بأَن يقول : «أَنتِ عليَّ حرامٌ» أَو : «الحلالُ عليَّ حرام» ، ولا يستثني زوجته ـ فقال مالك : هي ثلاث في المدخول بها ، وينوي في غير المدخول بها ، فهو ما أَراد من واحدة أَو اثنتين أَو ثلاث ، وقال عبد الملك بن الماجشون : هي ثلاث في الوجهين ، ولا ينوي في شيءٍ ، وقال أَبو المصعب وغيره ـ ورواه ابن خُوَيْز منداد عن مالك ـ : إنَّها واحدة بائنة في المدخول بها ، ورُوي عن عبد العزيز بن الماجشون أَنه قال : يحملها على واحدة رجعية ، وقال غير واحد من أَهل العلم : التحريم لاشيءَ ، وإنما عاتب اللهُ رسوله صلى الله عليه وسلم فيه ودَلَّه على تَحِلَّة اليمين المبينة في المائدة لقوله : (قد حرَّمتها ووالله لا أَطؤها أَبداً) ، وقال مسروق : ما أُبالي أَحرَّمتها أَو قصعة من ثريد ، وكذلك قال الشعبي : «ليس التحريم بشيءٍ ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾(١) ، وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾(٢) ، ومُحَرِّم زوجته قد سمَّى حراماً ما جعله الله حلالا ، وحرَّم ما أَحلَّ

---

(١) من الآية (١١٦) من سورة (النحل) .

(٢) من الآية (٨٧) من سورة (المائدة) .

الله له» . وقال أَبو بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وعائشة ، وابن المسيَّب ، وعطاءٌ ، وطاوس ، وسليمان ابن يسار ، وابن جُبَيْر ، وقتادة ، وأَبو ثور الأَوزاعي ، والحسن ، وجماعة : التحريم يلزم فيه تكفير يمين بالله تعالى ، والتَّحِلَّة إنما هي من أَجل التحريم ، ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : «والله لا أَطؤها» ، وقال أَبو قلابة : «التحريم ظهار» ، وقال أَبو حنيفة ، وسفيان ، والكوفيون : «هو ما أَراد من الطلاق ، فإن لم يرد بذلك طلاقاً فهو لا شيءَ» ، وقال آخرون : «هو ما أَراد من الطلاق ، فإن لم يُرد طلاقاً فهي يمين» .

ودعا الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم باسم النُّبوة الذي هو دال على شرف منزلته وعلى فضيلته التي خَصَّه بها دون البشر وقدَّره ، كالمعاتب على سبب تحريمه على نفسه ما أَحلَّ الله تعالى له .

وقوله تعالى : ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ﴾ جملة في موضع الحال من الضمير الذي في [تُحَرِّمُ] ، و «المَرْضَاةُ» مصدر كالرِّضَى ، ثم غفر له تعالى ما عاتبه فيه ورَحِمَه .

وقوله تعالى : ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ أَي : بَيَّن وأَثْبت ، وقال قوم من أَهل العلم : هذه إشارة إلى تكفير التحريم ، وقال آخرون : هي

إشارة إلى تكفير اليمين المقترنة بالتحريم . و «التَّحِلَّةُ» مصدر ، وَزْنها «تَفْعِلَة» ، وادغم لاجتماع المثلين ، وأَحال في هذه الآية على الآية التي فسَّر فيها الإِطعام في كفَّارة اليمين بالله تعالى ، و «المَوْلَى» : المُوَالي النَّاصرُ العاضِدُ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ ﴾ الآية معناه : اذكر يا محمد ذلك على وجه التأْنيب والعتب لهن ، وقال الجمهور : «الحديث» هو قوله صلى الله عليه وسلم في أَمْر مارية ، وقال آخرون : إنما هو قوله عليه الصلاة والسلام : إنما شربتُ عسلًا ، و «بَعْضُ أَزْوَاجِهِ» هي حَفْصة رضي الله عنها ، و [نَبَّأَتْ] معناه : أَخبرت ، وهذه قراءَة الجمهور ، وقرأَ طلحة : [أَنْبَأَتْ] ، وكان إخبارها لعائشة رضي الله عنها ، وهذا ونحوه هو التظاهر الذي عوتبتا فيه ، وقال ميمون بن مهران : الحديث الذي أَسرَّ إلى حفصة أَنه قال لها : وأَبشري بأَن أَبا بكر وعمر يملكان أَمر أُمتي من بعدي خلافةً ، وتعدَّت «نَبَّأَ» في هذه الآية مرة إلى مفعولين ومرة إلى واحد لأَن ذلك يجوز في أَنبأَ ونبَّأَ إذا كان دخولهما على غير الابتداءِ والخبر ، فمتى دخلت على الجملة تعدَّت إلى ثلاثة مفعولين ، ولا يجوز الاقتصار ، وقوله سبحانه : ﴿ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أَي أَطلعه .

وقرأ الكسائي وحده ، وأبو عبد الرحمن ، وطلحة ، والحسن ، وقتادة : [عَرَفَ] بتخفيف الراء ، وقرأ الباقون وجمهور الناس : [عَرَّفَ] بشدها ، والمعنى في اللفظة مع التخفيف : جاري بالعَتْب واللوم ، كما تقول لإنسان يؤذيك : قد عرفتُ لك هذا ، ولأعرفنَّ لك هذا ، بمعنى : لأُجازينَّك عليه ، ونحوه في المعنى قوله تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾(١) فعِلْم الله تعالى زعيم بمجازاتهم ، وكذلك معرفة النبي صلى الله عليه وسلم ، والمعنى مع الشَّدِّ في الرَّاءِ : أَعلم به وأَبَتَّ عليه ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ أَي تكرُّماً وحياءً وحُسْن عِشْرة ، قال الحسن : ما استقصى كريم قط ، وروي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلَّق حينئذ حفصة رضي الله عنها ، ثم إن الله تعالى أَمره بمراجعتها ، ورُوي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاتبها ولم يطلِّقها ، فلما أَخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخبر وأَنها أَفشته إلى عائشة ظنت أَن عائشة فضحتها ، فقالت : «من أَنبَأَكَ هذا» ؟ على جهة التثبُّت ، فلما أَخبرها أَن الله تعالى أَخبره سكتت وسلمت .

---

(١) من الآية (٦٣) من سورة (النساء) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾

المخاطبة بقوله تعالى : ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى ٱللَّهِ﴾ هي لحفصة وعائشة رضي الله عنهما ، وفي حديث البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قلتُ لعمر : من اللتان تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : حفصة وعائشة ، وقوله تعالى : ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ معناه : مالت عن المَعْدَلة والصواب ، والصَّغَا : المَيْلُ ، ومنه صاغية الرجل ، وهم حواشيه الذين يميلون إليه ، ومنه : أَصْغَى إليه بسمعه ، وأَصْغَى الإناءُ ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : « فقد زاغت قُلُوبُكُمَا » ، والزَّيْغُ : المَيْل ، وعُرْفه في خلاف الحق ، قال مجاهد : كنا نرى « صَغَتْ » شيئاً هيناً حتى سمعنا قراءة ابن مسعود : « زاغت » ، وجمع القلوب من حيث الاثنان جَمْعٌ ، ومن حيث لا لَبْس

في اللفظ ، وهذا نظير قول الشاعر :

. . . . ظَهْرَاهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ التُّرْسَيْنِ (١)

ومعنى الآية : إنْ تُبْتما فقد كان منكما ما ينبغي أَن يُتاب منه ، وهذا الجواب الذي هو للشرط هو متقدم في المعنى ، وإنما ترتَّب جواباً في اللفظ ، و ﴿إنْ تَظَاهَرَا﴾ معناه : تتعاونا ، فأُدغمت التاءُ في الظاءِ بعد البدل ، وقرأَ عكرمة مولى ابن عباس بتاءَين على الأَصل ، وقرأَ الكوفيون ، وطلحة ، وأَبو رجاءٍ ، والحسن بتخفيف الظاءِ على حذف التاءِ الواحدة ، ورُوي عن أَبي عمرو أَنه قرأَ بتشديد الظاءِ والهاءِ

(١) هذا البيت من رجز الشاعر الإسلامي الخطام المجاشعي ، يقول :

وَمَهْمَهٍ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ ظَهْرَاهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ التُّرْسَيْنْ

والمَهْمَه : القَفْر المخوف ، والقَذَفُ – بفتح القاف والذال وقد تكونان بالضم – هو البعيد من الأرض ، وفي رواية فَدْفَدَيْن ، والفدفد : الأرض المستوية ، والمَرْتُ – بفتح الميم وسكون الراء بعدهما تاءٌ – هو الأرض التي لا ماء فيها ولا نبات ، والظَّهْر : ما ارتفع من الأرض ، وهو يستشهد بالبيت على جواز معاملة المثنى على أنه جمع ، والعرب يقولون : أقلُّ الجمع اثنان ؟ لأن التثنية جمع شيءٍ إلى مثله ، قال سيبويه : سألت الخليل عن قوله « ما أحسن وجوههما » ؟ فقال : الاثنان جماعة ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ ، وقال الزجاج نقلا عن بعض النحويين : إنما جُعلت تثنيةُ ما في الإنسان منه واحد . جَمْعاً ؛ لأن أكثر أعضائه فيه منها اثنان ، فحمل ما كان فيه الواحد على مثال ذلك .

دون ألف ، و «الْمَوْلَى» : الناصر والمعين . وقوله تعالى : ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على اسم الله تعالى في قوله : [هُوَ] ، فيكون ﴿جِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الولاية ، ويحتمل أن يكون [جِبْرِيلُ] رفعاً بالابتداء وما بعده عطف عليه و [ظَهِيرٌ] الخبر ، فيكونون حينئذ من الظهر لا في الولاية ، ويختص بأنه مولى الله سبحانه وتعالى .

واختلف الناس في «صَالح المؤمنين» - فقال الطبري وغيره من العلماء : ذلك على العموم يدخل في ذلك كل صالح ، وقال الضحاك ، وابن جبير ، وعكرمة : المراد أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، رواه ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم(١) ، وقال مجاهد نحوه ، وقال أيضاً : وعليٌّ رضي الله عنه ، وروى عليٌّ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (صالح المؤمنين علي بن أبي طالب)(٢) ذكره الثعلبي ، وقال قتادة ، والعلاءُ بن زياد ، وغيرهما : هم الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام ، وإنما يترتب ذلك بأن تكون مظاهرتهم

---

(١) أخرجه ابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وأخرج مثله الطبراني في الأوسط ، وابن مردويه ، عن ابن عمر ، وابن عباس رضي الله عنهم . (الدر المنثور) .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف عن عليٍّ رضي الله عنه ، وأخرج مثله ابن مردويه عن أسماء بنت عُمَيْس . (الدر المنثور) .

بأنهم قدوة وأُسوة ، فهم عونٌ بهذا المعنى . وقوله تعالى : ﴿وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أَن يكون اسم جنس مفرد ، ويحتمل أَن يريد : «وصالحوا» فحذفت الواو في خط المصحف كما حذفوها في قوله تعالى : ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾(١) وغير ذلك .

ويروى عن أَنس بن مالك رضي الله عنه أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، لا تكترث بأَمر نسائك ، والله معك وجبريل معك وأَبو بكر معك وأَنا معك ، فنزلت الآية موافقة نحواً من قول عمر(٢) . ، قال المهدوي : رُوي أَن هذه الآية نزلت على لسان عمر رضي الله عنه ، وكذلك روي أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم : «عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقكُن أَن يُبَدِّله أَزواجاً خيراً منكن» ، فنزلت الآية على نحو قوله(٣) ، وقال عمر رضي الله عنه : قالت لي أُم سلمة : «يا بْن الخطاب أَدخلتَ نفسك في كل شيءٍ حتى دخلتَ بين الرسول

(١) الآية (١٨) من سورة (العلق) .

(٢) رواه البخاري ، عن أنس رضي الله عنه ، كذلك رواه ابن أبي حاتم عنه . (الدر المنثور) .

(٣) جاء هذا في حديث طويل رواه مسلم في صحيحه ، وأخرجه عبد بن حميد ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما .

صلى الله عليه وسلم وبين نسائه » ، فأَخذتني أَخْذاً كسرتني به ، وقالت لي زينب بنت جحش : يا عمر : أَما يقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أَن يعظ نساءه حتى تعظهن أَنت ؟

وقرأَ الجمهور : [طَلَّقَكُنَّ] بفتح القاف وإظهارها ، وقرأَ أَبو عمرو – في رواية عباس عنه – بإدغامها في الكاف وشدها ، قال أَبو علي : وإدغام القاف في الكاف حَسَن ، وقرأَ ابن كثير ، وابن عامر ، والكوفيون ، والحسن ، وأَبو رجاءٍ ، وابن محيصن : ﴿أَنْ يُبْدِلَهُ﴾ بسكون الباءِ وتخفيف الدال ، وقرأَ نافع ، وأَبو عمرو ، والأَعرج ، وأَبو جعفر : ﴿أَنْ يُبَدِّلَهُ﴾ بفتح الباءِ وشدِّ الدال ، وهذه لغة القرآن في هذا الفعل .

وكرر تعالى الصفات مبالغة وإن كان بعضها يتضمن بعضا ، فالإسلام إشارة إلى التصديق والعمل ، والإِيمانُ تخصيص وتنبيه على شرف وقعه ، و «قانتاتٌ» معناه : مطيعات ، و «السَّائحات» قيل : معناه : صائمات ، قاله أَبو هريرة ، وابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، وذكر الزجاج أَن النبي صلى الله عليه وسلم قاله ، وقيل : معناه : مهاجرات ، قاله زيد بن أَسلم ، وقال ابن زيد : ليس في الإسلام سياحة إلَّا الهجرة ، وقيل : معناه : ذاهبات في طاعة الله تعالى ، وشبه

الصائم بالسائح من حيث ينهمك السائح ولا ينظر في زاد ولا مطعم ، وكذلك الصائم يمسك عن ذلك فيستوي هو والسائح في الامتناع وشظف العيش بفقد الطعام ، وقوله تعالى : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ تقسيم لكل واحدة من الصفات المتقدمة ، وليست هذه الواو مما يمكن أن يقال فيها : واو الثمانية ؛ لأنها ها هنا ضرورية ولو سقطت لاختلَّ المعنى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ﴾ معناه : اجعلوا وقاية بينكم وبين النار ، وقد تقدم غير مرة تعليل اللفظة ، وقوله تعالى : [وَأَهْلِيكُمْ]

معناه : بالوصية لهم والتقديم والحمل على طاعة الله تعالى ، وفي حديث (لا تزني فيزني أهلك) ، وفي حديث آخر (رحم الله رجلا قال : يا أهلاه ، صلاتَكُم ، صيامَكُم ، مِسْكِينَكُم ، يَتِيمَكُمْ)(١) ، وقرأ الجمهور : [وَقُودُهَا] بفتح الواو ، وقرأ مجاهد ، والحسن ، وطلحة ، وعيسى ، والفياض بن غزوان ، وأبو حيوة بضمها ، وقيل : هما بمعنى ، وقيل : الضم مصدر والفتح اسم ، ويروى أن الحجارة هي حجارة الكبريت ، وقد تقدم في البقرة ، ويروى أنها جميع أنواع الحجارة ، وفي بعض الحديث أن عيسى بن مريم عليه السلام سمع أنيناً بفلاة من الأَرض ، فتتَّبعه حتى بلغ إلى حجر يَئِنُّ ويحزن ، فقال له : مالك أَيُّها الحجر ؟ قال : يا روح الله إني سمعت الله تعالى يقول : ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فخفت أن أكون من تلك الحجارة ، فعجب منه عيسى عليه السلام وانصرف ، ويشبه أن يكون هذا المعنى

---

(١) لم أقف على هذا الحديث والذي قبله ، والحديث الواضح في معنى الآية هو الذي رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، من حديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مُرُوا الصبيَّ بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها)، وهذا لفظ أبي داود ، ومثله في معنى الآية ما أخرجه ابن مردويه ، عن زيد ابن أسلم ، قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ ، قالوا : يا رسول الله كيف نقي أهلنا ناراً ؟ قال : تأمرونهم بما يحبه الله وتنهَوْنَهم عمَّا يكره الله) .

في التوراة أَو في الإِنجيل ، فذلك الذي سمع الحجر إِذا عُبِّر عنه بالعربية كان هذا اللفظ .

ووصْف الملائكة بالغلظة معناه في القلوب والبطش الشديد والفظاظة ، كما قال تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(١) ، و «الشِّدَّةُ» : القوَّة ، وقيل : المراد شدَّتهم على الكفَّار فهي بمعنى الغلظة . ثم وصفهم تعالى بالطواعية لربهم ، وكرَّر المعنى تأْكيداً بقوله سبحانه : ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ما يقتضي أَنهم يدخلون الكفار النَّار بجد واختيار ويغلظون عليهم ، فكأَنه قال بعد تقرير هذا المعنى : فيقال للكفار : «لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ» ، أَي أَن المعذرة لا تنفعكم ، وإِنما تجزون بأَعمالكم ، فلا تلوموا إِلَّا أَنفسكم .

ثم أَمر عباده بالتوبة ، والتوبةُ فرض على كل مسلم ، و «تاب» معناه : رجع ، فتوبة العبد رجوعه من المعصية إِلى الطاعة ، وتوبة الله تعالى على العبد إِظهار صلاحه ونعمته عليه في الهداية للطاعة ، وقبول توبة الكافر يُقطع على الله تعالى بها إِجماعاً من الأُمة ، واختلف الناس

(١) من الآية (١٥٩) من سورة (آل عمران) .

في توبة العاصي ـ فجمهور أهل السُّنَّة على أنه لا يُقطع بقبولها ولا ذلك على الله تعالى بواجب ، والدليل على ذلك دعاءُ كل أحد من التائبين في قبول التوبة ، ولو كان مقطوعاً بها لما كان للدعاءِ معنًى في قبولها ، وظواهر القرآن في ذلك هي كلها بمعنى المشيئة ، وروي عن الحسن الأشعري أنه قال : التوبة إذا توافرت شروطها قطع على الله تعالى بقبولها لأنه أخبر بذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تمسُّك بظواهر القرآن ، وعلى هذا القول أطبقت المعتزلة ، والتوبة : الندم على فارط معصية ، والعزم على ترك مثلها في المستقبل ، هذا من المتمكن ، وأما غير المتمكن كالمجبوب في الزنى فالندم وحده يكفيه ، والتوبة عبادة كالصلاة وغيرها ، فإذا تاب العبد وحصلت توبته بشروطها وقبلت ثم عاود الذنب فتوبته الأُولى لا تفسدها عودة ، بل هي كسائر ما يحصل من العبادات .

و «النَّصُوحُ» بناءُ مبالغة من النُّصح ، أي توبة نصحت صاحبها وأرشدته ، وقرأ الجمهور : [نَصُوحاً] بفتح النون ، وقرأ أبو بكر عن عاصم ، وخارجة عن نافع ، والحسن ، والأعرج ، وعيسى : [نُصُوحاً] بضم النون ، وهو مصدر ، يقال : نصح يَنْصَح نصَاحةً

ونُصُوحاً ، قاله الزجاج ، فوصف التوبة بالمصدر كالعدل والزور ونحوه ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : التوبة النَّصوحُ هي أن يتوب ثم لا يعود ولا يريد أن يعود ، وقال أبو بكر الوراق : هي أن تضيق عليك الأرض بما رحبت كتوبة الذين خُلِّفوا .

وقوله تعالى : ﴿عَسَى رَبُّكُمْ﴾ الآية ترجية ، وقد رُوي أن «عَسَى» من الله تعالى واجبة ، والعامل في [يَوْمَ] هو [يُدْخِلُكُمْ]، ورُوي في معنى قوله تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ أن محمداً صلى الله عليه وسلم تضرَّع في أمر أُمَّته فأوحى الله تعالى إليه : إن شئت جعلتُ حسابهم إليك ، فقال : يا ربِّ أنت أرحم بهم ، فقال الله تعالى : إذاً لا أُخزيك فيهم ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ ، والخِزْيُ المكروهُ الذي يترك الإنسان حيران خجلًا مهموماً بأن يرى نقصه أو سوءَ منزلته .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على [ٱلنَّبِـيِّ] فيخرج المؤمنون من الخزي ، ويحتمل أن يكون ابتداءً ، و ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى﴾ جملة هي خبره ، ويبقى النبي صلى الله عليه وسلم مخصوصاً مُفضلًا بأنه لا يَخزى ، وقد تقدم القول في نظير قوله

تعالى : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ ، وقرأ سهل بن سعد : [بِإِيْمَانِهِمْ] بكسر الهمزة . وقولهم : ﴿ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ قال الحسن ابن أبي الحسن : هو عندما يرون من انطفاءِ نور المنافقين حسب ما تقدم تفسيره ، وقيل : يقوله من أُعطي من النور بقدر ما يرى من موضع قدميه فقط .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

هذه الآية تأْكيد لأَمر الجهاد وفرضه المتقدم ، والمعنى : دُمْ على جهاد الكافرين بالسيف ، وجاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم ، وضربهم في كل جرائمهم وعند قوة الظن بهم ، ولم يعين الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم منافقاً يقع القطع بنفاقه ؛ لأَن التشهد الذي كانوا يُظهرون كان مُلْبساً لأَمرهم ، مُشبهاً لهم بالعصاة من

الأُمة ، و «الغِلْظَةُ عليهم» هي فظاظة القلب والانتهار وقلة الرفق بهم ، وقرأ الضحاك : [وَأَغْلِظْ] بكسر اللام وقطع الألف .

وهذان المثلان اللَّذان للكفار والمؤمنين معناهما أَن من كفر لا يُغني عنه من الله شيءٌ ، ولا ينفعه وَزَرٌ(١) ولو كان متعلقاً بأَقوى الأَسباب ، وأَن من آمن لا يدفعه دافع عن رضوان الله تعالى ولو كان في أَسوإِ منشإٍ وأَخَسِّ حال ، وقال بعض الناس: إن في المثلين عبرة لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم حين تقدم عتابُهُنَّ ، وفي هذا بُعْد لأَن النَّص أَنه للكفار يُبعد هذا .

واختلف الناس في خيانة هاتين المرأتين ـ فقال ابن عباس وغيره : خانتا في الكفر ، وفي أَن امرأة نوح كانت تقول للناس : إنه مجنون ، وأَن امرأة لوط كانت تقول لقومه متى ورد ضيف،فتخبر به ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : وما بغت زوجة نبي قط ولا ابتُلي الأَنبياءُ عليهم الصلاة والسلام في نسائهم بهذا ، وقال الحسن ـ في كتاب النقاش ـ : خانتاهما بالكفر والزنى وغيره ، وقرأ الجمهور : [يُغْنِيَا] بالياء ، وقرأ بشر بن عبيد : [تُغْنِيَا] بالتاء من فوق .

(١) الوَزَر : الملجأُ والمُعْتَصَم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

امرأة فرعون اسمها «آسية» ، وقولها : [وَعَمَلِهِ] معناه : وكُفْره وما هو عليه من الضلالة ، هذا قول كافة المفسِّرين ، وقال جمهور من المفسِّرين : معناه : من ظلمه وعقابه وتعذيبه لي ، ورُوي في هذا أن فرعون اتَّصل به إيمانها بموسى عليه السلام ، وأَنها تحب أن تغلب ، فبعث إليها قوماً فقال : إن رأَيتم منها ذلك فابطحوها في الأَرض ، وَوَتِّدُوا يديها ورجليها ، وأَلقوا عليها أَعظم حجر ، وإن لم تروا ذلك فهي امرأَتي ، قال : فذهب القوم ، فلما أَحسَّت الشَّرَّ منهم دعت بهذه الدعوات ؛ فقبض الله تعالى روحها ، ووضع أُولئك الحجر بشخص لا روح فيه ، ورُوي غير هذا مما يطول فاختصرته لعدم صحته . وقال آخرون - في كتاب النقاش - : [وَعَمَله] كناية عن الوطء والمضاجعة ، وهذا ضعيف .

واختلف الناس في الفرج التي أحصنت مريم عليها السلام - فقال الجمهور: هو فرج الدِّرْع الذي كان عليها ، وأنها كانت صبيَّة ، وأن جبريل عليه السلام نفخ فيه الروح من جيب الدِّرع ، وقال قوم: هو الفرج الجارحة ، ولفظة [أَحْصَنَتْ] - إذا كان فرج الجارحة - متمكنة حقيقة ، والإحصانُ : صَوْنُه ، وهي فيه مستعملة ، وإذا قدرناه فرج الدِّرْع فلفظة [أَحْصَنَتْ] مستعارة من حيث أَحصنته وصانته ومن حيث سار مسلكاً لولدها .

وقوله تعالى : [فَنَفَخْنَا] عبارة عن فعل جبريل عليه السلام ، ونَفْخ جبريل عليه السلام حقيقة ، وإن ذهب ذاهب إلى أن النَّفْخ فعل الله تعالى ، فهو عبارة عن خلقه واختراعه الولد في بطنها ، وشبه ذلك بالنفخ الذي من شأْنه أن يُسير الشيء برفق ولطف . وقوله تعالى : ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ إضافة مخلوق إلى خالق ، ومملوك إلى مالك ، كما تقول : بَيْتُ الله ، وناقة الله ، كذلك الروح والجنس كله هو روح الله .

وقرأ الجمهور : [وَصَدَّقَتْ] بشدِّ الدال ، وقرأ أبو مجلز بتخفيفها ، وقرأ جمهور الناس : [بِكَلِمَاتِ] على الجمع ، وقرأ الجحدري : [بِكَلِمَة] على الإفراد ، فأما الإفراد فيُقَوِّي أَنْ يريد أمر عيسى عليه السلام ، ويحتمل أن يريد اسم جنس وهو التوراة ، ومن قرأ بالجمع

فَيُقَوِّي أنه يريد التوراة ، ويحتمل أن يريد أمر عيسى عليه السلام . وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، ونافع : [وَكِتَابِهِ] على التوحيد ، وقرأ أبو عمرو ، وحفص عن عاصم ، وخارجة عن نافع : [وَكُتُبِهِ] بضم التاء على الجمع ، وقرأ أبو رجاء بسكون التاء : [وَكُتْبِهِ] ، وذلك كله مُراد به التوراة والإنجيـــــل .

و «الْقَانِتُونَ» : العابدون ، والمعنى : كانت من القوم القانتين في عبادتها وحال دينها .

❁ ❁ ❁

كمل تفسير سورة التحريم ، وبها كمل تفسير الجزء الرابع عشر

والحمد لله ربِّ العالمين

انتهى الجــزءُ الرابع عشر بعــون الله وتوفيقه ، والحمد لله ربِّ العالمين ، ويليه الجزءُ الخامس عشر بمشيئة الله تعالى وتوفيقه ويبدأُ بقوله تبارك وتعالى :

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيم : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

فهرس الآيات

الآيـــة	رقم الصفحة
تفســير ســورة (الذاريات)	١
قوله عزّ وجلّ : (والذّاريات ذَرواً ، فالحاملات وِقراً ، فالجاريات يُسراً ، فالمقسِمات أمراً) إلى آخر الآية ١٦	١
قوله عزّ وجلّ : (كانوا قليلا من الليل ما يَهْجَعون ، وبالأسحار هم يستغفرون) إلى آخر الآية ٢٦	١٢
قوله عزّ وجلّ : (فقرّبه إليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخَف وبشّروه بغلامٍ عليم) إلى آخر الآية ٣٦	٢٥
قوله عزّ وجلّ : (وتركنا فيها آيةً للذين يخافون العذاب الأليم ، وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين) إلى آخر الآية ٤٤	٣٠
قوله عزّ وجلّ : (فما استطاعوا مِن قيام وماكانوا منتصرين ، وقوم نوح مِن قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين) إلى آخر الآية ٥٢	٣٥
قوله عزّ وجلّ : (أتواصوْا به بل هم قوم طاغون ، فتولّ عنهم فما أنت بملوم ، وذكّر فإنّ الذّكرى تنفعُ المؤمنين) إلى آخر الآية ٦٠	٣٨
تفســير ســورة (الطور)	٤٦
قوله عزّ وجلّ : (والطّور ، وكتابٍ مسطور ، في رَقٍّ منشور ، والبيتِ المعمور ، والسّقفِ المرفوع) إلى آخر الآية ١٤	٤٦

الآيـــة	رقم الصفحة

قوله عز وجلّ : (أفسِحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواءٌ عليكم إنما تُجْزَوْن ما كنتم تعملون) إلى آخر الآية ٢٠ ... ٥٤

قوله عزّ وجلّ : (والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرّيتهم وما ألتناهم من عملهم مِن شيءٍ كل امرئٍ بما كسب رهين) إلى آخر الآية ٢٨ ... ... ٥٧

قوله عزّ وجلّ : (فذكِّر فما أنت بنعمة ربِّك بكاهن ولا مجنون) إلى آخر الآية ٣٦ ... ... ٦٥

قوله عزّ وجلّ : (أم عندهم خـزائن ربِّك أم هم المصيطـرون) إلى آخر الآية ٤٤ ... ... ٧١

قوله عزّ وجلّ : (فذرهم حتى يُلاقوا يومهم الذي فيه يُصعقون ، يوم لا يُغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم يُنصرون) إلى آخر الآية ٤٩ ... ... ٧٤

تفسـير سـورة (النجم) ٧٩

قوله عزّ وجلّ : (والنَّجم إذا هوى ، ما ضلّ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحيٌ يوحى) إلى آخر الآية ١١ ... ... ٨٠

قوله عزّ وجلّ : (أفتمارونه على ما يَرى ، ولقد رآه نزلةً أُخرى ، عِند سِدرة المنتهى ، عِندها جنَّة المأوى) إلى آخر الآية ١٨ ... ... ٩٥

قوله عزّ وجلّ : (أفرأيتم اللاَّت والعُزّى ، ومَنَاة الثالثة الأُخرى ، ألكم الذّكر وله الأنثى ، تلك إذاً قِسمة ضيزى) إلى آخر الآية ٢٦ ... ... ١٠٠

الآيـــة	رقم الصفحة
قوله عزَّ وجلَّ : (إن ٱلذين لا يؤمنون بالآخرة لَيُسمُّون ٱلملائكة تسمية ٱلأنثى) إلى آخر الآية ٣١	١٠٧
قوله عزَّ وجلَّ : (ٱلذين يجتنبون كبائر ٱلإثم وٱلفواحش إلا ٱللَّمم إنَّ ربَّك واسع ٱلمغفرة) إلى آخر الآية ٣٨	١٠٩
قوله عزَّ وجلَّ : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يُجزاهُ ٱلجزاءَ ٱلأوفى) إلى آخر الآية ٥١	١٢٠
قوله عزَّ وجلَّ : (وقومَ نوح مِن قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، وٱلمؤتفكة أهوى ، فغشَّاها ما غشَّى ، فبأي آلاءِ ربِّك تتمارى) إلى آخر الآية ٦٢	١٣٠
تفسـير سـورة (القمر)	١٣٧
قوله عزَّ وجلَّ : (ٱقتربتِ ٱلسَّاعة وٱنشقَّ ٱلقمر) إلى آخر الآية ٨	١٣٨
قوله عزَّ وجلَّ : (كذَّبت قبلهم قومُ نوح فكذَّبوا عبدنا وقالوا مجنون وٱزدُجر) إلى آخر الآية ١٧	١٤٧
قوله عزَّ وجلَّ : (كذَّبت عادٌ فكيف كان عذابي ونُذُر) إلى آخر الآية ٢٦ ...	١٥٤
قوله عزَّ وجلَّ : (إنَّا مرسلوا ٱلناقة فِتنة لهم فارتقبهم وٱصطبر ، ونبِّئهم أن ٱلماءَ قِسمة بينهم كلُّ شِرْب مُحْتضَر) إلى آخر الآية ٣٥	١٦١
قوله عزَّ وجلَّ : (ولقد أنذرهم بطْشَتَنَا فتماروْا بالنُّذر ، ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونُذر) إلى آخر الآية ٤٤	١٦٥

الآيـــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (سيُهزمُ ٱلجمع ويولُّون ٱلدُّبر ، بلِ ٱلساعة موعدهم وٱلساعة أدهى وأمرُّ) إلى آخر الآية ٥٥	١٦٩
تفســير ســورة (الرحمن)	**١٧٧**
قوله عزّ وجلّ : (ٱلرحمن ، علّم ٱلقرآن ، خلق ٱلإنسان ، علّمه ٱلبيان) إلى آخر الآية ١٣	١٧٨
قوله عزّ وجلّ : (خلَق ٱلإنسان من صلصال كالفخّار ، وخلَق ٱلجان من مارجٍ من نار ، فبأيِّ آلاء ربّكما تكذّبان) إلى آخر الآية ١٨	١٨٨
قوله عزّ وجلّ : (مرَج ٱلبحريْن يلتقيان ، بينهما برزخٌ لا يبغيان ، فبأيِّ آلاء ربّكما تكذّبان) إلى آخر الآية ٢٨	١٩٠
قوله عزّ وجلّ : (يسألُه من في ٱلسموات وٱلأرض كل يوم هو في شأن ، فبأيِّ آلاء ربكما تكذّبان) إلى آخر الآية ٣٦	١٩٨
قوله عزّ وجلّ : (فإذا ٱنشقّت ٱلسماءُ فكانت وردة كالدّهان ، فبأيِّ آلاء ربّكما تكذّبان) إلى آخر الآية ٤٥	٢٠٦
قوله عزّ وجلّ : (ولِمن خاف مقام ربّه جنّتان ، فبأيِّ آلاء ربّكما تكذّبان) إلى آخر الآية ٥٧	٢٠٩
قوله عزّ وجلّ : (كأنهنّ ٱلياقوت وٱلمرجان ، فبأيِّ آلاء ربّكما تكذّبان) إلى آخر الآية ٦٩	٢١٤

رقم الصفحة	الآيـــة
٢١٧	قوله عزّ وجلّ : (فيهنّ خيرات حِسان ، فبأيّ آلاء ربِّكما تكذِّبان) إلى آخر الآية ٧٨ ... ...
٢٢٦	**تفســير ســورة (الواقعة) ... ...**
٢٢٧	قوله عزّ وجلّ : (إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة) إلى آخر الآية ١٢ ...
٢٣٥	قوله عزّ وجلّ : (ثُلَّة مِن الأوَّلين ، وقليل مِن الآخرين ، على سُرُرٍ موضونة ، مُتَّكئين عليها متقابلين) إلى آخر الآية ٢٦ ... ...
٢٤٤	قوله عزّ وجلّ : (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، في سِدر مخضودٍ ، وطلح منضود ، وظل ممدود) إلى آخر الآية ٤٠ ... ...
٢٥١	قوله عزّ وجلّ : (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، في سَموم وحميم ، وظل من يحموم) إلى آخر الآية ٥٠ ... ...
٢٥٥	قوله عزّ وجلّ : (ثمّ إنكم أيُّها الضالُّون المكذِّبون ، لآكلون مِن شجرٍ مِن زقُّوم ، فمالِئون منها البطون) إلى آخر الآية ٦٢ ... ...
٢٦٠	قوله عزّ وجلّ : (أفرأيتم ما تحرثون ، ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) إلى آخر الآية ٧٤ ... ...
٢٦٥	قوله عزّ وجلّ : (فلا أُقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقَسم لو تعلمون عظيم) إلى آخر الآية ٨٧ ... ...
٢٧٦	قوله عزّ وجلّ : (فأما إن كان مِن المقرَّبين ، فروحٌ وريْحان وجنَّة نعيم) إلى آخر الآية ٩٦ ... ...

الآيـــة	رقم الصفحة

تفسـيـر سـورة (الحديد) ٢٨٢

قوله عزّ وجلّ : (سبّح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له مُلْكُ السموات والأرض يُحيي ويميت وهو على كل شيء قدير) إلى آخر الآية ٤ ... ... ٢٨٣

قوله عزّ وجلّ : (له مُلْكُ السموات والأرض وإلى الله تُرجع الأمور ، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور) إلى آخر الآية ٩ ... ... ٢٨٧

قوله عزّ وجلّ : (وما لكم ألا تُنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض) إلى آخر الآية ١١ ... ... ٢٩١

قوله عزّ وجلّ : (يوم ترى المؤمنينَ والمؤمناتِ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بُشراكم اليوم جنّاتٌ تجري مِن تحتها الأنهارُ خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) إلى آخر الآية ١٤ ... ... ٢٩٨

قوله عزّ وجلّ : (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا مِن الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير) إلى آخر الآية ١٧ ... ... ٣٠٦

قوله عزّ وجلّ : (إنّ المُصَّدِّقينَ والمُصَّدِّقاتِ وأقرضوا الله قرضاً حسناً يُضاعفُ لهم ولهم أجرٌ كريم) إلى آخر الآية ١٩ ... ... ٣١١

قوله عزّ وجلّ : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لَعِبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد) إلى آخر الآية ٢٠ ... ... ٣١٥

الآيـــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (سابِقوا إلى مغفرةٍ مِن ربِّكم وجنةٍ عرضُها كعرض السماءِ والأرض أُعدّت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم) إلى آخر الآية ٢٣	٣١٨
قوله عزّ وجلّ : (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبُخل ومن يتولّ فإنّ الله هو الغنيُّ الحميد) إلى آخر الآية ٢٦	٣٢١
قوله عزّ وجلّ : (ثم قفّينا على آثارهم برُسُلِنا وقفّينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية) إلى آخر الآية ٢٨	٣٢٥
قوله عزّ وجلّ : (لِئَلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيءٍ مِن فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه مِن يشاءُ والله ذو الفضل العظيم) إلى آخر الآية ٢٩	٣٣٠
تفســير ســورة (المجادلة)	**٣٣٢**
قوله عزّ وجلّ : (قد سمِع الله قول التي تُجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) إلى آخر الآية ٢	٣٣٢
قوله عزّ وجلّ : (والذين يُظاهرون مِن نسائهم ثمّ يعودون لِما قالوا فتحرير رقبة مِن قبل أن يتماسّا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير) إلى آخر الآية ٤	٣٣٧
قوله عزّ وجلّ : (إنّ الذين يُحادُّون الله ورسوله كُبِتوا كما كُبِت الذين مِن قبلهم وقد أنزلنا آيات بيِّنات وللكافرين عذاب مهين) إلى آخر الآية ٧	٣٤١

الآيـــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (ألم تَرَ إلى ٱلذين نُهُوا عن ٱلنَّجوى ثم يعودون لِما نُهُوا عنه ويتناجوْن بالإثم وٱلعدوان ومعصية ٱلرَّسول) إلى آخر الآية ٨	٣٤٤
قوله عزّ وجلّ : (يأَيُّها ٱلذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوْا بالإثم وٱلعدوان ومعصية ٱلرسول وتناجوْا بالبر وٱلتقوى وٱتقوا ٱلله ٱلذي إليه تُحشرون) إلى آخر الآية ١٠	٣٤٦
قوله عزّ وجلّ : (يأَيُّها ٱلذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا في ٱلمجالس فافسحوا يفسح ٱلله لكم) إلى آخر الآية ١٢	٣٤٩
قوله عزّ وجلّ : (ءَأشفقتم أن تُقدِّموا بين يديْ نجواكم صدقات فإذا لم تفعلوا وتاب ٱلله عليكم فأقيموا ٱلصلاة وآتوا ٱلزكاة وأطيعوا ٱلله ورسوله وٱلله خبير بما تعملون) إلى آخر الآية ١٦	٣٥٥
قوله عزّ وجلّ : (لن تُغني عنهم أموالهم ولا أولادهم مِن ٱلله شيئاً أولئك أصحاب ٱلنار هم فيها خالدون) إلى آخر الآية ٢١	٣٥٨
قوله عزّ وجلّ : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله وٱليوم ٱلآخر يُوادُّون مَن حادَّ ٱلله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتَهم) إلى آخر الآية ٢٢	٣٦٠
تفسـير سـورة (الحشر)	**٣٦٣**
قوله عزّ وجلّ : (سَبَّح لله ما في ٱلسموات وما في ٱلأرض وهو ٱلعزيز ٱلحكيم ، هو ٱلذي أخرج ٱلذين كفروا مِن أهل ٱلكتاب مِن ديارهم لأول ٱلحشر) إلى آخر الآية ٢	٣٦٤

رقم الصفحة	الآيــــة
٣٦٨	قوله عزَّ وجلَّ : (ولولا أن كتب ٱلله عليهم ٱلجلاء لعذَّبهم في ٱلدنيا ولهم في ٱلآخرة عذاب ٱلنار) إلى آخر الآية ٦ ... ...
٣٧٣	قوله عزَّ وجلَّ : (ما أفاء ٱلله على رسوله مِن أهل ٱلقرى فللّه وللرسول ولِذي ٱلقربى وٱليتامى وٱلمساكين وٱبن ٱلسبيل) إلى آخر الآية ٨ ... ...
٣٧٧	قوله عزَّ وجلَّ : (وٱلذين تبوَّءُوا ٱلدارَ وٱلإيمان مِن قبلهم يحبُّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة ممَّا أُوتوا ويؤثرون على أَنفسهم ولو كان بهم خَصَاصَة) إلى آخر الآية ١٠ ... ...
٣٨٣	قوله عزَّ وجلَّ : (أَلم تَرَ إلى ٱلذين نافقوا يقولون لإخوانهم ٱلذين كفروا مِن أَهل ٱلكتاب لَئِن أُخرِجتم لَنخرجنَّ معكم ولا نُطيع فيكم أَحداً أبداً) إلى آخر الآية ١٣ ... ...
٣٨٥	قوله عزَّ وجلَّ : (لا يُقاتِلونكم جميعاً إلا في قُرى محصنة أَو مِن وراء جُدُرٍ بأسُهُم بينهم شديد) إلى آخر الآية ١٧ ... ...
٣٨٩	قوله عزَّ وجلَّ : (يأَيُّها ٱلذين آمنوا ٱتقوا ٱلله ولْتنظر نفس ما قدَّمت لِغدٍ وٱتقوا ٱلله إن ٱلله خبير بما تعملون) إلى آخر الآية ٢١ ... ...
٣٩١	قوله عزَّ وجلَّ : (هو ٱلله ٱلذي لا إله إلا هو عالم ٱلغيب وٱلشهادة هو ٱلرحمن ٱلرحيم) إلى آخر الآية ٢٤ ... ...
٣٩٥	**تفســير ســورة (الممتحنة) ... ...**
٣٩٥	قوله عزَّ وجلَّ : (يأَيُّها ٱلذين آمنوا لا تتَّخذوا عدُوِّي وعدُوَّكم أَولياء تُلقون إليهم بالمودَّة وقد كفروا بما جاءَكم مِن ٱلحق) إلى آخر الآية ١ ...

رقم الصفحة | الآيـــة

قوله عزَّ وجلَّ : (إنَ يثْقفُوكم يكونوا لكم أعداءً ويبسُطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسُّوءِ وودُّوا لو تكفرون) إلى آخر الآية ٤ ... ... ٤٠٠

قوله عزَّ وجلَّ : (ربَّنا لا تجعلنا فِتنةً للذين كفروا وٱغفِر لنا ربَّنا إنك أنت ٱلعزيز ٱلحكيم) إلى آخر الآية ٧ ... ... ٤٠٤

قوله عزَّ وجلَّ : (لا ينهاكم ٱلله عن ٱلذين لم يُقاتلوكم في ٱلدين ولم يُخرجوكم مِن دياركم أَن تبرُّوهم وتُقسطوا إليهم إن ٱلله يحب ٱلمقسطين) إلى قوله عزَّ وجلَّ : (لا هنَّ حِلٌّ لهم ولا هم يَحِلُّون لهنَّ) من الآية ٩ ... ... ٤٠٦

قوله عزَّ وجلَّ : (وآتوهم ما أنفقوا ولا جُناح عليكم أن تنكِحوهن إذا آتيتموهن أُجورهن ولا تُمسِكوا بِعِصَم ٱلكوافر) إلى آخر الآية ١١ ... ... ٤٠٩

قوله عزَّ وجلَّ : (يأَيُّها ٱلنبي إذا جاءَك ٱلمؤمنات يُبايعنك على أن لا يُشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتُلن أَولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأَرجلهن ولا يعصينك في معروف) إلى آخر الآية ١٣ ... ... ٤١٤

تفسـير سـورة (الصف) **٤٢٣**

قوله عزَّ وجلَّ : (سَبَّح لله ما في ٱلسموات وما في ٱلأرض وهو ٱلعزيز ٱلحكيم ، يأَيُّها ٱلذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون) إلى آخر الآية ٥ ... ... ٤٢٣

قوله عزَّ وجلَّ : (وإذ قال عيسى ٱبن مريم يابني إسرائيل إني رسول ٱلله إليكم مُصدقاً لِما بين يديَّ مِن ٱلتوراة ومُبشِّراً برسول يأتي مِن بعدي ٱسمُه أحمد) إلى آخر الآية ٨ ... ... ٤٢٨

الآيــــة	رقم الصفحة

قوله عزَّ وجلَّ : (هوَ ٱلذي أَرسلَ رسُوله بالهدى ودينِ ٱلحقِّ لِيُظهره على ٱلدين كُلِّه ولو كرِه ٱلمُشرِكون) إلى آخر الآية ١٢ ... ... ٤٣٢

قوله عزَّ وجلَّ : (وأُخرى تُحبُّونها نصرٌ مِن ٱللهِ وفتحٌ قريبٌ وبشِّرِ ٱلمؤمنين) إلى آخر الآية ١٤ ... ... ٤٣٤

تفسير سورة (الجمعة) ٤٣٨

قوله عزَّ وجلَّ : (يُسبِّحُ للهِ ما في ٱلسمواتِ وما في ٱلأرضِ ٱلملِكُ ٱلقدُوس ٱلعزيزُ ٱلحكيم ، هو ٱلذي بعثَ في ٱلأميينَ رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلِّمهم ٱلكتابَ وٱلحكمة وإن كانوا مِن قبلُ لفي ضلالٍ مبين) إلى آخر الآية ٤ .. .. ٤٣٩

قوله عزَّ وجلَّ : (مثل ٱلذين حُمِّلوا ٱلتوراة ثم لم يحملوها كمثلِ ٱلحمارِ يحمل أسفاراً بئس مثَلُ ٱلقوم ٱلذين كذَّبوا بآياتِ ٱللهِ وٱللهُ لا يهدي ٱلقومَ ٱلظالمين) إلى آخر الآية ٨ ... ... ٤٤٢

قوله عزَّ وجلَّ : (يأَيُّها ٱلذين آمنوا إذا نوديَ للصلاةِ مِن يوم ٱلجمعة فاسعوْا إلى ذِكر ٱلله وذروا ٱلبيع ذلكم خير لكم إن كنتم [تعلمون) إلى] آخر الآية ١١ ... ... ٤٤٥

تفسير سورة (المنافقون) ٤٥٢

قوله عزَّ وجلَّ : (إذا جاءكَ ٱلمنافقونَ قالوا نشهدُ إنكَ لرسولُ ٱللهِ وٱللهُ يعلمُ إنك لرسوله وٱللهُ يشهدُ إن ٱلمنافقينَ لكاذبون) إلى آخر الآية ٤ .. ... ٤٥٣

الآيـــــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (وإذا قيلَ لهم تعالوْا يستغفِر لكم رسول ٱلله لَوَوْا رؤوسهم ورأيتَهم يصدُّون وهم مُستكبرون) إلى آخر الآية ٨	٤٥٨
قوله عزّ وجلّ : (يأيُّها ٱلذين آمنوا لا تُلْهِكم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذِكرِ ٱللهِ ومن يفعل ذلك فأُولئكَ همُ ٱلخاسرون) إلى آخر الآية ١١	٤٦٧
تفســير ســورة (التغابن)	٤٧١
قوله عزّ وجلّ : (يُسبِّحُ للهِ ما في ٱلسمواتِ وما في ٱلأرضِ لهُ ٱلمُلْك وله ٱلحمد وهو على كل شيءٍ قدير ، هو ٱلذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن وٱلله بما تعملون بصير) إلى آخر الآية ٤	٤٧٢
قوله عزّ وجلّ : (ألم يأتِكم نبأُ ٱلذين كفروا مِن قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم) إلى آخر الآية ٧	٤٧٦
قوله عزّ وجلّ : (فآمنوا بالله ورسوله وٱلنور ٱلذي أنزلنا وٱلله بما تعملون خبير) إلى آخر الآية ١١	٤٧٨
قوله عزّ وجلّ : (وأطيعوا ٱلله وأطيعوا ٱلرسول فإن تولّيتم فإنما على رسولنا ٱلبلاغُ ٱلمبين) إلى آخر الآية ١٥	٤٨١
قوله عزّ وجلّ : (فاتّقُوا ٱللهَ ما ٱستطعتُم وٱسمَعُوا وأطِيعُوا وأنفِقُوا خيراً لأنفُسِكم ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأُولئك هم ٱلمُفلِحون) إلى آخر الآية ١٨	٤٨٤

الآيـــة	رقم الصفحة
تفسـير سـورة (الطلاق)	٤٨٧
قوله عزّ وجلّ : (يأَيُّها ٱلنبي إذا طلَّقتم ٱلنساءَ فطلِّقوهُن لِعدَّتِهن وأَحصوا ٱلعِدَّة وٱتقوا ٱللهَ ربَّكم لا تخرِجُوهُن مِن بيُوتِهن ولا يخرجن إلا أن يأتينَ بفاحشة مبيِّنة) إلى آخر الآية ٣	٤٨٧
قوله عزّ وجلّ : (وٱللائي يئِسن مِن ٱلمحيض مِن نسائِكم إن ٱرتبتم فعِدَّتهن ثلاثة أَشهر وٱللائي لم يحضن وأُولات ٱلأحمال أَجلهن أَن يضعن حملهن) إلى آخر الآية ٧	٤٩٧
قوله عزّ وجلّ : (وكأَيِّن مِن قرية عتَت عن أَمرِ ربِّها ورسلِه فحاسبناها حِساباً شديداً وعذَّبناها عذاباً نُكْراً) إلى آخر الآية ١١	٥٠٣
قوله عزّ وجلّ : (ٱللهُ ٱلذي خلقَ سَبْعَ سموات ومِن ٱلأرضِ مِثلهنّ يتنزَّل ٱلأمر بينهنّ لِتعلموا أَنّ ٱلله على كل شيءٍ قدير) إلى آخر الآية ١٢ ...	٥٠٦
تفسـير سـورة (التحريم)	٥٠٩
قوله عزّ وجلّ : (يأَيُّها ٱلنبي لِمَ تحرِّم ما أَحلّ ٱللهُ لكَ تبتغي مرضاتَ أَزواجِكَ وٱلله غفور رحيم) إلى آخر الآية ٣	٥٠٩
قوله عزّ وجلّ : (إن تتُوبا إلى ٱللهِ فقد صَغَت قلُوبُكُما وإن تظاهرا عليه فإن ٱللهَ هو مولاهُ وجبريلُ وصالحُ المؤمنينَ والملائكة بعد ذلك ظهير) إلى آخر الآية ٥	٥١٧
قوله عزّ وجلّ : (يأَيُّها ٱلذين آمنوا قُوا أَنفُسَكُم وأَهلِيكُم ناراً وقودها ٱلناس وٱلحِجارة عليها ملائِكة غِلاظ شِداد لا يعصون ٱلله ما أَمرهم ويَفعَلُون ما يُؤمَرون) إلى آخر الآية ٨	٥٢٣

الآيـــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (يأَيُّها ٱلنبي جاهد ٱلكفَّار وٱلمنافقين وٱغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس ٱلمصير) إلى آخر الآية ١٠	٥٢٧
قوله عزّ وجلّ : (وضرب ٱلله مثلا للذين آمنوا ٱمرأَة فرعون إذْ قالت ربِّ ٱبن لي عندك بيتاً في ٱلجنة ونجني مِن فرعون وعمله ونجني من ٱلقوم ٱلظالمين) إلى آخر الآية ١٢	٥٢٩

رقم الايداع بدار الكتب القطرية
٩١/٣١٧

مؤسسة دار العلوم
للطباعة والنشر والتوزيع
الدوحة ــ قطر